الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع

الثمن ٣٣

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع

الثمن ٣٣

فهـــرس الجـــزء الرابع

تفســير ســورة « آل عمران »

صفحة

قوله تعالى : « الم الله لا إله إلا هو » الآية . وفيها خمس مسائل : ما يتعلق بـ« الم » من الأبحاث . فضل سورة آل عمران . تسمية البقرة وآل عمران بالزهراوين . حديث وفد نجران ١
قوله تعالى : « نزل عليك الكتاب بالحق ... » الآيات . الكلام على التوراة والإنجيل واشتقاقهما ٤
قوله تعالى : « إن الله لا يخفى عليه شيء ... » الآية ٦
قوله تعالى : « هو الذى يصوّركم فى الأرحام ... » الآية . وفيها مسألتان : كيفية التصوير فى الرحم . دليل وحدانيته تعالى ٧
قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ... » الآية . وفيها تسع مسائل : أقوال العلماء فى المحكم والمتشابه . الكلام على « أخر » . معنى الزيغ . بحث فى أقسام متبعى المتشابه وبيان أحكامهم . أقوال العلماء فى قوله تعالى : « والراسخون فى العلم » ٨
قوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا ... » الآية . وفيها مسألتان : الردّ على المعتزلة فى قولهم : إن الله لا يضل العباد . والرد على من قال : العلم ما وهبه الله ابتداء من غير كسب ١٩
قوله تعالى : « ربنا إنك جامع الناس ... » الآية ٢١
قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم ... » الآية ٢١
قوله تعالى : « كدأب آل فرعون ... » الآية ٢٢

صفحة

قوله تعالى : « قل للذين كفروا ستغلبون ... » الآية . وذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود عندما قدم المدينة ٢٤

قوله تعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين ... » الآية . والاختلاف فى معنى الرؤية ... ٢٤

قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات ... » الآية . وفيها إحدى عشرة مسألة : الاختلاف فيمن يزين لهم الشهوات . بيان فتنة النساء . ذكر الخلاف فى تقدير القنطار . بيان اشتقاق الذهب والفضة . الكلام على الخيل وفضلها . ذكر معنى السائمة والأنعام والحرث . متاع الإنسان فى الحياة الدنيا ٢٧

قوله تعالى : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » الآية ٣٧

قوله تعالى : « الذين يقولون ربنا إننا آمنا ... » الآيات . وذكر الخلاف فى معنى « والمستغفرين بالأسحار » . والكلام على الاستغفار ٣٨

قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ... » الآية . وفيها أربع مسائل : بيان ما كان حول الكعبة من الأصنام . فضل العلم وشرف العلماء . معنى شهادة الله ٤٠

قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام ... » الآية . والمراد بمعنى الدين والإسلام فى هذه الآية . بيان أن اختلاف أهل الكتاب كان على علم منهم بالحقائق ... ٤٣

قوله تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ... » الآية . وذكر معنى الوجه ٤٥

قوله تعالى : «إن الذين يكفرون بآيات الله و يقتلون ...» الآية.وفيها ست مسائل: كيف كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء والصالحين . وجه الاستدلال على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب قبل الرسالة . ما يشترط فى الناهى . الكلام على تغيير المنكر ٤٦

قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ... » الآية . وفيها ثلاث مسائل : سبب نزولها . بيان وجوب ارتفاع المدعو إلى الحاكم . شرائع من قبلنا شريعة لنا... ... ... ٤٩

صفحة
قوله تعالى : « ذلك بأنهم قالوا ... » الآيات ٥١
قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك ... » الآية والكلام فى فضلها . اختلاف النحويين فى « اللهم » ٥١
قوله تعالى : « تولج الليل فى النهار » الآية ٥٦
قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ... » الآية . وفيها مسألتان : نهى المؤمنين أن يتخذوا الكفار أولياء . بيان التقية ومتى تحل ٥٧
قوله تعالى : « قل إن تخفوا ما فى صدوركم ... » الآيات ٥٨
قوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ... » الآية معنى الحب ، و بيان محبة الله ٥٩
قوله تعالى : « قل أطيعوا الله والرسول ... » الآية ٦١
قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحا ... » الآية . بيان آل إبراهيم وآل عمران . ذكر نسب عمران . بيان ما اختاره الله لكل نبىّ ٦٢
قوله تعالى : « ذرية بعضها من بعض ... » الآية ٦٤
قوله تعالى : «إذ قالت امرأة عمران ...» الآيات . وفيها ثمان مسائل . نسب امرأة عمران واسمها . سبب نذرها . الكلام على نذر الولد . ذكر ما فى قوله تعالى « والله أعلم بما وضعت » من أوجه القراءات، وهل هو من قول الله تعالى ، أم قول امرأة عمران . بيان أن الذرية قد تقع على الولد خاصة . وأن الشيطان ينخس جميع ولد آدم ٦٤
قوله تعالى : « فتقبلها ربها بقبول حسن ... » الآيات معنى التقبل والإنبات ، كفالة زكريا لامرأة عمران . بيان اللغات التى فى زكريا . خبر حمل امرأة عمران . فى الآية دليل على طلب الولد ، وردّ على جهال المتصوفة . ما يجب على الإنسان نحو ولده وزوجه ٦٩

صفحة

قوله تعالى : « فنادته الملائكة وهو قائم ... » الآية . وبيان ما فيها من أوجه القراءات . معنى الكلمة والسيد والحصور ٧٤

قوله تعالى : « قال رب أنى يكون لى غلام ... » الآية . وبيان المراد بالرب هنا . معنى العقر والغلام ٧٩

قوله تعالى : « قال رب اجعل لى آية ... » الآية . وفيها ثلاث مسائل : بيان الآية التى طلبها زكريا عليه السلام . معنى الرمز . بيان أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ٨٠

قوله تعالى : « وإذ قالت الملائكة يا مريم ... » الآية . وبيان خير نساء العالم . ما جاء فى نبوة مريم ٨٢

قوله تعالى : « يامريم اقنتى لربك ... » الآية ٨٤

قوله تعالى : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه ... » الآية . وفيها أربع مسائل : معنى الإيحاء . استدلال العلماء بهذه الآية على إثبات القرعة ، وأن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدة ٨٥

قوله تعالى : « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك ... » الآية . وبيان اختلاف العلماء فى معنى المسيح واشتقاقه . معنى الكهل ، عدد من تكلم فى المهد ٨٨

قوله تعالى : « قالت رب أنى يكون لى ولد ... » الآية . وبيان كيفية خلق سيدنا عيسى عليه السلام ٩٢

قوله تعالى : «ويعلمه الكتاب والحكمة ... » الآيات . وبيان معنى الأكمه والأبرص . ما أتى به عيسى عليه السلام من المعجزات ٩٣

قوله تعالى : « ومصدقا لما بين يدى ... » الآية ٩٦

قوله تعالى : « فلما أحس عيسى منهم الكفر ... » الآيات . والكلام على الحواريين وسبب تسميتهم بذلك ٩٧

صفحة

قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله ... » الآية. القول فى تواطؤ اليهود على قتل سيدنا عيسى ٩٨

قوله تعالى : « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك و رافعك إلىّ ... » الآية . و بيان اختلاف العلماء فى معنى وفاة سيدنا عيسى عليه السلام ورفعه، بيان أن المصاب هو من ألقى عليه الشبه ٩٩

قوله تعالى : « فأما الذين كفروا ... » الآيات ١٠٢

قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ... » الآية . و بيان أنها نزلت بسبب وفد نجران حينما أنكروا على النبيّ عليه السلام قوله : "إن عيسى عبدالله وكلمته". ١٠٢

قوله تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك ... » الآية . وفيها ثلاث مسائل . الدليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء . معنى المباهلة ١٠٣

قوله تعالى : « إن هـذا لهو القصص الحق ... » الآيات ١٠٥

قوله تعالى : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ... » الآية . وفيها ثلاث مسائل . الخلاف فى هذه الآية هل هى خطاب لأهل نجران ، أم هى لليهود والنصارى جميعا . خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم ١٠٥

قوله تعالى : « يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ... » الآية . وسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينه ١٠٧

قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء حاججتم...» الآية. وفيها مسألتان: الكلام على « ها أنتم » و « هؤلاء » . المنع من الجدال لمن لا علم له ١٠٨

قوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهوديا ... » الآيات ١٠٩

قوله تعالى : « ودّت طائفة من أهل الكتاب ... » الآية . وأنها نزلت فى معاذ ابن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم ... ١١٠

قوله تعالى : « يأهل الكتاب لم تكفرون ... » الآيات ١١٠

صفحة

قوله تعالى : « وقالت طائفة من أهل الكتاب ... » الآية . نزلت فى كعب بن الأشرف
ومالك بن الصيف بسبب تلبيسهم على قومهم ، أو لتشكيك المسلمين ١١١
قوله تعالى : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ... » الآيات . وما يتعلق بها من
الأبحاث وأوجه الإعراب ١١٢
قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه ... » الآية . وفيها ثمان مسائل .
اختلاف العلماء فيمن نزلت . الاستدلال بها على ملازمة الغريم . فضل الأمانة .
الدليل على أن الكافر غير أهل لقبول شهادته ١١٥
قوله تعالى : « بلى من أوفى بعهده ... » الآية ١١٩
قوله تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية . وفيها مسألتان . بيان سبب
نزولها . حكم الحاكم لا يحل المال إذا علم المحكوم له بطلانه ١١٩
قوله تعالى : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم ... » الآية . وبيان معنى اللىّ ... ١٢٠
قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله ... » الآية . بيان المراد بالبشر هنا .
معنى الربانيين ١٢١
قوله تعالى : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة ... » الآية ١٢٣
قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ... » الآية . بيان ما يتعلق بها من أوجه
الإعراب . معنى أخذ الميثاق ١٢٤
قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون ... » الآيات . اختصام كعب بن الأشرف
وأصحابه مع النصارى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ١٢٧
قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا ... » الآية . نزلت فى ارتداد الحارث
ابن سويد عن الإسلام ١٢٨
قوله تعالى : « كيف يهدى الله قوما كفروا ... » الآيات . وبيان حكم من ارتدّ
عن الإسلام ١٢٩

صفحة
قوله تعالى : « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ... » الآية . وبيان الخلاف فيمن نزلت ١٣٠
قوله تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا ... » الآية ١٣١
قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا ... » الآية . وفيها مسألتان . فى الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه . الخلاف فى تأويل « البر » ١٣٢
قوله تعالى : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل... » الآيات . وفيها أربع مسائل . بيان ما حرّمه يعقوب على نفسه . الخلاف فى التحريم هل كان باجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى . شفاء عرق النسا ١٣٤
قوله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس ... » الآيات . وفيها خمس مسائل . الكلام على المسجد الحرام . بيان ما فيه من الآيات . حكم من دخله ١٣٧
قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت ... » الآية . وفيها تسع مسائل . بيان أن الحج يجب مرة فى العمر ، وأنه على التراخى لا على الفور . خروج الصغير والعبد من عموم الخطاب . أقوال العلماء فى معنى الاستطاعة . حكم من ترك الحج وهو قادر عليه ١٤٢
قوله تعالى : « قل يأهل الكتاب لم تكفرون ... » الآيات ١٥٤
قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا ... » الآيات . بيان ما كان بين الأوس والخزرج فى الجاهلية . معنى الاعتصام ١٥٥
قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ... » الآية . وفيها مسألة واحدة ١٥٧
قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ... » الآية . وفيها مسألتان . بيان المراد بالحبل ، انقسام الفرق الإسلامية ١٥٨
قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون ... » الآية ١٦٥
قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا ... » الآية ١٦٦

صفحة
قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه ... » الآيات . وفيها ثلاث مسائل . ١٦٦
قوله تعالى : « تلك آيات الله نتلوها ... » الآيات ١٦٩
قوله تعالى : « كنتم خير أمّة أخرجت للناس ... » الآية . وفيها ثلاث مسائل ... ١٧٠
قوله تعالى : « لن يضروكم إلا أذى ... » الآية ١٧٣
قوله تعالى : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ... » الآيات ١٧٤
قوله تعالى : « إنّ الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ... » الآية ١٧٧
قوله تعالى : « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ... » الآية ١٧٧
قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ... » الآية . وفيها ست مسائل .
تأكيد الزجر عن الركون إلى الكفار . شهادة العدوّ على عدوّه لا تجوز ١٧٨
قوله تعالى : « ها أنتم أولاء تحبونهم ... » الآية ١٨١
قوله تعالى : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم ... » الآية ١٨٣
قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك ... » الآية . والخلاف فى سبب نزولها ،
وهل هو غزوة أحد أو غزوة الخندق أو يوم بدر ١٨٤
قوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم ... » الآية . المراد بالطائفتين . شىء من
حديث غزوة أحد . رثاء حمزة رضى الله عنه . بيان التوكل والخلاف فى حقيقته ١٨٥
قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر ... » الآيات . وفيها ست مسائل . بيان
عدد غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم . والكلام على غزوة بدر .
إمداد المسلمين بالملائكة ، والدليل على اتخاذ العلامة للقبائل والكتاب عند الحرب ١٩٠
قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى لكم ... » الآيات ١٩٨
قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شىء ... » الآيات . وفيها ثلاث مسائل .
بيان سبب نزولها . اختلاف العلماء فى القنوت فى صلاة الفجر ١٩٩

صفحة

قوله تعالى : « يأيها الذين آمنـوا لا تأكلوا الربا ... » الآيات . ما كانوا يأتونه في الجاهلية من أنواع الربا ٢٠٢

قوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ... » الآية . وفيها مسألتان : أقوال العلماء في الجنة وعرضها وخلقها ٢٠٣

قوله تعالى : « الذين ينفقون في السراء ... » الآية . وفيها أربع مسائل : الكلام على كظم الغيظ ، والعفو والإحسان ٢٠٦

قوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة ... » الآية . وفيها سبع مسائل : الكلام على الفاحشة والاستغفار منها . الدليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب . بيان الذنوب التي يتاب منها، وهل هي حق لله تعالى أو حق لغيره ٢٠٩

قوله تعالى : « أولئك جزاؤهم مغفرة ... » الآيات ٢١٥

قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا ... » الآية . و بيان تسلية المسلمين على ما أصابهم من القتل والجراح يوم أحد ، وحثهم على قتال عدوهم ٢١٦

قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح ... » الآية . و بيان أن الأيام دول بين النـاس . الكلام على الشهيد... ... ... ٢١٧

قوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا ... » الآيات ٢١٩

قوله تعالى : « وما محمد إلا رسـول قد خلت ... » الآية . وفيهـا خمس مسائل : ذكر ما أصاب المسلمين يوم أحد عند ما بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتـل . تأخير دفن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لاشتغالهم بالخلاف الذي وقع في البيعة . الخلاف في الصلاة عليه . تغيير الحال بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٢١

قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ... » الآية . فيها حض على الجهاد ، و إعلام بأن الموت لابد منه ، وأن المقتول مقتول عنـد أجله . ورد على المعتزلة في أن الأجل يتقدم ويتأخر ٢٢٦

صفحة

قوله تعالى : « وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون ... » الآيات . الكلام على « كأين »
الخلاف فى معنى الربيين ٢٢٧

قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ... » الآيات . فيها تحذير
من طاعة الكافرين ٢٣٢

قوله تعالى : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ... » الآية . إيقاع الرعب فى قلوب
المشركين عند انصرافهم من أحد . ما تم للؤمنين من النصر والانهزام بسبب المخالفة ٢٣٢

قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده .. » الآية . خبر غزوة أحد ٢٣٣

قوله تعالى : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد... » الآية . الفرق بين الصعود والإصعاد ٢٣٩

قوله تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا ... » الآية ٢٤١

قوله تعالى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ... » الآية . والمراد بها من
تولى عن المشركين يوم أحد ٢٤٣

قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ... » الآية . والكلام
على « غزى » ٢٤٦

قوله تعالى : « ولئن قتلتم فى سبيل الله ... » الآيات ٢٤٧

قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ... » الآية . وفيها ثمان مسائل . بيان معنى
الاستشارة . الشورى من قواعد الشريعة . اختلاف العلماء فى المعنى الذى أمر
الله نبيه عليه السلام أن يشاور فيه أصحابه . ما يشترط فى المستشار . معنى العزم ٢٤٨

قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ... » الآية ٢٥٣

قوله تعالى : « وما كان لنبيّ أن يغل ... » الآية . وفيها إحدى عشر مسألة .
سبب نزول هذه الآية . معنى الغلول ، وأنه كبيرة من الكبائر . ما يفعل بالغال
يوم القيامة ٢٥٤

قوله تعالى : « أفمن اتبع رضوان الله ... » الآيات ٢٦٢

صفحة

قوله تعالى : « لقد منّ الله على المؤمنين ... » الآية . وبيان معنى المنة ٢٦٣

قوله تعالى : « أو لما أصابتكم مصيبة ... » الآية . وبيان أن ما أصاب المسلمين من الانهزام هو بسبب مخالفتهم أمر الرسول... ... ... ٢٦٤

قوله تعالى : وما أصابكم يوم التقى الجمعان ... » الآيات . واختلاف الناس فى معنى قوله « أو آدفعوا » ٢٦٥

قوله تعالى : « الذين قالوا لإخوانهم ... » الآية ٢٦٧

قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله ...» الآيات . وفيها ثمان مسائل: بيان ما يتعلق بالشهداء ، والحياة التى تكون لهم . اختلاف العلماء فى غسل الشهداء والصلاة عليهم . واختلافهم فيمن قتل مظلوما . دلالة الآية على عظيم ثواب القتل فى سبيل الله ٢٦٨

قوله تعالى : يستبشرون بنعمة من الله ... » الآية . وبيان فضل الشهداء ٢٧٥

قوله تعالى : « الذين استجابوا لله والرسول ... » الآية . وخبر غزوة حمراء الأسد ٢٧٦

قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس ... » الآيات . الخلاف فى المراد بالناس ، وفى زيادة الإيمان ونقصه ٢٧٩

قوله تعالى : «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ... » الآية . وبيان الكلام على معنى الخوف ٢٨٢

قوله تعالى : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ... » الآية . نزلت فى قوم أسلموا ثم ارتدوا خوفا من المشركين فاغتم النبي صلوات الله عليه . بيان أن الحزن على كفر الكافر طاعة ٢٨٤

قوله تعالى : « إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ... » الآية ٢٨٦

قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم ... » الآية . وبيان ما فيها من أوجه الإعراب ٢٨٦

صفحة

قوله تعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين ... » الآية . بيان الخلاف فى المخاطب بهذه الآية ٢٨٨

قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون ... » الآية . وفيها أربع مسائل : الخلاف فى سبب نزول هذه الآية . معنى البخل وثمرته . الفرق بين البخل والشح ... ٢٩٠

قوله تعالى : « لقد سمع الله قول الذين قالوا ... » الآيات . وتشكيك اليهود للضعفاء منهم ومن المؤمنين ٢٩٤

قوله تعالى : « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ... » الآيات . و بيان سبب نزولها ... ٢٩٥

قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ... » الآية . وفيها سبع مسائل : أسباب الموت وأماراته . الكلام على غسل الميت وتكفينه . حكم المشى به والصلاة عليه ودفنه ٢٩٧

قوله تعالى : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ... » الآية . و بيان أنها خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وأمته . موادعة النبي صلوات الله عليه لليهود ومداراته لهم ٣٠٣

قوله تعالى : « و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ... » الآية . وفيها مسألتان الآية خطاب لليهود ثم هى عامة فى كل من كتم علما ٣٠٤

قوله تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحوا بما أتوا ... » الآية . بيان ما كان يفعله بعض المنافقين من التخلف عن الغزو ٣٠٥

قوله تعالى : « ولله ملك السموات والأرض ... » الآية ٣٠٨

قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض ... » إلى آخر السورة . وفيه خمس وعشرون مسألة : الأمر بالنظر والاستدلال فى آياته تعالى . ذكر الله تعالى . اختلاف العلماء فى كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها . صلاة الراقد الصحيح . الفكرة فى قدرة الله تعالى . اختلاف العلماء فى أى العملين أفضل : التفكر أم الصلاة . الدليل على أن الكفار غير منعم عليهم فى الدنيا . الصلاة على النجاشى . ما جاء فى الرباط وفضله ، ومن هو المرابط ٣٠٩

بيان

تم تحقيق هذا الجزء على الأصول الآتية :

(١)	نسخة	رقم	٩٥	تفسير	المرموز	إليها	بحرف	ا
(٢)	»	»	٢٦٨	»	»	»	»	ب
(٣)	»	»	٢٨٣	»	»	»	»	ج
(٤)	»	»	٢٧٥	»	»	»	»	د
(٥)	»	»	٢٨٤	»	»	»	»	هـ
(٦)	»	»	٩٢	»	»	»	»	و
(٧)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية مرموز إليها بحرف				ز
(٨)	»	»	١	حليم مرموز إليها بحرف				ح
(٩)	»	»	٣١٨	»	»	»	»	ط
(١٠)	»	»	٣٠٧	»	»	»	»	ى

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

شعبان ١٣٧٦
مارس ١٩٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ الٓمٓ . ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ هذه السورة مدنية بإجماع. وحكى النقاش أن اسمها فى التوراة طَيِّبة، وقرأ الحسن وعمرو بن عُبَيْد وعاصم بن أبى النَّجُود وأبو جعفر الرُّؤاسِىّ[1] «الٓمٓ . أللهُ» بقطع ألف الوصل، على تقدير الوقف على « الٓمٓ » كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد فى نحو واحد، إثنان ، ثلاثة، أربعة ، وهم واصلون . قال الأخفش سعيد : ويجوز « الٓمِ اللهُ » بكسر الميم لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : هذا خطأ، ولا تقوله العرب لثقله . قال النحاس : القراءة [الأولى][2] قراءة العامّة ، وقد تكلم فيها النحويون القدماء؛ فمذهب سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين، واختاروا لها الفتح لئلا يُجمع بين كسرة وياء وكسرة قبلها . وقال الكسائىّ : حروف التهجِّى إذا لقيتها ألفُ وصل فحذفتَ ألف الوصل حرّكتها بحركة الألف فقلت : الٓمَ اللهُ، والمَ اذكر، والمِ اقتربت . وقال الفرّاء : الأصل «الٓمٓ أللهُ» كما قرأ الرؤاسىّ فألقيت حركة الهمزة على الميم . وقرأ عمر بن الخطاب «الحَىُّ القَيَّامُ» . وقال خارجة : فى مصحف عبد الله «الحَىُّ القَيِّمُ» . وقد تقدّم ما للعلماء [من آراء][3] فى الحروف التى فى أوائل السور فى أوّل « البقرة »[4] . ومن حيث جاء فى هذه السورة « ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ » جملةً قائمة بنفسها فتتصوّر تلك الأقوال كلها .

---

(١) فى القاموس وشرحه (مادة رأس) : «وبنو رؤاس (بالضم) : حى من عامر بن صعصعة ، قال الأزهرى : وكان أبو عمر الزاهد يقول فى أبى جعفر الرؤاسى أحد القرّاء والمحدثين أنه الرواسى ، بفتح الراء وبالواو من غير همز، منسوب إلى رواس قبيلة من سليم ، وكان ينكر أن يقول الرؤاسى بالهمزة كما يقوله المحدثون وغيرهم . قلت : ويعنى بأبى جعفر هذا محمد بن سادة الرواسى، ذكر ثعلب أنه أوّل من وضع نحو الكوفيين ، وله تصانيف » .

(٢) التكلة عن إعراب القرآن للنحاس . (٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) راجع جـ ١ ص ١٥٤

الثانيـة — روى الكسائيّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صلّى العشاء فٱستفتح «آل عمران» فقرأ « الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحىّ القيّوم» فقرأ فى الركعة الأولى بمائة آية، وفى الثانية بالمائة الباقية . قال علماؤنا : ولا يقرأ سورة فى ركعتين، فإن فعل أجزأه . وقال مالك فى المجموعة : لا بأس به، وما هو بالشأن .

قلت : الصحيح جواز ذلك . وقد قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأعراف فى المغرب فرّقها فى ركعتين . خرّجه النّسائى أيضا، وصحّحه أبو محمد عبد الحق، وسيأتى .

الثالثـة — هـذه السورة ورد فى فضلها آثار وأخبار، فمن ذلك ما جاء أنها أمانٌ من الحيات، وكنزٌ للصّعلوك، وأنها تُحاجّ عن قارئها فى الآخرة، ويُكْتَب لمن قرأ آخرها فى ليلة كقيام ليلة، إلى غير ذلك. ذكر الدارمىّ أبو محمد فى مسنده حدّثنا أبو عُبَيْد القاسم بن سلّام قال حدّثنى عُبَيْد الله الأشجعىّ قال : حدّثنى مِسْعَر قال حدّثنى جابر[1]، قبل أن يقع فيما وقع فيه، عن الشّعْبىّ قال قال عبد الله : نِعم كَنْزُ الصُّعْلوك سورةُ «آل عمران» يقوم بها فى آخر الليل . حدّثنا محمد بن سعيد حدّثنا عبد السلام عن الجُرَيْرىّ[2] عن أبى السَّليل[3] قال : أصاب رجل دمًا قال : فأوى إلى وادى مَجَنّة : وادٍ لا يمشى فيه أحدٌ إلا أصابته حَيّةٌ، وعلى شَفِير الوادى راهبان؛ فلمّا أمسى قال أحدهما لصاحبه : هلك والله الرجل ! قال : فٱفتتح سورةَ «آل عمران» قالا : فقرأ سورة طَيْبَة لعله سينجو . قال : فأصبح سليما . وأسند عن مَكْحُول قال : من قرأ سورة « آل عمران » يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل . وأسند عن عثمان بن عفان قال : من قرأ آخر سورة « آل عمران » فى ليلةٍ كتب له قيام ليلة . فى طريقه ٱبنُ لَهِيعَة . وخرّج مسلم عن النوّاس بن سَمْعَان الكِلَابِىّ قال سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "يُؤْتَى

(١) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجُعْفِىّ . توفى سنة ١٢٨ هـ . قال ٱبن سعد : كان يدلس وكان ضعيفا جدا فى رأيه وروايته . وقال العجلىّ : كان ضعيفا يغلو فى التشيع . وقال أبو بدر : كان جابر يهيج به مرة فى السنة مرّة فيهذى ويخلط فى الكلام . فلعل ما حكى عنه كان فى ذلك الوقت . وقال الأشجعى مبينا ما وقع فيه بأنه ما كان من تغير عقله . (عن تهذيب التهذيب) .

(٢) الجريرى : بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، وهو سعيد بن إياس ، ينسب إلى جرير بن عباد . (عن تهذيب التهذيب) .

(٣) أبو السليل (بفتح المهملة وكسر اللام) هو ضريب (بالتصغير) بن نقير، ويقال نفير، ويقال نفيل . (عن تهذيب التهذيب) .

بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران — وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد ، قال : — كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق (١) ، أو كأنهما حزقان (٢) من طير صواف تحاجان عن صاحبهما . وخرج أيضا عن أبى أمامة الباهلى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة " . قال معاوية (٣) : وبلغنى أن البطلة السحرة .

الرابعــة — للعلماء فى تسمية « البقرة وآل عمران » بالزهراوين ثلاثة أقوال :

الأول — أنهما النيرتان ، مأخوذ من الزهر والزهرة ؛ فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما ، أى من معانيهما .

وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة ، وهو القول الثانى .

الثالث — سميتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم ؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (٤) والتى فى آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ " أخرجه ابن ماجه أيضا . والغمام : السحاب الملتف ، وهو الغياية إذا كانت قريبا من الرأس ، وهى الظلة أيضا . والمعنى : أن قارئهما فى ظل ثوابهما ؛ كما جاء " الرجل فى ظل صدقته (٥) " وقوله : " تحاجان " أى يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما ، ملائكة كما جاء فى بعض الحديث : " إن من قرأ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية خلق الله سبعين ملكا يستغفرون له إلى يوم القيامة " . وقوله : " بينهما شرق " قيد بسكون الراء وفتحها ،

---

(١) الشرق : الضوء . وسكون الراء فيه أشهر من فتحها .	(٢) فى الأصول : « فرقان » بالفاء . والتصويب عن صحيح مسلم . والفرق : القطعة . والحزق والحزيقة : الجماعة من كل شىء .

(٣) هو معاوية بن سلام أحد رجال سند هذا الحديث .	(٤) راجع جـ ٢ ص ١٩٠

(٥) كذا فى نسخة : جـ وهو الصحيح ، وكشف الخفاء جـ ١ ص ٤٢٤ . وفى الأصول الأخرى : إن المؤمن .

وهو تنبيه على الضياء ؛ لأنه لما قال : " سَوْداوان " قد يُتَوَهَّم أنهما مُظْلمتان ، فنفى ذلك بقوله " بينهما شَرْق " . ويعنى بكونهما سوداوان أى من كثافتهما التى بسببها حالتا بين مَنْ تحتهما وبين حرارة الشمس وشدّة اللّهب . والله أعلم .

الخامسة — صَدْرُ هذه السورة نزل بسبب وفد نَجْران فيما ذكر محمد بن إسحاق عن محمد آبن جعفر بن الزبير، وكانوا نصارى وَفَدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى ستّين راكبا، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلا ، فى الأربعةَ عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم : العاقب أميرُ القوم وذو آرائهم وآسمه عبد المسيح ، والسيّد[1] ثِمالهم[2] وصاحب مُجْتَمَعهم وآسمه الأَيْهم ، وأبو حارثة بن عَلْقَمَة أحد بكر بن وائل أُسْقُفُّهم وعالمهم ؛ فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر صلاة العصر ، عليهم ثياب الحِبَرات[3] جُبَبٌ وأَرْدية . فقال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما رأينا وفدًا مثلهم جَمالا وجلالة . وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المَشْرق . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " دَعُوهم " . ثم أقاموا بها أياما يُناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى ويزعمون أنه آبن الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصرون، ونزل فيهم صَدْر هذه السورة إلى نَيِّف وثمانين آية ؛ إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة[4] ، حسب ما هو مذكور فى سيرة آبن إسحاق[5] وغيره .

قوله تعالى : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

(١) السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم ، والعاقب يتلو السيد . (٢) الثمال (بالكسر) : الملجأ والغياث والمطعم فى الشدّة . (٣) الحبرات (بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة) : ضرب من الثياب اليمانية .

(٤) فى الأصول : الابتهال ، والصواب ما أثبت ، باهل القوم بعضهم بعضا وتباهلوا وتبهلوا : تلاعنوا . والمباهلة : أن يجتمع القوم إذا آختلفوا فى شىء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا .

(٥) راجع سيرة آبن هشام ص ٤٠١ طبع أوربا .

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق، وقيل : بالحجة الغالبة . والقرآن نزل نجوما : شيئا بعد شيء؛ فلذلك قال « نَزَّلَ » والتنزيل مرّة بعد مرّة . والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة؛ فلذلك قال «أَنْزَلَ» . والباء فى قوله « بِالْحَقِّ» فى موضع الحال من الكتاب، والباء متعلقة بمحذوف، التقدير آتيا بالحق . ولا تتعلق بـ « نَزَّلَ »؛ لأنه قد تعدّى إلى مفعولين أحدهما بحرف جر، ولا يتعدّى إلى ثالث . و «مُصَدِّقًا» حال مؤكّدة غير منتقلة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدِّق، أى غير موافق ؛ هذا قول الجمهور . وقدّر فيه بعضهم الانتقال، على معنى أنه مصدّق لنفسه ومصدِّق لغيره .

قوله تعالى : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى من الكتب المنزّلة، والتوراة معناها الضياء والنور؛ مشتقة من وَرَى الزَّنْد ووَرِىَ لغتان إذا خرجت ناره . وأصلها تَوْرِيَةٌ على وزن تَفْعِلَة، التاء زائدة، وتحركت الياء وقبلها فتحة فقلبت ألفا . ويجوز أن تكون تَفْعِلَة فتنقل الراء من الكسر إلى الفتح؛ كما قالوا فى جارِيَة : جارَاة، وفى ناصِيَة ناصاة؛ كلاهما عن الفرّاء[(١)] . وقال الخليل : أصلها فَوْعَلَة ؛ فالأصل وَوْرَيَةٌ، قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت فى تَوْلَج[(٢)]، والأصل وَوْلَج فَوْعَلٌ من وَلَجَت، وقلبت الياء ألفا لحركتها وانفتاح ما قبلها . وبناء فَوْعَلَة أكثر من تَفْعِلَة . وقيل : التوراة مأخوذة من التَّوْرِيَة، وهى التعريض بالشيء والكتمان لغيره؛ فكأن أكثر التوراة معاريضُ وتلويحات من غير تصريح وإيضاح؛ هذا قول المؤرِّج . والجمهور على القول الأوّل لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ[(٣)] » يعنى التوراة . والإنجيل إفعيلٌ من النَّجْل وهو الأصل ، ويجمع على أَنَاجِيل ، وتوراة على تَوَارٍ ؛ فالإنجيل أصلٌ لعلوم وحِكَم . ويقال : لعن الله نَاجِلَيْه، يعنى والديه، إذ كانا أصلَه . وقيل : هو من نَجَلْتُ الشيء إذا استخرجته ؛ فالإنجيل مستخرج به علوم وحِكَم ؛ ومنه سُمّى الولدُ والنَّسْل نَجْلًا لخروجه ؛ كما قال :

إلى مَعْشَرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدُّهم * أصاغرَهم وكلُّ فحْلٍ لهم نَجْلُ

(١) هى لهجة طائية، يقولون فى مثل جارية جاراة، وناصية ناصاة وكاسية كاساة .

(٢) التولج : كناس الظبى أو الوحش الذى يلج فيه .

(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٥

والنَّجْل المـاء الذى يخرج من النَّزِّ . وآستنجلت الأرضُ ، و بها نِجَالٌ إذا خرج منها المـاء، فسمّى الإنجيل به ؛ لأن الله تعالى أخرج به دَارِسًا من الحق عافيًا . وقيل : هو من النَّجَل فى العين (بالتحريك) وهو سعَتُها؛ وطعنة نَجْلاء، أى واسعة؛ قال :

رُبَّمَا ضَرْبَةٍ بسيفٍ صقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نَجْلاء

فسمّىَ الإنجيل بذلك؛ لأنه أصلٌ أخرجه لهم ووسّعه عليهم ونُورًا وضياء . وقيل: التَّنَاجُل التنازُع؛ وسمّى إنجيلًا لتنازُع الناس فيه . وحكى شَمِرٌ عن بعضهم: الإنجيلُ كلُّ كتاب مكتوب وافر السطور . وقيل : نَجَل عَمِل وصنَع ؛ قال :

* وأنْجُلُ فى ذاك الصنيع كما نَجَلْ *

أى أعمـل وأصنع . وقيل : التوراة والإنجيل من اللغة السُّرْيانية . وقيـل : الإنجيل بالسُّريانية إنْكليون (١) ؛ حكاه الثعلبى . قال الجوهرى : الإنجيل كتاب عيسى عليه السـلام يذكَّر و يؤنّث ؛ فمن أنّثَ أراد الصحيفة ، ومن ذكر أراد الكتاب . قال غيره : وقد يُسَمَّى القرآن إنجيلا أيضا ؛ كما روى فى قصة مناجاة موسى عليه السـلام أنه قال : " يارب أرى فى الألواح أقواما أناجيلُهم فى صدورهم فآجعلهم أمّتى" . فقال الله تعالى له : "تلك أمّة أحمد" صلى الله عليه وسلم؛ وإنما أراد بالأناجيل القرآن . وقرأ الحسن: «والأَنْجِيل» بفتح الهمزة، والباقون بالكسر مثل الإكليل ، لغتان . ويحتمل [ان سمع (٢)] أن يكون ممـا عرّبته العرب من الأسماء الأعجمية، ولا مثال له فى كلامها .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ قال آبن فورك (٣) : التقدير هدى للناس المتقين ؛ دليله فى البقرة « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » فردّ هذا العامّ إلى ذلك الخاص . و «هدى» فى موضع نصب على الحال . و﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ القرآن . وقد تقدّم .

---

(١) فى بعض كتب اللغة : إنجيل لفظ يونانى . (٢) الزيادة من نسخة : ب .

(٣) آبن فورك (بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء) هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهانى، توفى سنة ست وأربعمائة . (عن ابن خلكان) .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله فى القرآن كثير . فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهـا أو ٱبن إله وهو تخفى عليه الأشياء ! .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

فيـه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر فى أرحام الأمهات . وأصل الرحم من الرَّحْمة، لأنها مما يُتراحَم به . وٱشتقاق الصُّورَة من صاره إلى كذا إذا أماله ؛ فالصورة مائلة إلى شَـبَهٍ وهيئة . وهـذه الآية تعظيم لله تعـالى ، وفى ضمنها الرد على نصارى نَجْـران، وأن عيسى من المصَوَّرين، وذلك ممـا لا ينكره عاقل . وأشار تعـالى إلى شرح التصْوير فى سورة « الحجِّ »[1] و« المؤمنون » . وكذلك شرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ٱبن مسعود، على ما يأتى هناك [بيانه][2] إن شاء الله تعالى . وفيها الرّد على الطبائعيين أيضا إذْ يجعلونها فاعلةً مستبِدّة . وقد مضى الرّد عليهم فى آية التوحيد[3] وفى مسند ٱبن سنجر — وٱسمه محمد بن سَنْجر — حديث ” إنّ الله تعالى يخلق عِظام الجنين وغَضَاريفه[4] من منِي الرجل وشحمه ولحمه من مَنِيّ المرأة “ . وفى هذا أدَلّ دليل على أن الولد يكون من ماء الرجل والمرأة، وهو صريح [فى][5] قوله تعالى: « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ[6] » . وفى صحيح مسلم من حديث ثوبان وفيه : أنّ اليهودىّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان . قال : ” ينفعك إن حدّثتك “ ؟ .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٦ فما بعد وص ١٠٩ فما بعد . (٢) الزيادة من نسخة : ب .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠١ (٤) الغضاريف : جمـع غضروف (بضم الغين) وهو كل عظم رخص يؤكل ، وهـو مارن الأنف ، ونغض الكتف (العظم الرقيق على طرفها) ، ورءوس الأضلاع ، ورهابة الصدر (عظيم فى الصدر مشرف على البطن) ، وداخل قوف الأذن . (٥) الزيادة فى : جـ .
(٦) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٠

قال: أسمعُ بأُذُنى، قال: جئتك أسألك عن الولد. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ماء الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعَلا منيُّ الرجلِ منيَّ المرأةِ أذكرا بإذنِ الله تعالى وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجلِ آنثا بإذن الله" الحديث(١). وسيأتى بيانه آخر «الشورى»(٢) إن شاء الله تعالى.

الثانيـــة — قـوله تعـالى: ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ يعنى من حُسْن وقُبْح وسَوَاد وبَيَـاض وطُول وقِصَر وسَـلامة وعاهة، إلى غير ذلك من الشقاء والسـعادة. وذُكر عن إبراهيم بن أدهم أنّ القـرّاء اجتمعوا إليـه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث، فقـال لهم: إنى مشغول عنكم بأربعة أشياء، فلا أتفرّغ لرواية الحديث. فقيل له: وما ذاك الشغل؟ قال: أحدها أنّى أتفكر فى يومِ الميثاق حيث قال: "هؤلاء فى الجنة ولا أُبَالِى وهؤلاء فى النار ولا أُبَالى". فلا أدرى من أىّ الفريقين كنتُ فى ذلك الوقت. والثانى حيث صُوِّرتُ فى الرَّحم فقال الملك الذى هو موكَّل على الأرحام: "ياربِّ شَـقِيٌّ هو أم سعيد" فلا أدرى كيف كان الجواب فى ذلك الوقت. والثالث حين يقبِضُ ملكُ الموت روحى فيقول: "يارَبِّ مع الكفر أم مع الإيمان" فلا أدرى كيف يخرج الجواب. والرابع حيث يقول: «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ»(٣) فلا أدرى فى أىِّ الفريقين أكونُ. ثم قال تعالى: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا خالِق ولا مصوِّر [سواه](٤)؛ وذلك دليل على وحدانيته، فكيف يكون عيسى إلها مُصَوِّرا وهو مُصَوَّر. ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغالب. ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة أو المُحْكِم، وهذا أخصّ بما ذكر من التصوير.

قوله تعـالى: هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾

(١) راجع الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٩٩ طبع بولاق. (٢) راجع ج ١٦ ص ٤٨ فما بعد.
(٣) راجع ج ١٥ ص ٤٦ (٤) زيادة لا بد منها.

فيه تسع مسائل :

الأولى — خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فآحذروهم " . وعن أبى غالب قال : كنت أمشى مع أبى أمامة وهو على حمار له ، حتى إذا آنتهى إلى دَرَج مسجد دمشق فإذا رءوس منصوبة ؛ فقال : ما هذه الرُّءوس ؟ قيل : هذه رءوس خوارج يجاء بهم من العراق . فقال أبو أمامة : كلابُ النار كلابُ النار كلابُ النار ! شرُّ قتلى تحت ظل السماء ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه — يقولها ثلاثا — ثم بكى . فقلت : ما يبكيك يا أبا أُمامة ؟ قال : رحمةً لهم ، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه ؛ ثم قرأ «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» إلى آخر الآيات . ثم قرأ «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ»(١) . فقلت : يا أبا أُمامة ، هُم هؤلاء؟ قال نعم . قلتُ : أشىء تقوله برأيك أم شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: إنى إذًا لجرىءٌ إنى إذا لجرىء ! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ست ولا سبع ، ووضع أصبعيه فى أُذُنَيْه ، قال : وإلّا فصُمَّتا — قالها ثلاثا — ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقةً واحدةٌ فى الجنة وسائرهم فى النار ولتزيدنّ عليهم هذه الأمّة واحدةً واحدةٌ فى الجنة وسائرُهم فى النار " .

الثانيــة — آختلف العلماء فى المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ؛ فقال جابر بن عبدالله ، وهو مقتضى قول الشعبىّ وسفيان الثورىّ وغيرهما : المحكمات من آى القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما آستأثر الله تعالى بعلمه

(١) راجع هذا الجزء ص ١٦٦

دون خلقه . قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة فى أوائل السور .

قلت : هذا أحسنُ ما قيل فى المتشابه . وقد قدمنا فى أوائل سورة البقرة عن الربيع بن خيثم أن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء ؛ الحديثَ . وقال أبو عثمان : المحكم فاتحة الكتاب التى لا تجزئ الصلاة إلا بها . وقال محمد بن الفضل : سورة الإخلاص ، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط . و[قد] قيل : القرآن كله محكم ؛ لقوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ »(١) . وقيل : كله متشابه ؛ لقوله : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا »(٢) .

قلت ؛ وليس هذا من معنى الآية فى شىء ؛ فإن قوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » أى فى النظم والرصف وأنه حق من عند الله . ومعنى « كتابا مُتَشَابِهًا » ، أى يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا . وليس المراد بقوله «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» «وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» هذا المعنى ؛ وإنما المتشابه فى هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه ، من قوله « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا »(٣) أى آلتبس علينا ، أى يحتمل أنواعا كثيرة من البقر . والمراد بالمحكم ما فى مقابلة هذا ، وهو ما لا التباس فيه ولا يحتمل إلا وجها واحدا . وقيل : إن المتشابه ما يحتمل وجوها ، ثم إذا رُدَّتْ الوجوه إلى وجه واحد وأبطِل الباقى صار المتشابِه محكما . فالمحكم أبدا أصل تردّ إليه الفروع ؛ والمتشابه هو الفرع . وقال آبن عباس : المحكمات هو قوله فى سورة الأنعام « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »(٤) إلى ثلاث آيات ، وقوله فى بنى إسرائيل : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »(٥) . قال آبن عطية : وهذا عندى مثال أعطاه فى المحكمات . وقال آبن عباس أيضا : المحكمات ناسخه وحرامه وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات المنسوخات ومقدّمه ومؤخّره وأمثالُه وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به . وقال آبن مسعود وغيره : المحكمات الناسخات ، والمتشابهات المنسوخات ؛ وقاله قتادة والربيع والضحاك . وقال محمد بن جعفر بن الزبير : المحكمات هى التى فيها حجة الرب

(١) راجع جـ ٩ ص ٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٣) راجع جـ ١ ص ٤٥١
(٤) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٨

وعصمة العباد ودفع الخُصُوم والباطل ، ليس لهـا تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه .
والمتشابهات لهنّ تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهنّ العباد ؛ وقاله مجاهد وابن إسحاق .
قال ابن عطية : وهـذا أحسن الأقوال في هـذه الآية . قال النحاس : أحسن ما قيـل
في المحكمات ، والمتشابهات أنّ المحكمات ما كان قائمـا بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره ؛
نحو « لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »(١) « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ »(٢) . والمتشابهات نحـو « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا »(٣) يرجع فيـه إلى قـوله جل وعلا : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » و إلى قوله
عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ »(٤) .

قلت : ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابنُ عطية ، وهو الجاري على وَضْع اللسان ؛ وذلك
أن المحكَمَ اسم مفعول من أُحْكِمَ ، والإحكام الإتقان ؛ ولا شـك في أن ما كان واضح المعنى
لا إشكال فيـه ولا تردد ، إنمـا يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته و إتقان تركيبها ؛ ومتى
اختلّ أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . والله أعلم . وقال ابن خويزمَنْـداد : للمتشابه
وجوهٌ ، والذي يتعلق به الحكم ما اختلف فيـه العلماء أيّ الآيتين نسخت الأخرى ؛ كقول
عليّ وابن عباس في الحامل المتوفى عنها زوجها تعتدّ أقصى الأجلين . فكان عمر وزيد بن ثابت
وابن مسعود وغيرهم يقولون وضع الحمل ، و يقولون : سورة النساء القصرى(٥) نسخْت أربعة
أشهر وعَشْرا . وكان عليّ وابن عباس يقولان لم تنسخ . وكاختلافهم في الوصية للوارث هل
نُسخت أم لم تُنْسَخ . وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن تقدّم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد
شرائطه ؛ كقوله تعالى : «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ»(٦) يقتضي الجمع بين الأقارب من مِلك اليمين ،
وقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »(٦) يمنع ذلك . ومنه أيضا تعارض
الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وتعارض الأقيسَة ، فذلك المتشابه . وليس من المتشابه
أن تقرأ الآية بقراءتين ويكون الاسم(٧) محتملا أو مجملا يحتاج إلى تفسير ؛ لأن الواجب منـه
قدر ما يتناوله الاسم أو جميعه . والقراءتان كالآيتين يجب العمل بموجبهما جميعا ؛ كما قرئ :

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٤٦　(٢) راجع جـ ١١ ص ١٢٣　(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧
(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥　(٥) هي سورة الطلاق . ومراده منها « وأولات الأحمال أجلهنّ أن
يضعن حملهنّ » آية ٤　(٦) راجع جـ ٥ ص ١١٦ و ١٢٤　(٧) في نسخة : ب ، الأمر .

« وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ » بالفتح والكسر، على ما يأتى بيـانه « فى المـائدة »[١] إن شاء الله تعـالى .

الثالثـــة — روى البخارى[٢] عن سعيد بن جبير قال قال رجل[٣] لآبن عباس : إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ . قال : ما هو ؟ قال : «فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ»[٤] وقال : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[٥] وقال : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا »[٦] وقال « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[٧] فقد كتموا فى هذه الآية . وفى النازعات « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... إلى قوله : دَحَاهَا »[٨] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال « أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... إلى : طَائِعِينَ »[٩] فذكر فى هـذا خلق الأرض قبل خلق السماء . وقال : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا »[١٠] . « وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »[١١] . « وكان اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا »[١٢] فكأنه كان ثم مضى . فقال آبن عباس : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » فى النفخة الأولى ، ثم ينفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم عنـد ذلك ولا يتسـاءلون؛ ثم فى النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأمّا قوله : « مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » «وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا» فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقول : لم نكن مشركين؛ فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم ؛ فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثا،وعنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وخلق الله الأرض فى يومين ، ثم آستوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات فى يومين ، ثم دحا الأرض أى بسـطها فأخرج منها المـاء والمرعى ، وخلق فيهـا الجبال والأشجـار والآكام وما بينهـا فى يومين آخرين؛ فذلك قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْـدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » . فخلقت الأرض وما فيهـا فى أربعـة أيام ، وخلقت السماء فى يومين . وقوله : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا »[١٣] يعنى نفسـه

(١) راجع جـ ٦ ص ٨٠ (٢) الحديث فى البخارى فى كتاب التفسير (سـورة السجدة) . وبين ما فى البخارى وما فى الأصول آختلاف فى بعض الكلمات . (٣) هو نافع آبن الأزرق الذى صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج (القسطلانى) . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٥١ (٥) راجع جـ ١٥ ص ٨١ (٦) راجع جـ ٥ ص ١٩٨ (٧) راجع جـ ٦ ص ٤٠١ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ فما بعد. (٩) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢ (١٠ — ١١ — ١٢ — سورة النساء ١٣) عبارة البخاري (سمي نفسه) .

ذلك ، أى لم يزل ولا يزال كذلك ؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد . ويحك ! فلا يختلف عليك القرآن ؛ فإن كلا من عند الله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ لم تصرف « أُخَرُ » لأنها عدلت عن الألف واللام ؛ لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالكبر والصغر ؛ فلما عدلت عن مجرى الألف واللام منعت الصرف . أبو عبيد : لم يصرفوها لأن واحدها لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرد وقال : يجب على هذا ألا ينصرف غِضاب وعِطاش . الكسائى : لم تنصرف لأنها صفة . وأنكره المبرد أيضا وقال : إن لبدا وحطما صفتان وهما منصرفان . سيبويه : لا يجوز أن تكون أُخَرُ معدولة عن الألف واللام ؛ لأنها لو كانت معدولة عن الألف واللام لكان معرفة ، ألا ترى أن سَحَر[(١)] معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة [عن السحر] ، وأَمْسِ فى قول من قال : ذهب أمسِ معدولا عن الأمس ؛ فلو كان أخر معدولا أيضا عن الألف واللام لكان معرفة ، وقد وصفه الله تعالى بالنكرة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ الذين رفع بالابتداء ، والخبر « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ » . والزيغ الميل ؛ ومنه زاغت الشمس ، وزاغت الأبصار . ويقال : زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »[(٢)] . وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة ، وإن كانت الإشارة بها فى ذلك الوقت إلى نصارى نجران . وقال قتادة فى تفسير قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » : إن لم يكونوا الحرورية[(٣)] وأنواع الخوارج فلا أدرى من هم .

قلت : قد مرّ هذا التفسير عن أبى أمامة مرفوعا ، وحسبك .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه : متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك

---

(١) أى إذا أردت به سحر ليلتك . فإن نكرته صرفته .

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٢ (٣) راجع الحاشية ٢ جـ ٢ ص ٢٥١

فى القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة[1] الطاعنون فى القرآن؛ أو طلبا لاعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلتــه المجسِّمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم وصورة مصوّرة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وأصبع، تعالى الله عن ذلك! ؛ أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها، أو كما فعل صبيغ[2] حين أكثر على عمر فيه السؤال . فهذه أربعة أقسام :

الأوّل — لا شك فى كفرهم، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة .

الثانى — [الصحيح[3]] القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، ويستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتدّ .

الثالث — اختلفوا فى جواز ذلك بناء على الخلاف فى جواز تأويلها . وقد عرف أنّ مذهب السلف ترك التعرض لتأويلها مع قطعهــم باستحالة ظواهرها، فيقــولون أمِرّوها كما جاءت . وذهب بعضهم إلى إبداء تأويلاتها وحملها على ما يصح حمله فى اللسان عليها من غير قطع بتعيين مجمل منها .

الرابــع — الحكم فيــه الأدب البليغ، كما فعله عمر بصبيغ . وقال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمــة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفســير الحروف المشكلات فى القرآن، لأن السائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير، وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب، إذ أوجد للمنافقين الملحدين فى ذلك الوقت سبيلا إلى أن يقصدوا ضَعَفَة المسلمين بالتشكيك والتضليل فى تحريف القرآن عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل . فمن ذلك ما حدّثنــا إسماعيل بن إسحاق القاضى أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن صبيغ بن عِسل

---

(١) القرامطة : فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقــدون نبوّة زرادشت ومزدك ومانى، وكانوا يبيحون المحرّمات . (راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث سنة ٢٧٨) .

(٢) صــبيغ (وزان أمير) بن شريك بن المنــذر بن قطن بن قشع بن عسل (بكسر العين) بن عمرو بن يربوع التميمى، وقد ينسب إلى جدّه الأعلى فيقال : صبيغ بن عسل . وراجع القاموس وشرحه مادّة « صبغ وعسل » .

(٣) الزيادة من نسخ : ب، ز، د .

قدم المدينــة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء؛ فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث إليه عمر فأحضره وقــد أعدّ له عراجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر رضى الله عنه : وأنا عبد الله عمر؛ ثم قام إليه فضرب رأســه بعرجون فشجّه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه، فقال : حســبك يا أمير المؤمنين! فقد والله ذهب ما كنت أجدُ فى رأسى . وقد آختلفت الروايات فى أدبه، وسيأتى ذكرها فى « الذاريات » . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها فى قلبه فتاب وحسنت توبته . ومعنى «آبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ» طلب الشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم، ويردّوا الناس إلى زيغهم . وقال أبو إسحاق الزجاج : معنى «آبتغاء تأويله» أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم، فأعلم الله جل وعز أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ — أى يوم يرون مايوعدون من البعث والنشور والعــذاب — يَقُولُ الَّذِينَ نَسُــوهُ مِنْ قَبْلُ — أى تركوه — قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ»(١) أى قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل . قال : فالوقف على قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » أى لا يعلم أحد متى البعث إلا الله .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ يقال : إن جماعة من اليهود منهم حيي بن أخطب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بلغنا أنه نزل عليك «الٓمٓ»، فإن كنت صادقا فى مقالتك فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة؛ لأن الألف فى حساب الجمل واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فنزل « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . والتأويل يكون بمعنى التفسير، كقولك : تأويل هذه الكلمة على كذا . ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه . وآشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه، أى صار . وأوّلته تأويلا أى صيرته . وقد حدّه بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء آحتمال فى اللفظ مقصود بدليل خارج عنه . فالتفسير بيان اللفظ؛ كقوله « لَا رَيْبَ فِيــهِ » أى لا شك . وأصله من الفسر وهو البيان؛ يقال : فسرت

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٧

الشيء (مخففا) أفسِره (بالكسر) فَسْرا . والتأويل بيـان المعنى؛ كقوله لا شك فيـه عند المؤمنين . أو لأنه حق فى نفسه فلا يقبل ذاته الشك وإنمـا الشك وصف الشاك . وكقول ٱبن عباس فى الجد أبا؛ لأنه تأول قول الله عز وجل : « يَا بَنِي آدَمَ » .

الثامنــــة ــ قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ٱختلف العلماء فى «والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» هل هو ٱبتداء كلام مقطوع مما قبله ، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع . فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع مما قبله ،وأنّ الكلام تمّ عند قوله «إِلَّا اللَّهُ» هذا قول ٱبن عمر وٱبن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ،وهو مذهب الكسائى والأخفش والفراء وأبى عبيد[وغيرهم] (١). قال أبو نهيك الأسدى : إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة. وما ٱنتهى علم الراسخين الا إلى قولهم « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَا » . وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز، وحكى الطبرى نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس . و « يقولون » على هذا خبر«الراسخون» . قال الخطابى : وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذى أمرنا بالإيمان به والتصديق بمـا فيه قسمين : محكما ومتشابها ؛ فقال عز من قائل : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ... إلى قوله : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فأعلَمَ أنّ المتشابه من الكتاب قد ٱســتأثر الله بعلمه، فلا يعــلم تأويله أحدٌ غيره ، ثم أثنى الله عز وجل على الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنا به . ولولا صحة الإيمان منهم لم يستحقوا الثناء عليه . ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التام فى هذه الآية إنما هو عند قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وأن ما بعده ٱستئناف كلام آخر، وهو قوله « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِـلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » . وروى ذلك عن ٱبن مسعود وأبىّ بن كعب وٱبن عباس وعائشة . وإنمـا روى عن مجاهد أنه نسَق « الراسخون» على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه . وٱحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين آمنا؛ وزعم أن موضع « يقولون » نصب على الحال . وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا، ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل؛ فإذا لم يظهر فعــل فلا يكون حال؛ ولو جاز ذلك لجاز

(١) الزيادة من نسخة : جـ .

أن يقال : عبد الله راكبا، بمعنى أقبل عبد الله راكبا ؛ وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم يصلح بين الناس ؛ فكان « يصلح » حالا له ؛ كقول الشاعر — أنشدنيه أبو عمر قال أنشدنا أبو العباس ثعلب — :

أرسلتُ فيها قَطِمًّا لُكَالِكَا (١) * يَقْصُرُ يَمْشِي ويطول بَارِكَا

أى يقصر ماشيا ؛ فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده، وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق ويثبته لنفسه ثم يكون له فى ذلك شريك . ألا ترى قوله عز وجل : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » (٢) وقوله : « لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ » (٣) وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » (٤)، فكان هـذا كله مما آستأثر الله سبحانه بعلمه لا يُشْرِكه فيه غيره . وكذلك قوله تبارك وتعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . ولو كانت الواو فى قوله : « وَالرَّاسِخُونَ » (٥) للنسق لم يكن لقوله : « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » فائدة . والله أعلم .

قلت : ما حكاه الخطابى من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روى عن آبن عباس أن الراسخين معطوف على آسم الله عز وجل، وأنهم داخلون فى علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به؛ وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و « يقولون » على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين؛ كما قال :

الريحُ تَبْكِي شَجْوَهَا * والبرقُ يلمعُ فى الغَمَامَهْ

وهذا البيت يحتمل المعنيين؛ فيجوز أن يكون « والبرق » مبتدأ، والخبر « يلمع » على التأويل الأول، فيكون مقطوعا مما قبله . ويجوز أن يكون معطوفا على الريح، و « يلمع » فى موضع الحال على التأويل الثانى أى لامعا . وآحتج قائلو هذه المقالة أيضا بأن الله سبحانه مدحهم

---

(١) فى الأصول : « أرسلت فيها رجلا » والتصويب عن اللسان وشرح القاموس . والقطم : الغضبان ؛ وفحل قطم وقطم وقطيم : صؤول . والقطم أيضا : المشتهى اللحم وغيره . واللكالك (بضم اللام الأولى وكسر الثانية) : الجمل الضخم المرمى باللحم . قال أبو على الفارسىّ : « يقصر إذا مشى لآنخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الأرض ؛ فإذا برك رأيته طويلا لارتفاع سنامه ؛ فهو باركا أطول منه قائما » . (اللسان مادة لكك) . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٥

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٥ (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٢ (٥) فى الأصول : « والراسخون معا للنسق » .

بالرسوخ فى العلم ؛ فكيف يمدحهم وهم جهّال ! وقد قال آبن عباس : أنا ممن يعلم تأويله .
وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله ؛ حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالى .

قلت — وقد ردّ بعض العلماء هذا القول إلى القول الأوّل فقال : وتقدير تمام الكلام «عِند الله» أن معناه وما يعلم تأويلَه إلا الله يعنى تأويلَ المتشابهات، والراسخون فى العلم يعلمون بعضه قائلين آمنّا به كلٌّ من عند ربنا بما نُصب من الدلائل فى المُحْكَم ومكّن من ردّه إليه . فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنا بالجميع كلٌّ من عند ربنا، وما لم يحط به علمنا من الخفايا مما فى شرعه الصّالح فعلمه عند ربّنا . فإن قال قائل : قد أشكل على الراسخين بعض تفسيره حتى قال آبن عباس : لا أدرى ما الأوّاهُ ولا ما غِسْلِين، قيل له : هذا لا يلزم؛ لأن آبن عباس قد علم بعد ذلك ففسر ما وقف عليه . وجوابٌ أقطع من هذا وهو أنه سبحانه لم يقل وكل راسخ فيجب هذا، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر . ورجّح آبن فورك أنّ الراسخين يعلمون التأويل وأطنب فى ذلك، وفى قوله عليه السلام لآبن عباس : "اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل" ما يبين لك ذلك، أى علمه معانى كتابك . والوقف على هذا يكون عند قوله « والرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ » . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وهو الصحيح؛ فإن تسميتهم راسخين يقتضى أنهم يعلمون أكثر من المُحْكَم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب . وفى أىّ شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ! . لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم البتّة كأمر الرُّوح والساعة مما آستأثر الله بغيبه ، وهـذا لا يتعاطى علمه أحد لا آبن عباس ولا غيره . فمن قال من العلماء الحُذّاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع، وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغـة ومَنَاحٍ فى كلام العرب فيُتأوّل ويُعلم تأويله المستقيم، ويُزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم ؛ كقوله فى عيسى : «وَرُوحٌ مِنْهُ»(1) إلى غير ذلك . فلا يُسمّى أحدٌ راسخا إلا بأن يعلم من هـذا النوع كثيرا بحسب ما قُدّر له .
وأمّا من يقول : إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخالُ الراسخين فى علم التأويل ؛ لكنّ تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح .

(1) راجع ج ٦ ص ٢١

والرسوخ : الثبوت فى الشيء ، وكل ثابت راسخ . وأصله فى الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض ؛ قال الشاعر :

لقد رَسَخَتْ فى الصَّدْرِ مِنّى مودّةٌ * لِلَيْلَى أبتْ آياتُها أنْ تَغَيَّرا

ورَسَخ الإيمان فى قلب فلان يَرْسَخ رسوخا . وحكى بعضهم : رسخ الغَدِيرُ : نَضَب ماؤه ؛ حكاه ابن فارس فهو من الأضداد . ورَسَخ ورَضَخ ورَصُن ورسَب كله ثبت فيه . وسئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الراسخين فى العلم فقال : "هو مَنْ بَرّت يمينُه وصدَق لسانُه واستقام قلبه". فإن قيل : كيف كان فى القرآن متشابه والله يقول : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»[1] فكيف لم يجعله كله واضحا ؟ قيل له : الحكمة فى ذلك — والله أعلم — أن يظهر فضل العلماء ؛ لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضلُ بعضهم على بعض . وهكذا يفعل من يصنّف تصنيفا يجعل بعضه واضحا و بعضه مشكلا ، و يترك للجُثْوة[2] موضعا ؛ لأن ما هان وجودُه قلّ بهاؤه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى مُحكمه ومُتشابهه ؛ والتقدير : كله من عند ربنا . وحذف الضمير لدلالة « كلّ » عليه ؛ إذ هى لفظة تقتضى الإضافة . ثم قال : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى ما يقول هذا و يُؤمِنُ و يقفُ حيث وقَف و يَدَع اتّباع المتشابه إلا ذو لُبٍّ ، وهو العقل . ولُبّ كل شيء خالصه ؛ فلذلك قيل للعقل لُبّ . و « أولو » جمع ذو .

قوله تعالى : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ فى الكلام حذف تقديره يقولون . وهذا حكاية عن الراسخين . ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد ، ويقال : إزاغة القلب فسادٌ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ (٢) كذا وردت هذه الكلمة فى أكثر الأصول ، وفى بعضها وردت بهذا الرسم من غير إعجام ، ومعناها : الجماعة .

ومَيْل عن الدِّين، أفكانوا يخافون وقد هُدُوا أن ينقلهم الله إلى الفساد؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألّا يبتليهم بمـا يثقُل عليهم من الأعمال فيَعجزوا عنه؛ نحو «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ»(١). قال ابن كيسان: سألوا ألا يَزِيغوا فيُزِيغ الله قلوبهم؛ نحو «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ»(٢) أى ثبِّتنا على هدايتك إذ هديتنا وألا نَزِيغ فنستحق أن تُزيغ قلوبنا. وقيل: هو منقطع مما قبلُ؛ وذلك أنه تعالى لمـا ذكر أهل الزيغ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليـه فى ألا يكونوا من الطائفة الذمية التى ذُكِرت وهى أهـل الزَّيْغ. وفى الموطأ عن أبى عبد الله الصنابِحِيّ أنه قال: قدِمتُ المدينة فى خلافة أبى بكر الصـديق فصليتُ وراءه المغرب، فقـرأ فى الركعتين الأُوليين بأم القرآن وسورة من قصار المُفَصَّل، ثم قام فى الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية «رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا» الآية. قال العلماء: قراءته بهـذه الآية ضربٌ من القُنوت والدعاء لمـا كان فيه من أمر أهل الردّة. والقنوت جائز فى المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفى كل صلاة أيضا إذا دهِم المسلمين أمرٌ عظيم يُفزعهم ويخافون منه على أنفسهم. وروى الترمِذيّ من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال قلت لأم سَلَمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثرُ دعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه "يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّتْ قلبى على دِينك". فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءَك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! قال: "يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ". فتلا معاذ(٣) «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا». قال: حديث حسن. وهذه الآية حجـة على المعتزلة فى قولهم: إن الله لا يضل العبـاد(٤). ولو لم تكن الإزاغة من قِبله لمـا جاز أن يُدْعَى فى دفع ما لا يجوز عليه فعلُه. وقرأ أبو واقد الجرّاح «لاتَزِغْ قُلُوبُنَا» بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبة إلى الله تعالى. ومعنى الآية على القراءتين ألا يكون منك خلق الزيغ فيها فتزيغ.

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٠ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٢ (٣) هو أحد رجال سند هذا الحديث.
(٤) يعنى قولهم إن العباد هم الخالقون لأفعالهم.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أى من عندك ومن قِبلك تفضلا لا عن سبب مِنا ولا عمل . وفى هذا آستسلام وتطارح . وفى «لَدُنْ» أربع لغات : لَدُن بفتح اللام وضم الدال وجزم النون، وهى أفصحها؛ وبفتح اللام وضم الدال وحذف النون؛ وبضم اللام وجزم الدال وفتح النون؛ وبفتح اللام وسكون الدال وفتح النون . ولعل جُهّال المتصوِّفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون: العلم ما وهبه الله آبتداء من غير كسب، والنظرُ فى الكتب والأوراق حِجابٌ . وهــذا مردود على ما يأتى بيانه فى هــذا الموضع . ومعنى الآية : هب لنا نعيما صادرا عن الرحمة؛لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصوّر فيها الهبة . يقال : وَهب يَهَب ؛ والأصل يُوهِب بكسر الهاء . ومن قال : الأصل يوهب بفتح الهاء فقد أخطأ ؛ لأنه لو كان كما قال لم تحذف الواو ، كما لم تحذف فى يَوْجَل . وإنما حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة؛ ثم فتح بعد حذفها لأن فيه حرفا من حروف الحلق.

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

أى باعثهم ومحييهم بعــد تفرقهم ، وفى هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجاج : هذا هو التأويل الذى عَلِمه الراسخون وأقروا به ، وخالف الذين آتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه . والريبُ الشّك ، وقد تقدّمت محامله فى البقرة[1]. والميعاد مِفْعال من الوعد.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

معناه بَيِّنٌ ، أى لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقرأ السُّلَمى[2] «لَنْ يُغْنِيَ» بالياء لتقدّم الفعل ودخول الحائل بين الأسم والفعل . وقرأ الحسن «يُغْنِى» بالياء وسكون الياء الآخرة للتخفيف؛ كقول الشاعر :

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٩ (٢) السلمى (بضم السين) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين الصوفى الأزدى . (عن تذكرة الحفاظ وأنساب السمعانى) .

كفَى باليَأْسِ من أسماءَ كَافِ * وليس لِسُقْمِها إذ طال شافِ

وكان حقّه أن يقول كافيا ، فأرسل الياء . وأنشد الفرّاء فى مثله :

كأنّ أيديهنّ بالقــاعِ القرِقْ * أيدِى جَوَارٍ يتَعاطَيْنَ الوَرِقْ

القَرِقُ والقَرِقَة لغتان (١) فى القاع . و « من » فى قوله « مِنَ اللهِ » بمعنى عند ؛ قاله أبو عبيدة .
﴿أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ والوَقود آسم للحطب ، وقد تقدّم فى «البقرة» (٢) . وقرأ الحسن ومجاهد
وطلحة بن مُصَرِّف «وُقُود» بضم الواو على حذف مضاف تقديره حطب وقود النــار .
ويجوز فى العربية إذا ضم الواو أن تقول أُقُود مثــل أُقِّتَتْ . والوُقود بضم الواو المصدر ؛
وُقِدَت النار تقِد إذا آشتعلت . وخرّج آبن المبارك من حديث العباس بن عبد المطلب قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار
بالخيل فى سبيل الله تبــارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَنْ أقرأ منا
من أعلمُ منا ؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل ترون فى أولئكم من خير" ؟ قالوا لا . قال :
" أولئك منكم وأولئك من هذه الأمّة وأولئك هم وقود النار" .

قوله تعــالى : ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

الدأب العــادة والشأن . ودأب الرجل فى عمــله يدأب دأبا ودءوبا إذا جدّ وآجتهد ،
وأدأبته أنا . وأدأب بعيره إذا جهدَه فى السير . والدائبان الليل والنهــار . قال أبو حاتم :
وسمعت يعقوب يذكر « كدَأَب » بفتح الهمــزة ، وقال لى وأنا غُلَيِّم : على أىّ شىء يجــوز
« كدَأَب » ؟ فقلت له : أظنه من دَئِبَ يدأَب دَأَباً . فقبِل ذلك مِنى وتعجب من جودة
تقديرى على صِغرى ؛ ولا أدرى أيقال أم لا . قال النحاس : « وهذا القول خطأ ، لا يقال

(١) كذا فى الأصول . والذى فى لسان العــرب وغيره من معجمات اللغة أنه القرق (بفتح القاف وكسر الراء)
والقرق (بفتح القاف والراء) والقرق (بكسر القاف وسكون الراء) . والقاع القرق : الطيب الذى لا حجارة فيه .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٥ .

البتة دَئِب، وإنما يقال : دَأَب يدْأَب دُءُوبا [ودَأْبا](١)؛ هكذا حكى النحويون، منهم الفرّاء حكاه فى كتاب المصادر؛ كما قال آمرؤ القيس :

كدأْبِك مِن أم الحُوَيْرث قبلَها * وجارتِها أمِّ الرَّبَابِ بمأْسَلِ(٢)

فأمّا الدَّأَب فإنه يجوز؛ كما يقال : شَعْر وشَعَر ونَهْر ونَهَر؛ لأن فيه حرفا من حروف الحلق» .
وآختلفوا فى الكاف؛ فقيل : هى فى موضع رفع تقديره دأْبُهم كدأْب آل فرعون، أى صنيع الكفّار معك كصنيع آل فرعون مع موسى . وزعم الفرّاء أن المعنى : كفرت العرب ككفر آل فرعون . قال النحاس : لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا، لأن كفروا داخلة فى الصِّلة . وقيل: هى متعلقة بـ«فأَخَذَهُمُ اللهُ»، أى أخذهم أخذا كما أخذ آل فرعون . وقيل : هى متعلقة بقوله «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» أى لم تُغْنِ عنهم غَناء كما لم تُغن الأموال والأولاد عن آل فرعون . وهذا جواب لمن تخلّف عن الجهاد وقال : شغلتنا أموالنا وأهلونا .
ويصح أن يعمل فيه فعلٌ مقدّر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه فى نفس الآحتراق . ويؤيد هذا المعنى «... وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»(٣) . والقول الأوّل أرجح، وآختاره غير واحد من العلماء .
قال آبن عرفة : «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» أى كعادة آل فرعون . يقول : آعتاد هؤلاء الكفرة الإلحاد والإعنات للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما آعتاد آل فرعون من إعنات الأنبياء؛ وقال معناه الأزهريّ . فأمّا قوله فى سورة (الأنفال) «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ»(٤) فالمعنى جُوزِى هؤلاء بالقتل والأسر كما جُوزِى آل فرعون بالغرق والهلاك .

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوّة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدّلالة على الوحدانية . ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس . (٢) أم الحويرث : هى «هر» أم الحارث بن حصين آبن ضمضم الكلابى، وكان آمرؤ القيس يشبب بها فى أشعاره . وأم الرباب من كلب أيضا . ومأسل : موضع . يقول : لقيت من وقوفك على هذه الديار وتذكرك أهلها كما لقيت من أم الحويرث وجارتها . (عن شرح المعلقات) .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣١٨ (٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩

قوله تعـالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

يعنى اليهود . قال محمد بن إسحاق : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر وقدم المدينة جمع اليهود فقال : "يا معشر اليهود آحذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم"، فقالوا : يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت أقواما أغمارا (١) لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة ! والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس . فأنزل الله تعالى « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ» بالتاء يعنى اليهود: أى تهزمون «وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ» فى الآخرة. فهذه رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن آبن عباس . وفى رواية أبى صالح عنه أن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أُحد نزلت. فالمعنى على هذا «سَيُغْلَبُونَ» بالياء، يعنى قريشا، «وَيُحْشَرُونَ» بالياء فيهما ، وهى قراءة نافع .

قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يعنى جهنم ؛ هذا ظاهر الآية . وقال مجاهد : المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأن المعنى : بئس فعلهم الذى أدّاهم إلى جهنم .

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أى علامة . وقال « كان » ولم يقل « كانت» لأن «آية» تأنيثها غير حقيقى. وقيل: ردّها إلى البيان، أى قد كان لكم بيان ؛ فذهب إلى المعنى وترك اللفظ ؛ كقول آمرئ القيس :

---

(١) الأغمار : جمع غمر (بضم) وهو الجاهل الغرّ الذى لم يجرّب الأمور .

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ * كَخُرْعُوبَةِ الْبَانَةِ الْمُنْفَطِرْ (١)

ولم يقل المنفطرة؛ لأنه ذهب إلى القضيب. وقال الفرّاء: ذكّره لأنه فرّق بينهما بالصفة، فلما حالت الصفة بين الاسم والفعل ذُكِّر الفعل. وقد مضى هذا المعنى في البقرة في قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ» (٢).

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يعني المسلمين والمشركين يوم بدر ﴿فِئَةٌ﴾ قرأ الجمهور «فئة» بالرفع، بمعنى إحداهما فئة. وقرأ الحسن ومجاهد «فِئَةٍ» بالخفض «وأُخْرَى كَافِرَةٍ» على البدل. وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب فيهما. قال أحمد بن يحيى: ويجوز النصب على الحال، أي التقتا مختلفتين مؤمنة وكافرة. قال الزجاج: النصب بمعنى أعني. وسمِّيت الجماعة من الناس فئة لأنها يُفَاء إليها، أي يرجع إليها في وقت الشدّة. وقال الزجاج: الفئة الفرقة، مأخوذة من فَأَوْتُ رأسه بالسيف — ويقال: فأيته — إذا فلقته (٣). ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بَدْر. واختلف من المخاطب بها؛ فقيل: يحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، ويحتمل أن يخاطب بها جميع الكفار، ويحتمل أن يخاطب بها يهود المدينة؛ وبكل احتمال منها قد قال قوم. وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت النفوس وتشجيعها حتى يقدموا على مثليهم وأمثالهم كما قد وقع.

قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال أبو علىّ: الرؤية في هذه الآية رؤية عين؛ ولذلك تعدّت إلى مفعول واحد. قال مكىّ والمهدوىّ: يدل عليه «رَأْيَ الْعَيْنِ». وقرأ نافع «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء والباقون بالياء (٤). ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في «ترونهم». والجمهور من الناس على أن الفاعل بترون هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار. وأنكر أبو عمرو أن يقرأ

---

(١) البرهرهة: الرقيقة الجلد، أو هي الملساء المترجرجة. والرؤدة والرءودة: الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء. والرخصة: اللينة الخلق. والخرعوبة: القضيب الغض اللدن. والبانة: واحد شجر البان. والمنفطر: المتشقق. يقال: قد انفطر العود إذا انشق وأخرج ورقه. (عن شرح الديوان).

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢٥٧، وص ٢٦٨

(٣) الذى في نسخ: أ و ب و جـ: قلعته، والمثبت ما في المعاجم.

(٤) الذى في تفسير النيسابورى: «ترونهم بتاء الخطاب أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب الباقون بالياء».

« ترونهم » بالتاء؛ قال : ولو كان كذلك لكان مِثليكم . قال النحاس : وذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون مِثلى أصحابكم . قال مكىّ : « تَرَوْنَهُم » بالتاء جرى على الخطاب فى « لَكُمْ » فيحسن أن يكون الخطاب للسلمين ، والهاء والميم للشركين . وقد كان يلزم من قرأ بالتاء أن يقرأ مثليكم بالكاف ، وذلك لا يجوز لمخالفة الخط ؛ ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »(١) ، وقوله تعالى : « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ »(٢) فخاطب ثم قال : « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » فرجع إلى الغيبة . فالهاء والميم فى « مِثْلَيْهِم » يحتمل أن يكون للشركين، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلْىْ ما هم عليه من العدد؛ وهو بعيد فى المعنى؛ لأن الله تعالى لم يُكَثِّر المشركين فى أعين المسلمين بل أعلمنا أنه قلّلهم فى أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مِثليكم فى العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلّل الله المشركين فى أعين المسلمين فأراهم إياهم مِثلَىْ عِدّتهم لتقوى أنفسُهم ويقع التجاسُر، وقد كانوا أُعلِموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، وقلّل المسلمين فى أعين المشركين ليجترئوا عليهم فينْفُذ حكم الله فيهم . ويحتمل أن يكون الضمير فى «مِثلَيْهِم» للسلمين،أى ترون أيها المسلمون المسلمين مِثلَىْ ما أنتم عليه من العدد، أى ترون أنفسكم مثلَىْ عددكم؛ فعل الله ذلك بهم لتقوى أنفسهم على لقاء المشركين . والتأويل الأوّل أولى؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا »(٣) وقوله : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا» . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين؟ قال : أظنهم مائة . فلما أخذنا الأسارى أخبرونا أنهم كانوا ألفا . وحكى الطبرى عن قوم أنهم قالوا : بل كثّر الله عدد المؤمنين فى عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضِعفيهم . وضعّف الطبرى هذا القول . قال ابن عطية : وكذلك هو مردود من جهات . بل قلّل الله المشركين فى أعين المؤمنين كما تقدّم . وعلى هذا التأويل كان يكون « ترون » للكافرين، أى ترون أيها الكافرون المؤمنين مثليهم ، ويحتمل مثليكم ، على ما تقدّم . وزعم الفرّاء أن المعنى

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٥ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٢

ترونهم مثليهم ثلاثة أمثالهم . وهو بعيدٌ غير معروف فى اللغة . قال الزجاج : وهذا باب الغلط، فيه غلط فى جميع المقاييس؛ لأنا إنما نعقل مثل الشيء مساوياً له ، ونعقل مثليه ما يساويه مرتين . قال ابن كيسان : وقد بين الفرّاء قوله بأن قال : كما تقول وعندك عبدٌ : أحتاج إلى مثله ، فأنت محتاج إليه وإلى مثله . وتقول : أحتاج إلى مثليه، فأنت محتاج إلى ثلاثة . والمعنى على خلاف ما قال، واللغةُ . والذى أوقع الفرّاء فى هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بدر؛ فتوهّم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عِدّتهم، وهذا بعيد وليس المعنى عليه . وإنما أراهم الله على غير عِدّتهم لجهتين : إحداهما أنه رأى الصلاح فى ذلك؛ لأن المؤمنين تقوى قلوبهم بذلك . والأخرى أنه آية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى ذكر وقعة بدر(1) إن شاء الله تعالى . وأمّا قراءة الياء فقال ابن كيسان : الهاء والميم فى « يرونهم » عائدة على « وَأُخْرَى كَافِرَةٌ » والهاء والميم فى « مثليهم » عائدة على « فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وهذا من الإضمار الذى يدل عليه سياق الكلام ، وهو قوله : « يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ » . فدل ذلك على أن الكافرين كانوا مِثْلَي المسلمين فى رأى العين وثلاثة أمثالهم فى العدد . قال : والرؤية هنا لليهود . وقال مكيّ : الرؤية للفئة المقاتلة فى سبيل الله، والمرئية الفئة الكافرة؛ أى ترى الفئةُ المقاتلة فى سبيل الله الفئةَ الكافرة مِثْلَي الفئة المؤمنة ، وقد كانت الفئة الكافرة ثلاثة أمثال المؤمنة فقلّلهم الله فى أعينهم على ما تقدّم . والخطاب فى « لكم » لليهود . وقرأ ابن عباس وطلحة « تُرَوْنَهم » بضم التاء، والسلميّ بالتاء مضمومة على ما لم يسم فاعله .

﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ تقدّم معناه والحمد لله .

قوله تعالى : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾

(1) فى ص ١٩٠ فما بعد من هذا الجزء .

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ زين من التزيين . وآختلف الناس مَن المزيِّن؛ فقالت فرقةٌ : الله زيّن ذلك ؛ وهو ظاهر قول عمــر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكــره البخاري . وفى التنزيل : «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا»(١) ؛ ولمـا قال عمر : الآن يارب حين زيّنتها لنا ! نزلت « قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ » وقالت فرقة : المزيِّن هو الشيطان؛ وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال : مَنْ زيّنها؟ ما أحدٌ أشدّ لها ذمّاً من خالقها . فتزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للآنتفاع وإنشاء الجِبِلّة على الميل إلى هذه الأشياء . وتزيين الشيطان إنما هو بالوَسْوَسة والخديعة وتحسين أخْذها من غير وجوهها . والآية على كلا الوجهين آبتداءُ وعظ لجميع الناس، وفى ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم . وقرأ الجمهور « زُيِّنَ » على بناء الفعل للفعول، ورفع «حُبُّ» . وقرأ الضحاك ومجاهد «زَيَّنَ» على بناء الفعل للفاعل، ونصب « حُبَّ » . وحركت الهاء من « الشَّهَوَاتِ » فرقا بين الآسم والنعت . والشّهوات جمع شَهْوة وهى معروفة . ورجل شهوان للشئ(٢)، وشئ شهىّ أى مُشْتَهًى . وآتباع الشهوات مردٍ وطاعتها مهلكة . وفى صحيح مسلم : " حُفَّتِ الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات" رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لاتنال إلا بقطع مفاوز المكاره و بالصبر عليها . وأن النار لا يُنْجَى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "طريق الجنة حَزْنٌ(٣) بَرَبْوة وطريق النار سهل بسَهْوَة"؛ وهو معنى قوله : " حفت الجنة بالمكاره وحفت النــار بالشهوات" . أى طريق الجنة صعبة المسلك فيه أعلى ما يكون من الرَّوابى، وطريق النار سهل لا غِلظ فيه ولا وعورة، وهو معنى قوله " سهل بسهوة " وهو بالسين المهملة .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣

(٢) هذه عبارة الصحاح الذى يعتمد عليه المؤلف كثيرا . وفى الأصول : « الشهوان للشيء » .

(٣) الحزن (بفتح فسكون) : المكان الغليظ الخشن . والربوة (بالضم والفتح) : ما آرتفع من الأرض . والسهوة : الأرض اللينة التربة .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهن؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تركت بعدى فتنةً أشدَّ على الرجال من النساء" أخرجه البخاريّ ومسلم. ففتنة النساء أشدّ من جميع الأشياء. ويقال: فى النساء فتنتان، وفى الأولاد فتنة واحدة. فأمّا اللتان فى النساء فإحداهما أن تؤدّى إلى قطع الرحم؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمّهات والأخوات. والثانية يُبتلى بجمع المال من الحلال والحرام. وأمّا البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ٱبتُلِي بجمع المال لأجلهم. وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُسْكِنوا نساءكم الغُرَف ولا تُعَلِّموهنّ الكِتاب"(١). حذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن فى إسكانهن الغرف تطلّعا إلى الرجال، وليس فى ذلك تحصينٌ لهن ولا سِتْر؛ لأنهن قد يُشْرِفْن على الرجال فتحدُث الفتنة والبلاء، ولأنهن قد خُلِقْن من الرجل؛ فهِمّتها فى الرجل والرجلُ خُلِق فيه الشهوة وجُعِلَتْ سَكَنًا له؛ فغير مأمونٍ كل واحد منهما على صاحبه. وفى تعلمهن الكتاب هذا المعنى من الفتنة وأشد. وفى كتاب الشِّهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أعْرُوا النساء يَلْزَمْن الحِجَال". فعلى الإنسان إذا لم يصبر فى هذه الأزمان أن يبحث عن ذات الدِّين ليسلَم له الدِّين؛ قال صلى الله عليه وسلم: "عَلَيْكَ بذاتِ الدين تَرِبَتْ(٢) يداك" أخرجه مسلم عن أبى هريرة. وفى سنن ٱبن ماجه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَزَوَّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنُهن أن يُرْدِيهن ولا تزوجوهنّ لأموالهن فعسى أموالهن أن تُطْغِيَهن ولكن تَزوجوهن على الدِّين ولأَمَةٌ سَوْداء خَرْماء(٣) ذات دِين أفضلُ".

الثالثــة — قوله تعالى: ﴿وَالْبَنِينَ﴾ عطف على ما قبله. وواحد من البنين ٱبن. قال الله تعالى مخبرا عن نوح: "إنّ ٱبني مِنْ أَهْلِي(٤)". وتقول فى التصغير «بُنَيّ» كما قال لقمان. وفى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأشعث بن قيس: "هل لك من ٱبنة حمزة من

(١) الزيادة فى د. (٢) ترب الرجل: ٱفتقر، أى لصق بالتراب؛ وأترب إذا ٱستغنى. وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب، وإنما يريدون الحث والتحريض. (٣) خرماء: مقطوعة بعض الأنف ومثقوبة الأذن. (٤) راجع جـ ٩ ص ٤٥

ولد"؟ قال؟ نعم، لى منها غلام ولوددتُ أن لى به جَفنةً من طعام أطعمها من بقى من بنى جَبَلة .
فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "لئن قلت ذلك إنهم لثمرة القلوب وقرة الأعين وإنهم مع ذلك لمَجْبنة مَبْخلة مَحْزنة"(١) .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾ القناطير جمع قنطار، كما قال تعالى : «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا»(٢) وهو العُقْدة الكبيرة من المال، وقيل : هو آسم للمِعْيار الذى يُوزَن به؛ كما هو الرطل والربع . ويقال لما بَلَغ ذلك الوزنَ : هذا قنطار، أى يعدل القنطار. والعرب تقول : قَنْطَر الرجلُ إذا بلغ ماله [أن] يوزن بالقنطار . وقال الزجاج : القِنطار مأخوذ من عقد الشئ وإحكامه؛ تقول العرب : قنطرتَ الشىء إذا أحكمته ؛ ومنه سميت القنطرة لإحكامها . قال طرفة :

كَقَنْطَرَةِ الرُّومىِّ أقسم ربُّها * لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشَادُ بقَرْمَدِ(٣)

والقنطرة المعقودة؛ فكأن القنطار عَقْدُ مالٍ. وآختلف العلماء فى تحرير حَدِّه كم هو على أقوال عديدة ؛ فروى أُبَىُّ بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " القنطار ألف أُوقِيَّة ومائتا أوقية"؛ وقال بذلك معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وجماعة من العلماء . قال آبن عطية : «وهو أصح الأقوال ، لكن القنطار على هذا يختلف بآختلاف البلاد فى قدر الأوقية» . وقيل : آثنا عشر ألف أوقية؛ أسنده البستى فى مسنده الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " القنطار آثنا عشر ألف أُوقية الأوقية خير مما بين السماء والأرض " . وقال بهذا القول أبو هريرة أيضا . وفى مسند أبى محمد الدارمى عن أبى سعيد الخدرى قال : «من قرأ فى ليلة عشر آيات كُتِب من الذاكرين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بخمسمائة آية إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر» قيل :

---

(١) أى أن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من الموت فيصيب أبناءهم اليتم وآلامه ، ويجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغى أن ينفق فيه إيثارا لهم بالمال ، ويجعلونهم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٩٩ (٣) القرمد الآجر والحجارة .

وما القنطار ؟ قال : «ملء مَسْك ثَوْرٍ ذهبًا» . موقوف؛ وقال به أبو نَضْرة العَبْدى . وذكر ٱبن سِيدَه أنه هكذا بالسريانية . وقال النقاش عن ٱبن الكلبي أنه هكذا بلغة الروم . وقال ٱبن عباس والضحاك والحسن : ألف ومائتا مِثقالٍ من الفضة ؛ ورفعه الحسن . وعن ٱبن عباس : ٱثنا عشر ألف درهم من الفضة ، ومن الذهب ألف دينار دِية الرجل المسلم؛ وروى عن الحسن والضحاك . وقال سعيد بن المسيّب : ثمانون ألفا . قتادة : مائة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة . وقال أبو حمزة الثُّمَالى[1] : القنطار بإفريقية والأندلس ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة . السدى : أربعة آلاف مثقال . مجاهد : سبعون ألف مثقال ؛ وروى عن ٱبن عمر . وحكى مكى قولا أن القنطار أربعون أوقية من ذهب أو فضة؛ وقاله ٱبن سِيدَه فى المحكم، وقال : القنطار بلغة بَرْبَرْ ألف مثقال . وقال الربيع ابن أنس : القنطار المال الكثير بعضه على بعض؛ وهذا هو المعروف عند العرب، ومنه قوله : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا » أى مالا كثيرا . ومنه الحديث : " إنّ صفوان بن أمية قَنْطَر فى الجاهلية وقَنْطَر أبوه " أى صار له قنطار من المال . وعن الحكم : القنطار هو ما بين السماء والأرض . وٱختلفوا فى معنى «المُقَنْطَرَةِ» فقال الطبرى وغيره : معناه المُضَعَّفَة، وكأنّ القناطير ثلاثةٌ والمقنطرة تسعٌ . وروى عن الفرّاء أنه قال : القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسع قناطير . السدى : المقنطرة المضروبة حتى صارت دنانير أو دراهم . مكى : المقنطرة المُكَمَّلة ؛ وحكاه الهروى ؛ كما يقال : بِدَرٌ مُبَدَّرَة ، وآلافٌ مؤلَّفة . وقال بعضهم . ولهذا سمى البناء القنطرة لتكاثف البناء بعضه على بعض . ٱبن كيسان والفرّاء : لا تكون المقنطرة أقل من تسع قناطير . وقيل : المُقَنْطَرة إشارة إلى حضور المال وكونه عتيدا . وفى صحيح البستىّ عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين " .

---

(١) الثمالى (بضم المثلثة وتخفيف الميم ولام) : نسبة إلى ثمالة بطن من الأزد .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّـةِ ﴾ الذهب مؤنثة[(١)]؛ يقال : هى الذهب الحسنةُ، جمعها ذهاب وذُهُوب[(٢)] . ويجوز أن يكون جمع ذَهْبَة، ويجمع على الأذْهَاب . وذهب فلان مذهبا حسنا . والذهب : مكيالٌ لأهل اليمن . ورجل ذَهِبٌ إذا رأى معدِن الذَّهَب فدَهِش . والفضّة معروفة، وجمعها فِضَضٌ . فالذهب مأخوذة من الذَّهاب، والفضة مأخوذة من ٱنفضّ الشيء تفرّق؛ ومنه فَضَضْتُ القوم فٱنفضوا، أى فرّقتهم فتفرّقوا . وهـذا الاشتقاق يُشعر بزوالها وعدم ثُبوتهما كما هو مشاهد فى الوجود . ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم :

النّـار آخِرُ دِينـارٍ نطقتَ به * والهمُّ آخِرُ هذا الدِّرْهِمِ الجارى
والمرءُ بينهما إن كان ذا وَرَعٍ * مُعذَّبَ القلبِ بيْنَ الهَمِّ والنار

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ والخَيْلِ ﴾ الخيل مؤنثة . قال ٱبن كيسان : حُدِّثت عن أبى عبيدة أنه قال : واحد الخيل خائل، مثل طائر وطير، وضائن وضَيْن؛ وسُمّى الفرس بذلك لأنه يختال فى مشيه . وقال غيره : هو ٱسم جمع لا واحد له من لفظه، واحده فرس، كالقوم والرهْط والنساء والإبل ونحـوها . وفى الخبر من حديث علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الفرس من الريح ولذلك جعلها تطير بلا جناح" . وَهْبُ بن مُنَبِّه : خلقها من ريح الجَنُوب . قال وهب : فليس تسبيحة ولا تكبيرة ولا تهليلة يكبرها صاحبها إلا وهو يسمعها فيجيبه بمثلها . وسيأتى لذكر الخَيْل ووصفها فى ســورة « الأنفال »[(٣)] ما فيه كفايةٌ إن شاء الله تعالى . وفى الخبر : " إن الله عرض على آدم جميع الدواب ، فقيـل له : ٱختر منها واحدا فٱختار الفرس ؛ فقيل له : ٱخترت عِزّك؛ فصار ٱسمه الخير من هذا الوجه . وسمّيت خيلا لأنها مَوْسُـومَة بالعِزّ فمن ركبـه ٱعتز بنِحْلة الله له ويختال به على أعداء الله تعالى . وسمى فرسا

(١) هذا رأى المؤلف ، وقد ذكره شارح القاموس (فى مادة ذهب) . والمشهور أن الذهب يذكر و يؤنث كما فى معجمات اللغة .

(٢) فى الأصول : والذى فى معجمات اللغة أن الذهب يجمع على أذهاب وذهوب وذهبان (بكسر أوله) كبرق و برقان وذهبان (بضم أوله) كحمل وحملان . فلعل ما فى الأصول محرف عن « ذهبان » .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٥

لأنه يفترس مسافات الجو آفتراس الأسد وثبانا ، ويقطعها كالالتهام بيديه على شيء خبطا وتناولا ، وسمي عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، وإسماعيل عربي ، فصار له نِحلة من الله تعالى فسمي عربيا . وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الشيطان دارا فيها فرس عتيق " . وإنما سمي عتيقا لأنه قد تخلص من الهجانة (١) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " خير الخيل الأدهم الأقرح (٢) الأرثم [ثم الأقرح المحجل] (٣) طلق اليمين فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية " . أخرجه الترمذيّ عن أبي قتادة . وفي مسند الدارميّ عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ، إني أريد أن أشتري فرسا [فأيها أشتري] (٤)؟ قال : " اشترِ أدهم أرثم محجلا (٥) طلق اليمين أو من الكميت على هذه الشية تغنم وتسلم " . وروى النسائي عن أنس قال : لم يكن أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل . وروى الأئمة عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل ثلاثة لرجلٍ أجر ولرجلٍ سِتر ولرجلٍ وِزر " الحديث بطوله ، شهرته أغنت عن ذكره . وسيأتي ذكر أحكام الخيل في « الأنفال (٦) » و « النحل » بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ المُسَوَّمَةِ ﴾ يعني الراعية في المروج والمسارح ؛ قاله سعيد آبن جبير . يقال : سامت الدابة والشاة إذا سرحت تسوم سوما فهي سائمة . وأسمتها أنا إذا تركتها لذلك فهي مسامة . وسوّمتها تسويما فهي مُسوَّمة . وفي سنن آبن ماجه عن عليّ قال : نهى

---

(١) الهجين الذي ولدته برذونة من حصان عربي .

(٢) الأقرح : ما في جبهته قرحة ، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرة . والأرثم : أبيض الأنف والشفة العليا . والمحجل : أن تكون قوائمه الأربع بيضا يبلغ منها ثلث الوظيف (مستدق الذراع والساق أو ما فوق الرسغ إلى الساق) أو نصفه أو ثلثيه بعد أن يجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين والعرقوبين . وطلق اليمين : لاتحجيل فيها . والكميت : ما لونه بين السواد والحمرة . والشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره .

(٣) زيادة عن سنن الترمذيّ . (٤) زيادة عن مسند الدارمي .

(٥) في مسند الدارمي والأصول : « محجل » . (٦) راجع جـ ٨ ص ٣٦ وجـ ١٠ ص ٧٣

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السَّوْم قبل طلوع الشمس[(١)]، وعن ذبح ذوات الدرّ. السوم هنا في معنى الرعي. وقال الله عز وجل: «فِيهِ تُسِيمُونَ»[(٢)]. قال الأخطل:

مثل آبنِ بزعة[(٣)] أو كآخر مثــلِه * أولى لك[(٤)] آبن مسيمةِ الأجمــالِ

أراد آبن راعيــة الإبل. والسوام: كل بهيمة ترعى، وقيــل: المعدّة للجهــاد؛ قاله آبن زيد. مجاهد: المُسَوَّمَة المطهَّمَة الحسان. وقال عكرمة: ســوّمها الحسن؛ وآختاره النحاس، من قولهم: رجل وسِــيم. وروى عن آبن عباس أنه قال: المسومة المعلمة بشيات الخيل في وجوهها، من السيما وهي العلامة. وهذا مذهب الكسائيّ وأبي عبيدة.

قلت: كل ما ذكر يحتمله اللفظ، فتكون راعية مُعَدَّة حسانا مُعْلَمَة لِتُعرَفَ من غيرها. قال أبو زيد: أصل ذلك أن تجعل عليها صوفة أو علامة تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها في المرعى. وحكى آبن فارس اللغويّ في مجمله: المسوَّمَة المرْسَلَة وعليها ركبانها. وقال المؤرج[(٥)]: المسوّمة المكْوِية. المبرّد: المعروفة في البلدان. آبن كيسان: البُلْقُ. وكلها متقارب من السيما. قال النابغة:

وضُمْرٍ كالقِــدَاح مُسَوَّمَاتٍ * عليهــا مَعْشَرٌ أشْــبَاهُ جِنّ

الثامنــــة — قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامِ﴾ قال آبن كيسان: إذا قلت نَعَمٌ لم تكن إلا الإبل، فإذا قلت أنعامٌ وقعت للإبل وكل ما يرعى. قال الفرّاء: هو مُذَكَّرٌ ولا يؤنّث؛ يقولون:

---

(١) في حاشية السندي على سنن آبن ماجه واللسان (مادة سوم) عند الكلام عن هــذا الحديث: «السوم: أن يساوم بسلعته، ونهى عن ذلك في ذلك الوقت لأنه وقت يذكر الله فيه فلا يشتغل بغيره. ويحتمل أن المراد بالسوم الرعي؛ لأنها إذا رعت الرعي قبل شروق الشمس وهو عليه ند أصابها منه داء قتلها؛ وذلك معروف عند أهل المــال من العرب». (٢) راجع جـ ١٠ ص ٨٢

(٣) كذا في ديوانه. ورواية الأغاني (جـ ٨ ص ٣١٩ طبع دار الكتب المصرية): «كابن البزيعة ...». والذي في الأصــول: «ضل آبن زرعة ...». ويعني بآبن بزعة: شداد بن المنــذر أخا حصين الذهلي. وقوله «كآخر مثــله» يعني حوشب بن رؤيم. (٤) أولى لك: ويل لك، فهي كلمة تقال في مقام التهــديد والوعيد. وقال الأصمعي: معناه قاربه ما يهلكه، أي نزل به.

(٥) المؤرج (كمحدث): أبو فيد عمرو بن الحارث السدوسي النحوي البصري، أحد أئمة اللغة والأدب.

هذا نَعَمٌ واردٌ ، ويجمع أنعاما . قال الهروىّ : والنَّعَم يذكّر و يؤنّث، والأنعام المَواشى من الإبل والبقر والغنم ؛ و إذا قيل : النَّعَم فهو الإبل خاصّة . وقال حسان :

وكانت لا يزال بها أنيس * خِلالَ مُروجِها نَعَمٌ وشاءُ

وفى سنن ابن ماجه عن عروة البارِقىّ يرفعه قال : " الإبلُ عِزٌّ لأهلها والغنم بركةٌ والخيرُ معقودٌ فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة " . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشاة من دوابّ الجنة " . وفيه عن أبى هريرة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدَّجاج . وقال : عند اتخاذ الأغنياءِ الدجاج يأذن الله تعالى بهلاك القرى . وفيه عن أمّ هانِئ أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لها : " اتّخذى غنما فإنّ فيها بركة " . أخرجه عن أبى بكر بن أبى شَيْبة عن وكيع عن هِشام بن عُرْوة عن أبيه عن أمّ هانِئ ، إسناد صحيح .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ والحَرْثِ ﴾ الحرث هنا اسم لكل ما يُحْرَث، وهو مصدر سمّى به ؛ تقول : حَرَث الرجل حَرْثا إذا أثار الأرض لمعنى الفِلاَحَة ؛ فيقع اسم الحِراثة على زرع الحبوب وعلى الجَنّات وعلى غير ذلك من نوع الفِلاحة . وفى الحديث : " احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا " . يقال حرثت واحترثت . وفى حديث عبد الله " احْرُثوا هذا القرآن " أى فَتّشوه . قال ابن الأعرابىّ : الحرث التَّفْتيش ؛ وفى الحديث : " أصدقُ الأسماء الحارثُ " لأن الحارث هو الكاسب ، واحترات المال كسبه ، والمِحْرَاث مُسْعر النار والحَرَاث مَجْرى الوَتَر فى القوس، والجمع أحْرِثة، وأحرث الرجل ناقته أهْزَلها . وفى حديث معاوية : ما فعلتْ نَواضحُكم[1] ؟ قالوا : حَرَثْناها يومَ بَدْر . قال أبو عبيد : يعنون هزلناها ؛ يقال : حرثت الدابة وأحرثتها، لغتان . وفى صحيح البخارىّ عن أبى أُمامة الباهِلِىّ قال وقد رأى سِكّة[2]

(١) النواضح من الإبل التى يستقى عليها ؛ واحدها ناضح . والخطاب للأنصار : وقد قعدوا عن تلقيه لما حج ؛ وأراد معاوية بذكر نواضحهم تقريعا لهم وتعريضا ، لأنهم كانوا أهل زرع وحرث وسقى ؛ فأجابوه بما أسكته ، فهم يريدون بقولهم « هزلناها يوم بدر » التعريض بقتل أشياخه يوم بدر . (النهاية) .

(٢) السكّة (بكسر السين وتشديد الكاف المفتوحة) : الحديدة التى تحرث بها الأرض .

وشيئا من آلة الحرث فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يدخلُ هذا بيت قومٍ إلا دخله الذُّلّ". قيل : إنّ الذلّ هنا ما يلزَم أهل الشغلَ بالحرث من حقوق الأرض التي يطالبهم بها الأئمة والسلاطين. وقال المهلب : معنى قوله في هذا الحديث والله أعلم الحَضّ على مَعالى الأحوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات ؛ وذلك لِما خشِي النبيّ صلى الله عليه وسلم على أمّته من الاشتغال بالحرث وتضييع ركوب الخيل والجهاد في سبيل الله ؛ لأنهم إن اشتغلوا بالحرث غلبتهم الأمم الراكبة للخيل المتعيشة من مكاسبها ؛ فحضّهم على التعيُّش من الجهاد لا من الخلود(١) إلى عمارة الأرض ولزوم المِهْنة. ألا ترى أنّ عمر قال : تمعْدَدُوا(٢) واخْشَوْشِنوا واقطعوا الرُّكُبَ(٣) وثِبوا على الخيل وَثْباً لا تغلبنّكم عليها رعاة الإبل. فأمرهم بملازمة الخيل، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما مِن مسلم غَرَسَ غَرْسًا أو زَرَع زرعًا فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة".

قال العلماء : ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتموّل به صنف من الناس ؛ أمّا الذهب والفضة فيتموّل بها التجار، وأمّا الخيل المسوّمة فيتموّل بها الملوك، وأمّا الأنعام فيتموّل بها أهل البوادي، وأمّا الحرث فيتموّل بها أهل الرساتيق(٤). فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتموّل، فأمّا النساء والبنون ففتنة للجميع.

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ما يُتمتّع به فيها ثم يذهب ولا يبقى. وهذا منه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة. روى ابن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة". وفي الحديث : "ازهد في الدنيا يحبك الله" أي في متاعها من الجاه والمال الزائد على الضروري. قال صلى الله عليه وسلم : "ليس لابن آدم حق في سوى هذه

(١) اللغة الفصحى «من الإخلاد». (٢) يقال : تمعدد الغلام إذا شب وغلظ. وقيل : أراد تشبهوا بعيش معدّ بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف ؛ أي كونوا مثلهم ودعوا التنعم وزي العجم. (٣) في مسند الإمام أحمد بن حنبل : «وألقوا الركب» جمع ركاب : هي الرواحل من الإبل، أو جمع ركوب وهي كل ما يركب من دابة.
(٤) الرساتيق : السواد والقرى واحدها رستاق، وفي ز : البساتين.

الخصال بيتٌ يسكنه وثوبٌ يُوارِى عورتَه وجِلْف الخبز والمـاء" أخرجه الترمذى من حديث المِقدام بن معدِ يكرب . وسئل سهل بن عبد الله : بِمَ يسهل على العبد ترك الدنيا وكل الشهوات ؟ قال : بتشاغله بما أمِر به .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ إبتداءٌ وخبر . والمآب المرجع ؛ آب يؤوب إيابا إذا رجع ؛ قال امرؤ القيس .

وقد طوفت فى الآفاق حتى ٭ رضيتُ من الغَنيمَة بالإيابِ

وقال آخر :

وكلّ ذى غَيْبة يؤُوبُ ٭ وغائبُ المْوَتِ لا يؤوبُ

وأصل مآب مأوب، قلبت حركة الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مقال. ومعنى الآية تقليل الدنيا وتحقيرها والترغيب فى حسن المرجع إلى الله تعالى فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) ﴾

منتهى الاستفهام عند قوله « مِن ذَٰلِكُمْ » ، « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » خبر مقدم، و « جنات » رفْع بالابتداء . وقيل : منتهاه «عِندَ رَبِّهِمْ»، و «جنات» على هذا رفع بابتداء مضمر تقديره ذلك جنات . ويجوز على هذا التأويل « جَنَّاتٍ » بالخفض بدلًا من «خَيْرٍ» ولا يجوز ذلك على الأول . قال ابن عطية : وهذه الآية والتى قبلها نظير قوله عليه السلام : " تُنْكح المرأة لأربع لِمـالها وحسبها و جمالها ودينها فاظفر بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك[2] " خرّجه مسلم وغيره . فقوله " فَاظْفَرْ بذات الدين " مثال لهذه الآية . وما قبلُ مثالٌ للأولى . فذكر تعالى هذه تسليةً عن الدنيا وتقويةً لنفوس تاركيها . وقد تقدم فى البقرة معانى ألفاظ[3] هذه الآية .

(١) الجلف (بكسر فسكون) : الخبز وحده لا أُدم معه ؛ وقيل : هو الخبز الغليظ اليابس .

(٢) راجع هامشة ١ ص ٢٩ من هذا الجزء .		(٣) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ فما بعد .

والرضوان مصدر من الرضا ، وهو أنه إذا دخل أهل الجنةِ الجنة يقول الله تعالى لهم "تريدون شيئا أزيدكم" ؟ فيقولون : ياربنا وأى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : "رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا " خرّجه مسلم . وفى قوله تعالى : « واللهُ بَصيرٌ بِالعِبَادِ » وعدٌ ووَعِيدٌ .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿الَّذِينَ﴾ بدل من قوله «لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا» وإن شئت كان رفعا أى هم الذين، أونصبا على المدح . ﴿ رَبَّنَا ﴾ أى يا ربنا . ﴿ إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أى صدّقنا . ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ دعاء بالمغفرة . ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ تقـدّم فى البقرة (١) . ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ يعـنى عن المعـاصى والشهوات ، وقيل : على الطاعات . ﴿ والصَّادِقِينَ ﴾ أى فى الأفعال والأقوال ﴿والقَانِتِينَ﴾ الطائعين . ﴿ والمُنْفِقِينَ ﴾ يعنى فى سبيل الله . وقد تقدّم فى البقرة (٢) هذه المعانى على الكمال . ففسر تعالى فى هذه الآية أحوال المتقين الموعودين بالجنات .

وآختلف فى معـنى قوله تعـالى : ﴿ والمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ فقـال أنس بن مالك : هم السائلون المغفرة . قتادة : المصلّون .

قلت : ولا تناقض، فإنهم يصلون ويستغفرون . وخص السَّحَر بالذكر لأنه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام لبنيه : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى» (٣) : "إنه أخر ذلك إلى السحر" خرّجه الترمذى . وسيأتى . وسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم جبريل " أىّ الليل أسمع " ؟ فقال : "لا أدرى غير أنّ العرش يهتزّ عند السحر " . يقال سحر وسحر، بفتح الحاء وسكونها ، وقال الزجاج : السحر من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثانى ، وقال آبن زيد : السحر هو سدس الليل الآخر .

(١) راجع المسألة الثانية جـ٢ ص ٤٣٣ وراجع المسألة الخامسة جـ٣ ص ٢١٣
(٢) راجع جـ١ ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٣٣ ، ٣٧١
(٣) راجع جـ٩ ص ٢٦٢

قلت : أصح من هذا ما روى الأئمة عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأوّل فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر " فى رواية « حتى ينفجر الصبح » لفظ مسلم . وقد آختُلف فى تأويله ؛ وأولى ما قيل فيه ما جاء فى كتاب النّسائىّ مفسّرا عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله عز وجل يمهل حتى يمضى شطرُ الليل الأوّل ثم يأمر مناديا فيقول هل من داعٍ يُستجاب له هل من مستغفِر يغفر له هل من سائل يُعطى " . صححه أبو محمد عبد الحق ، وهو يرفع الإشكال و يوضح كل آحتمال ، وأنّ الأوّل من باب حذف المضاف ، أى ينزل ملَكُ ربنا فيقول . وقد روى «يُنزَل» بضم الياء ، وهو يبيّن ما ذكرنا ، و بالله توفيقنا . وقد أتينا على ذكره فى «الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى» .

مسألة — الآستغفار مندوبٌ إليه ، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين فى هذه الآية وغيرها فقال : «و بِالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»[(١)] . وقال أنس بن مالك : أُمِرنا أن نستغفر بالسحر سبعين آستغفارة . وقال سفيان الثورىّ : بلغنى أنه إذا كان أوّل الليل نادى منادٍ ليقم القانتون[(٢)] فيقومون كذلك يُصلّون إلى السحر ، فإذا كان عند السحر نادى منادٍ : أين المستغفرون فيستغفر أولئك ، و يقوم آخرون فيصلون فيلحقونهم . فإذا طلع الفجر نادى منادٍ : ألا ليقم الغافلون فيقومون من فرشهم كالموتى نُشروا من قبورهم . وروى عن أنس سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يقول إنى لأهمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتى و إلى المتحابّين فىّ و إلى المتهجدين والمستغفرين بالأسحار صرفت عنهم العذاب بهم " . قال مكحول : إذا كان فى أمّة خمسة عشر رجلا يستغفرون الله كل يوم خمسا وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامّة . ذكره أبو نعيم فى كتاب الحلية له . وقال نافع : كان آبن عمر يحيى[(٣)] الليل ثم

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٧　　(٢) فى نسخ الأصول : المستغفرين ، عدا : ح . فمنها التصويب .
(٣) فى أ : يقوم .

يقول : يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا . فيعاود الصلاة ثم يسأل ، فإذا قلت نعم قعد يستغفر . وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد يقول : يا ربّ ، أمرتنى فأطعتك ، وهذا سحرٌ فآغفر لى . فنظرت فإذا [هو](١) آبن مسعود .

قلت : فهذا كله يدل على أنه آستغفار باللسان مع حضور القلب ، لا ما قال آبن زيد أن المراد بالمستغفرين الذين يصلون صلاة الصبح فى جماعة . والله أعلم . وقال لقمان لآبنه : "يابنىّ لا يكن الدِّيك أكيسَ منك، ينادى بالأسحار وأنت نائم" . والمختار من لفظ الآستغفار ما رواه البخارى عن شدّاد بن أوس، وليس له فى الجامع غيره، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " سيد الآستغفار أن تقول اللهم أنت ربّى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما آستطعت أعوذ بك من شر ما صنعتُ أَبُوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فآغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت — قال — ومَنْ قالها من النهار مُوقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو مُوقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة" . وروى أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد من حديث آبن لَهِيعَةَ عن أبى صخر عن أبى معاوية عن سعيد بن جُبَيْر عن أبى الصَّهْباء البكرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ثم قال : " ألا أُعَلِّمك كلماتٍ تقولهنّ لو كانت ذنوبك كَمَدَبِّ النمل — أو كَمَدَبِّ الذّرّ — لغفرها الله لك على أنه مغفور لك : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فآغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " .

قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فلما نزلت هذه الآية خَرَرْنَ سُجّدا . وقال الكلبىّ : لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه

(١) فى نسخة : ز .

حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الذى يخرج فى آخر الزمان! . فلما دخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له : أنت محمد؟ قال "نعم" . قالا : وأنت أحمد؟ قال : "نعم" . قالا : نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَلَانى" . فقالا : أخبرنا عن أعظم[1] شهادة فى كتاب الله . فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ » فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام . وقال آبن كيسان : المهاجرون والأنصار . مقاتل : مؤمنوا أهل الكتاب . السدى والكلبيّ : المؤمنون كلهم؛ وهو الأظهر لأنه عام .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه وآسم ملائكته كما قرن آسم العلماء . وقال فى شرف العلم لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا[2] » . فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : "إنّ العلماء ورثة الأنبياء" . وقال : "العلماء أُمَنَاء الله على خلقه" . وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحلٌّ لهم فى الدِّين خطير . وخرّج أبو محمد عبد الغنيّ الحافظ من حديث بَرَكة آبن نَشيط — وهو عَنْكَل بن حكارك وتفسيره بركة بن نشيط — وكان حافظا، حدّثنا عمر آبن المؤمل حدّثنا محمد بن أبى الخصيب حدّثنا عنكل حدّثنا محمد بن إسحاق حدّثنا شريك عن أبى إسحاق عن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة" . وفى هذا الباب [حديث] عن أبى الدرداء خرّجه أبو داود .

الثالثــة — روى غالب القطان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليه . فلما كان ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هو

(١) فى ا : الأعظم . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٥

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » ، قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هـذه الشهادة ، وهى لى [عند الله](١) وديعة ، وأن الدين عند الله الإسلام — قالها مرارا — فغدوت إليه وودّعته ثم قلت : إنى سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدّثنى به . قال : والله لاحدّثتك به سنة . قال : فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة . قال : حدّثنى أبو وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُجَاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى عبدى عهد إلىّ وأنا أحقّ من وَفَى أَدْخِلوا عبدى الجنة " . قال أبو الفرج الجوزىّ : غالب القطّان هو غالب بن خَطّاف(٢) القطّان ، يروى عن الأعمش حديث " شهد الله " وهو حديث مُعْضَل(٣) . قال ابن عدىّ الضعف على حديثه بيِّن . وقال أحمد بن حنبل : غالب بن خطّاف القطّان ثِقةٌ ثقة . وقال ابن معين : ثِقة . وقال أبو حاتم : صدوق صالح .

قلت : يكفيك من عدالته وثقته أن خرّج له البخارىّ ومسلم فى كتابيهما ، وحسبك . وروى من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ عند منامه خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة " . ويقال من أقرّ بهـذه الشهادة عن عقد من قلبه فقد قام بالعدل . وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حىّ من أحياء(٤) العرب صنمٌ أو صنمان . فلما نزلت هـذه الآية أصبحت الأصنام قد خرت ساجدة لله .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ ﴾ أى بيّن وأعلم ، كما يقال : شهد فلان عند القاضى إذا بيّن وأعلم لمن الحقّ ، أو على مَنْ هو . قال الزجاج : الشاهد هو الذى يعلم الشىء ويبيّنه ، فقد دلّنا الله تعالى على وحدانيته بما خَلَق وبيّن . وقال أبو عُبَيْدة : « شهد الله » بمعنى قضى الله ، أى أعلم . وقال ابن عطية : وهذا مردود من جهات . وقرأ الكسائى بفتح « أنّ » فى قوله

(١) الزيادة فى نسخ ب ، ز ، جـ . (٢) بضم الخاء ، وقيل بفتحها .
(٣) المعضل : ما سقط من إسناده اثنان فصاعدا . (٤) فى ا .

«أنه لا إله إلا هو» وقوله «أن الدين» . قال المبرد : التقدير : أن الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو ، ثم حذفت الباء كما قال : أمرتك الخير . أى بالخير . قال الكسائى : أنصبهما جميعا ، بمعنى شهد الله أنه كذا ، وأن الدين عند الله . قال ابن كيسان : «أن» الثانية بدل من الأولى ؛ لأن الإسلام تفسير المعنى الذى هو التوحيد . وقرأ ابن عباس فيما حكى الكسائى «شهد الله إنه» بالكسر «أن الدين» بالفتح . والتقدير : شهد الله أن الدين الإسلام ، ثم ابتدأ فقال : إنه لا إله إلا هو . وقرأ أبو المهلب وكان قارئا — شهداء الله بالنصب على الحال ، وعنه « شهداء الله » . وروى شعبة عن عاصم عن زر عن أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ (١) «أن الدين عند الله الحنيفية (٢) لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية» . قال أبو بكر الأنبارى : ولا يخفى على ذى تمييز أن هذا الكلام من النبي صلى الله عليه وسلم على جهة التفسير ، أدخله بعض من نقل الحديث فى القرآن . و ﴿ قائما ﴾ نصب على الحال المؤكدة من اسمه تعالى فى قوله «شهد الله» أو من قوله «إلا هو» . وقال الفراء : هو نصب على القطع ، كان أصله القائم ، فلما قطعت الألف واللام نصب كقوله : «وله الدين واصبا» (٣) . وفى قراءة عبد الله « القائم بالقسط » على النعت ، والقسط العدل . ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ كرر لأن الأولى حلت محل الدعوى ، والشهادة الثانية حلت محل الحكم . وقال جعفر الصادق : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم ؛ يعنى قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ الدين فى هذه الآية الطاعة والملة ، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ؛ قاله أبو العالية ، وعليه جمهور المتكلمين . والأصل فى مسمى الإيمان

(١) فى ح : يقول . (٢) فى ح : لحنيفية . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١١٤

والإسلام التَّغايُر؛ لحديث جبريل[١] . وقد يكون بمعنى المُرادَفَة . فيسمى كل واحد منهما بآسم الآخر؛ كما فى حديث وفد عبد القيس[٢] وأنه أمرهم بالإيمان [بالله][٣] وحده وقال: "هل تدرون ما الإيمان"؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال: "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمسا من المغنم" الحديث . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بِضع وسبعون بابا فأدناها إماطة الأذى وأرفعها قول لا إله إلا الله" أخرجه التِّرمِذى . وزاد مسلم "والحياء شعبة من الإيمان" . ويكون أيضا بمعنى التداخل، وهو أن يطلق أحدهما ويراد به مسماه فى الأصل ومسمى الآخر، كما فى هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال؛ ومنه قوله عليه السلام: "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان" . أخرجه آبن ماجه، وقد تقدّم . والحقيقة هو الأوّل وضعا وشرعا، وما عداه من باب التوسع . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ الآية . أخبر تعالى عن آختلاف أهل الكتاب أنه كان على عِلْمٍ منهم بالحقائق، وأنه كان بغيا وطلبا للدنيا . قاله آبن عمر وغيره . وفى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: وما آختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ قاله الأخفش . قال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهى توبيخ لنصارى نَجْرَانَ . وقال الربيع بن أنس: المراد بها اليهود . ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعمّ اليهود والنصارى؛ أى «وما آختلف الذين أوتوا الكتاب» يعنى فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم «إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ» يعنى بيان صفته ونبوّته فى كتبهم . وقيل: أى وما آختلف الذين أوتوا الإنجيل[٤] فى أمر عيسى وفرّقوا فيه القول إلا من بعد ماجاءهم العلم بأن الله إله واحد، وأن عيسى عبد الله ورسوله . و «بَغْياً» نصب على المفعول من أجله، أو على الحال من "الذين" . والله تعالى أعلم .

(١) راجع هذا الحديث فى صحيحى البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان الجزء الأوّل .

(٢) هو عبد القيس بن أفصى بن دعمى، أبو قبيلة، كانوا ينزلون البحرين وكان قدومهم عام الفتح وعلى رأسهم عبد الله بن عوف الأشج . (راجع كتاب الطبقات الكبير ج ١ قسم ثان ص ٥٤ طبع أوربا، وشرح القسطلانى ج ١ ص ١٩٣ طبع بولاق) . (٣) فى ب، وز، وا، ود . (٤) فى ا، ود: الكتاب .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات ، فأَسْنِدْ أمرك إلى ما كُلِّفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك . وقوله « وَجْهِيَ » بمعنى ذاتى ؛ ومنه الحديث "سجد وجهى للذى خلقه وصوّره" . وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد ؛ كما تقول : خرج فلان فى وجه كذا . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة مستوفى(١) ؛ والأوّل أولى . وعبر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس . وقال :

أسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ * له المُزْنُ تحمل عَذْباً زُلالَا

وقد قال حذاق المتكلمين فى قوله تعالى : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ(٢) » : إنها عبارة عن الذات ، وقيل : العمل الذى يقصد به وجهه . وقوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » « من » فى محل رفع عطفا على التاء فى قوله « أَسْلَمْتُ » أى ومن اتبعن أسلم أيضا ، وجاز العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد للفصل بينهما . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء « اتبعنِ » على الأصل ، وحذف الآخرون اتباعا للصحف إذ وقعت فيه بغير ياء . وقال الشاعر :

ليس تُخفى يَسارتى قدرَ يوم * ولقد تُخْفِ شِيمتى إعسارى

قوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعنى اليهود والنصارى « والأميين » الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب . « أَأَسْلَمْتُمْ » استفهام معناه التقرير وفى ضمنه الأمر ، أى أسلموا ؛ كذا قال الطبرىّ وغيره . وقال الزجاج : « أأسلمتم » تهديد . وهذا حسن ؛ لأن المعنى أأسلمتم أم لا . وجاءت العبارة فى قوله « فَقَدِ اهْتَدَوا » بالماضى مبالغة فى الإخبار بوقوع الهدى لهم

(١) راجع ج٢ ص ٧٥	(٢) راجع ج ١٧ ص ١٦٥

وتحصيله . و« البلاغ » مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل، أى إنمـا عليك أن تُبلِّغ . وقيل: إنه ممـا نسخ بالجهاد . وقال آبن عطية : وهـذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأمّا على ظاهر نزول هذه الآيات فى وَفْد نجران فإنمـا المعنى فإنمـا عليك أن تبلغ ما أُنزل إليك بما فيه من قتال وغيره .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّين ﴾ قال أبو العباس المبرد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم(1) بالإسلام فقتلوهم؛ ففيهم نزلت هذه الآية. وكذلك قال معقل بن أبى مسكين : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجيء إلى بنى إسرائيـل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن آتبعهم فيأمرون بالقسط ، أى بالعدل ، فيُقْتَلون. وقد روى عن آبن مسعود قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، بئس القوم قوم يمشى المؤمن بينهم بالتّقيّة" وروى أبو عبيدة بن الجراح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيـا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة رجل وآثنا عشر رجلا من عُبّاد بنى إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعا فى آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية" . ذكره المهدوىّ وغيره . وروى شعبة عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم سبعين نبيا ثم تقوم سُوقُ بَقْلِهم من آخر

(1) فى ز : يأمرونهم .

النهار . فإن قال قائل : الذين وُعِظوا بهذا لم يقتلوا نبيا . فالجواب عن هذا أنهم رضوا فعل من قتل فكانوا بمنزلته ؛ وأيضا فإنهم قاتلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهموا بقتلهم ؛ قال الله عز وجل : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ »(١) .

الثانيــة — دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان واجبا فى الأمم المتقــدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة . قال الحسن قال النبيّ صلى الله عليــه وسلم : "من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه" . وعن درّة بنت أبى لهب قالت : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : مَن خيرُ الناس يارسول الله؟ قال : "آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لرحمه". وفى التنزيل: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» ثم قال : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(٢) . فجعل تعـالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ؛ فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليــه . ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد ، و إنمـا يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه ، والتعزير إلى رأيه ، والحبس والإطلاق له ، والنفى والتغريب ؛ فينصب فى كل بلدة رجلا صالحا قويا عالمـا أمينا و يأمره بذلك ، و يمضى الحدود على وجهها من غير زيادة . قال الله تعالى : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ »(٣) .

الثالثـــة — وليس من شرط النّاهى أن يكون عدلا عند أهــل السنة ، خلافا للمبتدعة حيث تقول : لا يغيره إلا عَدْل . وهذا ساقط ؛ فإن العدالة محصورة فى القليل من الخلق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عام فى جميع الناس . فإن تشبثوا بقوله تعالى : «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ»(٤) وقوله : « كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ »(٥) ونحوه ، قيل لهم : إنمـا وقع الذم ها هنا على ارتكاب ما نهى عنــه لا على نهيه عن المنكر . ولا شك

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ وص ٢٠٢ (٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٢
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٦٤ (٥) راجع جـ ١٨ ص ٨١

فى أن النهى عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه ، ولذلك يدور فى جهنم كما يدور الحمار بالرّحى ؛ كما بيناه فى البقرة عند قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ »(١) .

الرابعـــة — أجمع المسلمون فيما ذكر ٱبن عبـد البر أنّ المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدّى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره؛ فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليـه أكثر من ذلك . و إذا أنكر بقلبه فقد أدّى ما عليـه إذا لم يستطع سوى ذلك . قال : والأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تأكيد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدا ولكنها مقيدة بالاستطاعة . قال الحسن : إنمـا يُكلَّم مؤمن يُرجى أو جاهل يُعلَّم ؛ فأمّا من وضع سيفه أو سوطه فقال : ٱتّقِنى ٱتّقِنى فمـا لك وله . وقال ٱبن مسعود : بِحسب المرء إذا رأى منكرا لا يستطيع تغييره أن يعـلم الله من قلبـه أنه له كاره . وروى ٱبن لَهِيعَة عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليـه وسلم : ”لا يحل لمؤمن أن يُذِلّ نفسه“ . قالوا : يا رســول الله وما إذلاله نفسه ؟ قال : ”يتعرّض من البلاء لِمـا لا يقوم له“ .

قلت : وخرّجه ٱبن ماجه عن علىّ بن زيد بن جدعان عن الحسن بن جندب عن حذيفة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد تُكُلِّم فيــه . وروى عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكرا لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات « اللهم إنّ هــذا منكر » فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليــه ، وزعم ٱبن العربىّ أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضربَ أو القتلَ جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغَرَر(٢) ، و إن لم يرجُ زواله فأىّ فائدة عنده . قال: والذى عندى أن النية إذا خلصت فليقتحم كيف ما كان ولا يبالى .

قلت : هذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع . وهــذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع خوف القتل . وقال تعالى : « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ »(٣) . وهذا إشارة إلى الإذاية .

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٦٥ (٢) الغرر : الخطر . المصباح . (٣) راجع ج ١٤ ص ٦٨

الخامسة — روى الأئمة عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان". قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، و باللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء، يعنى عوام الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهى فليفعله، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو بالقتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل؛ وهذا تُلُقِّىَ من قول الله تعالى: «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»(1). وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل(2) على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شئ عليه. ولو رأى زيد عمرا وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادرا عليه ولا راضيا به؛ حتى لقد قال العلماء: لو فرضنا [قودا](3). وقيل: كل بلدة يكون فيها أربعةٌ فأهلها معصومون من البلاء: إمامٌ عادلٌ لا يظلم، وعالِم على سبيل الهُدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ويُحرِّضون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى.

السادسة — روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال: "إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم". قلنا: يا رسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال: "المُلك فى صِغاركم والفاحشة فى كِبارِكم والعلم فى رُذَّالتكم". قال زيد: تفسير معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم "والعلم فى رذالتكم" إذا كان العلم فى الفساق. خرّجه ابن ماجه. وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى «المائدة»(4) وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدّم معنى «فبشّرهم» «وحَبِطَتْ»(5) فى البقرة فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

(1) راجع جـ ١٦ ص ٣١٩ (2) فى د: القاتل. (3) بياض فى أكثر الأصول. الزيادة من د و ب: يعنى: لو فرضنا أن دفع الجانى أدى إلى موته فأخذ فيه بالقود فلا عليه لأنه ناج عند الله. والله أعلم.
(4) راجع جـ ٦ ص ٢٥٣ (5) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ و جـ ٣ ص ٤٨

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قال ابن عباس : هذه الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْرَاس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نُعَيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنى على مِلة إبراهيم" . فقالا : فإن إبراهيم كان يهوديا . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم" . فأبيا عليه فنزلت الآية . وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هلموا إلى التوراة ففيها صفتى" فأبوا . وقرأ الجمهور «لِيَحْكُمَ» وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع «لِيُحكَم» بضم الياء . والقراءة الأولى أحسن ؛ لقوله تعالى : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » .

الثانيـــة ـــ فى هـذه الآية دليـل على وجوب ارتفاع المدعو إلى الحاكم لأنه دعى إلى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفا يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر المخالِف والمخالَف . وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية . وهـذا الحكم الذى ذكرناه مبيّن فى التنزيل فى سـورة « النور » فى قوله تعـالى : « وإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ـــ إلى قوله ـــ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(1) . وأسند الزهرىّ عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له" . قال ابن العربىّ : وهذا حديث باطل . أمّا قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح . وأمّا قوله «فلا حق له» فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد المالكىّ : واجب على كل من دُعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يَعلم أنّ الحاكم فاسق ، أو يَعلم عداوة(2) من المدعى والمدعى عليه .

الثالثـــة ـــ وفيهـا دليل على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما علمنا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتى بيانه . وإنمـا لا نقرأ التوراة ولا نعمـل

(1) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٣ فما بعد .
(2) فى الأصول : عداوة بين المدعى والمدعى عليه ؛ والتصويب من ز .

بما فيها لأن من هى فى يده غير أمين عليها وقد غيرها و بدلها ، ولو علمنا أن شيئا منها لم يتغير ولم يتبدّل جاز لنا قراءته . ونحو ذلك روى عن عمر حيث قال لكعب : إن كنت تعلم أنها التوراة التى أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها . وكان عليه السلام عالما بما لم يغيّر منها فلذلك دعاهم إليها و إلى الحكم بها . وسيأتى بيان هذا فى « المائدة »(١) والأخبار الواردة فى ذلك إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إن هذه الآية نزلت فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

إشارة إلى التولّى والإعراض ، واغترار منهم فى قولهم : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ »(٢) إلى غير ذلك من أقوالهم . وقد مضى الكلام فى معنى قولهم: « لن تمسنا النار» فى البقرة(٣) .

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته على جهة التوقيف والتعجُّب ، أى فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة واضمحلت عنهم تلك الزخارف التى ادّعوها فى الدنيا ، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم(٤) وقبيح أعمالهم . واللام فى قوله «ليوم» بمعنى «فى» ؛ قاله الكسائى . وقال البصريون : المعنى لحساب يوم . الطبرىّ : لما يحدث فى يوم .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٢   (٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٠   (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠   (٤) فى د: اجترامهم .

قال علىّ رضى الله عنه قال النبىّ صلّى الله عليــه وسلم : " لمـا أراد الله تعالى أن ينزل فاتحـة الكتاب وآية الكرسى وشهد الله وقل اللهمّ مالك الملك إلى قوله بغير حسـاب تعلقن بالعرش وليس بينهن و بين الله حجاب وقلن يا رب تهبط بنـا دار الذنوب وإلى من يعصيك فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا يقرأكنّ عبد عقب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس على ما كان منه، وإلا نظرت إليه بعينى المكنونة فى كل يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له فى كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت " . وقال معاذ بن جبل : آحتبست عن النبىّ صلى الله عليه وسلم يوما فلم أصلّ معه الجمعة فقال : "يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة" ؟ قلت : يا رسول الله، كان ليوحنا بن باريا اليهودىّ علىّ أوقيّة من تِبْر وكان على بابى يرصدنى فأشفقت أن يحبسنى دونك . قال : " أتحب يا معاذ أن يقضى الله دينـك " ؟ قلت نعم . قال : " قل كل يوم قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ — إلى قوله — بِغَيْرِ حِسَابٍ رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء اقض عنى دينى فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا لأداه الله عنك". خرّجه أبو نعيم الحافظ، أيضا عن عطاء الخراسانىّ أن معاذ بن جبل قال : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم آياتٍ من القرآن — أو كلماتٍ — ما فى الأرض مسلم يدعو بهنّ وهو مكروب أو غارم أو ذو دَيْن إلا قضى الله عنه وفرّج همه ، آحتبست عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذكره . غريب من حديث عطاء أرسـله عن معاذ . وقال آبن عبـاس وأنس بن مالك : لمـا آفتتح رسول الله صلى الله عليه وسـلم مكة ووعد أمّته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم! هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران فى قولهم : إن عيسى هو الله؛ وذلك أن هذه الأوصاف تبيّن لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس فى شىء منها . قال آبن إسحاق : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بعنادهم وكفرهم ، وأن عيسى صلى الله عليه وسلم وإن كان الله تعالى

أعطاه آياتٍ تدل على نبوّته من إحياء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المنفرد بهذه الأشياء؛ من قوله : « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ » . وقوله : « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلو كان عيسى إلها كان هذا إليه؛ فكان فى ذلك آعتبار وآية بينة[(١)] .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ آختلف النحويون فى تركيب لفظة «اللهم» بعد إجماعهم أنها مضمومة الهاء مشدّدة الميم المفتوحة، وأنها منادى؛ وقد جاءت مخففة الميم فى قول الأعشى :

كدعوة من أبى رَبَاح * يسمعها اللَّهُمُ[(٢)] الكُبَار

قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم يا ألله ، فلما آستعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو « يا » جعلوا بدله هذه الميم المشدّدة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضا من حرفين وهما الياء والألف ، والضمة فى الهاء هى ضمة الآسم المنادى المفرد . وذهب الفرّاء والكوفيون إلى أن الأصل فى اللهم يا ألله أُمَّنا بخير؛ فحذف وخلط الكلمتين، وأنّ الضمة التى فى الهاء هى الضمة التى كانت فى أُمَّنَا لما حذفت الهمزة آنتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطإ العظيم، والقول فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الزجاج : محال أن يترك الضم الذى هو دليل على النداء المفرد ، وأن يجعل فى آسم الله ضمة أُمّ ، هـذا إلحاد فى آسم الله تعالى . قال آبن عطية : وهذا غلوّ من الزجاج ، وزعم أنه ما سمع قط يا أَللهُ أُمّ ، ولا تقول العرب يا اللّهمّ . وقال الكوفيون : إنه قد يدخل حرف النداء على « اللهم » وأنشدوا على ذلك قول الراجز :

* غفرتَ أو عذّبت يا اللّهما *

آخر :

وما عليك أن تقولى كلّما * سبّحتِ أو هلّلتِ يا اللهُمَّ ما[(٣)]
اردُدْ علينا شيخنا مسلّما * فإننا من خيره لن نُعدَما

---

(١) فى ب و د : آعتبار أو آية بينة . (٢) هكذا نسخ الأصل ومعانى القرآن للفراء، وفى اللسان : لاهم الكبار، بتخفيف الميم .
(٣) فى اللسان : يا أللهما ، وما فى الأصول ومعانى القرآن جـ ١ ص ٢٠٣ والخزانة جـ ١ ص ٣٥٨ هو ما أثبتناه .

آخـــر :

إنى إذا مـا حَـدَثٌ أَلَمَّـا * أقـول يا اللّهـم يا اللّهُمَّـا

قالوا : فلو كان الميم عوضا من حرف النداء لما ٱجتمعا . قال الزجاج : وهـذا شاذٌّ ولا يعرف قائله ، ولا يترك له ما كان فى كتاب الله وفى جميع دِيْوان العرب ؛ وقد ورد مثله فى قوله (١) :

همـا نفثا فى فِىَّ من فَمَوَيْهمـا * على النابح العاوى أشَـدَّ رِجَامِ

قال الكوفيون : وإنما تزاد الميم مخففة فى فَم وٱبْنُم ، وأما ميم مشدّدة فلا تزاد . وقال بعض النحويين : ما قاله الكوفيون خطأ ؛ لأنه لو كان كما قالوا كان يجب أن يقال : «اللهم» ويُقتصر عليه لأنه معه دعاء . وأيضا فقد تقول : أنت اللهم الرزّاق . فلو كان كما ٱدّعوا لكنت قد فصلت بجملتين بين الآبتداء والخبر . قال النَّضْر بن شُمَيْل : من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها . وقال الحسن : اللهم تجمع الدعاء .

قوله تعـالى : ﴿ مَالِكَ المُلْكِ ﴾ قال قتادة : بلغنى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل الله عز وجل أن يعطى أمته ملك فارس فأنزل الله هذه الآية . وقال مقاتل : سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له ملك فارس والروم فى أمّته ؛ فعلّمه الله تعالى بأن يدعو بهذا الدعاء . وقد تقدّم معناه . و « مالك » منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ؛ ومثله قوله تعالى : « قُلِ اللّهُمّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ (٢) » ولا يجوز عنده أن يوصف اللّهمّ ؛ لأنه قد ضمت إليه الميم . وخالفه محمد بن يزيد وإبراهيم بن السرىّ (٣) الزجاج فقالا : « مالِك » فى الإعراب صفة لٱسم الله تعـالى ، وكذلك «فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ» . قال أبو علىّ : هو مذهب

(١) القائل هو الفرزدق . وصف شاعرين من قومه نزع فى الشعر إليهما . وأراد بالنابح العاوى من هجاه ، وجعل الهجاء كالمراجمة لجعله المهاجى كالكلب النابح ؛ والرجام المراجمة . كذا عن شرح الشواهد . والرجام الحجارة .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٥

(٣) فى الأصول : والزجاج بالواو وليس بشىء . لأن الزجاج هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج .

أبى العباس المبرد، وما قاله سيبويه أصوب وأبين، وذلك أنه ليس فى الأسماء الموصوفة شيء على حدّ « اللهم » لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت ، والأصوات لا توصف ؛ نحو غاقِ وما أشبهه . وكان حكم الاسم المفرد ألا يوصف وإن كانوا قد وصفوه فى مواضع . فلما ضُمّ هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضم إلى صوت ؛ نحو حيّهل فلم يوصف . و ﴿ الْمُلْكُ ﴾ هنا النبوّة ؛ عن مجاهد . وقيل، الغلبة . وقيل : المال والعبيد . الزجاج : المعنى مالك العباد وما ملكوا . وقيل : المعنى مالك الدنيا والآخرة . ومعنى ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾ أى الإيمان والإسلام[1] . ﴿ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أى من تشاء أن تؤتيه إياه، وكذلك ما بعده ، ولابدّ فيه من تقدير الحذف ، أى وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه منه ، ثم حذف هذا، وأنشد سيبويه :

ألا هل لهذا الدهر من متعلّل * على الناس مهما شاء بالناس يفعل[2]

قال الزجاج : مهما شاء أن يفعل بالناس يفعل . وقوله : ﴿ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يقال : عز إذا علا وقهر وغلب ؛ ومنه ، « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ »[3] . ﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ ذل يذل ذُلّا [إذا غلب وعلا وقهر[4]] . قال طرفة :

بطيء عن الجُلَّى سريع إلى الخنا * ذليل بأجماع الرجال مُلَهَّد[5]

﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ أى بيدك الخير والشر فحذف؛ كما قال: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»[6] . وقيل : خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة فى فضله . قال النقاش : بيدك الخير ، أى النصر والغنيمة . وقال أهل الإشارات . كان أبو جهل يملك المال الكثير، ووقع فى الرس[7] يوم بدر، والفقراء صُهيب وبِلال وخَبّاب لم يكن لهم مال، وكان ملكهم الإيمان « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » تقيم الرسولَ يتيمَ أبى طالب على رأس الرّس حتى يُنادِى أبدانا قد انقلبت

---

(١) فى ز : تؤتى الإيمان . (٢) البيت للأسود بن يعفر النهشلى . يقول : إن هذا الدهر يذهب ببهجة الإنسان وشبابه ، ويتعلل فى فعله ذلك تعلل المتجنى على غيره (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٧٤ (٤) من ب و د .

(٥) الجلى : الأمر العظيم الذى يدعى له ذوو الرأى . والخنا : الفساد والفحش فى المنطق . والذليل : المقهور ، وهو ضدّ العزيز . وأجماع : جمع جُمع ، وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . والملهد : المضروب ، وهو المدفع . (عن شرح المعلقات) . (٦) راجع جـ ١٠ ص ١٦٠ (٧) الرس : البئر المطوية بالحجارة .

إلى القليب : ياعُتْبة ، ياشَيْبة تعز من تشاء وتُذل من تشاء . أى صُهيب ، أى بِلال[1] ، لاتعتقدوا أنا منعناكم من الدنيا[2] ببغضكم . بيدك الخير ما مَنْعُكم مِن عَجْز « إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » إنعامُ الحقّ عامٌّ يتولى من يشاء .

قوله تعالى : تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى فى معنى قوله « تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ » الآية ، أى تدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر ، حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة وهو أطولُ ما يكون ، والليل تسع ساعات وهو أقصرُ ما يكون ، وكذا ﴿تُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ وهو قول الكلبى ، وروى عن ابن مسعود . وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار ، كأن زوال أحدهما ولوج فى الآخر . واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فقال الحسن : معناه تُخرج المؤمنَ من الكافر والكافر من المؤمن ، وروى نحوه عن سَلْمان الفارسى . وروى مَعْمَر عن الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على نسائه فإذا بامرأة حسنة الهيئة قال : " من هذه " ؟ قلن إحدى خالاتك . قال : " ومن هى " ؟ قلن : هى خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "سبحان الذى يخرج الحىّ من الميت" . وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافرا . فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ؛ فالموت والحياة مستعاران[3] . وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت فى الآية حقيقتان ؛ فقال عِكرمة : هى إخراج الدَّجاجة وهى حية من البيضة وهى ميتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية . وقال ابن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة وهو حى ، ويخرج الرجل منها حيا وهى ميتة . وقال عِكرمة والسّدى : هى الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة ، والنواة من النخلة والنخلة

(١) فى ز : صهيبا وبلالا . (٢) فى ز : منعنا كم الدنيا ، وفى د : إنما منعنا كم . (٣) فى د ، ب : يستعاران .

تخرج من النواة؛ والحياة فى النخلة والسنبلة تشبيه . ثم قال : ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى بغير تضييق ولا تقتير؛ كما تقول : فلان يعطى بغير حساب؛ كأنه لا يحسب ما يعطى .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٢٨)

فيه مسألتان :

الأولى — قال ابن عباس : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء؛ ومثله « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »(١) وهناك يأتى بيان هذا المعنى . ومعنى ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أى فليس من حزب الله ولا من أوليائه فى شىء؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(٢) . وحكى سيبويه « هو مِنى فرسخين » أى من أصحابى ومعى . ثم استثنى وهى :

الثانيـة — فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد : كانت التقية فى جدّة الإسلام قبل قوّة المسلمين؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم . قال ابن عباس : هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يُقتل ولا يأتى مأثمًا . وقال الحسن : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ، ولا تقية فى القتل . وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحاك : « إلا أن تتّقوا منهم تَقِيَّةً » وقيل : إن المؤمن إذا كان قائمًا بين الكفار فله أن يداريهم(٣) باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبُه مطمئن بالإيمان . والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم . ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلّب ولا يجيب(٤) إلى التلفظ بكلمة الكفر؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتى بيانه فى « النحل »(٥) إن شاء الله تعالى . وأمال حمزة والكسائى « تقاة » ، وفخم الباقون؛ وأصل « تقاة » وُقَيَة على وزن فُعَلَة؛ مثل

(١) راجع ص ١٧٨ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٤٦ (٣) فى ز : أن يداهنهم .
(٤) فى ب وز : ولا يجب التلفظ . (٥) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠

تُؤَدَة وتُهَمة، قلبت الواو تاء والياء ألفا . وروى الضحاك عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدريا تقيا وكان له حِلف من اليهود؛ فلما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبيّ الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو . فأنزل الله تعالى : « لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » الآية . وقيل : إنها نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون ، على ما يأتي بيانه في « النحل » .

قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ قال الزجاج : أي ويحذركم الله إياه . ثم استغنوا عن ذلك بذا وصار المستعمل ؛ قال تعالى : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ »(١) فمعناه تعلم ما عندى وما في حقيقتي ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك . وقال غيره : المعنى ويحذركم الله عقابه ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وقال : « تعلم ما في نفسي » أي مغيَّبي ، فجعلت النفس في موضع الإضمار لأنه فيها يكون . ﴿ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي وإلى جزاء الله المصير . وفيه إقرار بالبعث .

قوله تعالى : قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

فهو العالم بخفيات الصدور وما اشتملت عليه، وبما في السموات والأرض وما احتوت عليه ، علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا يغيب عنه شيء ، سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة .

قوله تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٧٦

«يوم» منصوب متصل بقوله : « ويحذركم الله نفسه . يوم تجد» . وقيل : هو متصل بقوله : « وإلى الله المصير . يوم تجد » . وقيل : هو متصل بقوله : « والله على كل شيء قدير . يوم تجد » ويجوز أن يكون منقطعا على إضمار آذكر ؛ ومثله قوله : « إن الله عزيز ذو آنتقام . يوم تبدل الأرض » (١) . و « محضرا » حال من الضمير المحذوف من صلة « ما » تقديره يوم تجد كل نفس ما عملته من خير محضرا . هذا على أن يكون « تجد » من وجدان الضالة . و « ما » من قوله « وما عملت من سوء » عطف على « ما » الأولى . و « تود » في موضع الحال من « ما » الثانية . وإن جعلت « تجد » بمعنى تعلم كان « محضرا » المفعول الثاني ، وكذلك تكون « تود » في موضع المفعول الثاني ؛ تقديره يوم تجد كل نفس جزاء ما عملت محضرا . ويجوز أن تكون « ما » الثانية رفعا بالابتداء ، و « تود » في موضع رفع على أنه خبر الابتداء ، ولا يصح أن تكون « ما » بمعنى الجزاء ؛ لأن « تود » مرفوع ، ولو كان ماضيا لجاز أن يكون جزاء ، وكان يكون معنى الكلام : وما عملت من سوء ودت لو أن (٢) بينها وبينه أمدا بعيدا ؛ أي كما بين المشرق والمغرب . ولا يكون المستقبل إذا جعلت « ما » للشرط إلا مجزوما ؛ إلا أن تحمله على تقدير حذف الفاء ، على تقدير : وما عملت من سوء فهي تود . أبو علي : هو قياس قول الفراء عندي ؛ لأنه قال في قوله تعالى : « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون (٣) » : إنه على حذف الفاء . والأمد : الغاية ، وجمعه آماد . ويقال : آستولى على الأمد ، أي غلب سابقا . قال النابغة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه * سبق الجواد إذا آستولى على الأمد

والأمد : الغضب . يقال : أمد أمدا ، إذا غضب [غضبا] (٤) .

قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ (٣١)

الحب : المحبة ، وكذلك الحب بالكسر . والحب أيضا الحبيب ؛ مثل الخدن والخدين ؛ يقال أحبه فهو محب ، وحبه يحبه (بالكسر) فهو محبوب . قال الجوهري : وهذا شاذ ؛ لأنه

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٨٢ (٢) في د : لو كان . (٣) راجع جـ ٧ ص ٧٧
(٤) الزيادة من د وفي ب : أي غضب .

لا يأتى فى المضاعف يفعِل بالكسر . قال أبو الفتح : والأصل فيه حَبُب كظَرُف ، فأسكنت الباء وأدغمت فى الثانية . قال آبن الدّهان سعيد : فى حَبّ لغتان : حَبّ وأَحبّ، وأصل « حب » فى هذا البناء حَبُب كظَرُف؛ يدل على ذلك قولهم : حَبُبْت، وأكثر ما ورد فعِيل من فَعُل . قال أبو الفتح : والدلالة على أحبّ قوله تعالى : « يُحِبُّهم ويُحِبُّونَه » بضم الياء . و « آتبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » و « حَبّ » يرد على فَعُل لقولهم حَبِيب . وعلى فعِل كقولهم محبوب : ولم يرد آسم الفاعل من حَبّ المتعـدى، فلا يقال : أنا حَابّ . ولم يرد آسم المفعول من أفعل إلا قليلا؛ كقوله :

* مِنِّى بمـنزلة المُحَبّ المُـكْرَمِ (١) *

وحكى أبو زيد : حَبَبْتُه أَحِبُّه . وأنشد :

فوالله لولا تَمْـــرُهُ ما حبَبْتُـهُ * ولا كان أدْنَى من عُوَيف وهاشم

وأنشـــد :

لعَمْرُكَ إنّنِى وطِلابَ مِصْرٍ * لَكَالْمُزْدادِ ممّـا حَبّ بُعْـدَا

وحكى الأصمعىّ فتح حرف المضارعة مع البـاء وحدها . والحُبّ الخابية، فارسىّ معرّب ، والجمع حِبَاب وحِبَبَةٌ ؛ حكاه الجوهرىّ . والآية نزلت فى وفد نَجران إذْ زعموا أن ما آدّعوه فى عيسى حُبٌّ لله عز وجل ؛ قاله محمد بن جعفر بن الزبير . وقال الحسن وآبن جُرَيج : نزلت فى قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نُحِبّ ربنـا . وروى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله، والله إنا لنُحِب ربنا؛ فأنزل الله عز وجل: « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتّبِعُونى » . قال آبن عرفة : المحبّة عند العرب إرادةُ (٢) الشىء على قصد له . وقال الأزهرى : محبة العبد لله ورسوله طاعته لها وآتباعه أمرهما ؛ قال الله تعالى : « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتّبِعُونِى » . ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران ؛ قال الله تعالى : « إنّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ » أى لا يغفر لهم . وقال سهل بن عبـد الله : علامة حُبِّ الله حب القرآن ، وعلامة حب

---

(١) هذا عجز بيت لعنترة فى معلقته وصدره : * ولقد نزلت فلا تظنى غيره *

(٢) فى ب ود : إرادتها .

القرآن حب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبيّ صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبيّ وحب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه ، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزّاد والبُلْغة . وروى أبو الدَّرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ قال : "على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس" خرّجه أبو عبد الله الترمذيّ . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أراد أن يحبه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألّا يؤذى جاره" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إنى أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إنّ الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — قال — ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إنى أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يُبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الأرض" . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى آخر سورة « مريم » (١) إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو رجاء العُطارِدىّ "فاتَّبَعونى" (٢) بفتح الباء ، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ عطف على «يُحْبِبْكُمْ» . وروى محبوب عن أبى عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من « يغفر » فى اللام من « لكم » . قال النحاس : لا يجيز الخليل وسيبويه إدغام الراء فى اللام ، وأبو عمرو أجلّ من أن يغلط فى مثل هذا ، ولعله كان يُخفى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ ﴾ يأتى بيانه فى « النساء » (٣) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ شرط ، إلا أنه ماض لا يعرب . والتقدير فإن تولوا على كفرهم وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم كما تقدّم .

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٠ (٢) كذا فى الأصول ، راجع البحر جـ ٣ ص ٤٣١ ، فى الشواذ ص ٢٠ : يحبيكم بفتح الياء . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨

وقال « فإنّ الله » ولم يقـل « فإنه » لأن العرب إذا عظمت الشئ أعادت ذكره؛ وأنشـد سـيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شئٌ * نغَّصَ المـوتُ ذَا الغِنَى والفقـيرا [1]

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَى آدَمَ ونُوحًا ﴾ ٱصطفى ٱختار ، وقد تقـدّم فى البقرة [2] . وتقدّم فيها ٱشتقاق آدم [3] وكنيته ، والتقدير إن الله ٱصطفى دينهم وهو دين الإسـلام ؛ فحذف المضاف . وقال الزجاج : ٱختارهم للنبوّة على عالمى زمانهم . « ونوحا » قيل إنه مشتق من ناح ينوح ، وهو ٱسم أعجمىّ إلا أنه ٱنصرف لأنه على ثلاثة أحرف ، وهو شيخ المرسـلين ، وأوّل رسـول بعثه الله إلى أهل الأرض بعـد آدم عليـه السلام بتحريم البنات والأخَوات والعمات والخالات وسائر القرابات ، ومن قال : إن إدْرِيسَ كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم على ما يأتى بيانه فى « الأعراف » [4] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وآلَ إِبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ﴾ تقدّم فى البقرة معنى الآل وعلى ما يطلق مستوفى [5] . وفى البخارىّ عن ٱبن عباس قال : آل إبراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ؛ يقول الله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وهَذَا النَّبِيّ والَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » وقيل : آل إبراهيم إسمعيل و إسحق و يعقوب والأسباط ، وأن محمدا صلى الله عليـه وسلم من آل إبراهيم . وقيل : آل إبراهيم نفسه ، وكذا آل عمران ؛ ومنه قوله تعالى : « وبَقِيَّةٌ مِمَّـا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ » [6] . وفى الحديث : " لقد أُعْطِى مِزمارًا مِن مزامير آل داود " ؛ وقال الشاعر :

(١) البيت لسوادة بن عدىّ . وقيل : لأمية بن أبى الصلت . (عن شرح الشواهد) .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ (٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٢
(٥) راجع جـ ١ ص ٣٨١ (٦) راجع جـ ٣ ص ٢٤٧

ولا تَبْكِ مَيْتاً بعد مَيْتٍ أَجَنَّه[1] * عليٌّ وعبّاس وآلُ أبي بكر

وقال آخر :

يُلاقِي من تَذَكُّرِ آلِ لَيْلَى * كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدَادِ[2]

أراد من تذكر ليلى نفسها . وقيل : آل عمران آل إبراهيم؛ كما قال: « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » . وقيل : المراد عيسى، لأن أمّه آبنة عمران . وقيل : نفسه كما ذكرنا . قال مقاتل : هو عمران أبو موسى وهارون ، وهو عمران بن يصْهُر بن فاهاث بن لاوى بن يعقوب . وقال الكلبي : هو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان عليه السلام . وحكى السهيلي : عمران آبن ماتان، وآمرأته حَنَّة (بالنون) . وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بقضّهم وقَضِيضهم من نسلهم . ولم ينصرف عِمران لأن في آخره ألفا ونونا زائدتين . ومعنى قوله : « عَلَى الْعَالَمِينَ » أي على عالمي زمانهم ، في قول أهل التفسير . وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن عليّ : جميع الخلق كلهم . وقيل « عَلَى الْعَالَمِينَ » : على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصور، وذلك أن هؤلاء رُسُلٌ وأنبياء فهم صفوة الخلق؛ فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت[3] مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[4] » فالرسل خلقوا للرحمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خُلق بنفسه رحمةً ، فلذلك صار أمانا للخلق ، لمّا بعثه الله أَمِنَ الخلقُ العذاب إلى نفخة الصور . وسائر الأنبياء لم يحلّوا هذا المحل ؛ ولذلك قال عليه السلام : "أنا رحمة مهداة" يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله . وقوله "مهداة" أي هدية من الله للخلق . ويقال : آختار آدم بخمسة أشياء : أولها أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته ، والثاني أنه علّمه الأسماء كلها ، والثالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له ، والرابع أسكنه الجنة ، والخامس جعله أبا البشر . وآختار نوحا بخمسة

(١) في الأصول : « ولا تبس » والتصويب من تفسير آبن عطية ، والبيت لأراكة بن عبد الله الثقفي في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم . أي أجنه علي وعباس وأبو بكر ؛ ويريد جميع المؤمنين (آبن عطية) والذي يروى : أجنه : أي ستره في التراب . (٢) العداد : آهتياج وجع اللديغ ، وذلك إذا تمت له سنة مذ يوم لدغ هاج به الألم . وقيل : عداد السليم أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ، وما لم تمض قيل : هو في عداده .

(٣) في ب و د : حازت . (٤) راجع ج ١١ ص ٣٥٠

أشياء : أوّلها أنه جعله أبا البشر ؛ لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقين ، والثانى أنه أطال عمـره ؛ ويقال : طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ، والثالث أنه آستجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين ، والرابع أنه حمله على السـفينة ، والخامس أنه كان أوّل من نسخ الشرائع ؛ وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمات . وآختار إبراهيم بخمسـة أشياء : أوّلها أنه جعله أبا الأنبياء ؛ لأنه روى أنه خرج من صلبه ألف(١) نبيّ من زمانه إلى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والثـانى أنه آتخذه خليـلا ، والثالث أنه أنجاه من النـار ، والرابع أنه جعله إماما للنـاس ، والخامس أنه آبتـلاه بالكلمات فوفّقـه حتى أتمهن . ثم قال : « وَآلَ عِمْرَانَ » فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما آختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المنّ والسلوى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء فى العالم . وإن كان أبا مريم فإنه آصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد فى العالم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

تقـدّم فى البقـرة معنى الذرية وآشتقاقها(٢) . وهى نصب على الحـال ؛ قاله الأخفش . أى فى حال كون بعضهم من بعض ، أى ذرية بعضها من ولد بعض . الكوفيون : على القطع . الزجاج : بدل ، أى آصطفى ذرّية بعضها من بعض ، ومعنى بعضها من بعض ، يعنى فى التناصر فى الدين ؛ كما قال : «المُنَافِقُونَ والمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»(٣) يعنى فى الضلالة ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : فى الآجتباء والآصطفاء والنبوّة . وقيل : المراد به التناسل ، وهذا أضعفها .

قوله تعـالى : إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

(١) فى هذا نظر لأن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا كما ورد فى الخبر؛ أكثرهم من ذريته عليه السلام .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ (٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٩

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ قال أبو عبيدة : « إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : التقدير آذكر إذ . وقال الزجاج : المعنى وآصطفى آل عمران إذ قالت آمرأة عمران . وهي حَنّة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدّة عيسى عليه السلام، وليس بآسم عربيّ ولا يعرف في العربية حَنّة آسم آمرأة . وفي العربية أبو حَنّة البدريّ، ويقال فيه : أبو حبّة (بالباء بواحدة) وهو أصح، وآسمه عامر ، ودير حَنّة بالشأم، ودير آخر أيضا يقال له كذلك [(١)]، قال أبو نُوَاس :

يا دَيْرَ حَنّةَ من ذات الأُكَيْرَاحِ [(٢)] * مَن يَصْحُ عنك فإنّي لستُ بالصّاحي

وحَبّة في العرب كثير، منهم أبو حَبّة الأنصاريّ، وأبو السَّنابل بن بَعْكَك المذكورُ في حديث سُبَيْعَة [(٣)] حَبّة ، ولا يعرف خَنّة بالخاء المعجمة إلا بنت يحيى بن [(٤)] أكثم القاضي ، وهي أم محمد بن نصر [(٥)]، ولا يعرف جنة (بالجيم) إلا أبو جنة، وهو خال ذي الرُّمّة الشاعر . كل هذا من كتاب آبن مَاكُولاَ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ تقدّم معنى النذر [(٦)]، وأنه لا يلزم العبد إلا بأن يلزمه نفسه . ويقال: إنها لما حملت قالت : لئن نجّاني الله ووضعت

---

(١) هو « دير حنة » بالحيرة من بناء نوح (راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣١٢ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الأكيراح (بالضم ثم القتح وياء ساكنة وراء وألف وحاء) : مواضع تخرج إليها النصارى في أعيادهم . (عن القاموس) . وفي مسالك الأبصار : (أنها قباب صغار يسكنها رهبان يقال للواحد منها الكرح) .

(٣) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت زوجة لسعد بن خولة فمات عنها بمكة فقال لها أبو السنابل حبة : إن أجلك أربعة أشهر وعشر، وقد كانت وضعت بعد وفاة زوجها بليال ، قيل خمس وعشرون ليلة ، وقيل أقل من ذلك ، فلما قال لها أبو السنابل ذلك أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال لها : "قد حللت فأنكحي من شئت" . روى عنها فقهاء أهل المدينة وفقهاء أهل الكوفة من التابعين حديثها هذا . وذكر آبن سعد أن أبا السنابل بن بعكك قد كان فيمن خطبها . وذكر آبن البرقي أنه تزوجها وأولدها آبنه سنابل . (راجع الاستيعاب وتهذيب التهذيب وآبن سعد) . (٤) وفي المشتبه للذهبي : بالخاء المعجمة ونون . (٥) الذي في المشتبه : «زوجة محمد» .

(٦) راجع ج ٣ ص ٣٣٠

ما في بطني لجعلته مُحَرَّرا . ومعنى «لك» أى لعبادتك . «محرّرا» نصب على الحال ، وقيل : نعت لمفعول محذوف ، أى إنى نذرت لك ما فى بطنى غلاما محرّرا ، والأوّل أولى من جهة التفسير وسِيَاق الكلام والإعراب : أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز فى مواضع ، ويجوز على المجاز فى أخرى ، وأما التفسير فقيل إن سبب قول آمرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تَلِد ، وكانوا أهل بيت من الله بمكان ، وأنها كانت تحت شجرة فبَصُرت بطائر يَزُقّ فَرْخًا فتحرّكت نفسُها لذلك ، ودعت ربها أن يَهَب لها ولدا ، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها مُحرّرا (١) : أى عتيقا خالصا لله تعالى ، خادما للكنيسة حَبِيسا عليها ، مُفرّغا لعبادة الله تعالى . وكان ذلك جائزا فى شريعتهم ، وكان على أولادهم أن يطيعوهم . فلما وضعت مريم قالت : « رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى » يعنى أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة . قيل لما يصيبها من الحَيْض والأذى . وقيل : لا تصلح لمخالطة الرجال . وكانت ترجو أن يكون ذَكَرا (٢) فلذلك حرّرت .

الثالثـــة — قال آبن العربيّ : « لا خلاف أن آمرأة عِمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرّة ، فلو كانت آمرأته أمَة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر فى ولده وكيفما تصرفت حاله ؛ فإنه إن كان الناذر عبدا فلم يتقرّر له قول فى ذلك ؛ و إن كان حرا فلا يصح أن يكون مملوكا له ، وكذلك المرأة مثله ؛ فأىّ وجه للنذر فيه؟ و إنما معناه — والله أعلم — أن المرء إنما يريد ولده للأُنس به والآستنصار والتسلِّى ، فطلبت هـذه المرأةُ الولدَ أُنْسًا به وسُكونًا إليه ؛ فلما منّ الله تعالى عليها به نذرت أن حَظّها من الأُنْس به متروك فيه ، وهو على خدمة الله تعالى موقوف ، وهذا نذر الأحرار من الأبرار . وأرادت به مُحَرَّرا من جهتى ، محرّرا من رِقّ الدنيا وأشغالها ؛ وقـد قال رجل من الصُّوفيّة لأمّه : يا أُمَّهْ : ذَرِينى لله أتعبّـد له وأتعلم العلم ، فقالت نعم . فسار حتى تبصّر ثم عاد إليها فدقّ الباب ، فقالت مَنْ ؟ فقال لها : آبنُكِ فلان ، قالت : قد تركناك لله ولا نعود فيك .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مأخوذ من الحُرِّية التى هى ضد العُبوديّة ؛ من هذا تحرير الكتاب ، وهو تخليصه من الآضطراب والفساد . وروى خُصَيف عن عِكرمة ومجاهد :

(١) فى ب : ما ولدته . (٢) فى ب ر د : غلاما .

أن المحرّر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا . وهذا معروف في اللغة أن يقال لكل ما خلَص : حُرّ ، ومحرّر بمعناه ؛ قال ذو الرُّمّة :

والقُرْط في حُرّة الذِّفْرَى مُعَلَّقُــهُ * تباعــد الحبلُ منه فهو يَضْطرِب (١)

وطِين حُرّ لا رمل فيه ، وباتت فلانة بليلةِ حُرّة إذا لم يصل إليها زوجها أوّل ليلة ؛ فإن تمكّن منها فهي بليلة شَيْباء .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النَّذر إلا الذكور، فقبِل الله مريم . « وأنثى » حال ، وإن شئت بدلٌ . فقيل : إنها ربّتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها ؛ رواه أشهب عن مالك : وقيل : لفتها في خرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفّت بنذرها وتبرّأت منها . ولعل الحجاب لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام ؛ ففي البخاريّ ومسلم أن امرأة سوداء كانت تَقُمّ المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . الحديث .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ هو على قراءة من قرأ « وضعتُ » بضم التاء من جملة كلامها ؛ فالكلام متصل . وهي قراءة أبي بكر وابن عامر، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له [أن يخفى عليه شيء] (٢) ، ولم تقله على طريق الإخبار لأن علم الله في كل شيء قد تقرّر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله تعالى . وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قُدِّم، وتقديره أن يكون مؤخرا بعد «وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » والله أعلم بما وضعت ؛ قاله المَهْدَويّ . وقال مكيّ : هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال : والله أعلم بما وضعت أمّ مريم قالته أو لم تقله . ويقوّي ذلك أنه لو كان من كلام أمّ مريم لكان وجه الكلام : وأنت أعلم بما وضعتُ ؛ لأنها نادته في أوّل الكلام في قولها : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى . ورُوي عن ابن عباس « بما وضعتِ » بكسر التاء ، أي قيل لها هذا .

---

(١) الذفريان : ما بين يمين العنق ويساره ، وتباعد الحبل منه ، أي تباعد حبل العنق من القرط لأنها طويلة العنق ليست بوقصاء ، ومعلقه ، أي مكان تعليقه .　(٢) الزيادة من ب و د .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ آستدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة فى نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه فى وجوب الكفارة عليها ، آبنُ العربى : وهذه منه غفلة ، فإن هـذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به ، وهـذه الصالحة إنما قصدت بكلامها ما تشهد له به بيّنة حالها ومَقْطع كلامها ، فإنها نذرت خدمة المسجد فى ولدها ، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة آعتذرت إلى ربّها من وجودها لها (١) على خلاف ما قصدته فيها . ولم ينصرف «مريم» لأنه مؤنث معرفة ، وهو أيضا أعجمى ؛ قاله النحاس . والله تعالى أعلم .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعنى خادم الربّ فى لغتهم . ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعنى مريم . ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ يعنى عيسى . وهذا يدلّ على أن الذرّية قد تقع على الولد خاصّة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مولود يولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهلّ صارخا من نخسة [الشيطان] (٢) إلا آبنَ مريم وأمّه" ثم قال أبو هريرة : آقرءوا إن شئتم «وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» . قال علماؤنا : فأفاد هـذا الحديثُ أن الله تعالى آستجاب دعاء أمّ مريم ، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وآبنها . قال قتادة : كل مولود يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد غير عيسى وأمّه جُعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شىء ، قال علماؤنا : وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما ، ولا يلزم من هـذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس و إغواؤه فإن ذلك ظنّ فاسد ؛ فكم تعرّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك فعصمهم الله مما يَرُومه الشيطان (٣) ، كما قال تعالى : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» (٤) . هذا مع أن كل واحد من بنى آدم قد وُكِل به قرينه من الشياطين ؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمَريَمُ وآبْنُها و إن عصِما من نخسه فلم يُعصَما من ملازمته لهما ومقارنته . والله أعلم .

(١) فى ب : له ، وفى ز : من وجود مالها . (٢) زيادة من صحيح مسلم .
(٣) كذا فى ب و د بالفاء . (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٨

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ المعنى : سلك بها طريق السعداء ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التقبل التكفل في التربية والقيام بشأنها . وقال الحسن : معنى التقبل أنه ما عذبها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار . ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعني سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد . والقبول والنبات مصدران على غير المصدر ، والأصل تقبُّلا وإنباتا . قال الشاعر :

أكُفْرًا بعد ردّ الموت عنّي　＊　وبعد عطائك المائةَ الرِّتاعا

أراد بعد إعطائك ، لكن لما قال « أنبتها » دل على نَبَت ؛ كما قال امرؤ القيس :

فصِرْنا إلى الحسنى ورقّ كلامُنا　＊　ورُضْتُ فذلّت صعبةً أيَّ إذلالِ

وإنما مصدر ذَلّتْ ذُلٌّ ، ولكنه ردّه على معنى أذْلَلْتُ ؛ وكذلك كل ما يَرِد عليك في هذا الباب . فمعنى تقبّل وقَبِل واحد ، فالمعنى فقَبِلها ربُّها بقبول حَسَن . ونظيره قول رُؤْبَة :

＊ وقد تَطَوَّيْتُ انطواءَ الحِضْبِ (١) ＊

[الأفعى (٢)] لأن معنى تَطَوَّيتُ وانطويت واحد ؛ ومثله قول القَطاميّ :

وخيرُ الأمر ما استقبلت منه　＊　وليس بأن تَتَبَّعه اتّباعا

لأن تَتَبَّعت واتّبعت واحد . وفي قراءة ابن مسعود « وأَنْزَلَ الملائكةَ تَنْزِيلًا (٣) » لأن معنى نَزّل وأنزل واحد . وقال المُفَضَّل : معناه وأنبتها فنبتَتْ نَباتًا حَسَنًا . ومراعاة المعنى أوْلى

(١) الحضب (بفتح الحاء وكسرها وسكون الضاد) .　(٢) الزيادة في نسخ : ج ، ب ، د .
(٣) راجع ج ١٣ ص ٢٤

كما ذكرنا . والأصل فى القبول الضم ؛ لأنه مصـدر مثل الدخول والخـروج ، والفتح جاء فى حروف قليـلة ؛ مثل الوَلوع والوَزوع ؛ هـذه الثلاثة لا غيرُ ؛ قاله أبو عمرو والكسائى والأئمة . وأجاز الزجاج « بقُبُول » بضم القاف على الأصل .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى ضَمها إليه . أبو عبيدة : ضَمِن القيام بهـا . وقرأ الكوفيون « وكفّلها » بالتشديد ، فهو يتعدّى إلى مفعولين ؛ والتقدير وكفّلها ربُّها زكريا ، أى ألزمه كفالتها وقـدّر ذلك عليـه ويَسّره له . وفى مصحف أُبَىّ « وأكفلها » والهمزة كالتشديد فى التعدّى ؛ وأيضا فإن قَبْله « فتقبلها ، وأنبتها » فأخبر تعالى عن نفسه بمـا فعل بها ؛ فجاء « كفّلها » بالتشديد على ذلك . وخففه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا . فأخبر الله تعالى أنه هو الذى تولّى كفالتها والقيامَ بها ؛ بدلالة قوله : « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » . قال مَكّىّ : وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف ،لأن الله تعالى إذا كفّلها زكريا كفَلها بأمر الله ، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته ؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان . وروى عمرو بن موسى عن عبـد الله بن كَثِير وأبى عبد الله المُزَنى « وكَفِلها » بكسر الفاء . قال الأخفش : يقال كَفَل يَكْفُلُ وكَفِلَ يَكْفَلُ ولم أسمع كَفُلَ ، وقد ذُكِرت . وقرأ مجاهد « فتقبّلْها » بإسكان اللام على المسألة والطلب . «رَبَّها» بالنصب نداء مضاف . « وأنبِتْها » بإسكان التاء « وكفّلْها» بإسكان اللام « زكرياء » بالمدّ والنصب . وقرأ حفص وحمزة والكسائى «زكريا» بغير مد ولا همز، ومدّه الباقون وهَمَزُوه . وقال الفَرّاء: أهل الحجاز يمدّون « زكرياء » ويُقْصرونه ، وأهل نَجْد يحذفون منـه الألف ويصرفونه فيقولون : زكرِىٌّ . قال الأخفش : فيه أربع لغات : المـد والقصر، وزكرِىٌّ بتشديد الياء والصرف ، وزكَرٍ ورأيت زكرِيا . قال أبو حاتم : زكرى بلا صرف لأنه أعجمىّ وهذا غلط ؛ لأن ما كان فيه « يا » مثل هـذا انصرف مثل كرسىّ ويحيى ، ولم ينصرف زكرياء فى المد والقصر لأن فيه ألف تأنيث والعجمة والتعريف .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ المحراب في اللغة أكرم موضع في المجلس . وسيأتي له مزيد بيان في سورة « مريم »(١) . وجاء في الخبر : إنها كانت في غرفة كان زكريا يصعد إليها بسُلَّم . قال وَضّاح اليَمَن(٢) :

رَبَّةُ مِحرابٍ إذا جئتُها * لم أَلْقها حتى ٱرتَقِي سُلَّما

أي رَبّة غرفة . روى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : حملت ٱمرأة عِمران بعد ما أسنّت فنذرت ما في بطنها محرّرا فقال لها عمران : ويحك ! ما صنعت ؟ أرأيت إن كانت أنثى ؟ فٱغتما لذلك جميعا . فهلك عِمران وحَنّة حامل فولدت أنثى فتقبلها الله بقبول حَسَن ، وكان لا يُحرّر إلا الغلمان فتساهم عليها الأحبار بالأقلام التي يكتبون بها الوَحي ، على ما يأتي . فكفلها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنّت جعل لها مِحرابا لا يرتقي إليه إلا بسلم، وٱستأجر لها ظِئْرا وكان يُغلِق عليها بابا، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبِرت ، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها ٱمرأة زكريا في قول الكَلْبِي . قال مُقاتِل : كانت أختها ٱمرأة زكريا ، وكانت إذا طهرت من حيضتها وٱغتسلت ردّها إلى المحراب . وقال بعضهم : كانت لا تحيض وكانت مطهّرة من الحيض . وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في القَيْظ وفاكهة القيظ في الشتاء فقال: يا مريم أنّى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله . فعند ذلك طمِع زكريا في الولد وقال : إن الذي يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولدا . ومعنى « أنّى » من أين ؛ قاله أبو عبيدة . قال النحاس : وهذا

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٤ (٢) في الأصول : « قال عدى بن زيد » والتصويب عن الأغاني ولسان العرب وشرح القاموس . وهذا البيت من قصيدة لوضاح اليمن أوّلها :

يا ابنة الواحد جودى فما * إن تصرميني فبما أو لما

وفي د : لم أدن . راجع ترجمته في الأغاني جـ ٦ ص ٢٠٩ — ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية .

فيه تساهل؛ لأن «أين» ســؤال عن المواضع و«أنّى» سؤال عن المذاهب والجهات . والمعنى من أى المذاهب ومن أىّ الجهات لكِ هذا . وقد فرّق الكُمَيت بينهما فقال :

أنّى ومن أينَ آبــك الطّرب * من حيث لا صَبْوة ولا رِيَب

و«كلّما» منصوب بـ«ـوَجَدَ»، أى كلّ دَخْلة . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل : هو من قول مريم، ويجوز أن يكون مستأنفا؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد .

الثانيـــة — قوله تعــالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ هنالك فى موضـع نصب؛ لأنه ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصـله للمكان . وقال المُفَضَّل بن سَلَمة : «هنالك» فى الزمان و«هنــاك» فى المكان، وقد يجعل هـذا مكان هذا . و﴿هَبْ لِي﴾ أعطنى . ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِن عِندِك . ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أى نَسلا صالحا . والذُّرِّية تكون واحدة وتكون جمعا ذكرا وأنثى، وهو هنـا واحد . يدل عليـه قوله «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا»(١) ولم يقل أولياء، وإنما أنّث «طَيِّبة» لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنّث ولدته لتأنيث لفظ الخليفة . ورُوِى من حديث أنس قال قال النبىّ صـلى الله عليه وسـلم : ”أىّ رجل مات وترك ذُرِّية طيبة أجرى الله له مثـل أجرعملهم ولم ينقص من أجورهم شيئا“ . وقد مضى فى «البقرة» آشتقاق الذرية(٢) . و﴿طَيِّبَةً﴾ أى صالحة مباركة . ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى قابله؛ ومنه(٣) : سمـع الله لمن حَمِده .

الثالثـــة — دلّت هذه الآية على طلب الولد، وهى سُنّة المرسلين والصدّيقين، قال الله تعالى : «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً»(٤) . وفى صحيح مسـلم عن سعد بن أبى وَقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أجاز له ذلك لآختصينا . وخرج آبن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”النكاح من سُنّتى فمن لم يعمل بسُنّتى فليس منّى وتزوجوا فإنى مكاثِرٌ بكم الأمم ومن كان

(١) راجع جـ ١١ ص ٧٧ (٢) راجع المسئلة التاسعة عشرة جـ ٢ ص ١٠٧
(٣) فى ب : ومنه قوله . (٤) راجع جـ ٩ ص ٣٢٧

ذا طَول فَلْيَنْكِح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وِجاء(١) ". وفى هذا ردٌّ على بعض جُهّال المتصوفة حيث قال: الذى يطلب الولَد أحمق، وماعَرَف أنه [هو](٢) الغبيُّ الأخرق؛ قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل: «وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ»(٣) وقال: «وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ»(٣). وقد ترجم البخارى على هذا «باب طلب الولد». وقال صلى الله عليه وسلم لأبى طَلْحة حين مات ابنه: "أعْرَسْتم الليلة" ؟ قال نعم. قال: "بارك الله لكما فى غابر ليلتكما". قال فحملت. فى البخارىّ: قال سفيان فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولادٍ كلهم قد قرءوا القرآن. وترجم أيضا «باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة» وساق حديث أنس بن مالك قال قالت أمّ سُلَيم: يارسول الله، خادمك أنس أدع الله له. فقال: "اللّهُمّ أكثر ماله وولده و بارك له فيما أعطيته". وقال صلى الله عليه وسلم: "اللّهُمّ اغفر لأبى سَلَمة وارفع درجته فى المهديّين واخلفه فى عَقِبه فى الغابرين". خرّجه البخارىّ ومسلم. وقال صلى الله عليه وسلم: "تزوجوا الوَلود الوَدود فإنى مكاثر بكم الأمم". أخرجه أبو داود. والأخبار فى هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته و بعد موته. قال صلى الله عليه وسلم: "إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث" فذكر "أو ولد صالح يدعو له". ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

الرابعة — فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه فى هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما فى أُولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا «وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»(٤) وقال: «ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً». وقال: «هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ». ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس فقال: "اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيه". خرّجه البخارىّ ومسلم، وحسْبُك.

---

(١) الوجاء: أن ترض عروق أنثيا الفحل رضا يذهب شهوة النكاح وهو شبيه بالخصاء. أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الوجاء.	(٢) كذا فى ب، و د.	(٣) راجع ج ١٣ ص ١١٢ وص ٨٢

(٤) راجع ج ١١ ص ٨١

قوله تعالى : فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قرأ حمزة والكسائى « فناداه » بالألف على التذكير ، ويُميلانها لأن أصلها الياء، ولأنها رابعة . وبالألف قراءة ٱبن عباس وٱبن مسعود ، وهو ٱختيار أبى عبيد . وروى عن جرير عن مُغيرة عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكّر الملائكة فى [كلّ][1] القرآن . قال أبو عبيد : نراه ٱختار ذلك خلافا على المشركين لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله . قال النحاس : هذا ٱحتجاج لا يُحَصَّل منه شيء ؛ لأن العرب تقول : قالت الرجال ، وقال الرجال، وكذا النساء ، وكيف يحتجّ عليهم بالقرآن ، ولو جاز أن يحتج عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجّوا بقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » ولكن الحجة عليهم فى قوله عز وجل : « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ[2] » أى فلم يشاهدوا، فكيف يقولون إنهم إناث فقد عُلم أن هذا ظنّ وهوًى . وأما « فناداه » فهو جائز على تذكير الجمع ، « ونادته » على تأنيث الجماعة . قال مكّيّ : والملائكة ممن يعقل فى التكسير يجرى فى التأنيث مجرى ما لا يعقل ، تقول : هى الرّجال، وهى الجُذوع، وهى الجمال، وقالت الأعراب . ويقوّى ذلك قوله : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » وقد ذكر فى موضع آخر فقال : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ[3] » وهذا إجماع . وقال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ[4] » فتأنيث هذا الجمع وتذكيره حَسَنان . وقال السُّدّى : ناداه جبريل وحده ؛ وكذا فى قراءة ٱبن مسعود . وفى التنزيل « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ[5] » يعنى جبريل ، والروح الوحى . وجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع . وجاء فى التنزيل « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ[6] » يعنى نُعيم بن مسعود ؛ على ما يأتى . وقيل : ناداه جميع الملائكة ، وهو الأظهر . أى جاء النداء من قِبلهم .

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٣ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٩
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٦٧ (٦) راجع ص ٢٧٩ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ « وهو قائم » ابتداء وخبر « يصلّى » فى موضع رفع ، وإن شئت كان نصبا على الحال من المضمر . « أنّ الله » أى بأن الله . وقرأ حمزة والكسائىّ[1] « إنّ » أى قالت إن الله؛ فالنداء بمعنى القول . «يبشرك» بالتشديد قراءة أهل المدينة . وقرأ حمزة «يَبْشُرُكَ» مخففا؛ وكذلك حُميد بن القيس المكىّ إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الباء . قال الأخفش : هى ثلاث لغات بمعنًى واحد .

دليل الأولى هى قراءة الجماعة أن ما فى القرآن من هذا من فعل ماض أو أمر فهو بالتثقيل؛ كقوله تعالى : «فَبَشِّرْ عِبَادِي»[2] «فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ» «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ»[3] «قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ»[4] . وأما الثانية وهى قراءة عبد الله بن مسعود فهى من بَشَر يَبْشُر[5] وهى لغة تهامة؛ ومنه قول الشاعر :

بَشَرْتُ عِيَالِي إِذْ رَأَيْتُ صَحِيفَةً * أَتَتْكَ مِنَ الْحَجَّاجِ يُتْلَى كِتَابُهَا

وقال آخر[6] :

وإذا رأيت الباهشين[7] إلى النَّدى * غُبْرًا أَكُفُّهُم بِقَاعٍ مُمْحِلِ

فأعِنْهُمُ وابْشَرْ بما بَشِروا به * وإذا هُمُ نزلوا بضَنْكٍ فانْزِلِ

وأما الثالثة فهى من أبشر يُبشر إبشارا قال :

يا أمّ عَمْرٍو أبشرى بالبُشْرَى * موتٌ ذريعٌ وجرادٌ عَظْلَى[8]

قوله تعالى : ﴿ يَحْيَى ﴾ كان اسمه فى الكتاب الأول حيا ، وكان اسم سارّة زوجة إبراهيم عليه السلام يسارة ، وتفسيره بالعربية لا تلد ، فلما بُشِّرت بإسحاق قيل لها : سارة، سمّاها

---

(١) كذا فى الأصل و إعراب القرآن للنحاس ، والذى فى البحر وغرائب القرآن للنيسابورى وابن عطية : وقرأ ابن عامر وحمزة « إن الله » بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون بفتح الهمزة . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٣ وص ١١ وص ١١٢ . وفى أكثر الأصول : « عبادى » بالياء وهو رسم ورش فى مصاحف المغرب .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٦٩ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ (٥) كذا فى الأصول والبغوى . والذى فى البحر وابن عطية : « وفى قراءة عبد الله بن مسعود يبشرك بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة من أبشر ، وهكذا قرأ فى كل القرآن » . (٦) هو عطية بن زيد ، وقال ابن برّى هو لعبد القيس بن خفاف البرجمى . (عن اللسان) .

(٧) قال أبو عبيد : يقال للإنسان إذا نظر إلى شىء فأعجبه واشتهاه فتناوله وأسرع نحوه وفرح به : بهش إليه .

(٨) جراد عاظلة وعظلى : لا تبرح . فى اللسان : « أراد أن يقول : يا أم عامر فلم يستقم له البيت فقال يا أم عمرو ، وأم عامر كنية الضبع . ومن كلامهم للضبع : أبشرى بجراد عظلى ، وكم رجال قتلى » .

بذلك جبريل عليه السلام . فقالت : يا إبراهيم لم نقص من آسمى حرف؟ فقال إبراهيم ذلك لجبريل عليهما السـلام . فقال : " إن ذلك الحرف زيد فى آسم آبنٍ لها من أفضل الأنبياء آسمه حيّ وسمى بيحيى" . ذكره النقاش . وقال قتادة: سمى بيحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوّة . وقال بعضهم : سُمّى بذلك لأن الله تعالى أحيا به الناس بالهُدَى . وقال مُقاتِل : آشتق آسمه من آسم الله تعالى حىّ فسمّى يحيى . وقيل : لأنه أحيا به رحم أمّه .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ ﴾ يعنى عيسى فى قول أكثر المفسرين . وسمِّى عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى التى هى « كن » فكان من غير أب . وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوىّ « بِكِلْمة » مكسورة الكاف ساكنة اللام فى جميع القرآن، وهى لغة فصيحة مثل كِتْف وفِخْذ . وقيل : سمِّى كلمة لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى . وقال أبو عبيد : معنى « بكلمة من الله » بكتاب من الله . قال : والعرب تقول أنشدنى كلمة أى قصيدة ؛ كما رُوى أن الحُوَيْدِرة (١) ذُكر لحسّان فقال : لعن الله كلمته ، يعنى قصيدته . وقيل غير هذا من الأقوال . والقول الأوّل أشهر وعليه من العلماء الأكثر . و «يحيى» أوّل من آمن بعيسى عليهما السلام وصَدّقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين . ويقال بستة أشهر . وكانا آبنى خالة، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمّه إليه وهو فى خِرَقه . وذكر الطبرىّ أن مريم لما حملت بعيسى حملت أيضا أختها بيحيى ؛ فجاءت أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرتِ أنى حملت ؟ فقالت لها مريم : أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : و إنى لأجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . وذلك أنه رُوى أنها أحست جنينها يخر برأسه إلى ناحية بَطْن مريم . قال السـدىّ : فذلك قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ » . « ومصدّقا » نصب على الحال . ﴿وَسَيِّدًا﴾ السيد : الذى يسود قومه ويُنْتَهَى إلى قوله، وأصله سَيْوِد يقال : فلان أسْوَد من

(١) الحويدرة تصغير الحادرة وهو لقب غلب عليـه ، وآسمه قطبة بن محصن بن جرول . و يعنى حسان بن ثابت رضى الله عنه قصيدته التى مطلعها :

بكرت سمية غدوة فتمتعى * وغـدت غدوّ مفارق لم يربع

(راجع المفضليات ص ٤٨ طبع أوروبا وكتاب الأغانى ج ٣ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية) .

فلان، أفعل من السيادة؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيّدا كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما . وكذلك رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني قُريظة : " قوموا إلى سيدكم " . وفى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الحسن : " إن آبنى هذا سيدٌ ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " وكذلك كان ، فإنه لما قُتل علىّ رضى الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير ممن تخلّف عن أبيه وممن نَكث بيعته ، فبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعِراق وما وراءها من خُراسان، ثم سار إلى معاويةَ فى أهل الحجاز والعراق وسار إليه معاويةُ فى أهل الشام؛ فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له «مَسْكِن» من أرض السّواد بناحية الأنبار كَرِه الحَسَنُ القتالَ لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلِب حتى تهلِك أكثر الأخرى فيهلك المسلمون ؛ فسلّم الأمر إلى معاوية على شروط شرطها عليه ، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية ؛ فآلتزم كل ذلك معاوية فصدّق قوله عليه السلام : " إن آبنى هذا سيّد " ولا أسْود ممن سوّده الله تعالى ورسوله . قال قَتادة فى قوله تعالى « وَسَيِّدًا » قال : فى العلم والعبادة . آبن جبير والضحاك : فى العلم والتُّقى . مجاهد : السيّد الكريم . آبن زيد : الذى لا يغلبه الغضب . وقال الزجاج : السيّد الذى يفوق أقرانه فى كل شيء من الخير . وهذا جامع . وقال الكِسائى : السيد من المَعز المسِنّ . وفى الحديث " ثَنِيٌّ من الضأن خير من السيِّد المعز " . قال :

سواءٌ عليه شاةُ عامٍ دَنتْ له * ليذبَحها للضَّيف أم شاةُ سيِّد

﴿ وَحَصُورا ﴾ أصله من الحصر وهو الحبس . حَصَرنى الشيء وأحصرنى إذا حبسنى . قال آبن ميّادة :

وما هجرُ ليلَى أن تكون تباعدت * عليكَ ولا أن أحْصَرتك شُغولُ

وناقة حصور : ضيّقة الإحليل . والحَصُور الذى لا يأتى النساء كأنه مُحجِم عنهن ؛ كما يقال : رجل حصور وحصير إذا حبَس رِفده ولم يخرج مايخرجه النَّدامَى . يقال : شرِب القوم فحَصِر عليهم فلان، أى بخِل ؛ عن أبى عمرو . قال الأخطل :

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأس نادمني * لا بالحَصُورِ ولا فيها بِسوّارِ (١)

وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٢) » أى محبِسا. والحَصِير المَلِك لأنه محجوب. وقال لبيد :

وقُماقِمٍ (٣) غُلْبِ الرِّقابِ كأنهم * جِنٌّ لدى باب الحَصِير قِيام

فيحيى عليه السلام حصور، فعول بمعنى مفعول لا يأتى النساء؛ كأنه ممنوع مما يكون فى الرجال؛ عن ٱبن مسعود وغيره . وفعول بمعنى مفعول كثير فى اللغة، من ذلك حلوب بمعنى محلوبة ؛ قال الشاعر :

فيها ٱثنتان وأربعون حَلُوبةً * سُودًا كخافية الغراب الأسْحَمِ (٤)

وقال ٱبن مسعود أيضا وٱبن عباس وٱبن جُبير وقَتادة وعطاء وأبو الشعْثاء والحسنُ والسُّدِّى وٱبن زيد : هو الذى يَكُفّ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة . وهذا أصح [الأقوال لو]جهين (٥) : أحدهما أنه مَدْحٌ وثناء عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسَب دون الجِبلّة فى الغالب . الثانى أن فعولا فى اللغة من صيغ الفاعلين؛ كما قال (٦) :

ضَروبٌ بنصل السّيف سُوقَ سِمانِها * إذا عَدِموا زادا فإنك عاقِرُ

فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات . ولعلّ هذا كان شرعَه؛ فأما شرعُنا فالنكاح، كما تقدّم . وقيل : الحصور العِنِّين الذى لا ذَكَر له يتأتّى له به النكاح ولا يُنْزِل ؛ عن ٱبن عباس أيضا وسعيد ٱبن المسيب والضحاك . وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كلّ ٱبن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذّبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى

---

(١) سوار : معربد وثاب . وقد روى «سآر» بوزن سعار ، أى أنه لا يسئر فى الإناء سؤرا بل يشتفه كله .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٤

(٣) القماقم من الرجال : السيد الكثير الخير الواسع الفضل . والقماقم العدد الكثير .

(٤) البيت لعنترة العبسى فى معلقته . والخوافى : أواخر ريش الجناح مما يلى الظهر .

(٥) كذا فى د . قلت : هذا هو اللائق بالعصمة النبوية .

(٦) البيت لأبى طالب بن عبد المطلب . مدح رجلا بالكرم فيقول : يضرب بسيفه سوق السمان من الإبل للأضياف إذا عدموا الزاد ولم يظفروا بجواد لشدة الزمان وكَلَبه ، وكانوا إذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها . (عن شرح الشواهد) .

ٱبن زكريا فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين " — ثم أهوى النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده إلى قَذاة[1] من الأرض فأخذها وقال : "كان ذَكَره [هكذا][2] مثل هذه القذاة". وقيل : معناه الحابس نفسَه عن معاصى الله عز وجل . «ونبيًّا من الصالحين» قال الزجاج : الصالح الذى يؤدّى لله ما ٱفترض عليه ، و إلى الناس حقوقَهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

قيل : الرب هنا جبريل ، أى قال لجبريل : ربِّ — أى يا سيدى — أنَّى يكون لى غلام؟ يعنى ولدا ؛ وهذا قول الكلبيّ . وقال بعضهم : قوله « رب » يعنى اللهَ تعالى . «أنَّى» بمعنى كيف ، وهو فى موضع نصب على الظرف . وفى معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وٱمرأته على حاليهما أو يُردّان إلى حال مَن يَلِد ؟ . الثانى سأل هل يُرزق الولد من ٱمرأته العاقر أو من غيرها . وقيل : المعنى بأىّ منزلة ٱستوجب هذا وأنا وٱمرأتى على هذه الحال ؛ على وجه التواضع . ويروى أنه كان بين دعائه والوقت الذى بُشِّر فيه أربعون سنة ، وكان يوم بشر ٱبن تسعين سنة وٱمرأته قريبة السنّ منه . وقال ٱبن عباس والضحاك : كان يوم بُشِّر ٱبن عشرين ومائة سنة وكانت ٱمرأته بنت ثمان وتسعين سنة ؛ فذلك قوله « وٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ » أى عَقيم لا تلد . يقال : رجل عاقر وٱمرأة عاقر بيّنة العقْر . وقد عَقُرت وعَقُر (بضم القاف فيهما) تعقُر عُقْرا صارت عاقرا ، مثل حسنت تحسن حسنا ؛ عن أبى زيد . وعُقارة أيضا . وأسماء الفاعلين من فعُل فعيلة ، يقال : عظمت فهى عظيمة ، وظرفت فهى ظريفة . و إنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عُقْر على النسب ، ولو كان على الفعل لقال : عقرت فهى عقيرة كأن بها عقرا ، أى كبرا من السنّ يمنعها من الولد . والعاقر : العظيم من الرمل لا ينبت شيئا . والعُقْر أيضا مهر المرأة إذا وُطئت على شُبهة . و بيضة العُقْر : زعموا هى بيضة الديك ؛ لأنه يبيض فى عمره بيضة واحدة إلى الطّول . وعُقْر النار أيضا .

(١) القذاة : ما يقع فى العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .　　(٢) من د .

وسطها ومعظمها . وعُقر الحوض: مؤخّره حيث تقف الإبل إذا وردت؛ يقال: عُقْر وعُقُر مثل عُسْر وعُسُر ؛ والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك . والكاف فى قوله «كذلك» فى موضع نصب، أى يفعل الله ما يشاء مثل ذلك . والغلام مشتق من الغُلْمة وهو شدّة طلب النكاح. وٱغتلم الفحل غُلْمة هاج من شهوة الضِّراب . وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيّة :

شفاها من الداء العُضال الذى بها * غلامٌ إذا هَزَّ القنــاة ســقاها

والغــلام الطارّ الشارب . وهو بيّن الغُلُومة والغُلُوميّة، والجمع الغِلْمة والغِلمان . ويقال: إن الغَيْلم الشابّ والجارية أيضا . والغَيْلم : ذكر السُّلَحْفاة . والغيلم موضع . وٱغتـلم البحر هاج وتلاطمت أمواجه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (٤١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ «جعل» هنا بمعنى صيّر لتعديه إلى مفعولين . و «لى» فى موضع المفعول الثانى . ولمـا بُشِّر بالولد ولم يَبْعُد عنده هذا فى قدرة الله تعالى طلب آية — أى علامة — يعرف بها صحة هذا الأمر وكونَه من عنـد الله تعالى ؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآيَة بعد مُشافهة الملائكة إياه ؛ قاله أكثر المفسرين. قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرَس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب مّا . قال ٱبن زيد: إن زكريا عليه السلام لمـا حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا، وهو مع ذلك يقرأ التوراة و يذكر الله تعالى؛ فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ الرمز فى اللغة الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل فى الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين؛ وأصله الحركة. وقيل: طلبَ تلك الآية زيادة طمأنينة. المعنى: تمّم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة ؛ فقيل له : «آيتك

أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » أى تمنع من الكلام ثلاث ليال ؛ دليل هذا القول قوله تعالى بعد بشرى الملائكة له . « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا(١) » أى أوجدتك بقدرتى فكذلك أوجد لك الولد . وآختار هـذا القول النحاس وقال : قول قتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام قول مرغوب عنه ؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا أنه أذنب ولا أنه نهاه عن هـذا ؛ والقول فيه أن المعنى آجعل لى علامة تدل على كون الولد ، إذ كان ذلك مغيبا عنى . و « رَمْزًا » نصب على الآستثناء المنقطع ؛ قاله الأخفش . وقال الكسائى : رمز يرمز ويرمز . وقرئ « إلا رمزا » بفتح الميم و « رمزا » بضمها وضم الراء ، الواحدة رمزة .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود فى كثير من السنة ، وآكد الإشارات ما حكم به النبىّ صلى الله عليه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : " أين الله " ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : "أعتقها فإنها مؤمنة" . فأجاز الإسلام بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يحرز الدم والمـال وتستحق به الجنة وينجى به من النار ، وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملة فى سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء . وروى آبن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق إنه يلزمه . وقال الشافعىّ فى الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس فى الرجعـة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شك فيها فهى باطل ، وليس ذلك بقياس وإنما هو آستحسان . والقياس فى هذا كله أنه باطل ؛ لأنه لا يتكلم ولا تعقل إشارته . قال أبو الحسن بن بطّال : وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التى جاءت بجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى الديانة(٢) . ولعـل البخارى حاول بترجمته « باب الإشارة فى الطلاق والأمور » الردَّ عليه . وقال عطاء : أراد بقوله « أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » صوم ثلاثة أيام . وكانوا إذا صاموا لا يتكلمون إلا رمزا . وهذا فيه بُعْدٌ . والله أعلم .

الرابعـــة — قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسّنة : إن زكريا عليه السلام مُنع الكلامَ وهو قادر عليه ، وإنه منسوخ بقوله عليه السـلام : " لا صَمتَ يوما إلى الليل(٣) " . وأكثر

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٤   (٢) فى د : من الديانة .   (٣) وفى البحر وآبن عطية « لا صمت يوم » . ورواية أبى داود « ولا صمات يوم إلى الليل » راجع الحديث فى اللسان مادة صمت .

العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وأن زكريا إنما منع الكلام بآفة[١] دخلت عليه منعته إياه، وتلك الآفة[١] عدم القدرة على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون . وذهب كثير من العلمـاء إلى أنه " لا صَمتَ يوما إلى الليل " إنمـا معناه عن ذكر الله ، وأما عن الهَـذَر وما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك حسن .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وسَـبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ﴾ أمره بألاّ يترك الذكر فى نفسه مع اعتقال لسانه ؛ على القول الأول . وقد مضى فى البقرة[٢] معنى الذكر . وقال محمد ابن كعب القـرظىّ : لو رخص لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا بقـول الله عز وجل « أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً » ولرخص للرجل يكون فى الحرب بقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَـةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً[٣] » . وذكره الطبرى . «وسَبِّحْ» أى صلِّ؛ سميت الصلاة سُبْحَة لمـا فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء. و«العشىّ» جمع عَشِية . وقيـل : هو واحد . وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ؛ عن مجاهد . وفى الموطأ عن القاسم بن محمد قال : ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر بعشىّ. « والإبكار » من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاكِ ﴾ أى اختارك، وقد تقـدّم[٤] . ﴿ وطَهَّرَكِ ﴾ أى من الكفر؛ عن مجاهد والحسن . الزجاج : من سائر الأدناس من الحيض والنفاس وغيرهما ، واصطفاك لولادة عيسى ﴿ عَلَى نِسَاءِ الْعَـالَمِينَ ﴾ يعنى عالمى زمانها ؛ عن الحسـن وابن جُريج وغيرهما . وقيل : « على نساء العالمين » أجمع إلى يوم الصور، وهو الصحيح على ما نبينه ، وهو قول الزجاج وغيره . وكرر الاصطفاء لأن معنى الأوّل الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثانى لولادة عيسى . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " كمل

(١) فى د : بآية، وتلك الآية . (٢) راجع ج١ ص ٣٣١ (٣) راجع ج٨ ص ٢٣ (٤) راجع ج٢ ص ١٣٣

من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمـران وآسية آمرأة فرعون و إنّ فضـل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكمال هو التناهي والتمام، ويقال في ماضيه «كمل» بفتح الميم وضمها، ويكمل في مضارعه بالضم، وكمال كل شيء بحسبه . والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة . ولاشك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهـم الأولياء من الصـدّيقين والشهداء والصالحين . وإذا تقرّر هذا فقد قيل : إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة فيلزم عليـه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيّتين ، وقد قيل بذلك . والصحيح أن مريم نبيّة؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدّم ويأتي بيانه أيضا في « مريم »(١) . وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوّتها دلالة واضحة بل على صدّيقيتها وفضلها، على ما يأتي بيانه في «التحريم»(٢) .
وروى من طرق صحيحة أنه عليه السـلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة : " خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسـية بنت مزاحم آمرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمـة بنت محمد " . ومن حديث آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسـية بنت مزاحم آمرأة فرعون " . وفي طريق آخر عنـه : " سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة " .
فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضـل من جميع نساء العـالم من حوّاء إلى آخر آمرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ؛ فهي إذًا نبيّة والنبيّ أفضل من الوليّ فهي أفضل من كل النساء : الأوّلين والآخرين مطلقا . ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية . وكذلك رواه موسى بن عقبـة عن كُرَيْب عن آبن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " سـيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسـية " . وهـذا حديث حسن يرفع الإشكال . وقد خصّ الله مريم بمـا لم يؤته أحدا من النساء ؛ وذلك أن روح القـدس كلمها وظهر لها ونفخ في دِرعها ودنا منها للنفخة ؛ فليس هذا لأحد من النساء . وصدّقت بكلمات

(١) راجع جـ ١١ ص ٩ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٣

ربها ولم تسأل آية عنـدما بُشِّرت كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ ولذلك سماها الله فى تنزيله صدِّيقة فقال : « وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ »(١) . وقال : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »(٢) فشهد لها بالصدِّيقية وشهد لها بالتصـديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقُنُوت . وإنما بشر زكريا بغـلام فلحظ إلى كبر سـنه وعقامة رحم امرأته فقال : أنى يكون لى غلام وامرأتى عاقر ؛ فسـأل آية ؛ وبشرت مريم بالغـلام فلحظت أنها بِكْرٌ ولم يمسسها بشر فقيل لها : « كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ »(٣) فاقتصرت على ذلك ، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُنْه هـذا الأمر ، ومن لامرأة فى جميع نساء العالمين من بنـات آدم ما لها من هـذه المناقب ! . ولذلك روى أنها سبقت السابقين مع الرسـل إلى الجنة ؛ جاء فى الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : "لو أقسمتُ لبرَرْتُ لا يدخل الجنة قبل سابق أمتى إلا بضعة عشر رجلا منهـم إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنـة عمران" . وقد كان يحق على من انتحل علم الظاهر واستدل بالأشـياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "أنا سيد ولد آدم ولا فخـر" وقوله حيث يقول : "لواء الحمد يوم القيامة بيدى ومفاتيح الكرم بيـدى وأنا أول خطيب وأول شفيع وأول مُبشِّر وأول وأول" . فلم ينل هـذا السُّؤدد فى الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم فى الباطن . وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله فى التنزيل بالصدِّيقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية . ومن قال لم تكن نبية قال : إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل عليـه السـلام فى صفة دِحية الكلبى حين سـؤاله عن الإسلام والإيمـان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر وعليه الأكثر . والله أعلم .

قوله تعـالى : يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أى أطيلى القيام فى الصـلاة ؛ عن مجاهد . قتادة : أديمى الطاعة . وقد تقدّم القول فى القنوت(٤) . قال الأوزاعىّ : لمـا قالت لها الملائكة ذلك قامت فى الصـلاة حتى وَرِمت

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٠ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٣ (٣) راجع جـ ١١ ص ٩١
(٤) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وجـ ٢ ص ٢١٣

قدماها وسالت دما وقيحا عليها السلام . ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى ﴾ قدّم السجود ها هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب ؛ وقد تقدّم الخلاف فى هذا فى البقرة عند قوله تعالى : « إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ » (١) . فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعلى هذا يكون المعنى وآركعى وآسجدى . وقيل : كان شرعهم السجود قبل الركوع . ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قيل : معناه آفعلى كفعلهم و إن لم تصلى معهم . وقيل : المراد به صلاة الجماعة . وقد تقدّم فى البقرة (٢) .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى الذى ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب ؛ وأخبر عن ذلك وصدّقه أهل الكتاب بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » فردّ الكناية إلى « ذلك » فلذلك ذُكِّر . والإيحاء هنا الإرسال إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوحى يكون إلهاما وإيماء وغير ذلك . وأصله فى اللغة إعلام فى خفاء ؛ ولذلك صار الإلهام يسمى وحيا ؛ ومنه « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ » (٣) وقوله : «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» (٤) وقيل : معنى «أوحيت إلى الحواريين» أمرتهم ؛ يقال : وحى وأوحى ، ورمى وأرمى بمعناه . قال العجاج :

* أوحى لها القرار فآستقرّت *

أى أمر الأرض بالقرار . وفى الحديث : " الوحى الوحى " وهو السرعة ؛ والفعل منه توحيت توحيا . قال آبن فارس : الوحى الإشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤٤　　(٢) راجع المسألة الخامسة وما بعدها جـ ١ ص ٣٤٤

(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٦٣　　(٤) راجع جـ ١٠ ص ١٣٣

حتى يعلمه وحى كيف كان . والوِحِىّ السريع . والوَحَى الصَّوْت؛ ويقال : آستوحيناهم أى آستصرخناهم . قال :

* أوحيت ميمونا لها(١) والأزراق *

الثانيـــة — قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى وما كنت يا محمد لديهم ، أى بحضرتهم وعندهم . ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ جمع قَلَم ؛ من قَلَمه إذا قطعه . قيل : قداحهم وسهامهم . وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة ، وهو أجود ؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال «ذَلِكُمْ فِسْقٌ»(٢) . إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التى كانت عليها الجاهلية تفعلها . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى يحضنها ، فقال زكريا : أنا أحق بهـا ، خالتها عنـدى . وكانت عنده أشيع بنت فاقود أخت حَنّة بنت فاقود أمّ مريم . وقال بنو إسرائيل : نحن أحق بها ، بنت عالِمنا . فاقترعوا عليها وجاء كل واحد بقلمه ، وآتفقوا أن يجعلوا الأقلام فى المـاء الجارى فمن وقف قلمه ولم يجره المـاء فهو حاضنها . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "جرت الأقلام وعال قلم زكريا" . وكانت آية له ؛ لأنه نبىّ تجرى الآيات على يديه . وقيل غير هذا . و « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » آبتداء وخبر فى موضع نصب بالفعل المضمر الذى دل عليه الكلام ؛ التقدير : ينظرون أيهم يكفل مريم . ولا يعمل الفعل فى لفظ « أى » لأنها آستفهام .

الثالثـــة — آستدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرْعة ، وهى أصل فى شرعنا لكل من أراد العدل فى القسمة ، وهى سنة عند جمهور الفقهاء فى المستويين فى الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظِّنة عمن يتولى قسمتهم ، ولا يفضـل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد آتباعا للكتاب والسنّة . وردّ العملَ بالقُرْعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردّوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التى نهى الله عنها . وحكى آبن المنذر عن أبى حنيفة أنه جوّزها وقال : القرعة فى القياس لا تستقيم ، ولكنا تركنا القياس فى ذلك وأخذنا بالآثار والسنّة . قال أبو عبيد : وقد عمِل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال آبن المنذر . وآستعمال القرعة

(١) فى نسخة : د ، لهم . (٢) راجع ج ٦ ص ٦٠

كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردّها . وقد ترجم البخاريّ في آخر كتاب الشهادات (باب القُرْعة في المشكلات وقول الله عز وجل « إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ») وساق حديث النعمان بن بشير : "مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن (١) فيها مثل قوم آستهموا على سفينة ..." الحديثَ . وسيأتي في «الأنفال» (٢) إن شاء الله تعالى، وفي سورة «الزخرف» (٣) أيضا بحول الله سبحانه ، وحديث أُمِّ العلاء، وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهمُه في السُّكْنى حين آقترعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين ، الحديث ، وحديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها ؛ وذكر الحديث .

وقد آختلفت الرواية عن مالك في ذلك ؛ فقال مرّة : يقرع للحديث . وقال مرّة : يسافر بأوفقهنّ له في السفر . وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم الناس ما في النِّداء والصّفّ الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لآستهموا " . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . وكيفية القُرْعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف . وآحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز. قال آبن العربيّ : « وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاحّ (٤) ؛ فأما ما يخرجه التراضي [فيه (٥)] فباب آخر ، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجرى مع موضع التراضي، فإنها لا تكون أبدا مع التراضي» وإنما تكون فيما يَتَشاحّ الناس فيه ويُضَنّ به . وصفة القرعة عند الشافعيّ ومن قال بها : أن تُقطع رِقاع صغار مستوية فيكتب في كل رقعة آسم ذى السهم ثم تجعل في بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تجفف قليلا ثم تلقى في ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطى عليها ثوبه ثم يدخل يده ويخرج، فإذا أخرج آسم رجل أُعطى الجزء الذى أُقرع عليه .

---

(١) كذا في نسخ الأصل ، وهو لفظ البخارى عن النعمان في « كتاب المظالم » . وروايته . في « كتاب الشهادات » : « ... مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل ... » . والمدهن الذى يرائى .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٢ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٨٦ (٤) تشاح الخصمان : أراد كل أن يكون هو الغالب . (٥) زيادة عن أحكام القرآن لآبن العربى .

الرابعـــة — ودلت الآية أيضا على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة، وقد قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى آبنة حمزة — وآسمها أمة الله — لجعفر وكانت عنده خالتها، وقال: "إنما الخالة بمنزلة الأم"(١) وقد تقدّمت فى البقرة هذه المسألة . وخرّج أبو داود عن عليّ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بآبنة حمزة فقال جعفر: أنا آخذها أنا أحق بها آبنة عمى وخالتها عندى، وإنما الخالة أم . فقال عليّ : أنا أحق بها آبنة عمى وعندى آبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى أحق بها . وقال زيد : أنا أحق بها، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها؛ فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال : " وأما الجارية فأقضى بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة أمٌّ " . وذكر آبن أبى خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصيّ حمزة، فتكون الخالة على هذا أحقّ من الوصيّ ويكون آبن العمّ إذا كان زوجا غير قاطع بالخالة فى الحضانة وإن لم يكن مَحْرَمًا لها .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

دليل على نبوّتها كما تقدّم . و«إذ» متعلقة بـ«يختصمون» . ويجوز أن تكون متعلقة بقوله : «وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ» . ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وقرأ أبو السمّال «بِكِلْمَةٍ منه» ، وقد تقدّم . ﴿آسْمُهُ المَسِيحُ﴾ ولم يقل آسمها لأن معنى كلمة معنى ولد . والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصدّيق؛ قاله إبراهيم النخعيّ . وهو فيما يقال معرّب وأصله الشين وهو مشترك . وقال آبن فارس : والمسيح العرق، والمَسِيح الصّدّيق، والمَسِيح الدرهم الأطلس(٢) لا نقش فيه . والمَسْح الجماع؛(٣) يقال مسحها . والأمسح : المكان الأملس . والمسحاء المرأة الرّسْحاء التى لا آسْتَ لها . وبفلان مَسْحة من جمال . والمسائح قِسِيٌّ جِياد، واحدتها مَسِيحة . قال :

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦٤ (٢) كذا فى بعض النسخ والمصباح، وفى اللسان : الطلس : المحو، والطلس كتاب قد محى ولم ينعم محوه، ثم قال : والأطلس الثوب الخلق . وفى ز : الدرهم الأملس لا نقش عليه .
(٣) الظاهر أن هنا سقطا كأن الأصل : يقال مسحها إذا جامعها .

لهـا مَسائحُ زُورٌ فى مراكضها * لِينٌ وليس بهـا وَهْن ولا رَقَق [١]

وآختلِف فى المسيح آبن مريم مما ذا أخذ؛ فقيل : لأنه مسح الأرض، أى ذهب فيهـا فلم يستكِنّ بِكِنّ . وروِى عن آبن عبـاس أنه كان لا يمسح ذا عاهـة إلا برِئ ؛ فكأنه سمى مسيحا لذلك، فهو على هـذا فعيلٌ بمعنى فاعل . وقيـل : لأنه ممسوح بدهن البركة، كانت الأنبيـاء تُمسح به، طيِّب الرائحة ؛ فإذا مُسـح به عُلم أنه نبىّ . وقيـل : لأنه كان ممسوح الأخمصين . وقيل : لأن الجمـال مسحه، أى أصابه وظهر عليه . وقيل : إنمـا سمى بذلك لأنه مسح بالطُّهر [٢] من الذنوب . وقال أبو الهيثم : المسيح ضِـد المسيخ؛ يقال : مسحه الله أى خلقه خلقا حسـنا مباركا ، ومسخه أى خلقه خلقا ملعونا قبيحا . وقال آبن الأعرابى : المسيح الصِّـدِّيق ، والمسيخ الأعور ، وبه سمى الدّجال . وقال أبو عبيد : المسيح أصـله بالعبرانية مشيحا بالشين فعرّب كما عرب موشى بموسى . وأما الدّجال فسمى مسيحا [٣] لأنه ممسوح إحدى العينين . وقد قيل فى الدجال مِسِّيح بكسر الميم وشد السين . وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة . وبعضهم يقول مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف؛ والأول أشهر وعليه الأكثر. سمى به لأنه يسـيح فى الأرض أى يطوفهـا ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينـة وبيت المقدس؛ فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض مِحْنَةً ، وآبن مريم يمسحها مِنْحَةً . وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول . وقال الشاعر :

* إنّ المسيح يقتـل المسيخا *

وفى صحيح مسـلم عن أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " ليس من بلد إلا سيطؤه الدّجال إلا مكّةَ والمدينـةَ " الحديث . ووقع فى حديث عبـد الله بن عمـرو "إلا الكعبة وبيت المقدس" ذكره أبوجعفر الطبرى . وزاد أبو جعفر الطحاوىّ "ومسجد الطور"؛ رواه من حديث جُنادَة بن أبى أميـة عن بعض أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسـلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وفى حديث أبى بكر بن أبى شيبة عن سمرة بن جُنْدُب عن النبىّ

(١) زور : جمع زوراء وهى المـائلة . والوهن الضعف ، والرقق : ضعف العظام . (٢) فى ز : التطهر فى ب ود : التطهير . (٣) فى ز، د : مسيخا — بالمعجمة — وأنه ممسوخ إحدى العينين .

صلى الله عليه وسلم " وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم و بيت المقدس وأنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس" وذكر الحديث. وفى صحيح مسلم : " فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح آبن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دِمَشق بين مَهْرُودتين(١) واضعا كفّيه على أجنحة ملكين إذا طاطأ رأسه قَطر و إذا رفعه تحدّر منه جُمان(٢) كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ(٣) فيقتله"(٤) الحديث بطوله.

وقد قيل : إن المسيح آسم لعيسى غير مشتق سمّاه الله به . فعلى هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البدل الذى هو هو . وعيسى آسم أعجمى فلذلك لم ينصرف و إن جعلته عربيّا لم ينصرف فى معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث . و يكون مشتقًّا من عاسه يَعُوسه إذا ساسه وقام عليه . ﴿وَجِيهًا﴾ أى شريفا ذا جاهٍ وقَدرٍ، وآنتصب على الحال؛ قاله الأخفش. ﴿ وِمَنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عند الله تعالى وهو معطوف على « وجيها » أى ومُقرّبا؛ قاله الأخفش . وجمع وجيه وُجهاء ووِجهاء . ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ عطف على «وجيها»؛ قاله الأخفش أيضا . و ﴿ الْمَهْدِ ﴾ مضجع الصبيّ فى رضاعه . ومهدت الأمر هيأته ووطّأته . وفى التنزيل « فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ(٥) » . وآمتهد الشيء آرتفع كما يمتهد سنام البعير . ﴿ وَكَهْلًا ﴾ الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة . وآمرأة كهلة . وآكتهلت الروضة إذا عمها النَّوْر . يقول: يكلم الناس فى المهد آية، و يكلمهم كهلا بالوحى والرسالة . وقال أبو العباس : كلمهم فى المهد حين برّأ أمّه فقال: «إِنِّى عَبْدُ الله(٦)» الآية . وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى [من السماء](٧) أنزله على صورة آبن ثلاثٍ وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم: «إنى عبدالله» كما قال فى المهد. فهاتان آيتان وحجتان . قال المهدوى : وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم فى المهد و يعيش إلى أن يكلمهم كهلا، إذ كانت العادة أن من تكلم فى المهد لم يعش :

(١) قوله : مهرودتين، أى فى شقتين أو حلتين . وقيل : الثوب المهرود الذى يصبغ بالورس ثم بالزعفران .
(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم) : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .
(٣) لد (بضم اللام وتشديد الدال) : قرية فى فلسطين قريبة من بيت المقدس .
(٤) راجع صحيح مسلم جـ ٢ ص ٣٧٦ طبع بولاق . (٥) راجع القرطبي جـ ١٤ ص ٤٤
(٦) راجع جـ ١١ ص ١٠٢ (٧) الزيادة عن البحر لأبى حيان .

قال الزجاج : « وكهلا » بمعنى ويكلم الناس كهلا . وقال الفرّاء والأخفش : هو معطوف على « وجيها » . وقيل : المعنى ويكلم الناس صغيرا وكهلا . وروى آبن جُريج عن مجاهد قال : الكهل الحليم . قال النحاس : هذا لا يُعرف في اللغة، وإنما الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين . وقال بعضهم : يقال له حَدَث إلى ستّ عشرة سنة . ثم شابّ إلى آثنتين وثلاثين . ثم يَكتهل في ثلاث وثلاثين ؛ قاله الأخفش . ﴿ومن الصالحين﴾ عطف على « وجيها » أي وهو من العباد الصالحين . ذكر أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا عبد الله بن إدريس عن حُصين عن هلال بن يِساف . قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب يوسف وصاحب جريج ، كذا قال : « وصاحب يوسف » . وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى آبن مريم وصاحب جُريج وصاحب الجبار وبينا صبيّ يرضع من أمه " وذكر الحديث بطوله (١) . وقد جاء من حديث صُهيب في قصة الأُخدود " أن آمرأة جِيء بها لتُلقى في النار على إيمانها ومعها صبيّ " . في غير كتاب مسلم " يرضع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أمّه آصبري فإنك على الحق" . وقال الضحاك : تكلم في المهد ستة : شاهد يوسف وصبيّ ماشطة آمرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جُريج وصاحب الجبّار . ولم يذكر الأخدود ، فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة . ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة " بالحصر فإنه أخبر بما كان في علمه مما أوحى إليه في تلك الحال ، ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فيأتي الكلام فيه ، وأما صاحب جُريج وصاحب الجبّار وصاحب الأخدود ففي صحيح مسلم . وستأتي قصة الأخدود في سورة « البروج » (٢) إن شاء الله تعالى . وأما صبيّ ماشطة [آمرأة] فرعون ، فذكر البيهقيّ عن آبن عباس قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لما أُسري بي سرت في رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا ماشطة

(١) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٧٦ طبع بولاق راجع ج ١٩ (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٨٤

آبنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت : بسم ٱلله فقالت آبنة فرعون : أبي ؟ قالت : ربّي وربّك وربّ أبيك قالت أوَلكِ ربّ غير أبي ؟ قالت : نعم ربي وربّك وربّ أبيكِ اللهُ — قال — فدعاها فرعون فقال : ألكِ ربّ غيري ؟ قالت : نعم ربي وربّكَ الله — قال — فأمر بنُقرة من نُحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيهـا قالت : إن لى إليك حاجةً قال : ما هي ؟ قالت : تجمـع عظامي وعظامَ ولدى في موضع واحد قال : ذاك لكِ لمـا لكِ علينا من الحق . فأمر بهـم فألقوا واحدًا بعـد واحد (١) حتى بلغ رضيعا فيهم فقال قَعِي يا أمّه ولا تقاعسِي فإنا على الحق — قال — وتكلم أربعة وهم صغار : هذا وشاهد يوسف وصاحب جُريج وعيسى آبن مريم .

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي ياسيّدى . تخاطب جبريل عليه السلام ؛ لأنه لمـا تمثّل لها قال لها : إنما أنا رسولُ رَبِّكِ لِيَهب لكِ غلاما زكيا . فلما سمعت ذلك من قوله آستفهمت عن طريق الولد فقالت : أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ أى بنكاح . [في سورتها] (٢) «وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا» (٣) ذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها « لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » يشمل الحرام والحلال . تقول : العادة الجارية التي أجراها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سفاح . وقيل : ما آستبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أمِن قِبل زوج فى المستقبل أم يخلقه الله آبتداء ؟ فُروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها « كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » « قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ » . نفخ في جَيب دِرعها وكُمّها ؛ قاله آبن جُريج . قال آبن عباس : أخذ جبريل رُدْنَ (٤) قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت

(١) يبدو هنا سقط فى كل الأصول ، فقوله : واحدا بعد واحد من قصة أصحاب الأخدود لا صلة له بما قبله . راجع جـ ١٩ ص ٢٨٦

(٢) الزيادة فى نخ : ب . ود . أى فى سورة مريم « ولم أك بغيا » . (٣) راجع جـ ١١ ص ٩١ (٤) الردن (بالضم) أصل الكم .

بذلك . وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة و بعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذرّيته فجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء و بعضه فى أرحام الأمّهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولدا ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعا فى مريم بعضه فى رحمها و بعضه فى صُلبها ، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها ؛ لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذى كان فى صُلبها فى رَحِمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك ؛ فذلك قوله تعالى « إِذَا قَضَى أَمْرًا » يعنى إذا أراد أن يخلق خلقا « فإنما يقول له كن فيكون » . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفى (١) .

قوله تعالى : وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ قال ابن جُرَيج : الكتاب الكتابة والخط . وقيل : هو كتاب غير التوراة والإنجيل علّمه الله عيسى عليه السلام . ﴿ وَرَسُولًا ﴾ أى ونجعله رسولا . أو يكلمهم رسولا . وقيل : هو معطوف على قوله « وجيها » . وقال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو فى قوله « ورسولا » مُقْحَمة والرسول حالا للهاء؛ تقديره و يعلمه الكتاب رسولا . وفى حديث أبى ذرّ الطويل "وأوّل أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليه السلام" . ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ ﴾ أى أصوّر وأقدّر لكم ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر « كهيّة » بالتشديد . الباقون بالهمز .

(١) راجع ج ١ ص ٨٧

والطير يذكر ويؤنث . ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ أى فى الواحد منه أو منها أو فى الطين فيكون طائرا . وطائر وطَيْر مثل تاجر وتَجْر . قال وَهْب : كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى . وقيل: لم يخلق غيرَ الخُفّاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدرة ، لأن لهـا ثَدْيًا وأسنانا وأذنا ، وهى تحيض وتطهر وتلد . ويقال : إنما طلبوا خَلْق خُفّاش لأنه أعجب من سائر الخلق؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل، وإنما يرى فى ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدا ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويحيض كما تحيض المرأة . ويقال : إن سـؤالهم كان له على وجه التعنّت فقالوا : أخلق لنا خُفّاشا وٱجعل فيـه روحا إن كنت صادقا فى مقالتك ؛ فأخذ طينا وجعل منـه خفاشا ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الأكمه : الذى يولد أعمى؛ عن ٱبن عباس . وكذا قال أبو عبيدة قال : هو الذى يولد أعمى ؛ وأنشـد لرؤبة :

* فٱرتدّ ٱرْتِداد الأكمه *

وقال ٱبن فارس : الكَمَه العمَى يولد به الإنسان وقد يعرِض . قال سُويد :

* كَمِهت عيناه حتى ٱبيضّتا *

مجاهد : هو الذى يبُصر بالنهار ولا يبُصر بالليل . عكرمة : هو الأعمش ، ولكنه فى اللغـة العمى؛ يقال كَمِه يَكْمَه كَمَها وكَمَّهْتها أنا إذا أعميتها . والبرص معروف وهو بياض يعترى الجلد، والأبرص القمر، وسامُّ أَبْرَصَ معروف ، ويجمع على الأبارص . وخُصّ هذان بالذكر لأنهما عياءان . وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك ﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر وكان صديقا له ، وٱبن العجوز

وٱبنة العاشر وسام بن نوح؛ فالله أعلم ، فأما العاذر فإنه كان قد توفى قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وودكه يقطر فعاش وولد له ؛ وأما ٱبن العجوز فإنه مرّ به يُحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله ، وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها؛ فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيى من كان موته قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتةٌ فأحى لنا سام بن نوح . فقال لهم : دلّونى على قبره فخرج وخرج القوم معه حتى ٱنتهى إلى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه . فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شَيْبٌ ؟ فقال : يا روح الله ، إنك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله ، فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك شاب رأسى . فسأله عن النزع فقال : يا روح الله ، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتى؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة ، فقال للقوم : صدّقوه فإنه نبىّ ؛ فآمن به بعضهم وكذّبه بعضهم وقالوا : هذا سحر . وروى من حديث إسمعيل ٱبن عياش قال : حدّثنى محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ٱبن مريم كان إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين يقرأ فى الأولى « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ » . وفى الثانية «تنزيل السجدة» فإذا فرغ حمد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديمُ يا خَفِىّ يادائمُ يا فَرْدُ يا وِتْرُ يا أحد يا صمد ؛ ذكره البيهقى وقال : ليس إسناده بالقوىّ (١) .

قوله تعالى : ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى بالذى تأكلونه وماتدخرون . وذلك أنهم لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندّخر للغد ؛ فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا وٱدّخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله «وأنبئكم» الآية . وقرأ مجاهد والزهرىّ والسختيانىّ « وما تذخرون » بالذال المعجمة مخففا . وقال سعيد بن جبير وغيره : كان يخبر الصبيان فى الكُتّاب بما يدخرون حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه . قتادة : أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما ٱدّخروه منها خفية .

(١) هذا الحديث لا يصح لأن السورتين من القرآن ولا يجوز أن يكون شىء من القرآن من الكتب السابقة .

قوله تعـالى : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿ ومُصَـدِّقًا ﴾ عطف على قوله : « ورَسُـولًا » . وقيل : المعنى وجئتكم مصـدقا . ﴿ لِمَـا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾ لمـا قبـلى . ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ ﴾ فيـه حذف ، أى ولأحل لكم جئتكم . ﴿ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنى من الأطعمة . قيـل : إنمـا أحل لهم عيسى عليه السـلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ولم يكن فى التـوراة ، نحو أكل الشحوم وكل ذى ظفر . وقيـل : إنمـا أحل لهم أشياء حرمتها عليهم الأحبار ولم تكن فى التوراة محرمة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون « بعض » بمعنى كل ؛ وأنشد لبيد :

تَرَّاكُ أَمْكِنَـةٍ إذا لم أرضهـا * أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمَامُها

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل فى هذا الموضع ، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنمـا أحل لهم أشياء ممـا حرّمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتـل ولا السرقة ولا فاحشة . والدليل على هـذا أنه روى[1] عن قتادة أنه قال : جاءهم عيسى بألْيَنَ ممـا جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا ؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها . وقرأ النَّخَعِيّ « بَعْضَ الَّذِى حَرُمَ عَلَيْكُمْ » مثل كرم ، أى صار حراما . وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا آنضمت إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر[2] :

أبا مُنْـذِرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَـنا * حَنَانَيْكَ بعضُ الشر أهْوَنُ من بعض

يريد بعض الشر أهون من كله . ﴿ وجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ إنمـا وحد وهى آيات[3] لأنها جنس واحد فى الدلالة على رسالته .

---

(١) فى د : مأروى . (٢) هو طرفة بن العبد ، خاطب به عمرو بن هند الملك ، وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله . (٣) فى د : آياته

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى من بنى إسرائيل . وأحسّ معناه علِم ووجد؛ قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة: معنى «أحس» عرف ، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة . والإحساس : العلم بالشيء؛ قال الله تعالى : «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ»(١) والحس القتل؛ قال الله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ »(٢) . ومنه الحديث فى الجراد "إذا حَسَّهُ الْبَرْدُ". ﴿ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى الكفر بالله . وقيل: سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء: أرادوا قتله . ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ آستنصر عليهم . قال السدى والثورى وغيرهما : المعنى مع الله ، فإلى بمعنى مع ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ »(٣) أى مع . والله أعلم . وقال الحسن : المعنى من أنصارى فى السبيل إلى الله؛ لأنه دعاهم إلى الله عن وجل. وقيل: المعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله عز وجل. فإلى على هذين القولين على بابها،وهو الجيِّد. وطلب النصرة ليحتمى بها من قومه و يظهر الدعوة ؛ عن الحسن ومجاهد . وهذه سنة الله فى أنبيائه وأوليائه . وقد قال لوط : « لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ »(٤) أى عشيرة وأصحاب ينصروننى . ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ﴾ أى أنصار نبيه ودينه . والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام ، وكانوا آثنى عشر رجلا ؛ قاله الكلبى وأبو رَوْق .

وآختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقال آبن عباس : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا صيادين . آبن أبى نَجيح وآبن أَرْطَاة : كانوا قصّارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى، وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصبّاغين ، فأراد معلِّم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فآصبغها . فطبخ عيسى حُبًّا(٥) واحدا وأدخله جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك . فقدم الحوارى والثياب كلها فى الحُبّ فلما رآها قال : قد أفسدتها ؛

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٢ (٢) راجع ج ٤ ص ٢٣٥ (٣) راجع ج ٥ ص ١٠
(٤) راجع ج ٩ ص ٧٨ (٥) الحب بالضم : الخابية .

فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغه؛ فعجب الحوارىّ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به؛ فهم الحواريون . قتادة والضحاك : سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء . يريدان لنقاء(١) قلوبهم . وقيـل : كانوا ملوكا، وذلك أن الملك صنع طعاما فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لاتنقص، فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى ٱبن مريم . قال : إنى أترك ملكى هذا وأتبعك . فٱنطلق بمن ٱتبعه معه ، فهم الحواريون؛ قاله ٱبن عون . وأصل الحَوَر فى اللغة البياض ، وحـوّرت الثياب بيضتها ، والحُوَّارَى من الطعـام ما حُوّر، أى بيض ، وٱحْوَرّ ٱبيض ، والجَفْنَة المحوّرة : المبيضة بالسنام ، والحوارِىّ أيضا الناصر؛ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبىّ حوارىّ وحوارِيّى الزبير " . والحَوارِيّاتُ : النساء لبياضهن ؛ وقال :

فقُلْ للحَواريات يَبْكِينْ غيرَنا * ولا تَبْكنا إلّا الكلابُ النَّوابِحُ

قوله تعـالى : رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَـا أَنْزَلْتَ ﴾ أى يقولون ربنا آمنا . ﴿ بِمَـا أَنْزَلْتَ ﴾ يعنى فى كتابك وما أظهرته من حكمك . ﴿وَٱتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعنى عيسى . ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ٱبن عباس . والمعنى أثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا من جملتهم . وقيل : المعنى فٱكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق .

قوله تعـالى : وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ يعنى كفار بنى إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، أى قتله(٢) . وذلك أن عيسى عليه السلام لمـا أخرجه قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به ، فذلك مكرهم . ومكْرُ الله : ٱستدراجه لعباده من حيث لا يعلمون؛ عن الفرّاء وغيره . قال ٱبن عباس : كلما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم؛ فسمى الجزاء بٱسم الابتداء؛ كقوله :

(١) فى ز : لصفاء . (٢) فى ز : بقتله .

«اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم»[1]، «وَهُوَ خَادِعُهُم»[2]. وقد تقدّم في البقرة. وأصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع. والمكر: خَدَالة الساق[3]. وامرأة ممكورة الساقين. والمكر: ضرب من الثياب. ويقال: بل هو المَغَرَة؛ حكاه ابن فارس. وقيل: «مكر الله» إلقاء شَبَه عيسى على غيره ورَفْع عيسى إليه، وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريل من الكوّة إلى السماء؛ فقال ملكهم لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا: ادخل عليه فاقتله، فدخل الخَوْخَة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصَلَبوه. ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا؛ فذلك قوله تعالى: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ». وقيل غير هذا على ما يأتي.

﴿واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ اسم فاعل من مَكَر يمكُر مَكْرا. وقد عدّه بعض العلماء في أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به: يا خير الماكرين امكر لي. وكان عليه السلام يقول في دعائه: "اللهم امكر لي ولا تمكر عليّ". وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. والله أعلم.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ العامل في «إذ» مكروا، أو فعل مضمر. وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى: «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ» على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة. والمعنى: إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء؛ كقوله: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى»[4]؛ والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما. قال الشاعر:

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠١ (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢١
(٣) في اللسان: حسن خدالة الساقين أي امتلاؤها واستدارتها. (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٦٠

أَلَا يا نخلة من ذات عِرْق * عليكِ ورحمةُ الله السلامُ

أى عليك السلام ورحمة الله . وقال الحسن وٱبن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ؛ مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته . وقال وهب بن منبه : توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء . وهذا فيه بعد ؛ فإنه صح فى الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزولُه وقتلُه الدجّال على ما بيناه فى كتاب التذكرة، وفى هذا الكتاب حسب ما تقدّم، ويأتى . وقال ٱبن زيد : متوفيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعدُ . وروى ٱبن طلحة عن ٱبن عباس معنى متوفّيك مميتُك . الربيع ٱبن أنس : وهى وفاة نوم ؛ قال الله تعالى : « وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِٱللَّيْلِ »[(١)] أى يُنيمكم لأن النوم أخو الموت؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل : أفى الجنة نوم؟ قال : " لا، النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها " . أخرجه الدارقطنيّ . والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وٱبن زيد، وهو ٱختيار الطبرى، وهو الصحيح عن ٱبن عباس ، وقاله الضحاك . قال الضحاك : كانت القصّة لما أرادوا قتل عيسى ٱجتمع الحواريون فى غرفة وهم ٱثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مِشكاة الغرفة ، فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة . فقال المسيح للحواريين : أيكم يخرج ويُقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يانبى الله ؛ فألق إليه مِدرعة[(٢)] من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألق عليه شَبَه عيسى ؛ فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه . وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا أبو معاوية حدّثنا الأعمش عن المِنهال عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : لما أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وهم ٱثنا عشر رجلا من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم : أما إنّ منكم من سيكفر بى ٱثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى، ثم قال : أيكم يُلقَى عليه شَبَهى فيقتل مكانى ويكون معى

(١) راجع جـ ٧ ص ٥ (٢) المدرعة (بالكسر) : الدراعة وهى ثوب من كتان .

فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم فقال أنا . فقال عيسى : آجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال عيسى : آجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال نعم أنت ذاك . فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله تعالى عيسى من رَوْزَنة (١) كانت فى البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفر به بعضهم آثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ؛ فتفرقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليَعْقُوبية . وقالت فرقة : كان فينا آبن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النَّسْطُورِيّة . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فقتلوا؛ فأنزل الله تعالى « فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا (٢) » أى آمن آباؤهم فى زمن عيسى «عَلَى عَدُوِّهِمْ» بإظهار دينهم على دين الكفار « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ آبن مريم حكما عادلا فليكسرنّ الصليب وليقتلنّ الخنزير وليضعن الجزية ولَتُتركَنّ القِلَاص (٣) فلا يسعى عليها ولَتَذهبَن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد". وعنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "والذى نفسى بيده ليُهلّنّ آبن مريم بفَجّ الرَّوْحاء (٤) حاجا أو معتمِرا أو لَيَثنِيَنّهما" ولا ينزل بشرع مبتدإ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجدِّدا لما دَرَس منها متبعها . كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كيف أنتم إذا نزل آبن مريم فيكم وإمامكم منكم" . وفى رواية : "فأمّكم منكم" . قال آبن أبى ذِئب : تدرى ما أمّكم منكم ؟ . قلت : تخبرنى . قال : فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . و « مُتَوَفِّيكَ » أصله متوفِّيُك حذفت الضمة آستثقالا ،

---

(١) الروزنة : الكوّة .	(٢) راجع جـ ١٨ ص ٩٠

(٣) القلاص (بالكسر) : جمع قلوص وهى الناقة الشابة .	(٤) فج الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر و إلى مكة عام الفتح وعام الحج . (عن معجم ياقوت) .

وهو خبر إنّ . « ورافعك » عطف عليه ، وكذا «مُطَهِّرُكَ» وكذا «وجاعِلُ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ» .
ويجوز « وجاعلُ الذين »(١) وهو الأصل . وقيل : إن الوقف التام عند قوله : «وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا» . قال النحاس : وهو قول حسن . « وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ » يا محمد « فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالحجة و إقامة البرهان . وقيل بالعز والغلبة . وقال الضحاك ومحمد ابن أبان : المراد الحواريون . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يعنى بالقتل والصلب والسبى والجزية ، وفى الآخرة بالنار . ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ « ذلك » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « نتلوه » . و يجوز : الأمر ذلك ، على إضمار المبتدإ .

قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ دليل على صحة القياس . والتشبيه واقع على أن عيسى خُلِقَ من غير أبٍ كآدم ، لا على أنه خلق من تراب . والشيء قد يشبه بالشيء و إن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا فى وصف واحد ؛ فإن آدم خُلِقَ من تراب ولم يُخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة ، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أبٍ؛ ولأن أصل خِلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب،

(١) كذا فى بعض الأصول وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى ز : وجعل .

ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه ، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب . ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله : " إن عيسى عبد الله وكلمته" فقالوا : أرنا عبدا خلق من غير أب؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: "آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم" . فذلك قوله تعالى: « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى فى عيسى « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » فى آدم « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا »(١) . وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك . فقال : "كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم آتخذ الله ولدا ، وأكلكم الخنزير ، وسجودكم للصليب" . فقالوا : من أبو عيسى ؟ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » إلى قوله : « فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » . فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم آضطرم الوادى عليكم نارا . فقالوا : أما تعرض علينا سوى هذا ؟ فقال : "الإسلام أو الجزية أو الحرب" فأقروا بالجزية على ما يأتى . وتمّ الكلام عند قوله « آدَمَ » . ثم قال : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فكان . والمستقبل يكون فى موضع الماضى إذا عرف المعنى . قال الفراء : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ مرفوع بإضمار هو . أبو عبيدة : هو آستئناف كلام وخبره فى قوله « مِنْ رَبِّكَ » . وقيل هو فاعل ، أى جاءك الحق . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكا فى أمر عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أى جادلك وخاصمك يا محمد «فيه»، أى فى عيسى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنه عبد الله ورسوله . ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴾ أى أقبلوا . وضع لمن له جلالة ورفعة ثم صار فى الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وسيأتى له مزيد بيان فى « الأنعام »[1] . ﴿ نَدْعُ ﴾ فى موضع جزم . ﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾ دليل على أن أبناء البنات يسمّون أبناء؛ وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم جاء بالحسن والحسين وفاطمة تمشى خلفه وعلىّ خلفها وهو يقول لهم: "إن أنا دعوت فأمّنوا" وهو معنى قوله ﴿ ثم نبتهل ﴾ أى نتضرع فى الدعاء؛ عن ابن عباس . أبو عبيدة والكسائى : نلتعن . وأصل الابتهال الاجتهاد فى الدعاء باللعن وغيره . قال لبيد :

فى كهولٍ سادةٍ من قومه * نظر الدهرُ إليهم فابتهل

أى اجتهد فى إهلاكهم . يقال : بهله الله أى لعنه . والبهل اللعن . والبهل الماء القليل . وأبهلته إذا خليته و إرادته . وبهلته أيضا . وحكى أبو عبيدة : بهله الله يبهله بهلة أى لعنه . قال ابن عباس : هم أهل نجران : السيد والعاقب وابن الحارث رؤساؤهم . ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

الثانيــة — هذه الآية من أعلام نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى نارا فإن محمدا نبىّ مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى؛ فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا فى كل عام ألف حُلّة فى صفر وألف حلة فى رجب فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلا من الإسلام .

الثالثــة — قال كثير من العلماء : إن قوله عليه السلام فى الحسن والحسين لما باهل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ » وقوله فى الحسن : "إن ابنى هذا سيد" مخصوص بالحسن والحسين أن يسمّيا ابنَى النبىّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهما؛ لقوله عليه السلام : "كل سبب ونسب

(١) راجع ٧ ص ١٣٠

ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي " ولهذا قال بعض أصحاب الشافعي فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لصلبه وله ولد ابن وولد ابنة : إن الوصية لولد الابن دون ولد الابنة؛ وهو قول الشافعي . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأنعام والزخرف »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٦٣)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ الإشارة في قوله « إن هذا » إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص، سميت قصصا لأن المعاني تتابع فيها؛ فهو من قولهم : فلان يقص أثر فلان ، أي يتبعه . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ « من » زائدة للتوكيد ، والمعنى وما إله إلا الله ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يغلب . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة . وقد تقدم مثله والحمد لله .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسدي لأهل نجران . وفي قول قتادة وابن جريج وغيرهما ليهود المدينة، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب . وقيل : هو لليهود والنصارى جميعا . وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى [أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام](٢) أسلم تسلم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢ وجـ ١٦ ص ٧٧ فما بعد .		(٢) زيادة عن صحيح مسلم .

[وأسلِم](١) يؤتِك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(٢) ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله — إلى قوله : « فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . لفظ مسلم . والسواء العدل والنصفة ؛ قاله قتادة . وقال زهير :

أرونى خُطّة لا ضَيْمَ فيها * يُسَوِّى بيننا فيها السَّوَاء

الفراء : ويقال فى معنى العدل سِوًى وسُوًى ، فإذا فتحت السين مددت وإذا كسرت أو ضممت قصرت ؛ كقوله تعالى : « مَكَانًا سُوًى » . قال : وفى قراءة عبد الله « إلى كلمة عدل بيننا وبينكم » وقرأ قَعْنَب(٣) « كِلْمة » بإسكان اللام ، ألقى حركة اللام على الكاف ؛ كما يقال كِبْد . فالمعنى أجيبوا إلى ما دعيتم إليه ، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها ميل عن الحق ؛ وقد فسرها بقوله تعالى : « أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ » فموضع « أن » خفض على البدل من « كلمة » ، أو رفع على إضمار مبتدإ ، التقدير هى أن لا نعبد إلا الله . أو تكون مفسرة لا موضع لها ، ويجوز مع ذلك فى « نعبد » وما عطف عليه الرفع والجزم : فالجزم على أن تكون « أن » مفسرة بمعنى أى ؛ كما قال عز وجل : « أَنِ امْشُوا » وتكون « لا » جازمة . هذا مذهب سيبويه . ويجوز على هذا أن ترفع « نعبد » وما بعده يكون خبرا . ويجوز الرفع بمعنى أنه لا نعبد ؛ ومثله « أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا(٤) » . وقال الكسائى والفراء : « وَلَا نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذْ » بالجزم على التوهم أنه ليس فى أول الكلام أن .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أى لا نتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى . وهو نظير قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ(٥) » معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم فى قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحله الله . وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذى لا يستند إلى دليل شرعى ؛ قال الكيا الطبرى : مثل استحسانات أبى حنيفة فى التقديرات التى قدرها دون مستندات بينة . وفيه ردّ على الروافض الذين يقولون : يجب قبول [قول] الإمام دون إبانة

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) الأريسيين : الأكارون والفلاحون والخدم والخول ، كل ذلك وارد فى معنى هذه الكلمة . (٣) هو أبو السمال العدوى . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ (٥) راجع جـ ٨ ص ١١٩

مستند شرعي، وأنه يحل ما حرّمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة. وأرباب جمع رب. و « دون » هنا بمعنى غير.

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا عما دعوا إليه. ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي متصفون بدين الإسلام منقادون لأحكامه معترفون بمـا لله علينا في ذلك من المنّ والإنعام، غير متخذين أحدا ربّا لا عيسى ولا عُزيرا ولا الملائكة ؛ لأنهم بشر مثلنا محدَث كحدوثنا، ولا نقبل من الرهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه الله علينا، فنكون قد اتخذناهم أربابا. وقال عكرمة : معنى « يَتَّخِذ » يسجد. وقد تقدّم أن السجود كان إلى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعاذا لمـا أراد أن يسجد ؛ كما مضى في البقرة(1) بيـانه. وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسـول الله، أيَنحني بعضنا لبعض ؟ قال "لا" قلنا : أيعانق بعضنا بعضا ؟ قال "لا ولكن تصافحوا" أخرجه ابن ماجه في سننه. وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان في سورة « يوسف »(2) [إن(3) شاء الله]، وفي « الواقعـة(4) » مس القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى.

قوله تعـالى : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الأصل « لمـا » فحذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر. وهذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنمـا كانتا من بعـده ؛ فذلك قوله : « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ». قال الزجاج : هذه الآية أبيَنُ حجـة على اليهود والنصارى ؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيهما(5) اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كل كتاب. ويقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى أيضا ألف سنة. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دحوض حجتكم وبطلان قولكم. والله أعلم.

(1) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ (2) راجع جـ ٩ ص ٢٦٥ (3) الزيادة من نسخ : ز، ب.
(4) إيراد هذه الجملة هنا غير واضح المناسبة. (5) في الأصول : فيها والمثبت في : د.

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ يعنى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من نعته فى كتابهم فحاجوا فيه بالباطل . ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعنى دعواهم فى إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا . والأصل فى « هاأنتم » أأنتم فأبدل من الهمزة الأولى هاء لأنها أختها ؛ عن أبى عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير « هأنتم » مثل هعنتم . والأحسن منه أن يكون الهاء بدلا من همزة فيكون أصله أأنتم . ويجوز أن تكون ها للتنبيه دخلت على « أنتم » وحذفت الألف لكثرة الاستعمال . وفى « هؤلاء » لغتان المدّ والقصر ومن العرب من يقصرها . وأنشد أبو حاتم :

لعمرك إنا والأحاليف هاؤلا * لفى مِحنة أظفارها لم تُقَلَّم

وهؤلاء هاهنا فى موضع النداء يعنى يا هؤلاء . ويجوز هؤلاء خبر أنتم ، على أن يكون أولاء بمعنى الذين وما بعده صلة له . ويجوز أن يكون خبر « أنتم » حاججتم . وقد تقدّم هذا فى « البقرة »[(١)] والحمد لله .

الثانيـــة — فى الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والحظر على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل : « هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » . وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[(٢)] . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال : يا رسول الله ، إن امرأتى ولدت غلاما أسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل لك من إبل" ؟ قال نعم . قال :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٤ ، جـ ٢ ص ٢٠ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠

" ما ألوانها " ؟ قال : حُمْرٌ ؛ قال : " هل فيها من أَوْرَق (١) " ؟ قال نعم . قال : " فمن أين ذلك " ؟ قال : لعل عِرْقا نزعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وهذا الغلام لعل عِرقا نزعه " . وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ فى تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبين أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركا. والحنيف : الذى يوحد ويحج ويضحى ويختتن ويستقبل القبلة . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاقه (٢) . والمسلم فى اللغة : المتذلل لأمر الله تعالى المنطاع له . وقد تقدّم فى « البقرة » معنى الإسلام (٣) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وقال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، فإنه كان يهوديا وما بك إلا الحسد ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ أَوْلَى ﴾ معناه أحق، قيل : بالمعونة والنصرة . وقيل بالحجة . ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على ملته وسنته . ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ أفرد ذكره تعظيما له ؛ كما قال « فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٤) » وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى مستوفى . و « هذا » فى موضع رفع عطف على الذين ، و « النبيّ » نعت لهذا أو عطف بيان ، ولو نصب لكان جائزا فى الكلام عطفا على الهاء فى « اتبعوه » . ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ناصرهم . وعن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) الأورق : الذى لونه بين السواد والغبرة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٩

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥

"إن لكل نبيّ ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي — ثم قرأ — إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيّ" .

قوله تعالى : وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

نزلت فى معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع إلى دينهم . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا » (١) . و « مِنْ » على هذا القول للتبعيض . وقيل : جميع أهل الكتاب ، فتكون « مِنْ » لبيان الجنس . ومعنى « لَوْ يُضِلُّونَكُمْ » أى يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له . وقال ابن جُريج : « يُضِلُّونكم » أى يهلكونكم ؛ ومنه قول الأخطل :

كُنْتَ القَذَى فى مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ * قَذَفَ الأَتِيّ (٢) به فضلّ ضلالا

أى هلك هلاكا . ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُم﴾ نفى وإيجاب . ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون (٣) أنهم لا يصلون إلى إضلال المؤمنين . وقيل : «وما يشعرون» أى لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا ؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة ، والله أعلم .

قوله تعالى : يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

أى بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم ؛ عن قتادة والسّدى . وقيل : المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات (٤) الأنبياء التى أنتم مقرون بها .

قوله تعالى : يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٠
(٢) الأتىّ : كل سيل يأتى من حيث لا تعلم .
(٣) فى جـ : يقطعون .
(٤) فى ز : من الآيات البينات التى الخ .

اللبس الخلط، وقد تقدّم فى البقرة.(١) ومعنى هذه الآية والتى قبلها معنى ذلك.(٢) ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ ويجوز «تكتموا» على جواب الاستفهام. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال.

قوله تعالى : ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

نزلت فى كعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف وغيرهما، قالوا للسفلة من قومهم : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعنى أوله . وسمى وجها لأنه أحسنه، وأول مايُواجه منه أوّلُه . قال الشاعر :

وتُضيءُ فى وجه النهارِ منيرةً * كجُمَانة البحرىّ سُلّ نِظامُها(٣)

وقال آخر :

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأتِ نسوتنا بوجه نهارِ

وهو منصوب على الظرف، وكذلك «آخِرَه» . ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليشككوا المسلمين. والطائفة الجماعة، من طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة. ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا الإيمان بمحمد فى أول النهار ثم اكفروا به آخرَه؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب فى دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا . وقيل : المعنى آمنوا بصلاته فى أول النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق، واكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قِبلتكم؛ عن ابن عباس وغيره . وقال مقاتل : معناه أنهم جاءوا محمدا صلى الله عليه وسلم أول النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسّفلة: هو حق فاتبعوه، ثم قالوا : حتى ننظر فى التوراة ثم رجعوا فى آخر النهار فقالوا : قد نظرنا فى التوراة فليس هو به . يقولون إنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يُلبسوا على السّفلة وأن يُشكّكوا فيه .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٤٠ (٢) فى جـ : معنى تلك .

(٣) البيت للبيد . والجمانة : حبة تعمل من الفضة كالدرة، والذى فى اللسان والتاج : وتضئ فى وجه الظلام .

قوله تعالى : وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا نهى، وهو من كلام اليهود بعضهم لبعض، أى قال ذلك الرؤساء للسّفلة . وقال السدى : من قول يهود خيبر ليهود المدينة . وهذه الآية أشكل ما فى السورة . فروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصح منهم دينا . و«أن» و«يحاجوكم» فى موضع خفض، أى بأن يحاجوكم أى باحتجاجهم، أى لا تصدّقوهم فى ذلك فإنهم لا حجة لهم . ﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من التوراة والمنّ والسلوى وفرق البحر وغيرها من الآيات والفضائل . فيكون «أن يؤتى» مؤخرا بعد « أو يُحَاجّوكم » ، وقوله « إنّ الْهُدَى هُدَى اللهِ » اعتراض بين كلامين . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدّقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب إلى أنه معطوف . وقيل : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمدّ على الاستفهام أيضا تأكيد للإنكار الذى قالوه إنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ أى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على نسقه . و«أن» فى موضع رفع على قول من رفع فى قولك أزيد ضربته، والخبر محذوف تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدّقون أو تقرون، أى إيتاء موجود مصدَّق أو مُقَرّ به ، أى لا تصدّقون بذلك . ويجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب على إضمار فعل؛ كما جاز فى قولك أزيدا ضربته، وهذا أقوى فى العربية لأن الاستفهام بالفعل أولى، والتقدير أتقرّون أن يؤتى، أو أتشيعون ذلك، أو أتذكرون ذلك ونحوه . وبالمد قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد . وقال أبو حاتم : «آن» معناه «أَلِأَنْ» ، فحذفت لام الجر استخفافا وأبدلت مدّة؛ كقراءة من

قرأ « آنْ كَانَ ذَا مَالٍ »[1] أى ألأن . وقوله « أو يُحَاجُّوكُم » على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين؛ أو تكون « أو » بمعنى « أَنْ » لأنهما حَرْفَا شكّ وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر[2] . وتقدير الآية : وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين، فقل : يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه . ومن قرأ بترك المدّ قال : إن النفى الأوّل دلّ على إنكارهم فى قولهم ولا تؤمنوا . فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدّقوا بأن يُؤتَى أحد مثل ما أوتيتم ، أى لا إيمـان لهم ولا حجـة ؛ فعطف على المعنى من العـلم والحكمة والكتاب والحجة والمنّ والسّلْوى وفَلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات ، أى إنهـا لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثـل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم . فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة . ومن آستثنى ليس من الأول ، وإلا لم يجز الكلام . ودخلت « أَحَدٌ » لأن أوّل الكلام نفى ، فدخلت فى صلة «أن» لأنه مفعول الفعل المنفى؛ فأن فى موضع نصب لعدم الخافض. وقال الخليل: (أنْ) فى موضع خفض بالخافض المحذوف. وقيل: إن اللام ليست بزائدة، و«تُؤْمِنُوا» محمول على تُقِرّوا . وقال آبن جريج : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم . وقيل : المعنى لا تخبروا بمـا فى كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون طريقا إلى عبَـدة الأوثان إلى تصديقه . وقال الفرّاء : يجوز أن يكون قد آنقطع كلام اليهود عنـد قوله عز وجل « إِلَّا لِمَنْ تَبِـعَ دِينَكُم » ثم قال لمحمد صـلى الله عليـه وسلم « قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ » . أى إن البيان الحق هو بيـان الله عز وجل « أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » بيّن ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، و « لا » مقدرة بعد «أن» أى لئلا يؤتى؛ كقوله « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »[3] أى لئلا تضلوا ، فلذلك صلح دخول « أحد » فى الكلام . و « أو » بمعنى « حتى » و « إلا أن » ؛ كما قال آمرؤ القيس :

فقلتُ له لا تَبْـكِ عَيْنُك إنمـا * نحاول مُلكًا أو نموتَ فنُعـذَرا

وقال آخر[4] :

وكنتُ إذا غمزتُ قنـاةَ قوم * كسرتُ كُعُوبَها أو تستـقيما

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٣٦ (٢) فى الأصول : إحداهما موضع الأخرى .
(٣) راجع ج ٦ ص ٢٨ (٤) هو زياد الأعجم .

ومثله قولهم : لا نلتقى أو تقوم الساعة ، بمعنى «حتى» أو «إلى أن» ؛ وكذلك مذهب الكسائى . وهى عند الأخفش عاطفة على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدم . أى لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف على المعنى . ويحتمل أن تكون الآية كلها خطابا للؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم والتشحيذ لبصائرهم ، لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم فى دينهم . والمعنى لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدِّين ، ولا تصدّقوا أن يحاجّكم فى دينكم عند ربكم مَن خالفكم أو يقدر على ذلك ، فإن الهُدَى هدى الله وإن الفضل بيد الله . قال الضحاك : إن اليهود قالوا إنا نحاجّ عند ربنا مَن خالفنا فى ديننا ؛ فبيّن الله تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون وأن المؤمنين هم الغالبون . ومحاجّتهم خصومتهم يوم القيامة . ففى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن اليهود والنصارى يحاجُّونا عند ربّنا فيقولون أعطيتنا أجرًا واحدا وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من حقوقكم شيئا قالوا (١) لا قال فإن ذلك فضلى أُوتيه من أشاء" . قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا ؛ فأعلم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجونكم يوم القيامة عند ربكم ، ثم قال : قل لهم [الآن] (٢) « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . وقرأ ابن كثير « آنْ يؤتى » بالمدّ على الاستفهام ؛ كما قال الأعشى :

آأنْ رأت رَجُلًا أعشَى أضَرَّ بِهِ * رَيْبُ المَنُون ودهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ (٣)

وقرأ الباقون بغير مدّ على الخبر . وقرأ سعيد بن جبير «إن يؤتى» بكسر الهمزة ، على معنى النّفى ؛ ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفرّاء . والمعنى : قل يا محمد « إن الهُدَى هدَى الله إن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » يعنى اليهود — بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم . ونصب « أو يحاجوكم » يعنى بإضمار « أن » و « أو » تضمر بعدها « أن » إذا كانت بمعنى « حتى » و « إلّا أن » . وقرأ الحسن « أن يؤتِىَ » بكسر التاء وياء مفتوحة ، على معنى أن يؤتِىَ أحدٌ أحدًا مثل ما أوتيتم ، فحذف المفعول .

---

(١) فى د : فيقولون . (٢) من ب ، د . (٣) متبل : مسقم ، وخبل : ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الهدى إلى الخير والدلالة إلى الله عز وجل بيد الله جل ثناؤه يؤتيه أنبياءه، فلا تنكروا (١) أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم، فإن أنكروا ذلك فقل لهم « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » . والقول الآخر : قل إن الهدى هدى الله الذى آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لا غيره . وقال بعض أهل الإشارات فى هذه الآية : لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

أى بنبوته وهدايته؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . ابن جريج : بالإسلام والقرآن « من يشاء » . قال أبو عثمان : أجمل القول ليبقى معه رجاء الراجى وخوف الخائف ، ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ مثل عبد الله بن سلام . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودى، أودعه رجل دينارا فخانه . وقيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلى « مَنْ إِنْ تِيمَنْه » على لغة من قرأ « نِستعين » وهى لغة بكر وتميم . وفى حرف عبد الله « مالك لَا تِيمَنَّا على يوسف » . والباقون بالألف . وقرأ نافع والكسائى « يؤدِّهى » بياء فى الإدراج . قال أبو عبيد : واتفق أبو عمرو والأعمش وعاصم وحمزة فى رواية أبى بكر

(١) هذا نهى ، وفى جـ ، و د : فلا تنكرون . على الخبر .

على وقف الهـاء، فقرءوا «يؤدِّهْ إليك» . قال النحاس : بإسكان الهـاء لا يجوز إلا فى الشعر عنـد بعض النحويين ، وبعضهم لا يجيزه ألبتّةَ ويَرى أنه غلط ممن قـرأ به ، وأنه توهّم أن الجزم يقع على الهـاء ، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه مثل هذا . والصحيح عنه أنه كان يكسر الهـاء ؛ وهى قراءة يزيد بن القَعْقاع . وقال الفـرّاء : مذهب بعض العرب يجزمون الهـاء إذا تحرك ما قبلها، يقولون : ضربتهْ ضربا شديدا؛ كما يسكنون ميم أنتم وقمتم وأصلها الرفع ؛ كما قال الشاعر :

لمـا رأى ألّا دَعَهْ ولا شِـبَعْ * مال إلى أَرْطَاة حِقْفٍ فاضطَجعْ (١)

وقيل : إنمـا جاز إسكان الهـاء فى هذا الموضع لأنهـا وقعت فى موضع الجزم وهى اليـاء الذاهبة . وقرأ أبو المُنْذر سلّام والزُّهرىّ « يؤدِّهُ » بضم الهـاء بغير واو . وقرأ قَتادة وحُميد ومجاهد « يؤدِّهُو » بواو فى الإدراج ، آختير لهـا الواو لأن الواو من الشّـفة والهـاء بعيدة المخرج . قال سيبويه : الواو فى المذكّر بمنزلة الألف فى المؤنّث ويبدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء، وتحذف اليـاء وتبقى الكسرة لأن الياء قد كانت تحذف والفعل مرفوع فأثبتت بحالهـا .

الثانيـــة — أخبر تعالى أن فى أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ، والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغى آجتناب جميعهم . وخصّ أهل الكتاب بالذّكر وإن كان المؤمنون كذلك؛ لأنّ الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب . والله أعلم . وقد مضى تفسير القنطار . وأما الدينار فأربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فمجموعه آثنتان وسبعون حبة، وهو مُجْمَع عليه . ومن حفظ الكثير وأدّاه فالقليل أَوْلى ، ومن خان فى اليسير أو منعه فذلك فى الكثير أكثر . وهذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب. وفيه بين العلماء خلاف [كثير] (٢) مذكور فى أصول الفقه . وذكر تعالى قسمين : من يؤدّى ومن لا يؤدّى إلا بالملازمة عليه ؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدّى وإن دُمت عليه قائما . فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

(١) الأرطاة : واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل . والحقف (بالكسر) : ما أعوج من الرمل . (٢) من د .

والمعتاد والثالث نادر؛ فخرج الكلام على الغالب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلمى وغيرهما «دِمت» بكسر الدال وهما لغتان، والكسر لغة أَزْد السَّراة؛ من «دِمْت تدام» مثل خفت تخاف . وحكى الأخفش دِمت تدوم ، شاذًّا .

الثالثة — آستدلّ أبو حنيفة على مذهبه فى ملازمة الغَرِيم بقوله تعالى : «إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا» وأباه سائر العلماء، وقد تقدّم فى البقرة(١). وقد آستدل بعض البَغْداديِّين [من علمائنا](٢) على حبس المِديان بقوله تعالى : « وَمِنْهُم مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف، جاز حبسه . وقيل : إن معنى «إلا مادمت عليه قائما» أى بوجهك فيهابُك و يستحى منك، فإن الحياء فى العينين؛ ألا ترى إلى قول آبن عباس رضى الله عنه : لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء فى العينين . و إذا طلبت من أخيك حاجة فآنظر إليه بوجهك حتى يستحى فيقضيها . و يقال : «قائما» أى ملازما له ؛ فإن أنظرته أنكرك . وقيل : أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام . والدِّينار أصله دِنّار فعوّضت من إحدى النونين ياء طلبا للتخفيف لكثرة آستعماله . يدل عليه أنه يجمع دنانير و يصغر دُنَيْنِير .

الرابعة — الأمانة عظيمة القَدْر فى الدِّين، ومن عِظم قدرها أنها تقوم هى والرَّحِم على جَنَبَتَي(٣) الصراط؛ كما فى صحيح مسلم . فلا يُمَكَّن من الجواز إلا من حفظهما . وروى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، قال : "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه" الحديث . وقد تقدم بكماله أوّل البقرة(٤) . وروى آبن ماجه حدّثنا محمد آبن المُصَفَّى حدّثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سِنان عن أبى الزاهِريّة عن أبى شجرة كثير آبن مُرة عن آبن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تَلقه إلا مَقِيتا مُمَقَّتا فإذا لم تلقه إلا مَقِيتا مُمَقَّتا نُزعت منه الأمانة فإذا نزعت منه الأمانة لم تَلقه إلا خائنا مُخَوَّنا فإذا لم تلقه إلا خائنا مخونا نُزعت منه

(١) راجع جـ٣ ص ٣٧١ (٢) نخ : ب . (٣) جنبة الوادى (بفتح النون) : جانبه وناحيته . والجنبة (بسكون النون) : الناحية؛ يقال : نزل فلان جنبة أى ناحية .
(٤) راجع جـ١ ص ١٨٨؛ وصحيح مسلم جـ١ ص ٥١ طبع بولاق .

الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا فإذا لم تلقه إلا رجيما مُلَعَّنًا نزعت منه رِبْقة الإسلام " . وقد مضى فى البقرة معنى قوله عليه السلام : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تخن من خانك " . والله أعلم .

الخامســة — ليس فى هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافا لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فُسّاق المسلمين يوجد فيهم من يؤدّى الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولا . فطريق العدالة والشهادة ليس يجزئ فيه أداء الأمانة فى المال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم : «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» فكيف يعدل من يعتقد آستباحة أموالنا وحَريمنا بغير حرج عليه ؛ ولو كان ذلك كافيا فى تعديلهم لسُمعت شهادتهم على المسلمين .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ يعنى اليهود ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ قيل : إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا فى الأُمِّيِّينَ سبيل — أى حرج فى ظلمهم — لمخالفتهم إيانا . وآدّعوا أن ذلك فى كتابهم ؛ فأكذبهم الله عز وجل وردّ عليهم فقال : « بلى » أى بلَى عليهم سبيل العذاب بكذبهم وآستحلالهم أموال العرب . قال أبو إسحاق الزجاج : وتمّ الكلام . ثم قال « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » . ويقال : إن اليهود كانوا قد آستدانوا من الأعراب أموالا فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود : ليس لكم علينا شىء، لأنكم تركتم دِينكم فسقط عنا دَينكم . وآدّعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعالى : « بلى » ردّا لقولهم « لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » . أى ليس كما تقولون ، ثم آستأنف فقال : « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » الشركَ فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله .

السابعــة — قال رجل لآبن عباس : إنّا نُصيب فى العَمْد من أموال أهل الذمة الدّجاجة والشاة ونقول : ليس علينا فى ذلك بأس . فقال له : هذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا فى الأمِّيين سبيل » إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب

أنفسهم ؛ ذكره عبد الرازق عن معمر عن أبي إسحاق الهَمْداني عن صَعْصعة أن رجلا قال لابن عباس؛ فذكره .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن الكافر لا يُجعل أهلا لقبول شهادته؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب . وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرِّمون ويحلّلون غير تحريم الله وتحليله ويجعلون ذلك من الشرع . قال ابن العربي : ومن هذا يخرج الرّد على من يحكم بالاستحسان من غير دليل ، ولست أعلم أحدا من أهل القِبْلة قاله . وفي الخبر : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ إلا الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البرّ والفاجر " .

قوله تعالى : بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

« من » رفع بالابتداء وهو شرط . و « أوفى » في موضع جزم . و « اتقى » معطوف عليه ، أي واتقى الله ولم يكذب ولم يستحل ما حُرِّم عليه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي يُحب أولئك . وقد تقدّم معنى حب الله لأوليائه . والهاء في قوله « بعهده » راجعة إلى الله عز وجل . وقد جرى ذكره في قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ويجوز أن تعود على الموفي ومتّقي الكفر والخيانة ونقض العهد . والعهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدّمته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل

لك بينة "؟ قلت لا ، قال لليهودى : "احلف " قلت : إذًا يحلف فيذهب بمالى ؛ فأنزل الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا » إلى آخر الآية . وروى الأئمة أيضا عن أبى أُمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من آقتطع حق آمرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة " . فقال له رجل : و إن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال : " و إنْ كان قضيبا من أَرَاك (١) " . وقد مضى فى البقرة معنى « لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ (٢) » .

الثانيـة ـــ ودلّت هذه الآية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لا يُحلّ المال فى الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانَه ؛ وقد روى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إلىّ و إنما أنا بشر ولعلّ بعضكم أن يكون ألْحن بحجّته من بعض و إنما أقضى بينكم على نحوِ مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة " . وهذا لا خلاف فيه بين الأئمة (٣) ، و إنما ناقض أبو حنيفة وغلا وقال : إن حكم الحاكم المبنىّ على الشهادة الباطلة يُحلّ الفرج لمن كان محرّما عليه ؛ كما تقدّم فى البقرة (٤) . وزعم أنه لو شهد شاهدا زورٍ على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما فإن فرجها يحل لمتزوجها ممن يعلم أن القضية باطل . وقد شُنّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح ، و بأنه صان الأموال ولم يرَ آستباحتها بالأحكام الفاسدة ، ولم يصن الفروج عن ذلك ، والفروج أحقُّ أن يحتاط لها وتُصان . وسيأتى بطلان قوله فى آية اللعان (٥) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(١) الأراك شجر من الحمض يستاك بقضبانه ، الواحدة أراكة . (٢) جـ ٢ ص ٢٣٤

(٣) فى د : بين الأمة . (٤) راجع المسئلة الثالثة جـ ٢ ص ٣٣٨ (٥) راجع جـ ١٢ ص ١٨٢

يعنى طائفة من اليهـود . ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ وقرأ أبو جعفر وشيبة «يُلوُّون» على التكثير . إذا أماله ؛ ومنـه والمعنى يحرفون الكلم ويعدلون به عن القصد . وأصل اللّيّ الميل . لَوَى بيده، ولَوَى برأسه قوله تعالى : « لَيًّا بألسنتهم »(١) أى عنادا عن الحق وميلًا عنه إلى غيره . ومعنى « ولا تلوون على أحد »(١) أى لا تعرجون عليه ؛ يقال لَوَى عليـه إذا عرّج وأقام . واللّى المطْل . لواه بدَينه يَلْويه لَيًّا ولِيَانا مَطَله . قال :

قد كنت داينت بها حسّانا　＊　مخافة الإفلاس والليّـانا

＊ يحسن بيع الأصـل والعيانا ＊

وقال ذو الرمّة :

تريديـن ليّـانى(٢) وأنت مَليّــةٌ　＊　وأحسن يا ذات الوِشاح التقاضيـا

وفى الحديث "لَىُّ الواجدِ يُحِلّ عِرضَه وعقوبته" . وألسنة جمع لسان فى لغة من ذكّر، ومن أنّث قال ألسن .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ ما كان ﴾ معنـاه ما ينبغى ؛ كما قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُـلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً » و « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ »(٣) . و «مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا »(٤) يعنى ماينبغى . والبشر يقع للواحد والجمع لأنه بمنزلة المصـدر ؛ والمراد به هنا عيسى فى قول الضحّاك والسّـدّى . والكتاب : القرآن . والحكم : العلم والفهم . وقيل أيضا : الأحكام . أى إن الله لا يصطفى لنبوّته الكَذَبة، ولو فعل ذلك بشر لسلبه الله آيات النبوّة وعلاماتها . ونصب «ثم يقولَ» على الاشتراك بين « أن يؤتيه » وبين « يقول » أى لا يجتمع لنبىّ إتيان النبوّة وقوله : «كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ » . ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ أى ولكن جائز أن يكون النبىّ يقول لهم

(١) جـ ٥ ص ٢٣٩ وص ٢٤٣ من هذا الجزء .　(٢) فى ديوانه : «تطلبين» .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٧　(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٩٧

كونوا ربّانيّين . وهذه الآية قيل إنها نزلت فى نصارى نَجْران . وكذلك رُوى أن السورة كلها إلى قوله : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ » كان سبب نزولهـا نصارى نَجْران ولكن مُزِج معهم اليهود؛ لأنهم فعلوا من الجَحْد والعِناد فِعلَهم .

والرَّبانيُّون واحدهم رَبَّانِىّ منسوب إلى الرَّبّ . والربَّانِىّ الذى يُرَبِّى الناس بصغار العـلم قبل كباره ؛ وكأنه يقتدى بالرب سبحانه فى تيسير(١) الأمور؛ رُوى معناه عن ٱبن عباس . قال بعضهم : كان فى الأصل رَبِّىّ فأدخلت الألف والنون للبالغة ؛ كما يقال للعظيم اللحية : لِحْيَانِىّ ولعظيم الجُمّة جُمّانى ولغليظ الرَّقبة رَقَبانىّ . وقال المبرّد : الربّانيون أرباب العلم، واحدهم ربّان، من قولهم : رَبَّه يَرُبّه فهو رَبّان إذا دبّره وأصلحه ؛ فمعناه على هذا يدبّرون أمور الناس ويصلحونها . والألف والنون للبـالغة كما قالوا رَيّان وعطشان، ثم ضمت إليها ياء النسـبة كما قيل : لِحيَانىّ ورَقَبانىّ وجمّانىّ . قال الشاعر :

لو كنتُ مُرتَهَنًا فى الجوِّ(٢) أنزلنى * منـه الحديث وربَّانىُّ أحبارى

فمعنى الربّانِىّ العـالم بدين الربّ الذى يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقد تقدم هـذا المعنى فى البقرة : وقال أبو رزين : الربانىّ هو العالم الحكيم . وروى شعبة عن عاصم عن زِرٍّ عن عبد الله بن مسعود «ولكن كونوا ربّانيين» قال : حكماء علماء . ٱبن جُبير : حكماء أتقياء . وقال الضحاك : لا ينبغى لأحد أن يدع حفظ القرآن جُهـدَه فإن الله تعـالى يقول: « وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » . وقال ٱبن زيد : الربانيُّون الولاة، والأحبار العلماء . وقال مجاهد : الربانيون فوق الأحبار . قال النحاس : وهو قول حسن؛ لأن الأحبار هم العلماء . والربانىّ الذى يجمع إلى العلم البصَر بالسياسـة ؛ مأخوذ من قول العرب : رَبّ أمرَ النـاس يَرُبّه إذا أصلحه وقام به ، فهـو رابٌّ وربّانِىّ على التكثير . قال أبو عبيـدة : سمعت عالما يقول: الربانىّ العالِمُ بالحلال والحرام والأمر والنهى، العارفُ بأنباء الأمّة وما كان وما يكون . وقال محمـد بن الحنفيّة يوم مات ٱبنُ عباس : اليومَ مات ربانِىُّ هـذه الأمّة . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حرّ ولا مملوك إلا ولله عزّ وجل

(١) فى د : جميع ، وفى ز : تفسير . (٢) فى : ز و ا : فى الحق .

عليه حق أن يتعلم من القرآن و يتفقه فى دينه — ثم تلا هذه الآية — وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ" الآية . رواه آبن عباس .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف من العلم . وآختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديقها « تَدْرُسُونَ » ولم يقل « تُدَرِّسون » بالتشديد من التدريس . وقرأ آبن عامر وأهل الكوفة « تُعَلِّمون » بالتشديد من التعليم؛ وآختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين « تَعْلَمون، وتدرسون » . قال مَكّيّ : التشديد أبلغ؛ لأن كل معلِّم عالِمٌ بمعنى يَعْلَم وليس كل من عَلِم شيئا مُعَلِّمًا ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ، فالتعليم أبلغ وأمدح وغيره أبلغ فى الذم . آحتج من رجح قراءة التخفيف بقول آبن مسعود « كونوا ربانيين» قال : حكماء علماء؛ فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكماء علماء بتعليمكم . قال الحسن، كونوا حكماء علماء بعلمكم . وقرأ أبو حَيْوَة « تُدْرِسون » من أدرس يُدرِس . وقرأ مجاهد «تَعَلَّمون» بفتح التاء وتشديد اللام، أى تتعلمون .

قوله تعالى : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قرأ آبن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفا على « أَنْ يُؤْتِيَهُ » . و يقو يه أن اليهود قالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نتخذك يا محمد رَبًّا ؟ فقال الله تعالى : « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ — إلى قوله : ولا يأمركم » . وفيه ضمير البشر ، أى ولا يأمركم البشر يعنى عيسى وعُزَيرا . وقرأ الباقون بالرفع على الآستئناف والقطع من الكلام الأوّل ، وفيه ضمير آسم الله عز وجل ، أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا . و يقوّى هذه القراءة أن فى مصحف عبد الله « ولن يأمركم » فهذا يدل على الآستئناف ، والضمير أيضا لله عز وجل ؛ ذكره مكّى، وقاله سيبويه والزجاج . وقال آبن جُرَيج وجماعة : ولا يأمركم محمد

عليه السلام . وهذه قراءة أبي عمرو والكسائى وأهل الحرمين . ﴿ أَنْ تَتَّخِذُوا ﴾ أى بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا . وهذا موجود فى النصارى يعظمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أربابا . ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ على طريق الإنكار والتعجب ؛ فحرّم الله تعالى على الأنبياء أن يتخذوا النـاس عبادا يتألّهون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " لا يقولنّ أحدكم عَبْدِى وأَمَتِي وليقل فَتَاىَ وفَتَاتِي ولا يقل أحدكم ربِّي وليقل سَـيِّدِى " . وفى التنزيل « ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » (١) . وهناك يأتى بيان هذا [المعنى] (٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٨١)

قيل : أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصـدّق بعضهم بعضا ويأمر بعضهم بالإيمـان بعضا ؛ فذلك معنى النُّصرة بالتصديق . وهـذا قول سعيد بن جُبير وقَتادة وطاوس والسُّدى والحسن ، وهو ظاهر الآية . قال طاوس : أخذ الله ميثاق الأوّل من الأنبياء أن يؤمن بمـا جاء به الآخِر . وقرأ ٱبن مسـعود « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . قال الكسائى : يجوز أن يكون « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » بمعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين . وقال البصريون : إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقـد أخذ ميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد ٱتبعوهم وصدّقوهم . و « ما » فى قوله « لَمَـا » بمعنى الذى . قال سيبويه : سألت الخليل ٱبن أحمد عن قوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَـا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وحِكْمَةٍ » فقال : لمـا بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير على قول الخليل للذى آتيتكموه ، ثم حذف

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٥ (٢) الزيادة من د ، ب .

الهاء لطول الآسم . و « الذى » رفع بالآبتداء وخبره « من كتاب وحكمة » . و « من » لبيان الجنس . وهذا كقول القائل : لزيد أفضل منك؛ وهو قول الأخفش أنها لام الآبتداء . قال المَهْدوِىّ : وقوله « ثم جاءكم » وما بعده جملة معطوفة على الصلة، والعائد منها على الموصول محذوف؛ والتقدير ثم جاءكم رسول مصدّق به .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قول علىّ وآبن عباس رضى الله عنهما . واللفظ و إن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً — إلى قوله : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ »[١] . فأخذ الله ميثاق النبيّين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم . واللام من قوله « لتؤمنن به » جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الآستحلاف . وهو كما تقول فى الكلام : أخذت ميثاقك لتفعلن كذا ، كأنك قلت آستحلفك ، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذى هو « لِمَا » فى قراءة آبن كثير على ما يأتى . ومن فتحها جعلها متلقية للقسم الذى هو أخذ الميثاق . واللام فى « لتؤمنن به » جواب قسم محذوف ، أى و الله لتؤمنن به . وقال المبرّد والكسائى والزجاج: «ما» شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن، ومعناه [لمهما][٢] آتيتكم، فموضع «ما» نصب، وموضع « آتيتكم » جزم، و «ثم جاءكم» معطوف عليه، ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ اللام فى قوله « لتؤمنن به » جواب الجزاء؛ كقوله تعالى : «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ»[٣] ونحوه . وقال الكسائىّ : لتؤمنن به مُعتمد القسم فهو متصل بالكلام الأوّل، وجواب الجزاء قوله « فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ » . ولا يحتاج على هذا الوجه إلى تقدير عائد . وقرأ أهل الكوفة « لِمَا آتيتكم » بكسر اللام، وهى أيضا بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ، أى أخذ الله ميثاقهم لأجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به من بعد الميثاق ؛ لأن أخذ الميثاق فى معنى الآستحلاف كما تقدّم . قال النحاس : ولأبى عبيدة فى هذا قول حَسَن . قال : المعنى و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩٤

(٢) كذا فى ب، ود . وفى السمين : التقدير والله لأى شىء آتيتكم من كذا وكذا لتؤمنن به .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٥

لتؤمننّ به لما آتيتكم من ذكر التوراة . وقيل : في الكلام حذف ، والمعنى وَإِذْ أخذ الله ميثاق النبيين لَتُعَلِّمُنّ الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ، ولتأخذنّ على الناس أن يؤمنوا . ودلّ على هذا الحذف « وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى » . وقيل : إن اللام في قوله « لِما » في قراءة من كسرها بمعنى بعد ، يعنى بعد ما آتيتكم من كتاب وحكمة ؛ كما قال النابغة :

توهّمتُ آيات لها فعرفتُها * لستّة أعوام وذا العامُ سابع

أى بعد ستة أعوام . وقرأ سعيد بن جُبير « لمّا » بالتشديد ، ومعناه حين آتيتكم . وآحتمل أن يكون أصلها التخفيف فزيدت « مِن » على مذهب من يرى زيادتها في الواجب فصارت لمن ما ، وقلبت النون ميما للإدغام فآجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الأولى منهن آستخفافا . وقرأ أهل المدينة « آتيناكم » على التعظيم . والباقون « آتيتكم » على لفظ الواحد . ثم كلّ الأنبياء لم يُؤتوا الكتاب وإنما أوتى البعض ؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب . والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو في حكم من أوتى الكتاب لأنه أوتى الحُكْم والنبوة . وأيضا من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتى الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ « أقررتم » من الإقرار ، والإِصْر والأَصْر لغتان ، وهو العهد . والإصر في اللغة الثِّقل ؛ فسُمّى العهد إصرًا لأنه مَنْع وتشديد . ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أى آعلموا ؛ عن آبن عباس . الزجاج : بيّنوا لأن الشاهد هو الذى يصحّح دعوى المدّعى . وقيل : المعنى آشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم . ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عليكم وعليهم . وقال سعيد بن المسيّب : قال الله عز وجل للملائكة فآشهدوا عليهم ، فتكون كناية عن غير مذكور .

قوله تعالى : فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

« مَنْ » شرط . فمن تولّى من أمم الأنبياء عن الإيمان بعد أخذ الميثاق ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ أى الخارجون عن الإيمان . والفاسق الخارج . وقد تقدّم (١) .

(١) راجع ١ ص ٢٤٤

قوله تعالى : أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه آختصموا مع النصارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيُّنا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كلا الفريقين بريءٌ من دينه" . فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك؛ فنزل « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ » يعنى يطلبون . ونصبت « غير » بيبغون، أى يبغون غير دين الله . وقرأ أبو عمرو وحده « يبغون » بالياء على الخبر « وإليه ترجعون » بالتاء على المخاطبة . قال : لأن الأول خاصٌّ والثانى عامٌّ ففرق بينهما لآفتراقهما فى المعنى . وقرأ حفص وغيره « يبغون، ويرجعون » بالياء فيهما؛ لقوله : « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله «لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ أى آستسلم وآنقاد وخضع وذلّ ، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه . قال قتادة : أسلم المؤمن طوعًا والكافر عند موته كرهًا ولا ينفعه ذلك؛ لقوله : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »(١) . قال مجاهد : إسلام الكافر كرها بسجوده لغير الله وسجود ظلّه لله، «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ»(٢) . «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ »(٣) . وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم؛ فمنهم الحَسَن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم منقادون آضطرارًا ، فالصحيح منقاد طائع محبّ لذلك، والمريض منقاد خاضع وإن كان كارها . والطوع الآنقياد

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٦		(٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١		(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٠١

والاتبـاع بسهولة . والكره ما كان بمشقة و إباء من النفس . و ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ مصدران في موضع الحال ، أي طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » قال : " الملائكة أطاعوه في السماء والأنصارُ وعبدُ القَيْس في الأرض " . وقال عليه السلام : " لا تَسُبُّوا أصحابي فإن أصحابي أسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف السيف " . وقال عِكْرِمة : «طوعا» مَن أسلم من غير مُحاجّة « وكرها » مَن اضطرته الحجة إلى التوحيد . يدلّ عليه قوله عز وجل : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »(١) « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »(٢) . قال الحسن : هو عموم معناه الخصوص . وعنه : « أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » وتمّ الكلام . ثم قال : « وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » . قال : والكاره المنافق لا ينفعه عمله . و « طوعا وكرها » مصدران في موضع الحال . عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استصعبت دابّةُ أحدكم أو كانت شَمُوسًا(٣) فليقرأ في أذنها هذه الآية : « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » إلى آخر الآية .

قوله تعالى : وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

« غير » مفعول بيبتغ ، « دينا » منصوب على التفسير ، ويجوز أن ينتصب دينا بيبتغ ، وينتصب « غير » على أنه حال من الدِّين . قال مجاهد والسُّدّي : نزلت هذه الآية في الحارث ابن سُوَيد أخو الجُلَاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتدّ عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفارا ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . ورُوى ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(١) راجع ج ١٦ ص ١٢٣ (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٦١

(٣) شمست الدابة : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

قال هشام : أى وهو خاسر فى الآخرة من الخاسرين، ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول. وقال المازنى : الألف واللام مثلها فى الرجل . وقد تقدّم هذا فى البقرة عند قوله (١) : «وإنّه فى الآخرة لمن الصّالحين» .

قوله تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾

قال ابن عباس : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتدّ ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه : سَلُوا لِى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى مِنْ توبة ؟ فجاء قومُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت «كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ» إلى قوله : «غَفُورٌ رَحِيمٌ» فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائى . وفى رواية : أن رجلا من الأنصار ارتدّ فلحق بالمشركين، فأنزل الله «كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا» إلى قوله : «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» فبعث بها قومُه إليه، فلما قرئت عليه قال : والله ما كذَبنى قومى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أكذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة؛ فرجع تائبا، فقبِل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه . وقال الحسن : نزلت فى اليهود لأنهم كانوا يبشّرون بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ويَسْتَفْتِحون على الذين كفروا؛ فلما بُعث عاندوا وكفروا، فأنزل الله عز وجل «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . ثم قيل : «كيف» لفظة استفهام ومعناه الجحد، أى لا يهدى الله . ونظيره قوله : «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ (٢)» أى لا يكون لهم عهد؛ وقال الشاعر :

كيف نومى على الفراش ولمّا * يشمل القومَ غارةٌ شعواءُ

أى لا نوم لى . ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقال : ظاهر الآية أنّ من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالما، لا يهديه الله ؛ وقد رأينا كثيرا من المرتدّين قد أسلموا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٢ (٢) راجع جـ ٨ ص ٧٧

وهـداهم الله ، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم . قيـل له : معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقبِلون على الإســلام ؛ فأما إذا أسلموا وتابوا فقـد وفقهم الله لذلك . والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

أى إن داموا على كفرهم . وقد تقدّم معنى لعنة الله والناس فى «البقرة»(1) فلا معنى لإعادته . ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى لا يؤخرون ولا يؤجّلون ، ثم آستثنى التائبين فقال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ هو الحارث بن سُوَيْد كما تقدّم . ويدخل فى الآية بالمعنى كلُّ من راجع الإسلام وأخلص .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

قال قتادة وعطاء الخراسانىّ والحسن : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل، ثم آزدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن. وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته، «ثم آزدادوا كفرا» بإقامتهم على كفرهم. وقيل: «آزدادوا كفرا» بالذنوب التى آكتسبوها . وهذا آختيار الطبرى ،وهى عنده فى اليهود. ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مشكل لقوله : «وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ»(2) فقيـل : المعنى لن تقبل توبتهم عنـد الموت . قال النحاس : وهـذا قول حسن؛ كما قال عز وجل: «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ»(3) . وروى عن الحسن وقتادة وعطاء . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله

(1) راجع ج ٢ ص ١٨٨ (2) راجع ج ١٦ ص ٢٥ (3) راجع ج ٥ ص ٩٠

يقبل توبة العبد مالم يغرغر"(١). وسيأتى فى «النساء» بيان هذا المعنى. وقيل: «لَن تُقبَلَ تَوبَتُهُم» التى كانوا عليها قبل أن يكفروا، لأن الكفر قد أحبطها . وقيل: «لن تقبل توبتهم» إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر، وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام. وقال قطرب. هذه الآية نزلت فى قوم من أهل مكة قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا. فأنزل الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعدَ إِيمَانِهِم ثُمَّ ازدَادُوا كُفرًا لَّن تُقبَلَ تَوبَتُهُم» أى لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر، فسماها توبة غير مقبولة؛ لأنه لم يصح من القوم عزم، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم.

قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

المِلء (بالكسر) مقدار ما يملأ الشىء، والملء (بالفتح) مصدر ملأت الشىء؛ ويقال: أعطنى مِلأه ومِلأيه وثلاثة أملائه. والواو فى «وَلَوِ افتَدَى بِهِ» قيل: هى مقحمة زائدة؛ المعنى: فلن يقبل من أحدهم مِلء الأرض ذهبا لو افتدى به. وقال أهل النظر من النحويين: لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تدل على معنى. ومعنى الآية: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا تبرعًا ولو افتدى به. و«ذهبا» نصب على التفسير فى قول الفرّاء. قال المفضّل: شرط التفسير أن يكون الكلام تامًّا وهو مُبهَم؛ كقولك عندى عشرون؛ فالعدد معلوم والمعدود مبهم؛ فإذا قلت درهما فسرت. وإنما نصب التمييز لأنه ليس له مايخفضه ولا ما يرفعه، وكان النصب أخف الحركات فجُعل لكل ما لا عامل فيه. وقال الكسائى: نصب على إضمار مِنْ، أى من ذهب؛ كقوله: «أو عدل ذلك صِياما»(٢) أى من صيام. وفى البخارىّ ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "يجاء بالكافر

(١) أى ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به المريض، راجع جـ ٥ ص ٩٢
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣١٦

يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك". لفظ البخارى. وقال مسلم بدل "قد كنت، كذبتَ، قد سُئلتَ".

قوله تعالى: لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

فيه مسألتان:

الأولى — روى الأئمة واللفظ للنسائى عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» قال أبو طلحة: إن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يارسول الله أنى جعلت أرضى لله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آجعلها فى قرابتك فى حسان آبن ثابت وأبىّ بن كعب". وفى الموطأ «وكانت أحب أمواله إليه بَيْرُحاء[1]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب». وذكر الحديث. ففى هذه الآية دليل على آستعمال ظاهر الخطاب وعمومه؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك. ألا ترى أبا طلحة حين سمع «لن تنالوا البر حتى تنفقوا» الآية، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذى يريد اللهُ أن ينفق منه عبادُه بآية أخرى أو سنة مبيّنة لذلك فإنهم يحبون أشياء كثيرة. وكذلك فعل زيد آبن حارثة، عَمَد مما يحب إلى فرس يقال له "سَبَل" وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلىّ من فرسى هذه؛ فجاء بها [إلى][2] النبى صلى الله عليه وسلم فقال: هذا فى سبيل الله. فقال لأسامة بن زيد "اقبضه". فكأنّ زيدا وجد من ذلك فى نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد قبلها منك". ذكره أسد بن موسى. وأعتق آبن عمر نافعا مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار. قالت صفية بنت أبى عبيد: أظنه تأوّل قول الله عز وجل: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون». وروى شِبل عن[3] أبى نجيح

(١) بيرحاء: مال وموضع كان لأبى طلحة بالمدينة. (٢) من د، و ز. (٣) فى د: آبن أبى نجيح.

عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سَبْي جَلُولاء (١) يوم فتح مدائن كِسْرى ؛ فقال سعد (٢) بن أبي وقاص : فدعا بها عمر فأعجبته ، فقال إن الله عز وجل يقول: «لن تنالوا البِر حتى تنفقوا مما تحبون» فأعتقها عمر رضي الله عنه . وروى عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الرَّبِيع بن خُثَيْم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لي: يا فلانة أعطى السائل سكرا، فإن الربيع يحب السكر . قال سفيان : يتأول قوله جل وعز : « لن تنالوا البِر حتى تنفقوا مما تحبون » . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشترى أعدالا من سكر ويتصدّق بها . فقيل له : هلا تصدّقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إلىّ فأردت أن أنفق مما أحب . وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركوا (٣) ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانيــة — واختلفوا في تأويل « البر» فقيل الجنة ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدى . والتقدير لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون . والنَّوَال العطاءُ، من قولك نولته تنويلا أعطيته . ونالنى من فلان معروف ينالني، أى وصل إلىّ . فالمعنى لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون . وقيل : البر العمل الصالح . وفي الحديث الصحيح: "عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر و إن البر يهدى إلى الجنة". وقد مضى في البقرة (٤) . قال عطية العوفى : يعنى الطاعة . عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر . وعن الحسن، «حتى تنفقوا» هى الزكاة المفروضة . مجاهد والكلبي : هى منسوخة، نسختها آية الزكاة . وقيل : المعنى حتى تنفقوا مما تحبون في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع . وروى النسائىّ عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذرّ قال: قلت حدّثنى قال: نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين في سبيل الله إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده " . قلت : وكيف ذلك؟ قال: إن كانت إبلا فبعيرين،

(١) جلولاء : قرية قرب خانقين — بالعراق — على سبعة فراسخ منها كانت للمسلمين بها وقعة على الفرس .

(٢) في ب : في قتال سعد . (٣) في : ا، و ب، و ز : تدركون . (٤) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣

وإن كانت بقرا فبقرتين . وقال أبو بكر الوراق : دلهم بهذه الآية على الفتوة[١] . أى لن تنالوا برّى بكم إلا ببرّكم بإخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم برى وعطفى . قال مجاهد : وهو مثل قوله : «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا»[٢] . ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أى وإذا علم جازى عليه .

قوله تعالى : ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حِلًّا ﴾ أى حلالا ، ثم آستثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِـهِ ﴾ وهو يعقوب عليه الســلام . فى الترمذىّ عن آبن عباس أن اليهود قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أخبرنا ، ماحرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : "كان يسكن البدو فآشتكى عِرق النَّسا[٣] فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرّمها " . قالوا : صـدقت . وذكر الحديث . ويقال : [أنه][٤] نذر إن برأ[٥] منه ليتركن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها . وقال آبن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : أقبل يعقوب عليه السلام من حرّان يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو، وكان رجلا بطشا قويًّا ، فلقيه ملك فظنّ يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه ، فغمز الملك فخذ يعقوب عليه السلام، ثم صعد الملك إلى السماء و يعقوب ينظر إليه فهاج عليـه[٦] عِرق النَّسا، ولقى من

---

(١) الفتوة : يعبر بها عن مكارم الأخلاق . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٥

(٣) النسا (بالفتح مقصور) : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ .

(٤) كذا فى ب ود . (٥) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز. وسائر العرب يقولون : برئت (بالكسر) .

(٦) فى ب و د : به .

ذلك بلاء شديدا ، فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله زقاء[1] أى صياح، فحلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعز ألّا يأكل عِرْقا ، ولا يأكل طعاما فيه عِرق فحرّمها على نفسه؛ فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم. وكان سبب غمز المَلَك[2] ليعقوب أنه كان نذر إن وهب الله له آثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم[3]. فكان ذلك للمخرج من نذره؛ عن الضحاك .

الثانيــة ــ وآختلف هل كان التحريم من يعقوب بآجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟ والصحيح الأوّل؛ لأن الله تعالى أضاف التحريم إليه بقوله تعالى : « إلَّا مَا حَرَّمَ » وأن النبي إذا أدّاه آجتهاده إلى شيء كان دِينًا يلزمنا آتباعُه لتقرير الله سبحانه إياه على ذلك . وكما يوحى إليه و يلزم آتباعه ، كذلك يؤذن له ويجتهد، ويتعين موجب آجتهاده إذا قدر عليه؛ ولولا تقدّم الإذن له فى تحريم ذلك ما تسوّر[4] على التحليل والتحريم . وقد حرم نبينا صلى الله عليه وسلم العسل على الرواية الصحيحة ، أو خادمه مارية فلم يقرّ الله تحريمه ونزل « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ » على ما يأتى بيانه فى «التحريم»[5]. قال الكيا الطبرى : فيمكن أن يقال : مطلق قوله تعالى : « لم تحرم ما أحل الله » يقتضى الا يختص بمارية ؛ وقد رأى الشافعىّ أن وجوب الكفارة فى ذلك غير معقول المعنى ، فجعلها مخصوصا بموضع النص ، وأبو حنيفة رأى ذلك أصلا فى تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال آبن عباس : لما أصاب يعقوب عليه السلام عِرق النَّسا وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرّمها على نفسه . فقالت اليهود : إنما نحرّم على أنفسنا لحوم الإبل؛ لأن يعقوب حرّمها وأنزل الله تحريمها فى التوراة ؛ فأنزل الله هذه الآية . قال الضحاك : فكذبهم الله وردّ عليهم فقال : يا محمد « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فلم يأتوا . فقال عز وجل : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال الزجاج : فى هذه الآية

---

(١) فى ز و ا : رغاء، والتصحيح من ب، و د و حـ و هـ و جـ . (٢) فى ب و د، وفى الأصول الأخرى : غمز الملك فخذه . (٣) فى د : أحدهم . (٤) تسوّر : هجم . (٥) راجع جـ ١٨ ص ١٧٧

أعظم دلالة لنبوة محمد نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ أخبرهم أنه ليس فى كتابهم ، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأبوا؛ يعنى عرفوا أنه قال ذلك بالوحى . وقال عطية العوفى : إنما كان ذلك حراما عليهم بتحريم يعقوب ذلك عليهم . وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عِرق النسا : والله لئن عافانى الله منه لا يأكله لى ولد؛ ولم يكن ذلك محرّما عليهم . وقال الكلبى : لم يحرمه الله عز وجل فى التوراة عليهم وإنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم ، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله تعالى عليهم طعاما طيبا ، أو صب عليهم رجزا وهو الموت ؛ فذلك قوله تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »(١) الآية . وقوله : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ » الآية — إلى قوله : « ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »(٢) .

الرابعة — ترجم ابن ماجه فى سننه «دواء عِرق النسا» حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سعيد الرملى قالا حدّثنا الوليد بن مسلم حدّثنا هشام بن حسّان حدّثنا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "شفاء عِرق النسا ألية شاة [أعرابية](٣) تذاب ثم تُجزّأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق فى كل يوم جزء" . وأخرجه الثعلبىّ فى تفسيره أيضا من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرق النسا : "تؤخذ ألية كبش عربىّ لا صغير ولا كبير فتقطع صغارا فتخرج إهالته(٤) فتقسم ثلاثة أقسام فى كل يوم على ريق النفس ثلثا" قال أنس : فوصفته لأكثر من مائة فبرأ بإذن الله تعالى . شعبة : حدّثنى شيخ فى زمن الحجاج بن يوسف فى عِرق النَّسا : أقسم لك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكوينّك بنار أو لأحلقنّك بموسى . قال شعبة : قد جربته ، تقوله ، وتمسح على ذلك الموضع .

قوله تعالى : قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٧ (٣) زيادة عن سنن ابن ماجه .
(٤) الإهالة (بالكسر) : الشحم المذاب ، أو كل ما أؤتدم به من الأدهان .

أى قل يا محمد صدق الله؛ إنه لم يكن ذلك فى التوراة محرما . ﴿فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أمر بٱتباع دينه . ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ردّ عليهم فى دعواهم الباطل كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوّل مسجد وضع فى الأرض قال : "المسجد الحرام" . قلت : ثم أى ؟ قال : "المسجد الأقصى" . قلت : كم بينهما ؟ قال : "أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل" . قال مجاهد وقتادة : لم يوضع قبله بيت . قال علىّ رضى الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة، والمعنى أنه أوّل بيت وضع للعبادة . وعن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ؛ لأنه مهاجَر(1) الأنبياء وفى الأرض المقدسة . وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقد مضى فى البقرة(2) بنيان البيت وأوّل من بناه . قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى سنة، وأن قواعده لفى الأرض السابعة السفلى . وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام؛ كما خرجه النسائى بإسناد صحيح من حديث عبدالله بن عمرو . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : "أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثة [سأل الله عز وجل](3) حُكما يصادف حكمه فأُوتيه، وسأل الله عز وجل مُلكا

---

(1) المهاجر (بفتح الجيم) : موضع المهاجرة . (2) راجع ج ٢ ص ١٢٠

(3) زيادة عن سنن النسائى .

لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألّا يأتيه أحد لا يَنْهَزه إلا الصلاةُ فيــه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه ". فجاء إشكالٌ بين الحديثين؛ لأن بين إبراهيم وسليمان آمادا طويلة. قال أهل التواريخ: أكثر من ألف سنة. فقيل: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدا ما كان أسّسه غيرهما. وقد روى أن أوّل من بنى البيت آدم عليــه السلام كما تقــدّم. فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاما، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيت بإذن الله؛ وكل محتمل. والله أعلم. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت فى الأرض وأن يطوفوا به؛ وكان هذا قبــل خلق آدم، ثم إن آدم بنى منــه مابنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم آستتم بناءه إبراهيم عليه السلام.

الثانيــــة — قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر «إن» واللام توكيد. و «بكة» موضع البيت، ومكة سائر البلد؛ عن مالك بن أنس. وقال محمــد بن شهاب: بكّة المسجد، ومكة الحرم كله، تدخل فيه البيوت. قال مجاهد: بكة هى مكة. فالميم على هذا مُبْدَلَة من البــاء؛ كما قالوا: طين لازِبٌ ولازم. وقاله الضحاك والمؤرّج. ثم قيــل: بكة مشتقة من البَكّ وهو الآزدحام. تباكّ القوم آزدحموا. وسميت بكة لآزدحام الناس فى موضع طوافهم. والبك دَقّ العنق. وقيل: سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم. قال عبد الله بن الزبير: لم يقصدها جبار قَطُّ بســوء إلا وَقَصَه(٢) الله عز وجل. وأما مكة فقيل: إنها سميت بذلك [لقلة مائها وقيل: سميت بذلك](٣) لأنها تَمُكّ المخّ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة؛ من قولهم: مَكَكْت العظم إذا أخرجت ما فيه. ومَكّ الفصيلُ ضرع أمه وآمتكّه إذا آمتصّ كل ما فيه من اللبن وشربه؛ قال الشاعر:

* مَكّتْ فلم تُبقِ فى أجْوافها دِرَرا *

وقيــل: سميت بذلك لأنها تَمُكّ من ظَلَم فيها، أى تهلكه وتنقصه. وقيل: سميت بذلك لأن الناس كانوا يَمُكّون و يضحكون فيها؛ من قوله: «وما كان صَلَاتُهُم عِنْدَ الْبَيْتِ إِلّا مُكَاءً

(١) النهز: الدفع. (٢) الوقص: الكسر والدق. (٣) الزيادة فى د.

وتَصْدِيَة»(١) أى تَصْفِيقا وتَصْفِيرا . وهذا لا يوجبه التصريف ؛ لأن «مكة» ثنائى مضاعف و « مُكَاءً » ثلاثى معتل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مُبَارَكًا ﴾ جعله مباركا لتضاعف العمل فيه ؛ فالبركة كثرة الخير ، ونصب على الحال من المضمر فى «وُضِعَ» أو بالظرف من « بَكَّةَ » ، المعنى : الذى آستقر «بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» ويجوز فى غير القرآن «مبارك» ؛ على أن يكون خبرا ثانيا ، أو على البدل من الذى ، أو على إضمار مبتدأ . ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ عطف عليه ، و يكون بمعنى وهو هدى للعالمين . و يجوز فى غير القرآن «مباركٍ» بالخفض يكون نعتا للبيت .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ رفع بالآبتداء أو بالصفة . وقرأ أهل مكة وآبن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير «آية بينة» على التوحيد ، يعنى مقام إبراهيم وحده . قالوا : أثر قدميه فى المقام آية بينة . وفسر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله ؛ فذهب إلى أن من آياته الصفا والمروة والركن والمقام . والباقون بالجمع . أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها . قال : أبو جعفر النحاس : من قرأ «آيات بينات» فقراءته أبين ؛ لأن الصفا والمروة من الآيات ، ومنها أن الطائر لا يعلو البيت صحيحا ، ومنها أن الجارح(٢) يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه ، ومنها أن الغيث إذا كان ناحية الركن اليمانى كان الخصب باليمن ، و إذا كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، و إذ عم البيت كان الخصب فى جميع البلدان ، ومنها أن الجمار على ما يُزاد عليها تُرى(٣) على قدر واحد . والمَقام من قولهم : قمت مَقاما ، وهو الموضع الذى يُقام فيه . والمُقام من قولك : أقمت مُقاما . وقد مضى هذا فى البقرة(٤) ، ومضى الخلاف أيضا فى المقام والصحيح منه . وآرتفع المقام على الآبتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير منها مقام إبراهيم ؛ قاله الأخفش . وحكى عن محمد بن يزيد أنه قال : «مقام» بدل من «آيات» . وفيه قول ثالث بمعنى هى مقام إبراهيم . وقول الأخفش معروف فى كلام العرب . كما قال زهير :

(١) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠ .　(٢) فى د : أن الحاج يقيع ، والصواب ما أثبتناه من ز ، و ب .
(٣) فى ز : على ما يراد منها ترى .　(٤) راجع جـ ٢ ص ١١٢

لهـا متاعٌ وأعوانٌ غدَوْنَ به * قِتْبٌ (١) وغَرْب إذا ما أُفرِغ آنسحَقا

أى مضى وبَعُد سيلانه. وقول أبى العباس: إن مقاما بمعنى مقامات؛ لأنه مصدر. قال الله تعالى: «خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ» (٢). وقال الشاعر:

* إنّ العُيون التى فى طَرْفِها مَرَضٌ (٣) *

أى فى أطرافها. ويقوى هذا الحديثُ المروى (٤) "الحج [كله] مقام إبراهيم".

الخامســة — قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال قتادة: ذلك أيضا من آيات الحرم. قال النحاس: وهو قول حسن؛ لأن الناس كانوا يُتخطّفون من حواليه، ولا يصل إليه جبار، وقد وصـل إلى بيت المقدس وخرب، ولم يوصل إلى الحرم. قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» (٥). وقال بعض أهل المعانى: صورة الآية خبر ومعناها أمر، تقديرها ومن دخله فأمّنوه؛ كقوله: «فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» (٦) أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا. ولهذا المعنى قال الإمام السابق النعمان بن ثابت: من آقترف ذنبا وآستوجب به حدا ثم لجأ إلى الحرم عصمه، [لقوله تعالى:] «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا»؛ فأوجب الله سبحانه الأمن لمن دخله. ورُوى ذلك عن جمـاعة من السلف منهم آبن عباس وغيره من الناس. قال آبن العربى: «وكل من قال هــذا فقد وهم من جهتين: إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خبر عما مضى، ولم يقصد بها إثبات حكم مستقبل، الثانى أنه لم يعلم أنّ ذلك الأمن قد ذهب وأن القتل والقتال قد وقع بعد ذلك فيها، وخبر الله لا يقع بخلاف مخبره؛ فدل ذلك على أنه كان فى المـاضى هذا. وقد ناقض أبو حنيفة فقال، إذا لجأ إلى الحرم لا يُطعَم ولا يُسْقى ولا يُعامَل ولا يُكلَّم حتى يخرج، فآضطراره (٧) إلى الخروج ليس يصح معـه أمنٌ. وروى عنه أنه قال: يقع القصاص فى الأطراف فى الحرم ولا أمن أيضا مع هذا».

(١) قوله: لها متاع، أى لهذه الناقة التى يستقى عليها. والقتب (بالكسر): جميع أداة السانيــة من أعلاقها وحبالها. والسانية: ما يسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره. والغرب: الدلو العظيمة. (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٥ (٣) البيت لجرير، والذى فى الديوان: فى طرفها حور. (٤) فى د و ز و هـ. هذا من قول سعيد ابن جبير كما فى تفسير آبن كثير وفيه توجيه جـ ٣ ص ١٩١ (٥) جـ ٢٠ ص ١٨٧ (٦) جـ ٢ ص ٤٠٧ (٧) فى د و ز: فآضطرّه، وفى الأصول الأخرى: فآضطروه، والتصحيح من آبن العربى.

والجمهور من العلماء على أن الحدود تُقام في الحرم، وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتل آبن خَطَل(١) وهو متعلِّق بأستار الكعبة .

قلت : وروى الثوريّ عن منصور عن مجاهد عن آبن عباس : من أصاب حدًّا [في الحرم](٢) أقيم عليه فيه، وإن أصابه في الحِلّ ولجأ إلى الحرم لم يُكلَّم ولم يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ؛ وهو قول الشعبيّ. فهذه حجة الكوفيين، وقد فهم آبن عباس ذلك من معنى الآية، وهو حَبْر الأمّة وعالِمُها. والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النِّعم على كل من كان بها جاهلا ولها منكرا من العرب؛ كما قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ»(٣)؛ فكانوا في الجاهلية من دخله ولجأ إليه أَمِن من الغارة والقتل؛ على ما يأتي بيانه في «المائدة»(٤) إن شاء الله تعالى. قال قتادة: ومن دخله في الجاهلية كان آمنا. وهذا حسن. وروى أن بعض المُلْحِدة قال لبعض العلماء: أليس في القرآن «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمن من كان فيه! قال له: ألست من العرب! ما الذي يريد القائل من دخل داري كان آمنا(٥)؟ أليس أن يقول لمن أطاعه: كفّ عنه فقد أمّنته وكففت عنه؟ قال بلى. قال: فكذلك قوله «ومن دخله كان آمنا». وقال يحيى بن جَعْدة: معنى «ومن دخله كان آمنا» يعني من النار.

قلت: وهذا ليس على عمومه؛ لأن في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدريّ حديث الشفاعة الطويل "فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشَدةً لله في آستقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربَّنا كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحُجّون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم" الحديثَ. وإنما يكون آمنا من النار من دخله لقضاء النُّسُك معظِّما له عارفا بحقه متقرّبا إلى الله تعالى. قال جعفر الصادق: من دخله على الصفاء

(١) آبن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل. رجل من بني تيم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلما فبعثه صلى الله عليه وسلم مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى يخدمه مسلما فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبح له تيسا فيصنع له طعاما فنام؛ فآستيقظ ولم يصنع له شيئا فعدا عليه فقتله ثم آرتدّ. راجع الطبري وآبن هشام.

(٢) من د و ز.	(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٦٣	(٤) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥

(٥) في د: فهو آمن.

كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمنا من عذابه . وهـذا معنى قوله عليه السلام : " من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة . وأنشد :

يا كعبة الله دعوة اللاجى * دعـــوة مستشعر ومحتاج
ودّع أحبابه ومسكنه * فجاء ما بين خائف راجى (١)
إن يقبل الله سعيه كرما * نجا ، وإلا فليس بالناجى
وأنت ممّن تُرجى شفاعته * فاعطف على وافد بن حجّاج

وقيل : المعنى ومن دخله عام عمرة القضاء مع محمد صلى الله عليه وسلم كان آمنا . دليله قوله تعالى : « لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » (٢) . وقد قيل : إن «مَنْ» هاهنا لمن لا يعقل ، والآية في أمان الصيد ، وهو شاذ ؛ وفي التنزيل : « فمنهم من يمشى على بطنه » (٣) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ اللام في قوله «ولله» لام الإيجاب والإلزام ، ثم أكده بقوله تعالى : ﴿ عَلَى ﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب ؛ فإذا قال العربي : لفلان علىّ كذا ، فقد وكده وأوجبه . فذكر الله تعالى الحج [بأبلغ] (٤) ألفاظ الوجوب تأكيدا لحقه وتعظيما لحرمته . ولا خلاف في فريضته (٥) ، وهو أحد قواعد الإسلام ، وليس يجب إلا مرة في العمر . وقال بعض الناس : يجب في كل خمسة أعوام [مرة] (٦) ؛ ورووا في ذلك حديثا أسندوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والحديث باطل لا يصح ، والإجماع صادّ في وجوههم .

قلت : وذكر عبد الرزاق قال : حدثنا سفيان [الثورى] (٧) عن العلاء بن المسيّب عن أبيه عن أبي سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الرب جل وعز إن عبدا أوسعت عليه في الرزق فلم يعد إلىّ في كل أربعة أعوام لمحروم" مشهور من حديث العلاء بن المسيب بن رافع الكاهلىّ الكوفىّ من أولاد المحدثين ، روى عنه غير واحد ، منهم من قال : في كل خمسة أعوام ،

(١) في د : ما بين خائفه والراجى . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ (٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٩١
(٤) في د و ب و ز و هـ . وفي ا : بأوكد . (٥) في د و ب : فرضيته . (٦) في ب و د . (٧) في د .

ومنهم من قال : عن العلاء عن يونس بن خَبّاب (١) عن أبى سعيد، فى غير ذلك من الاختلاف.
وأنكرت الملحِدة الحجّ ، فقالت : إن فيه تجريد الثياب وذلك يخالف الحياء ، والسعى وهو يناقض الوَقار ، ورمى الجمار لغير مرمى وذلك يضادّ العقل ؛ فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة ؛ إذ لم يعرفوا لها حِكمة ولا عِلة ، وجهلوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد ، أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به ، ولا أن يطلع على فائدة تكليفه ، وإنما يتعين عليه الامتثال ، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود . ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول فى تلبيته : " لبيْك حقّا حقّا تعبُّدا ورِقّا لبيْك إلهَ الحق " . وروى الأئمة عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أيها الناس قد فَرض الله عليكم الحجَّ فحجّوا". فقال رجل : أكلَّ عام يارسول الله؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو قلت نعم لوجبتْ ولما استطعتم" ثم قال : "ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه" لفظ مسلم . فبيّن هذا الحديثُ أن الخطاب إذا توجه على المكلفين بفرض أنه يكفى منه فعل مرة ولا يقتضى التكرار؛ خلافا للأستاذ أبى إسحق الأسفرايِنِى وغيره . وثبت أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه : يا رسول الله ، أحَجُّنا لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال : "لا بل للأبد". وهـذا نص فى الردّ على من قال : يجب فى كل خمس سنين مرة . وقد كان الحج معلوما عند العرب مشهورا لديهم ، وكان ممـا يرغب فيه لأسواقها وتَبَرُّرِها (٢) وتحنُّفها ؛ فلما جاء الإسـلام خوطبوا بما علموا وألزموا بما عرفوا . وقد حج النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل حجّ الفرض ، وقد وقف بعرفة ولم يغيّر من شرع إبراهيم ما غيروا ؛ حين كانت قريش تقف بالمَشْعَر الحرام ويقولون : نحن أهل الحرم فلا نخرج منه ؛ ونحن الحُمْس (٣) . حسب ما تقدّم بيانه فى «البقرة» (٤) .

قلت : من أغرب ما رأيته أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم حج قبل الهجرة مرتين وأن الفرض سقط عنـه بذلك ؛ لأنه قـد أجاب نداء إبراهيم حين قيـل له : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

(١) فى ا : ابن حبان ، والتصويب من د و ز و ب . (٢) التبرر : الطاعة ، وفى ا : تحبيبها : طلب الكلإ . فى د : تحنفها . (٣) الحمس جمـع الأحمس ، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس ؛ سموا حمسا لأنهم تحمسوا فى دينهم ، أى تشددوا . (٤) راجع جـ ٢ ص ٣٤٥

بالحج »[1] . قال الكيا الطبرى : وهذا بعيد؛ فإنه إذا ورد فى شرعه : «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» فلا بدّ من وجوبه عليه بحكم الخطاب فى شرعه . ولئن قيل : إنما خاطب من لم يحج ، كان تحكّما وتخصيصا لا دليل عليه ، ويلزم عليه ألا يجب بهذا الخطاب على من حج على دِين إبراهيم ، وهذا فى غاية البعد .

الثانيـــة ــ ودلّ الكتاب والسنة على أن الحج على التراخى لا على الفور؛ وهو تحصيل مذهب مالك فيما ذكر ٱبن خُوَيزِ مَنْداد ، وهو قول الشافعىّ ومحمد بن الحسن وأبى يوسف فى رواية عنه . وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المـالكيين إلى أنه على الفور ، ولا يجوز تأخيره مع القدرة عليه؛ وهو قول داود . والصحيح الأوّل؛ لأن الله تعالى قال فى سور الحج : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا» وسورة الحج مكية[2] . وقال تعالى : « وللهِ على الناسِ حج البيت » الآية . وهذه السورة نزلت عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سنة عشر . أما السُّنّة فحديث ضِمام بن ثعلبة السعدىّ من بنى سعد بن بكر قدم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن الإسلام فذكر الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج . رواه ٱبن عباس وأبو هريرة وأنس ، وفيها كلها ذِكر الحج ، وأنه كان مفروضا ، وحديث أنس أحسنُها سياقا وأتمّها . وٱختلف فى وقت قدومه؛ فقيل : سنة خمس . وقيل : سنة سبع . وقيل : سنة تسع؛ ذكره ٱبن هشام عن أبى عبيدة الواقدى عام الخَنْدَق بعـد ٱنصراف الأحْزَاب . قال ٱبن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على التراخى إجماع العلماء على ترك تفسيق القادر على الحج إذا أخره العام والعامين ونحوهما ، وأنه إذا حج من بعد أعوامٍ من حين ٱستطاعته فقد أدّى الحج الواجب عليـه فى وقته ، وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاة حتى خرج وقتهـا فقضاها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو سـفر فقضاه ، ولا كمن أفسد حجه فقضاه ، فلمـا أجمعوا على أنه لا يقال لمن حج بعد أعوام من وقت ٱستطاعته : أنت قاضٍ لِمـا وجب عليك؛ علمنا أن وقت الحج مُوسَّع فيه وأنه على التراخى لا على الفور . قال أبو عمر : كل من قال بالتراخى لا يحُدّ فى ذلك حدا؛ إلا ما روى عن سحنـون وقد سـئل عن الرجل

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٧ (٢) والصحيح أن سورة الحج مدنية بدليل آية الجهاد ، وسيأتى فى جـ ١٢ من هذا التفسير .

يجد ما يحج به فيؤخّر ذلك إلى سنين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُفَسَّق بتأخيره الحجَّ وتُرَد شهادتُه؟ قال: لا وإن مضى من عمره ستون سنة، فإذا زاد على الستين فُسِّق وردّت شهادته. وهذا توقيف وحدّ، والحدود فى الشرع لا تؤخذ إلا عمن له أن يشرِّع.

قلت: وحكاه ٱبن خويزمنداد عن ٱبن القاسم. قال ٱبنُ القاسم وغيره: إن أخره ستين سنة لم يُحَرَّج(١)، وإن أخره بعد الستين حُرِّج؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وقل من يتجاوزها" فكأنه فى هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب. قال أبو عمر: وقد ٱحتج بعض الناس [كسحنون(٢)] بقوله صلى الله عليه وسلم: "معترك أمتى بين الستين إلى السبعين وقل من يجاوز ذلك". ولا حجة فيه؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أمته لو صحّ الحديث. وفيه دليل على التوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضا، ولا ينبغى أن يقطع بتفسيق من صحت عدالته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف. وبالله التوفيق.

الثالثة — أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ عام فى جميعهم مسترسل على جملتهم. قال ٱبن العربىّ: «وإن كان الناس قد ٱختلفوا فى مطلق العمومات بَيْدَ أنهم ٱتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذكرِهم وأنثاهم، خلا الصغير فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف، وكذلك العبد لم يدخل فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قوله تعالى [فى التمام(٢)]: «مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» والعبد غيرُ مستطيع؛ لأن السيِّد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة. وقد قدّم الله سبحانه حقَّ السيد على حقه رِفقًا بالعباد ومصلحةً لهم. ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، فلا نَهْرِف(٣) بما لا نعرِف، ولا دليل عليه إلا الإجماعُ». قال ٱبن المنذر: أجمع عامّة أهل العلم إلا من شَذّ منهم ممن لا يعدّ خلافا، على أن الصبيّ إذا حجّ فى حال صغره، والعبد إذا حج فى حال رِقّه، ثم بلغ الصبى وعَتَق العبد إنّ عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا. وقال أبو عمر: خالف داود جماعة فقهاء الأمصار وأئمة الأثر فى المملوك وأنه عنده مخاطب بالحج، وهو عند جمهور العلماء خارج من الخطاب العام فى قوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى

---

(١) حرج (من باب علم): أثم.　(٢) فى د و ب.　(٣) الهرف: شبه الهذيان من الإعجاب بالشىء. فى د و ب: لا يهرف، لا يعرف، بالبناء للمجهول.

النّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » بدليل عدم التصرف، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيده؛ كما خرج من خطاب الجمعة وهو قوله تعالى : « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ »[(١)] الآية ـ عند عامة العلماء إلا من شذّ . وكما خرج من خطاب إيجاب الشهادة ، قال الله تعالى : « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَادُعُوا »[(٢)] فلم يدخل فى ذلك العبدُ . وكما جاز خروج الصبيّ من قوله : « وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ » وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه . وخرجت المرأة من قوله : « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ » وهى ممّن شَمِله آسم الإيمان ، وكذلك خروج العبد من الخطاب المـذكور . وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب ، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب . فإن قيل : إذا كان حاضرَ المسجد الحرام وأذِن له سيدُه فلِمَ لا يلزمه الحج؟ قيل له : هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعلّل ذلك ، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع آستدللنا به على أنه لا يُعتدّ بحجه فى حال الرِّق عن حجة الإسلام ؛ وقـد روى عن آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أيّما صبيّ حجّ ثم أدرك فعليه أن يحج حجة أخرى وأيّما أعرابيّ حجّ ثم هاجر فعليـه أن يحج حجـة أخرى وأيما عبـد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى" . قال آبن العربيّ : « وقـد تساهل بعض علمائنا فقال : إنما لم يثبت الحج على العبد وإن أذِن له السـيد لأنه كان كافرا فى الأصل ولم يكن حَجُّ الكافر معتدّا به ، فلما ضُرب عليـه الرق ضربا مؤبّدا لم يخـاطب بالحج ؛ وهذا فاسـد من ثلاثة أوجه فآعلموه : أحدها ــ أن الكفار عنـدنا مُخاطبون بفروع الشريعة ، ولا خلاف فيـه فى قول مالك . الثـانى ــ أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقا ، ولو فعلها فى حال كفره لم يعتدّ بها ، فوجب أن يكون الحج مثلها . الثـالث ــ أن الكفر قد آرتفع بالإسلام فوجب آرتفاع حكمه . فتبين أن المعتمد ما ذكرناه من تقدّم حقوق السيد» . والله الموفق .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «مَنْ» فى موضع خفض على بدل البعض من الكل ؛ هذا قول أكثر النحويين . وأجاز الكسائى أن يكون «من» فى موضع رفع بحج ، التقدير أن يحج البيت من . وقيل هى شرط . و «آستطاع» فى موضع جزم ، والجواب

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٩٨

محذوف، أى من آستطاع إليه سبيلا فعليه الحج . روى الدارقطني عن آبن عباس قال : قيل يا رسول الله الحج كلّ عام؟ قال : "لا بل حجة"؟ قيل : فما السبيل، قال : "الزاد والراحلة". ورواه عن أنس وآبن مسعود وآبن عمر وجابر وعائشة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «ولله على الناس حج البيت من آستطاع إليه سبيلا» قال فسئل عن ذلك فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أن تجد ظهر بعير". وأخرج حديث آبن عمر أيضا آبنُ ماجه فى سُننه ، وأبو عيسى الترمذيّ فى جامعه وقال : «حديث حَسَن ، والعمل عليه عند أهل العلم أنّ الرجل إذا ملك زادًا وراحلة وجب عليه الحج . وإبراهيم بن يزيد هو الخُوزىّ المكىّ[1] ، وقد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قِبَل حِفظه» . وأخرجاه عن وَكيع والدَّارَقُطْنِيّ عن سفيان بن سعيد قالوا : حدّثنا إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عبّاد عن آبن عمر قال : قام رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، ما يوجب الحج؟ . قال : "الزاد والراحلة" قال : يارسول الله ، فما الحاج؟ قال : "الشَّعِث التَّفِل"[2] . وقام آخر فقال : يا رسول الله وما الحج؟ قال : "العَجُّ والثَّجّ" . قال وكيع : يعنى بالعج العجيج بالتَّلبية والثَّج نحر البُدْن؛ لفظ آبن ماجه . وممن قال إن الزاد والراحلة شرط فى وجوب الحج : عمر بن الخطاب وآبنه عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصرى وسعيد بن جُبير وعطاء ومجاهد . و إليه ذهب الشافعيّ والثوريّ وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد و إسحاق وعبد العزيز بن أبى سلمة وآبن حبيب ، وذكر عبدوس[3] مثله عن سُحْنون . قال الشافعيّ : الآستطاعة وجهان : أحدهما أن يكون مستطيعا ببدنه واجدا من ماله ما يبلغه الحج . والثانى أن يكون معضوبا[4] فى بدنه لايثبت على مَرْكبه وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه بأجرة و بغير أجرة ، على ما يأتى بيانه . أما المستطيع ببدنه فإنه يلزمه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل : « مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » . وأما المستطيع بالمال فقد لزمه فرض الحج بالسُّنة بحديث الخثعمية على ما يأتى . وأما المستطيع بنفسه وهو القوىّ الذى لا تلحقه مشقّة غير محتملة

(١) هو أحد رجال سند حديث آبن عمر . (٢) الشعث : متلبد الشعر . والتفل : الذى قد ترك آستعمال الطيب .
(٣) فى ب : « ابن عبدوس » . (٤) المعضوب : الزمن الذى لا حراك به .

فى الركوب على الراحلة ؛ فإن هذا إذا ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه ، و إن عدم الزاد والراحلة أو أحدهما سـقط عنه فرضُ الحج ؛ فإن كان قادرا على المشى مُطيقا له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد فى طريقه بصنعةٍ مثل الخرز والحجامة أو نحوهما فالمستحب له أن يحُج ماشياً رَجلًا كان أو آمرأةً . قال الشافعيّ : والرجل أقلّ عُذرًا من المرأة لأنه أقوى . وهذا عندهم على طريق الآستحباب لا على طريق الإيجاب ، فأما إن قدر على الزاد بمسألة الناس فى الطريق كَرِهت له أن يحجّ لأنه يصير كَلًّا على الناس . وقال مالك بن أنس رحمــه الله : إذا قَدَر على المشى ووجد الزاد فعليه فرض الحج ، و إن لم يجـد الراحلة وقَدَر على المشى نُظر ؛ فإن كان مالكا للزاد وجب عليه فرض الحج ، و إن لم يكن مالكا للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه فى الطريق نُظر أيضا ؛ فإن كان من أهل المروءات ممن لا يكتسب بنفسه لا يجب عليه ، و إن كان ممن يكتسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج ، وهكذا إن كانت عادته مسألة الناس لزمه فرض الحج . وكذلك أوجب مالكٌ على المطيق المشى الحجّ ، و إن لم يكن معه زاد وراحلة . وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبيّ وعكرمة . وقال الضحاك : إن كان شابًّا قويًّا صحيحا ليس له مال فعليه أن يؤجّر نفسه بأكله أو عقبه (١) حتى يقضى حجّه . فقال له مقاتل : كلّف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو أن لأحدهم ميراثا بمكة أكان تاركَه ؟ ! بل ينطلق إليه ولو حبوًا ، كذلك يجب عليه الحج . واحتج هؤلاء بقوله عز وجل : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (٢) » أى مُشاةً . قالوا : ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعيان ، فوجب ألا يكون الزاد من شروط وجوبها ولا الراحلة كالصلاة والصيام . قالوا : ولو صح حديث الخُوزِيّ الزاد والراحلة لحملناه على عموم الناس والغالبُ منهم فى الأقطار البعيدة . وخروج مطلق الكلام على غالب الأحوال كثيرٌ فى الشريعة وفى كلام العرب وأشعارها . وقد روى آبن وهب وآبن القاسم وأشهب عن مالك أنه سئل عن هذه الآية فقال : الناس فى ذلك

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل ولعل المراد الولد ينتفع بأجر عمله . فليتأمل . وفى البحر لأبى حيان : « ... بأكله حتى ... » . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٧ .

على قدر طاقتهم ويُسرهم وجَلَدهم. قال أشهبُ لمالِك: أهو الزاد والراحلة؟. قال: لا والله، ما ذاك إلا على قدر طاقة الناس، وقد يجد الزادَ والراحلة ولا يقدر على السير، وآخر يقدر أن يمشي على رجليه.

الخامســة — إذا وُجدت الأستطاعة وتوجّه فرضُ الحج فقد يعرض ما يمنع منه كالغريم يمنعه عن الخروج حتى يؤدّىَ الدَّين؛ ولا خلاف فى ذلك. أو يكون له عِيَال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكوِّن لهم نفقتهم مدّةَ غيبته لذهابه ورجوعه، لأن هـذا الإنفاق فرض على الفَوْر، والحجّ فرضٌ على التّراخى، فكان تقديم العيال أَوْلى. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "كَفَى بالمرء إثما أن يُضيِّع من يقوت". وكذلك الأَبَوان يخاف الضيعةَ عليهما وعَدَم العوض فى التلطّف بهما، فلا سبيل له إلى الحج؛ فإن مَنَعاه لأجل الشّوق والوَحْشة فلا يُلتفت إليه. والمرأة يمنعها زوجها، وقيل لا يمنعها. والصحيح المنع؛ لاسيما إذا قلنا إن الحج لا يلزم على الفَوْر. والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غالبه السلامة — كما تقدّم بيانه فى البقرة[(1)] — ويعلم من نفسه أنه لا يَمِيد[(2)]. فإن كان الغالب عليه العَطَب أو المَيْد حتى يعطل الصلاة فلا. وإن كان لا يجد موضعا لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك: إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه. ثم قال: أيركب حيث لا يُصلِّى! ويْلٌ لمن ترك الصلاة!. ويسقط الحج إذا كان فى الطريق عدوّ يطلب الأنفس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدّد بحدّ مخصوص أو يتحدّد بقدر مُجحِف. وفى سقوطه بغير المُجْحف خلاف. وقال الشافعيّ: لا يعطى حبة ويسقط فرض الحج. ويجب على المتسوّل إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه. وقيل لا يجب، على ما تقدّم من مراعاة الأستطاعة.

السادســة — إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من النّاضّ[(3)] ما يحجّ به وعنده عُروض فيلزمه أن يبيع من عُروضه للحج ما يُباع عليه فى الدَّيْن. وسئل ابن القاسم عن الرجل تكون له القرْية

(1) راجع ج ٢ ص ١٩٥

(2) المائد: الذى يركب البحر فتغثى نفسه من نتن ماء البحر حتى يدار به ويكاد يغشى عليه.

(3) الناض: الدراهم والدنانير.

ليس له غيرُها ، أيبيعها في حجة الإسلام ويترك ولده ولا شيء لهم يعيشون به ؟ . قال : نعم ، ذلك عليه ويترك ولده في الصدقة . والصحيح القول الأول ؛ لقوله عليه السلام : "كفى بالمرء إثمًا أن يُضيّع من يقوت" وهو قول الشافعي . والظاهر من مذهبه أنه لا يلزم الحج إلا من له ما يكفيه من النفقة ذاهبا وراجعا — قاله في الإملاء — وإن لم يكن له أهل وعيال . وقال بعضهم : لا يعتبر الرجوع لأنه ليس عليه كبير مشقة في تركه القيام ببلده ؛ لأنه لا أهل له فيه ولا عيال وكلُّ البلاد له وطن . والأول أصوب ؛ لأن الإنسان يستوحش لفراق وطنه كما يستوحش لفراق سكنه . ألا ترى أن البكر إذا زنا جُلد وغُرّب عن بلده سواء كان له أهل أو لم يكن . قال الشافعي في الأمّ : إذا كان له مسكن وخادم وله نفقة أهله بقدر غيبته يلزمه الحج . وظاهر هذا أنه آعتبر أن يكون مال الحج فاضلا عن الخادم والمسكن ؛ لأنه قدّمه على نفقة أهله ، فكأنه قال : بعد هذا كله . وقال أصحابه : يلزمه أن يبيع المسكن والخادم ويَكْتَرِى مسكنا وخادما لأهله ، فإن كان له بضاعة يتّجر بها وربحها قدر كفايته وكفاية عياله على الدوام ، ومتى أنفق من أصل البضاعة آختلّ عليه ربحها ولم يكن فيه قدر كفايته ، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لا ؟ قولان : الأول للجمهور وهو الصحيح المشهور ؛ لأنه لا خلاف في أنه لو كان له عقار تكفيه غلّته لزمه أن يبيع أصل العَقار في الحج ، فكذلك البضاعة . وقال آبن سُريج : لا يلزمه ذلك ويُبقى البضاعة ولا يحج من أصلها ؛ لأن الحج إنما يجب عليه في الفاضل من كفايته . فهذا الكلام في الآستطاعة بالبدن والمال .

السابعة — المريض والمَعْضُوب ، والعَضْب القطع ، ومنه سُمِّي السيف عَضْبًا ، وكأن من آنتهى إلى ألّا يقدر أن يستمسك على الراحلة ولا يثبت عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه ؛ إذ لا يقدر على شيء . وقد آختلف العلماء في حكمهما بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج ؛ لأن الحج إنما فرضه الله على المستطيع إجماعا ، والمريض والمعضوب لا آستطاعة لهما . فقال مالك : إذا كان معضُوبًا سقط عنه فرض الحج أصلا ، سواء كان قادرا على من يحجّ عنه بالمال أو بغير المال لا يلزمه فرض الحج . ولو وجب عليه الحج ثم عُضِب وزَمِن سقط عنه فرض الحج ؛

ولا يجوز أن يُحَجّ عنه فى حال حياته بحال، بل إن أوصى أن يُحَجّ عنه بعد موته حُجّ عنه من الثلث، وكان تطوّعا؛ وآحتج بقوله تعالى : «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»(١) فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى . فمن قال : إنه له سَعى غيره فقد خالف ظاهر الآية . وبقوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهذا غير مستطيع؛ لأن الحج هو قصد المكلّف البيتَ بنفسه، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع العجز عنها كالصلاة . وروى محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل ليُدخل بالحجّة الواحدة ثلاثةً الجنةَ الميّتَ والحاجّ عنه والمنفِذَ ذلك". خرّجه الطبرانى أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو بن(٢) حصين السَّدوسى قال حدّثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر، فذكره .

قلت : أبو معشر آسمه نَجيح وهو ضعيف عندهم . وقال الشافعىّ : فى المريض الزَّمِن والمعضوب والشيخ الكبير يكون قادرا على من يطيعه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطيع آستطاعةً مّا . وهو على وجهين: أحدهما أن يكون قادرا على مال يستأجر به من يَحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج؛ وهذا قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، رُوى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يَحجّ : جهِّز رجلا يحجّ عنك . و إلى هذا ذهب الثّورى وأبو حنيفة وأصحابه وآبن المبارك وأحمد و إسحاق . والثانى أن يكون قادرا على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحجّ عنه، فهذا أيضا يلزمه الحج [عنه](٣) عند الشافعىّ وأحمد وآبن راهْوَيه، وقال أبو حنيفة : لا يلزم الحج ببذل الطاعة بحال. آستدل الشافعىّ بما رواه آبن عباس أن آمرأة من خَثْعم سألتِ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله، إن فريضة الله على عباده فى الحجّ أدركت أبى شيخاً كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحجّ عنه؟ قال :"نعم". وذلك فى حجّة الوَدَاع . فى رواية : لا يستطيع أن يستوىَ على ظهر بعيره . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "فحُجِّى عنه أرأيتِ لو كان على أبيك دَيْنٌ أكنتِ قاضيتَه"؟ قالت نعم . قال : "فدَيْن الله أحقّ أن يقضى" . فأوجب النبىّ صلى الله عليه وسلم الحج بطاعة آبنته إياه و بذلها من نفسها له بأن تحجّ عنه؛ فإذا وجب ذلك

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٢　　(٢) فى ب : عمر بن حفص .　　(٣) فى د .

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المـال الذى يستأجر به أولى . فأما إن بذل له المـال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والحج به عن نفســه ولا يصير ببذل المـال له مستطيعا . وقال علماؤنا : حديث الخثعمية ليس مقصودهُ الإيجابَ و إنمـا مقصوده الحثّ على بِرّ الوالدين والنظر فى مصالحهما دُنْيا ودينًا وجلب المنفعة إليهما جِبِلّة وشرعا؛ فلما رأى من المرأة آنفعالا وطواعية ظاهرة ورغبةً صادقة فى بِرها بأبيها وحرصًا على إيصال الخير والثواب إليــه، وتأسّفت أن تفوته بركة الحج أجابها إلى ذلك . كما قال للأخرى التى قالت : إن أمّى نذرت أن تحــجّ فلم تحجّ حتى ماتت أفأحجّ عنها ؟ قال : " حُجّى عنها أرأيتِ لو كان على أمّك دَين أكنتِ قاضيتَــه " ؟ قالت نعم . ففى هــذا ما يدل على أنه من باب التطوّعات وإيصــال البرّ والخيرات للأموات ؛ ألَا ترى أنه قد شــبّه فعلَ الحج بالدَّين . و بالإجمــاع لو مات ميّت وعليه دَين لم يجب على وَلِيّه قضــاؤه من ماله ، فإن تطوع بذلك تأدّى الدَّين عنه . ومن الدليل على أن الحج فى هــذا الحديث ليس بفرض على أبيهـا ماصرّحت به هــذه المرأة بقولها «لا يستطيع» ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهذا تصريح بنفى الوجوب ومنع الفريضة ؛ فلا يجوز ما آنتفى فى أوّل الحديث قطعا أن يثبت فى آخره ظَنًّا ؛ يحقّقه قوله : " فدَين الله أحقّ أن يقضى " فإنه ليس على ظاهره إجماعا ؛ فإن دَين العبد أولى بالقضاء ، و به يبدأ إجماعا لفقر الآدميّ وآستغناء الله تعالى ؛ قاله آبن العربيّ . وذكر أبو عمر بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوصٌ بها . وقال آخرون : فيه آضطراب . وقال آبن وهب وأبو مصعب : هو فى حق الولد خاصّةً . وقال آبن حبيب : جاءت الرخصة فى الحج عن الكبير الذى لا مُنهض له ولم يحج وعمن مات ولم يحج ، أن يحج عنه ولده و إن لم يوُص به و يجزئه إن شاء الله تعالى . فهذا الكلام على المعضوب وشبهه . وحديثُ الخثعمية أخرجه الأئمة ، وهو يرد على الحسن قولَه : إنه لا يجوز حجّ المرأة عن الرجل .

الثامنــة ــ وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلَّف قوت يتزوّده فى الطريق لم يلزمه الحج . وإن وهب له أجنبى مالًا يحجّ به لم يلزمه قبوله إجماعا ؛ لمـا يلحقه من المِنّة فى ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه مالًا فقد قال الشافعيّ : يلزمه قبوله ؛ لأن آبن الرجل من كسبه ولا مِنّة عليه

فى ذلك . وقال مالك وأبو حنيفة : لا يلزمه قبوله ؛ لأن فيه سقوط حرمة الأبوة ؛ إذ يقال : قد جزاه وقد وفاه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا . وقال الحسن البصري وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . وروى الترمذي عن الحارث عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله يقول فى كتابه وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ". قال أبو عيسى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث يضعف » . وروى نحوه عن أبى أمامة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وعن عبد خير بن يزيد (١) عن علي بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته : " يأيها الناس إن الله فرض عليكم الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء إن شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر ألا نصيب له فى شفاعتى ولا ورود حوضى ". وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحل فيه الزكاة فلم يزكه سأل عند الموت الرجعة " . فقيل يا ابن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين . فقال : أنا أقرأ عليكم به قرآنا « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ (٢) مِنَ الصَّالِحِينَ » . قال الحسن بن صالح فى تفسيره : فأزكى وأحج . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجو ثوابا أو جلس لا يخاف عقابا فقد كفر به " . وروى قتادة عن الحسن قال قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

---

(١) كذا فى ب و ج و د . وهو الخيوانى الهمدانى ، وفى ح و أ و ز ، عبد الله بن جبير ، ولا يصح لأن عبد خير هو الذى يروى عن على كما فى ابن سعد ج ٦ ص ١٥٤ (٢) راجع ج ١٨ ص ١٢٩

قلت: هذا خرج مخرج التغليظ؛ ولهذا قال علماؤنا: تضمّنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجّه عليه، ولا يجزئ أن يحجّ عنه غيره؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد. والله أعلم. وقال سعيد بن جُبير: لو مات جارٌ لى وله مَيْسرة ولم يحج لم أصلّ عليه.

قوله تعالى: قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى تصرفون عن دين الله ﴿مَنْ آمَنَ﴾. وقرأ الحسن «تُصِدون» بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان: صَدّ وأَصدّ؛ مثل صَلّ اللحمُ وأَصَلّ إذا أَنْتن، وخَمّ وأَخَمّ أيضا إذا تغير. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلبون لها، فحذف اللام؛ مثل «وَإِذَا كَالُوهُمْ»[(١)]. يقال: بغيت له كذا أى طلبته. وأبغيته كذا أى أعنته. والعِوَج: المَيْل والزَّيغ (بكسر العين) فى الدِّين والقول والعمل وما خرج عن طريق الاستواء. و(بالفتح) فى الحائط والجدار وكل شخص قائم؛ عن أبى عبيدة وغيره. ومعنى قوله تعالى: «يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ»[(٢)] أى لا يقدرون أن يَعُوجُوا[(٣)] عن دعائه. وعاج بالمكان وعوّج أقام ووقف. والعائج الواقف؛ قال الشاعر:

هــلَ انتم عائجـون بنـا لَعَنّا[(٤)] * نرى العَرَصاتِ[(٥)] أو أَثَرَ الخيـام

والرجل الأعوج: السّيء الخلق، وهو بيِّن العَوَج. والعُوج من الخيل التى فى أرجلها تحنيب[(٦)]. والأعوجيّة من الخيل تُنسب إلى فرس كان فى الجاهلية سابقا. ويقال: فرس مُحنَّب إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فَحَج، وهو مدحٌ. ويقال: الحَنَب اعوجاجٌ فى السّاقين. قال الخليل التّحنيب يوصف فى الشدّة، وليس ذلك باعوجاج.

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٨ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ (٣) فى حـ و أ: لا يقدرون بالا يعوجوا عن مكانه. (٤) لعنا: لغة فى لعل. (٥) العرصة: كل بقعة بين الدور ليس فيها بناء. وعرصة الدار: وسطها. (٦) التحنيب: احديداب فى وظيفى الفرس أيضا.

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ أى عقلاء . وقيل : شهداء أنّ فى التوراة مكتوبا أن دِين الله الذى لا يُقبل غيرُه الإسلام، إذ فيه (١) نعتُ محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

نزلت فى يهودىّ أراد تجديد الفتنة بين الأَوْس والخَزْرَج بعد انقطاعها بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، فجلس بينهم وأنشدهم شِعْرًا قاله أحدُ الحَيَّين فى حربهم . فقال الحَىّ الآخر : قد قال شاعرنا فى يوم كذا وكذا، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء ، فقالوا : تعالَوْا نردّ الحربَ جَذَعَاً كما كانت . فنادى هؤلاء : يا آلَ أوْس . ونادى هؤلاء . يا آل خَزْرج؛ فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية؛ فجاء النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى وقف بين الصّفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنْصتوا له وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السّلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون ؛ عن عكرمة وابن زيد وابن عباس . والذى فعل ذلك شاس بن قيس اليهودىّ، دَسّ على الأوس والخزرج من يذكّرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أتاهم وذكّرهم، فعرف القوم أنها نَزْغَةٌ من الشيطان ، وكَيْدٌ من عدوّهم؛ فألقوا السلاح من أيديهم و بكوا وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم سامعين مُطيعين ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى الأوس والخزرج . ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعنى شاسًا وأصحابه . ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ قال جابر بن عبد الله : ما كان طَالِعٌ أكرَه إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأومأ إلينا بيده فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتُ يوما أقبح ولا أوْحَش أولاً وأحسَن آخرًا من ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

(١) فى د و ب : وأن فيه .

قاله تعالى على جهة التعجب[1] ، أى ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم . قال ٱبن عباس : كان بين الأَوْس والخَزْرَج قتالٌ وشرٌّ فى الجاهليـة، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيوف ؛ فَأُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فذُكر ذلك له فذهب إليهم ؛ فنزلت هذه الآية « وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ — إلى قوله تعالى : فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ويدخل فى هذه الآية مَن لم يَرَ النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن مافيهم من سُنّته يقوم مقام رؤيته . قال الزّجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصةً ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه . ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذى أوتىَ فِينا مكانَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فِينا وإن لم نشاهده . وقال قَتادة : فى هذه الآية عَلَمان بيِّنان : كتابُ الله ونبىّ الله ؛ فأما نبىّ الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً ؛ فيه حلالُه وحرامُه ، وطاعته ومعصيته . ﴿وكيفَ﴾ فى موضع نصب ، وفتحت الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين ، وٱختير لها الفتح لأن ما قبل الفـاء ياء فثَقُل أن يجمعوا بين ياء وكسرة . قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ﴾ أى يمتنع ويتمسّك بدينه وطاعته . ﴿ فَقَدْ هُدِىَ ﴾ وُفِّق وأرشـد ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . ٱبن جُرَيج « يعتصم بِاللهِ » يؤمن به . وقيل : المعنى ومن يعتصم بِالله أى يتمسّك بحبل الله ، وهو القرآن . يقال : أعصم به وٱعتصم ، وتمسّـك وٱستمسك إذا ٱمتنع به من غيره . وٱعتصمت فلانا هيّأتُ له ما يَعتصِم به . وكل متمسِّك بشىء مُعصِم ومُعتصِم . وكل مانع شيئا فهو عاصم ؛ قال الفرزدق :

أنا ٱبن العاصمينَ بَنِى تميم * إذا ما أَعْظَمُ الحَــدَثانِ نَابا

قال النابغــة :

يَظَلّ من خوفه المـلّاح معتصِمًا * بالخَيْزُرانة بعـد الأَيْنِ والنَّجَدِ[2]

(١) كذا فى ب و ز و ح . أى التعجيب والإنكار كما فى الكشاف .

(٢) الخيزرانة : السكان ، وهو ذنب السفينة . والأين : الفترة والأعياء ، والنجد (بالتحريك) : العـرق من عمل أو كرب أو غيره .

وقال آخر[(١)]:

فأَشرطَ فيها نفسه وهو مُعصِمٌ * وألقى بأسباب له وتوكّلا

وعصمه الطعامَ : منع الجوعَ منه ؛ تقول العرب : عَصَ[م فلانا] الطعامُ أى منعه من الجوع ؛ فكَنّوا السّويق بأبى عاصم لذلك . قال أحمد بن يحيى : العرب تُسمّى الخبز عاصما وجابرا ؛ وأنشد[(٢)] :

فلا تلوميني ولُومِى جابرًا * فجابرٌ كلّفنِى الهواجِرَا

ويُسمونه عامرا . وانشد :

أبو مالك يعتادنِى بالظّهائر * يجىء فيُلقى رحلَه عند عامِرِ

أبو مالك كنية الجوع .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

فيه مسألة واحدة :

روى البخارى عن مُرة[(٣)] عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حقّ تقاته أن يطاع فلا يُعصَى وأن يُذكَر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفر". وقال آبن عباس : هو ألا يُعصَى طَرْفة عَيْن . وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله، من يَقْوَى على هذا؟ وشقّ عليهم فأنزل الله عز وجل «فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ»[(٤)] فنسخت هذه الآيةَ ؛ عن قَتادة والرّبيع وآبن زيد . قال مقاتل : وليس فى آل عمران من المنسوخ شىء إلا هذه الآية . وقيل : إن قوله « فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ » بيانٌ لهذه الآية . والمعنى : فآتقوا الله حق تُقاته ما آستطعتم، وهذا أصوب[(٥)]؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أوْلَى . وقد روى علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال: قول الله عز وجل « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » لم تُنسخ، ولكن «حقّ تُقاته» أن يُجاهد فى [سبيل][(٦)] الله حق

(١) هو أوس بن حجر . وفى الديوان : فأشرط فيه رأسه ... وألقى بأسباب ...
(٢) من د . وفى ج : عصمه .
(٣) فى ز، و ح : النحاس، عن مرة عن يحيى عن عبد الله .
(٤) راجع ج ١٨ ص ١٤٤
(٥) فى ز : هذا ضرب أصوب .
(٦) فى د .

جهاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم (١). قال النحاس : وكلما ذكر في الآية واجبٌ على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ. وقد مضى في البقرة معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٣)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا ﴾ العصمة المَنَعة؛ ومنه يقال للبَذْرَقة : عِصْمةٌ. والبذرقة : الخَفَارة للقافلة، وذلك بأن يرسل معها من يحميها ممن يؤذيها. قال ابن خالويه : البذرقة ليست بعربية وإنما هي كلمة فارسية عرّبتها العرب؛ يقال : بعث السلطان بذرقة مع القافلة.

والحَبْل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبَبُ الذي يوصل به إلى البغية والحاجة. والحبل : حبل العاتق (٣). والحبل : مستطيل من الرمل؛ ومنه الحديث (٤) : والله ماتركتُ من حبل إلا وقفتُ عليه، فهل لي من حجّ؛ والحبل الرَّسَن. والحبل العهد؛ قال الأعشى :

وإذا تُجَوِّزها حِبالُ قبيلةٍ * أخذتْ من الأُخْرَى إليك حِبالَها

يريد الأمان. والحبل الداهية؛ قال كُثَيّر (٥) :

فلا تعجَلِي يا عَزّ أن تتفهّمِي * بنُصح أتى الواشُون أم بِحُبُولِ

(١) في د : قاله. (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ (٣) حبل العاتق : وصل ما بين العاتق والمنكب.
(٤) حديث عروة بن مضرس : أتيتك من جبلي طيء. (٥) في الأصول : «لبيد». والتصويب عن اللسان وشرح القاموس مادة « حبل ».

والحَبالة(١) : حِبالة الصّائد. وكلها ليس مرادا فى الآية إلا الذى بمعنى العهد؛ عن آبن عباس. وقال آبن مسعود : حبل الله القرآن . ورواه علىّ وأبو سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك . وأبو معاوية عن الهجرى(٢) عن أبى الأحوص عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن هو حبل الله " . وروى تقىّ بن مخلد حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم عن العوّام بن حوشب عن الشعبىّ عن عبد الله بن مسعود « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » قال : الجماعة ؛ روى عنه و[عن غيره](٣) من وجوه، والمعنى كله متقارب مُتَداخل ؛ فإن الله(٤) تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفُرْقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة . ورحم الله آبن المبارك حيث قال :

إن الجماعة حَبْلُ الله فآعتَصِموا * منه بعُرْوَته الوُثْقى لمن دَانا

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ ولا تفرّقوا ﴾ [يعنى فى دينكم](٥) كما آفترقت اليهود والنصارى فى أديانهم ؛ عن آبن مسعود وغيره. ويجوز أن يكون معناه ولا تفرّقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة ، وكونوا فى دين الله إخوانا ؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر ؛ ودل عليه مابعده وهو قوله تعالى : « وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » . وليس فيه دليل على تحريم الآختلاف فى الفروع ؛ فإن ذلك ليس آختلافا إذ الآختلاف مايتعذر معه الآئتلاف والجمع ، وأما حكم مسائل الآجتهاد فإن الآختلاف فيها بسبب(٦) آستخراج الفرائض ودقائق معانى الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متآلفون(٧). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آختلاف أمتى رحمة " وإنما منع الله آختلافا هو سبب الفساد . روى الترمذىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة أو آثنتين وسبعين فِرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة " . قال الترمذى : هذا حديث صحيح . وأخرجه أيضا عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليأتين على أمتى ما أتى

---

(١) فى جـ : حبال ، والتصويب من د ، واللسان وغيره . (٢) الهجرى : بهاء وجيم مفتوحتين ، نسبة إلى هجر . وهو إبراهيم بن مسلم العبدى . (عن تهذيب التهذيب) . (٣) الزيادة فى ب . (٤) ود : فإن كتاب الله . (٥) الزيادة فى د . (٦) فى د : سبب لآستخراج . (٧) فى د : متواصلون .

على بنى إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتى أمه علانية لكان من أمتى من يصنع ذلك وإن بنى إسرائيل تفرّقت آثنتين وسبعين مِلّة وتفترق أمّتى على ثلاث وسبعين مِلة كلهم فى النار إلا مِلة واحدة" قالوا : من هى يا رسول الله؟ قال : "ما أنا عليه وأصحابى". أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفريقى، عن عبد الله بن يزيد عن آبن عمر، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه / قال أبو عمر : وعبد الله الأفريقى ثِقة وثقه قومه وأثنوا عليه، وضعّفه آخرون . وأخرجه أبو داود فى سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "قال ألا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب آفترقوا على آثنتين وسبعين مِلّة وإن هـذه المِلة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النـار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة وإنه سيخرج من أمتى أقوامٌ تجارى بهم تلك الأهْواء كما يتجارى الكَلَبُ(١) بصاحبه لا يَبْقَى منه عِرقٌ ولا مِفصَـلٌ إلا دخله " . وفى سنن آبن ماجه عن أنس آبن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض " . قال أنس : وهو دِين الله الذى جاءت به الرسـل وبلّغوه عن ربهم قبل هَرج الأحاديث وآختلاف الأهْوَاء، وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما نزل، يقول الله : « فَإِنْ تَابُوا » قال : خلعوا الأوثان وعبادتها «وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ»(٢) ، وقال فى آية أخرى : « فإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ»(٢) . أخرجه عن نصر بن على الجَهْضَمِىّ عن أبى أحمـد عن أبى جعفر الرازىّ عن الربيع بن أنس عن أنس . قال أبو الفرج الجَوْزىّ : فإن قيل هـذه الفِرقَ معروفة؛ فالجواب أنا نعرف الآفتراق وأصول الفِرق وأن كل طائفة من الفِرق آنقسمت إلى فِرَق، وإن لم نُحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها، فقد ظهر لنا من أصول الفِرق الحَرُورِيّة والقَدَرِية والجَهْمِية والمُرجِئة والرافِضَة والجَبْرية . وقال بعض أهل العلم : أصل الفرق الضّالة هذه الفرق السّتّ، وقد آنقسمت كل فرقة منها آثنتى عشرة فرقة، فصارت آثنتين وسبعين فرقة .

(١) الكلب (بالتحريك) : داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب فيصيبه شبه الجنون، فلا يعض أحدا إلا كلِب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا . (٢) راجع جـ٨ ص ٧٤، وص ٨٠

انقسمت الحَرُورِيّة اثنتى عشرة فرقة، فأولهم الأَزْرَقِيَّةُ[(١)] — قالوا : لا نعلم أحدا مؤمنا ؛ وكفّروا أهل القِبْلة إلّا مَن دان بقولهم . والأباضية — قالوا : من أخذ بقولنا فهو مؤمن ، ومن أعرض عنه فهو منافق . والثعلبيّة[(٢)] — قالوا : إن الله عز وجل لم يقض ولم يُقَدِّر . والخازِميّة — قالوا : لا ندرى ما الإيمان ، والخلق كلهم معذورون . والخلَفِيّة — زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر أو أنثى كفر . والكوزية[(٣)] — قالوا : ليس لأحد أن يمسّ أحدا لأنه لا يعرف الطاهر من النّجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب و يغتسل . والكَنْزِيّة — قالوا : لا يسع أحدا أن يُعطى ماله أحدا ؛ لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكنزه فى الأرض حتى يظهر أهل الحق . والشّمراخِيّة[(٤)] — قالوا : لا بأس بمسّ النساء الأجانب لأنهن رياحين . والأخْنَسية — قالوا : لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر . والحكمِيّة — قالوا : مَن حاكم إلى مخلوق فهو كافر . والمعتزلة[(٥)] — قالوا : اشتبه علينا أمر علىّ ومعاوية فنحن نتبرّأ من الفريقين . والميمونية — قالوا : لا إمام إلا برضا أهل محبتنا .

وانقسمت القَدَرية اثنتى عشرة فرقة : الأحمرية — وهى التى زعمت أن فى شرط العدل من الله أن يملك عباده أمورهم، ويحول بينهم و بين معاصيهم . والثَّنَوِيّة — وهى التى زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان . والمعتزلة[(٥)] — وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا [صفات][(٦)] الرّبوبيّة . والكَيْسانية — وهم الذين قالوا : لا ندرى هذه الأفعال من الله أو من العباد ، ولا نعلم أيثاب الناس بعدُ أو يعاقبون . والشيطانية — قالوا : إن الله تعالى لم يخلق الشيطان . والشّريكية — قالوا : إن السيئات كلها مقدرة إلا الكفر . والوَهْمِيّة — قالوا : ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات ، ولا للحسنة والسيئة ذات . والزِّبْرِيّة[(٧)] — قالوا : كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق ، ناسخا كان أو منسوخا . والمسعديّة[(٨)] — زعموا

(١) لم نعثر فى المظان لذكر بعض من الفرق الآتية .
(٢) الأباضية يقولون : من دان لله بما بلغ إليه من الإسلام وعمل به ، فهو ناج ما لم يهدم ركنا من الدين أو يرتطم فى التخطية ، وليسوا حرورية . (٣) فى ج و ا : « الكروية » براء وواو وفى ز : الكدرية .
(٤) فى الأصول : لأنهم . (٥) كذا فى الأصول : كلها وليس فى غير القدرية معتزلة .
(٦) الزيادة فى : ز . (٧) فى ب و د و و : الزبوندية . (٨) فى د و ب و و : المتبرية .

أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته والناكثية — زعموا أن من نكث بيعة رسـول الله صلى الله عليه وسلم فلا إثم عليـه . والقاسطية — تبعوا إبراهيم بن النظام فى قوله : من زعم أن الله شيء فهـو كافر . وانقسمت الجَهمية اثنتى عشرة فرقـة (١) : المعطّلة — زعمـوا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق ، وأن من ادّعى أن الله يُرى فهو كافر . والمريسية قالوا : أكثر صفات الله تعالى مخلوقة . والملتزِقة — جعلوا البـارى سبحانه فى كل مكان . والوَارِدِيّة — قالوا لا يدخل النار من عرف ربه ، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا . والزنادقة (٢) — قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربا ؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس ، وما لا يُدرك لا يثبت . والحرقيّة — زعمـوا أن الكافر تحرقه النار مرّة واحدة ثم يبقى محترقا أبدا لا يجد حرّ النار . والمخلوقية — زعموا أن القرآن مخلوق . والفانيـة — زعموا أن الجنة والنار يفنيان ، ومنهم من قال لم يُخلقا . والعبدية (٣) — جحدوا الرسل وقالوا إنمـا هم حكماء . والواقفية — قالوا : لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق . والقبْرية — ينكرون عذاب القبر والشفاعة . واللفْظية — قالوا : لفظنا بالقرآن مخلوق .

وانقسمت المرجئـة اثنتى عشرة فرقة : التّارِكيّة — قالوا ليس لله عز وجل على خلقـه فريضـة سوى الإيمـان به ، فمن آمن به فليفعل ما شاء . والسّائبيّة — قالوا : إن الله تعالى سيّب خلقه ليفعلوا ما شاءوا . والراجية — قالوا : لا يُسمّى الطائع طائعا ولا العاصى عاصيا ، لأنّا لا ندرى ما له عنـد الله تعـالى . والسّالبيّة (٤) — قالـوا : الطاعة ليست من الإيمـان . والبهيشية (٥) — قالوا : الإيمـان علمٌ ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر . والعمليّة — قالوا : الإيمان عمل . والمنقوصيّة — قالوا : الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمستثنية — قالوا : الاستثناء من الإيمـان . والمشبِّهة — قالوا : بصرٌ كبصرٍ ويدٌ كيدٍ (٦) . والحشوية — قالوا (٧) : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ فعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض . والظاهرية — الذين نفوا القياس . والبِدْعية — أول من ابتدع هذه الأحداث فى هذه الأمة .

(١) فى أ : ليس بكافر . (٢) فى ب ، و ، د : « الزيارقة » (٣) فى ب ، د ، و : « العبرية » .
(٤) فى د : الشاكية . (٥) فى ب ، و ، ز : « البيهسية » وفى د : « البيسمية » .
(٦) كذا فى الأصول ، وفيه سقط واضح لعله : قالوا لله بصر . (٧) فى ب : جعلوا .

وانقسمت الرافضة اثنتى عشرة فرقة : العــلوية ــ قالوا : إن الرسالة كانت إلى علىّ وإن جبريل أخطأ . والأمرِيّة ــ قالوا : إن عليًّا شريك محمد فى أمره . والشِّيعة ــ قالوا : إن عليًّا رضى الله عنه وصىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووَلِيُّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعــة غيره . والإسحاقية ــ قالوا : إن النبوّة متصــلة إلى يوم القيامة، وكلّ من يعلم علم أهــل البيت فهو نبىّ . والناوُوسيّة ــ قالوا : علىّ أفضــل الأمة، فمن فضّل غيره عليــه فقد كفر . والإمامية ــ قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين ، وإن الإمام يعلّمه جبريل عليــه السلام ، فإذا مات بدّل غيره مكانه . والزيدية ــ قالوا : ولد الحسين كلهم أئمة فى الصلوات ، فمتى وُجد منهم أحد لم تجز الصلاةُ خلف غيرهم، برّهم وفاجرهم . والعباسية ــ زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره . والتناسخية ــ قالوا : الأرواح تتناسخ ؛ فمن كان محسنًا خرجت روحه فدخلت فى خلق يسعد بعيشه . والرِّجعية ــ زعموا أن عليًّا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، وينتقمون من أعدائهم . واللّاعِنة[(١)] ــ يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم . والمتربّصة ــ تشبهوا بزىّ النُّسّاك ونصبوا فى كل عصر رجلا ينسُبون إليه الأمر، يزعمون أنه مَهدِىُّ هذه الأمة، فإذا مات نصبوا آخر .

ثم انقسمت الجَبْرية اثنتى عشرة فرقة : فمنهم المضطرية[(٢)] ــ قالوا : لا فعل للآدمىّ، بل الله يفعل الكل . والأفعالية ــ قالوا : لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها، وإنمــا نحن كالبهائم نقاد بالحبل . والمفروغية ــ قالوا : كل الأشياء قد خُلقت، والآن لا يُخلق شىء . والنجارية ــ زعمت أن الله تعالى يعذّب الناس على فعله لا على فعلهم . والمنّانيّة ــ قالوا : عليك بما يخطر بقلبك ، فافعل ما توسّمت منه الخير . والكَسْبية ــ قالوا : لا يكتسب العبد ثوابا ولا عقابا . والسّابقية ــ قالوا : من شاء فليعمل ومن شاء [فـ]ـلا يعمل[(٣)]، فإن السعيد لا تضرّه ذنوبه والشّقى لا ينفعه برّه . والحِبِّية ــ قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان . والخوفية ــ قالوا : من أحبّ الله تعالى لم يسعه أن يخافــه ؛ لأن الحبيب لا يخاف حبيبه . والفكريّة[(٤)] ــ قالوا : من ازداد علما أسقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

---

(١) فى د : اللاعنية . (٢) كذا فى ب ، وفى الأصول الأخرى المضطربة . (٣) كذا فى د ، وفى غيرها من الأصول : من شاء فليفعل ومن شاء لم يفعل . (٤) فى ب ، هـ ، د ، و ، وفى ز ، حـ ، أ : الفركية ، وفى جـ : النكرية . وفى د : أسقط . وفى سائر الأصول سقط .

والحشبية[1] ــ قالوا : الدنيا بين العباد سواء ، لا تفاضُل بينهم فيما ورَّثهـم أبوهم آدم .
والمنيه[2] ــ قالوا : منا الفعل ولنا الاستطاعة . وسيأتى بيان الفرقة التى زادت فى هذه الأمة فى آخر سورة «الأنعام»[3] إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس لسماك الحنفى : يا حنفى ، الجماعةَ الجماعةَ ! ! فإنمـا هلكت الأمم الخاليـة لتفرقها ؛ أما سمعت الله عز وجل يقول : «وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا[4] ويكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المـال » . فأوجب تعالى علينـا التمسك بكتابه وسـنة نبيه والرجوع إليهما عنـد الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسـنة اعتقادا وعملا ؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذى يتم به مصالح الدنيـا والدين ، والسلامة من الاختلاف ، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذى حصل لأهل الكتابين . هذا معنى الآية على التمام ، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور فى موضعه من أصول الفقه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ . أمر تعـالى بتذكر نعمه وأعظمها الإسلام واتباع نبيه محمد عليه السلام ؛ فإن به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبـة والألفـة . والمراد الأوس والخزرج ؛ والآية تعم . ومعنى « فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا » أى صرتم بنعمة الإسلام إخوانا فى الدين . وكل ما فى القرآن « أصبحتم » معناه صرتم ؛ كقوله تعالى : « إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا[5] » أى صار غائرا . والإخوان جمع أخ ، وسُمى أخا لأنه يتوخى مذهبَ أخيه ، أى يقصده . وشَفا كلِّ شيء حرفُه ؛ وكذلك شفيره ومنه قوله تعالى : « على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ[6] » . قال الراجز :

نحن حفرنا للحجيج سَجْلَهْ[7] * نابتة فوق شِفاها بَقْـلَهْ

(١) فى ج وز : «الحشية» بالحاء المهملة ، وفى ب الخشبية . وفى ا : « الحيشية » بالياء المثناة من تحت والشين . وفى د : الحسبية . (٢) فى ب وهـ و د وز : «المعية» بالعين. (٣) راجع : ج٧ص١٤١
(٤) سقط من النسخ : « وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٢
(٦) راجع جـ ٨ ص ٢٦٤ (٧) السجلة : الدلو الضخمة المملوءة ماء . والمراد هنا البئر .

وأشـفى على الشيء أشرف عليـه ؛ ومنه أشفى المريض على الموت . وما بقى منـه إلا شَفًا أى قليـل . قال ٱبن السِّكِّيت : يقال للرجل عنـد موته وللقمر عند ٱمّحاقه وللشمس عنـد غروبها : ما بقى منه إلا شفًا أى قليل . قال العجاج :

ومَرْبَإٍ عالٍ لمن تشرّفا * أشرفتُه بلا شـفًى أو بشَفى .

قوله « بلا شفى » أى غابت الشمس . «أو بشفى» وقد بقيت منها بقيّة . وهو من ذوات اليـاء، وفيه لغة أنه من الواو . وقال النحاس : الأصل فى شفا شَفَو، ولهذا يكتب بالألف ولا يمال . وقال الأخفش : لمّـا لم تجُز فيـه الإمالة عُرف أنه من الواو ؛ ولأن الإمالة بين الياء، وتثنيته شفوان . قال المَهْدَوِىّ : وهذا تمثيل يراد به خروجُهم من الكفر إلى الإيمان.

قوله تعـالى : وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

قد مضى القولُ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى هذه السورة (١) . و «مِن» فى قوله « مِنكم » للتبعيض ، ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل النـاس علماء . وقيل : لبيان الجنس ، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك .

قلت : القول الأوّل أصح؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله : «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ (٢)» الآية . وليس كل الناس مُكِّنُوا . وقرأ ٱبن الزبير : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ اللهَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ» . قال أبو بكر الأنبارى : وهذه الزيادة تفسير من ٱبن الزبير، وكلام من كلامه غَلِط فيه بعض النّاقلين (٣) فألحقه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أَصِفُ الحديثُ الذى حدّثنيه أبى حدّثنا [حسن (٤)] بن عرفة حدّثنا وكيع عن أبى عاصم عن أبى عون (٤) عن صبيح قال : سمعت عثمان بن عفّان يقرأ « ويأمرون بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عن المنكرِ ويستعينون الله على ما أصابهم » فمـا يشكّ عاقل فى أن عثمان لا يعتقـد (٥)

(١) راجع ص ٤٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٧٢ (٣) فى هـ : الغافلين .
(٤) فى ب ، د ، هـ وفيها : أبى عوف . (٥) فى ب ، د ، هـ : لا يعتد .

هذه الزيادة من القرآن، إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين، وإنما ذكرها واعظا بها ومؤكدا ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾

يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة. وقال أبو أمامة: هم الحَرُورِيّة؛ وتلا الآية. وقال جابر بن عبد الله: ﴿الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ اليهود والنصارى. «جاءهم» مذكر على الجمع، وجاءتهم على الجماعة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوهُ المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودّة. ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسناته استبشر وابيضّ وجهُه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته اسودّ وجهه. ويقال: إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته ابيضّ وجهه، وإذا رجحت سيئاته اسودّ وجهه. ويقال: ذلك عند قوله تعالى: «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ»[1]. ويقال: إذا كان يوم القيامة يُؤمر كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا انتهوا إليه حزنوا واسودّت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون؛ فيقول الله تعالى للمؤمنين: «من ربكم»؟ فيقولون: ربنا الله عز وجل. فيقول لهم: «أتعرفونه إذا رأيتموه». فيقولون: سبحانه! إذا اعترف عرفناه[2]. فيرونه كما شاء الله.

(١) راجع جـ ١٥ ص ٤٦ (٢) هذه عبارة ابن الأثير، أي إذا وصف نفسه بصفة تحققه بها عرفناه. في ب: إذا عرّفناه عرفناه، وفي هـ: إذا عرفناه عرفنا. وفي د: إذا رأيناه عرفناه.

فيخر المؤمنون سُجَّدا لله تعالى ، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضا ، و يبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرون على السجود فيحزنوا وتسودّ وجوههم ؛ وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » . ويجوز « تِبْيَضّ وتِسْوَدّ » بكسر التائين ؛ لأنك تقول : ٱبيضت ، فتكسر التاء كما تكسر الألف ، وهي لغة تميم وبها قرأ يحيى بن وثاب . وقرأ الزهرى « يوم تبياض وتسوادّ » و يجوز كسر التاء أيضا ، و يجوز « يوم يبيض وجوه » بالياء على تذكير الجمع ، ويجوز « أجوه » مثل « أقتت » . وٱبيِضَاض الوجوه إشراقها بالنَّعيم . وٱسْوِدادها هو ما يرهقها من العذاب الأليم .

الثانيــة — وٱختلفوا في التعيين ؛ فقال ٱبن عباس : تبيضّ وجُوه أهلِ السنّة وتسودّ وجوه أهل البِدعة .

قلت : وقول ٱبن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الهروى أخو غسّان عن مالك بن أنس عن نافع عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » قال : "يعنى تبيض وجوه أهل السنة وتسودّ وجوه أهل البدعة" ذكره أبو بكر(١) أحمد بن على بن ثابت الخطيب . وقال فيه : منكر من حديث مالك . قال عطاء : تبيض وجوه المهاجرين والأنصار ، وتسودّ وجوه بني قريظة والنضير . وقال أبيّ بن كعب : الذين ٱسودّت وجوههم هم الكفار ، وقيل لهم : أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أُخرِجتم من ظهر آدم كالذّرّ . هذا ٱختيار الطبرى . الحسن : الآية في المنافقين . قتادة هى في المرتدّين . عِكرمة : هم قوم(٢) من أهل الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائهم مصدقين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بُعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : « أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » . وهو ٱختيار الزجاج . مالك بن أنس : هى في أهل الأهواء . أبو أمامة الباهلىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : هى في الحرورية . وفى خبر آخر أنه عليه السلام قال : « هى في القدرية » . روى الترمذىّ عن أبى غالب قال : رأى أبو أمامة رءوسا منصوبة على باب دمشق(٣) ، فقال

(١) كذا في د و ب و هـ وفي ز : أبو بكر محمد . (٢) في هـ و د : هؤلاء قوم .

(٣) في صحيح الترمذى : « على درج مسجد دمشق » ؛ في د و هـ : على برج دمشق .

أبو أُمَامة : كلابُ النـار شرُّ قتلى تحت أَديم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه — ثم قرأ — « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » إلى آخر الآية . قلت لأبى أمامة : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا — حتى عدّ سبعا — ماحدثتكموه . قال : هذا حديث حسن . وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى فرطكم[1] على الحوض من مرّ علىّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا لَيَرِدَنّ علىّ أقوام أعرِفهم و يعرِفونى ثم يحال بينى و بينهم". قال أبو حازم[2] : فسمعنى النُّعمان بن أبى عياش فقال : أهكذا سمعتَ من سهل بن سعد؟ فقلت نعم . فقال : أشهد على أبى سعيدٍ الخدرىّ لسمعته وهو يزيد فيها : " فأقول إنهم منّى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقا لمن غيّر بعدى " . وعن أبى هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرِد على الحوضَ يوم القيامة رهْطٌ من أصحابى فيُجْلَون عن الحَوْض فأقول يا ربِّ أصحابى فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعـدك إنهـم آرتدّوا على أدبارهم القهقرى " . والأحاديث فى هـذا المعنى كثيرة . فمن بدّل أو غيّر أو آبتدَعَ فى دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذَنْ به الله فهو من المطْرُودين عن الحوض المبتَعِدين منـه المسودّى الوُجُوه ، وأشدّهم طردا و إبعادا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم ؛ كالخوارج على آختلاف فِرَقها ، والرَّوافض على تَبايُن ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبـدِّلون ومبتدِعون ، وكذلك الظلمة المسرفون فى الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله و إذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخِفُّون بالمعاصى ، و جماعة أهل الزَّيْغ والأهْواء والبِـدَع ؛ كلٌّ يُخاف عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية ، والخبر كما بيّنا ، ولا يَخلُد فى النـار إلا كافر جاحِدٌ ليس فى قلبـه مثقالُ حبّةِ خرْدلٍ من إيمان . وقد قال آبن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهْواء من هو شرٌّ من أهل الأهواء . وكان يقول : تمـام الإخلاص تجنّب المعاصى .

---

(١) الفرط (بفتحتين) : الذى يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض .

(٢) أبو حازم هو سلمة بن دينار، أحد رجال سند هذا الحديث .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فيقال لهم ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يعنى يوم الميثاق حين قالوا بلى . و يقال: هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به . وقال أبوالعالية: هذا للمنافقين، يقال[(١)] : أكفرتم فى السر بعد[(٢)] إقراركم فى العلانية . وأجمع أهل العربية على أنه لا بدّ من الفاء فى جواب « أما » لأن المعنى فى قولك : « أما زيد فمنطلق، مهما يكن من شىء فزيد منطلق » . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ هؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده . ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى فى جنته ودار كرامته خالدون باقون . جعلنا الله منهم وجنّبنا طرق البِدَع والضّلالات ، ووفقنا لطريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات . آمين .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ ابتداء وخبر، يعنى القرآن . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يعنى نُنزل عليك جبريل فيقرؤها عليك . ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقال الزجاج : « تلك آيات الله » المذكورة حُجَجُ الله ودلائله . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ولكنها لما ٱنقضت صارت كأنها بَعُدَتْ فقيل « تلك » ، ويجوز أن تكون « آيات الله » بدلا من « تلك » ولا تكون نعتا ؛ لأن المبهم لا ينعت بالمضاف . ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى أنه لا يعذبهم بغير ذنب . ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال المهدوىّ : وجه ٱتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلما للعالمين، وصله بذكر ٱتّساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما فى السموات وما فى الأرض [فى قبضته ، وقيل : هو ٱبتداء كلام، بيّن لعباده أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض][(٣)] له حتى يسألوه و يعبدوه ولا يعبدوا غيره .

(١) فى د وب وه : يقول .	(٢) فى د وه وب : مع .	(٣) الزيادة من نسخ : د .

قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠)

قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى الترمذيّ عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: "أنتم تُتمّون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله» . وقال : هـذا حديث حسن . وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ٱبن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بَدْرا والحُدَيبيّة . وقال عمر بن الخطاب : من فعل فعلهم كان مثلهم . وقيل : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى الصالحين منهم وأهل الفضل . وهم الشهداء على الناس يوم القيامة؛ كما تقدّم فى البقرة (١) . وقال مجاهد : «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» على الشرائط المذكورة فى الآية . وقيـل : معناه [كُنتم] (٢) فى اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم مُذْ آمنتم خيرَ أُمّة . وقيل: جاء ذلك لتقدّم البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته . فالمعنى كنتم عند من تقدّمكم من أهـل الكتب خيرَ أمة . وقال الأخفش : يريد أهل أمّـة ، أى خير أهل دين ؛ وأنشد :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك رِيبـةً ... وهل يأثَمَنْ ذو أُمَّـةٍ وهو طائعُ (٣)

وقيل : هى كان التامّة ، والمعنى خُلِقتم ووُجِدتُم خيرَ أمّة . « فخير أمّة » حال . وقيل : كان زائدة ، والمعنى أنتم خير أمّة . وأنشد سيبويه :

* وجِيرانٍ لنـا كانوا كِرَامِ (٤) *

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٤ (٢) الزيادة فى د و ب . (٣) البيت للنابغة الذبيانى . أمة بالضم والكسر : ذو أمة : ذو دين وٱستقامة ، والأمة : النعمة . (٤) هذا عجز بيت للفرزدق . وصدره :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

ومثله قوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا »(١) . وقوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ »(٢) . وقال في موضع آخر : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ »(٢) . وروى سفيان عن مَيْسَرة الأشجعيّ عن أبي حازم عن أبي هريرة « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » قال : تجرون الناس بالسلاسل إلى الإسلام . قال النحاس : والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمة . وعلى قول مجاهد : كنتم خيرَ أمةٍ إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل : إنما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أَفْشَى . فقيل : هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "خير الناس قرني" أي الذين بعثت فيهم .

الثانية — وإذا ثبت بنَصِّ التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم ؛ فقد روى الأئمة من حديث عِمران بن حصين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". [الحديث](٣) وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدهم ؛ وإلى هذا ذهب معظم العلماء ، وأن من صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرّة في عمره أفضل ممن(٣) يأتي بعده ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل .

وذهب أبو عمر بن عبد البَرّ إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وأن قوله عليه السلام : "خير الناس قرني" ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول . وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهلِ الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود ؛ وقال لهم : ما تقولون في السارق والشارب والزاني . وقال مُواجهةً لمن هو في قرنه : "لا تسبوا أصحابي" . وقال لخالد ابن الوليد في عمّار : "لا تسب من هو خير منك" وروى أبو أُمَامة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي". وفي مسند أبي داود الطيالِسيّ عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أتدرون أي الخلق أفضل إيمانا" قلنا

(١) راجع ج ١١ ص ١٠١ (٢) راجع ج ٧ ص ٢٤٩ ، وص ٣٩٤
(٣) الزيادة من هـ ود وب . في د وب : من كل من يأتي .

الملائكة . قال : "وحق لهم بل غيرهم" قلنا الأنبياء . قال : "وحق لهم بل غيرهم" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "أفضل الخلق إيمـانا قوم فى أصـلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورقا فيعملون بمـا فيها فهم أفضل الخلق إيمـانا" . وروى صالح بن جبير عن أبى جُمُعَة قال : قلنا يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ قال: "نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتابا بين لوحين فيؤمنون بمـا فيه و يؤمنون بى ولم يرونى" . وقال أبو عمر : وأبو جمعـة له صحبة وآسمه حَبِيب بن سِـبَاع ، وصالح بن جبير من ثِقَات التابعـين . وروى أبو ثعلبة الخشنى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن أمامكم أياما الصّابر فيها على دينه كالقابض على الجَمْـر للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثل عمله" قيل : يا رسول الله ، منهم ؟ قال : "بل منكم" . قال أبو عمر : وهذه اللفظة « بل منكم » قد سكت عنها بعض المحدّثين فلم يذكرها . وقال عمـر بن الخطاب فى تأويل قوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" قال : من فعل مثل فعلكم كان مثلكم . ولا تعارض بين الأحاديث ، لأن الأوّل على الخصوص ، والله الموفّق .

وقد قيـل فى توجيه أحاديث هـذا الباب : إن قرنه إنمـا فُضِّل لأنهم كانوا غُرَبَاء فى إيمـانهم لكثرة الكفار وصـبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، و إن أواخر هـذه الأمة إذا أقاموا الدّين وتمسّكوا به وصـبروا على طاعة ربهـم فى حين ظهور الشر والفسق والهَرَج والمعاصى والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غُرَبَاء ، وزكت أعمالهم فى ذلك الوقت كما زكَتْ أعمال أوائلهم ، و[ممـا](١) يشهد لهذا قوله عليه السلام: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء" . ويشهد له أيضا حديث أبى ثعلبة ، ويشهد له أيضا قوله صلى الله عليه وسـلم : "أمّتى كالمطر لا يُدْرَى أوّلُه خيرٌ أم آخره" . ذكره أبو داود الطيالسىّ وأبو عيسى الترمذى ، ورواه هشام بن عبيد الله الرازى عن مالك عن الزهرى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل أمتى مثل المطر لا يُدْرَى أوّله خيرٌ أم آخره" . ذكره الدارقطنى فى مسند حديث مالك . قال أبو عمـر : هشام بن عبيد الله ثقةٌ لا يختلفون فى ذلك . وروى أن عمر ابن عبدالعزيز لمـا ولى الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله أن آكتب إلىّ بسيرة عمر بن الخطاب

(١) فى د وب وه .

لأعمل بها؛ فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمر، فأنت أفضل من عمر لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر . قال : وكتب إلى فقهاء زمانه ، فكلّهم كتب إليه بمثل قول سالم . وقد عارض بعض الجِلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : "خير الناس قرني" بقوله صلى الله عليه وسلم : "خير الناس من طال عمره وحَسُن عمله وشرّ الناس من طال عمره وساء عمله" . قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضى مع تَوَاتُر طرقها وحسنها التّسوية بين أوّلِ هذه الأمّة وآخرها . والمعنى فى ذلك ما تقدم ذكره من الإيمان والعمل الصالح فى الزمان الفاسد الذى يرفع فيه من أهل العلم والدين ، و يكثر فيه الفسق والهَرَج ، ويُذَلّ المؤمنُ ويُعَزّ الفاجر ويعود الدين غَرِيبا كما بدا غَرِيبا ويكون القائمُ فيه كالقابض على الجمر ، فيستوى حينئذ أوّل هذه الأمّة بآخرها فى فضل العمل إلا أهل بَدْر والحُدَيبية ، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصّواب[1] ، والله يؤتى فضله من يشاء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مدح لهذه الأمّة ما أقاموا ذلك وآتصفوا به . فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم آسم المدح ولحقهم آسم الذّمّ ، وكان ذلك سببا لهلاكهم . وقد تقدم الكلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أوّل السورة[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبيّ صلى الله عليه وسلم خيرٌ لهم، وأخبر أن منهم مؤمنا وفاسقا، وأن الفاسق أكثر .

قوله تعالى : لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ يعنى كذبهم وتحريفهم وبُهْتهم؛ لا أنه تكون لهم الغَلَبَة؛ عن الحسن وقتادة . فالآستثناء متّصل ، والمعنى لن يضروكم إلا ضرا يسيرا ؛ فوقع الأذى موقع المصدر . فالآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم آصطلام[3] إلا إيذاء بالبهت

(١) فى ز وب : الكتاب . (٢) راجع ص ٤٦ من هذا الجزء . (٣) الأصطلام : الآستئصال .

والتحريف ، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين . وقيــل : هو منقطع ، والمعــنى لن يضروكم ألبتة، لكن يؤذونكم بما يُسمّعونكم . قال مقاتل : إنّ رءوس اليهود : كعب وعدىّ والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وابن صوريا عمــدوا إلى مؤمنيهم : عبد الله بن ســلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم؛ فأنزل الله تعالى : « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى » يعنى باللسان، وتمّ الكلام . ثم قال : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ يعنى منهزمين ، وتم الكلام . ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ مستأنف ؛ فلذلك ثبتت فيه النون . وفى هذه الآية معجزة للنبىّ عليه السلام؛ لأن من قاتله من اليهود ولاه دبره .

قوله تعـالى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أى وُجِدوا ولُقُوا، وتمّ الكلام . وقد مضى فى البقرة (١) معنى ضربِ الذّلّة عليهم . ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ ﴾ آستثناء منقطع ليس من الأوّل . أى لكنهم يعتصمون بحبــل من الله . ﴿ وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ يعنى الذّمّة التى لهم . والنــاس : محمدٌ والمؤمنــون يؤدّون إليهــم الخَراج فيؤمّنونهم . وفى الكلام

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠

آختصار، والمعنى : إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، فحذف ؛ قاله الفرّاء . ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أى رجعوا . وقيل آحتملوا . وأصله فى اللغة أنه لزمهم ؛ وقد مضى فى البقرة (١) . ثم أخبر لِمَ فعل ذلك بهم ؛ فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وقد مضى فى البقرة مستوفى (٢) . ثم أخبر فقال : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ وتم الكلام . والمعنى: ليس أهل الكتاب وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم سواء ؛ عن آبن مسعود . وقيل : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء . وذكر أبو خَيْثَمة زُهَيْر بن حَرْب حدّثنا هاشم بن القاسم حدّثنا شيبان عن عاصم عن زر عن آبن مسعود قال : أخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليلة] (٣) صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: " إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيركم" قال : وأنزلت هذه الآية « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ — إلى قوله : وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » وروى آبن وهب مثله . وقال آبن عباس : قول الله عز وجل «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ » من آمن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال آبن إسحاق عن آبن عباس لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سَعْيَة (٤) ، وأَسيد (٥) بن سعية ، وأسيد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود ؛ فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام ورسخوا (٦) فيه ، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ؛ فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهم : « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . إلى قوله : وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » . وقال الأخفش : التقدير من أهل الكتاب ذو أمّة ، أى ذو طريقة حسنة . وأنشد :

* وهل يَأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهْوَ طَائِعُ *

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٠ وص ٤٣٠ (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣١ (٣) الزيادة فى د .
(٤) سعية : بالسين والعين المهملتين وياء بآثنتين . (٥) فى الأستيعاب فى ترجمة أسيد هذا : «رواه يونس ابن بكير عن آبن إسحاق (أَسِيد) بفتح الهمزة وكسر السين ، وكذلك قال الواقدى . وفى رواية إبراهيم آبن سعد عن آبن إسحاق (أُسيد) بالضم . والفتح عندهم أصح » . (٦) فى د وب : نجحوا فيه .

وقيـل : فى الكلام حذف ؛ والتقدير من أهـل الكتاب أمّة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى ؛ كقول أبى ذؤيب :

عصانى إليهـا القلبُ إنّى لأمرِهِ (١) * مُطيعٌ فما أدرى أرُشْـدٌ طِلابُها

أراد : أرُشْد أم غَىٌّ ، فحذف . قال الفرّاء : «أمّة» رفع بـ«سواء»، والتقدير: ليس يستوى أمّة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمّة كافرة . قال النحاس : هذا قول خطأ من جهات : إحداها أنه يرفع « أمّة » بـ«سواء» فلا يعود على اسم ليس بشىء، ويرفع بما ليس جاريا على الفعل ويضمر ما لا يحتاج إليه ؛ لأنه قد تقدّم ذكر الكافر فليس لإضمار هـذا وجه . وقال أبو عبيدة : هذا مثل قولهم : أكلونى البراغيثُ ، وذهبوا أصحابُك . قال النحاس : وهـذا غلط ؛ لأنه قد تقدّم ذكرهم ، وأكلونى البراغيث لم يتقدّم لهم ذكر . و ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته . واحدها إِنًى وأَنًى وإِنْىٌ ، وهو منصوب على الظرف . و ﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ يصلون ؛ عن الفراء والزجاج ؛ لأن التـلاوة لا تكون فى الركوع والسّجود . نظيره قوله : « وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢) » أى يصلون . وفى الفرقان : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ (٣) » وفى النجم « فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَاعْبُدُوا (٤) » . وقيل : يراد به السجود المعـروف خاصة . وسبب النزول يردّه ، وأن المراد صـلاة العتمة كما ذكرنا عن ابن مسعود ؛ فعبدة الأوثان ناموا حيث جنّ عليهم الليل ، والموحِّدون قيام بين يدى الله تعالى فى صلاة العشاء يتلون آيات الله ؛ ألا ترى لمـا ذكر قيامهم قال «وَهُمْ يَسْجُدُونَ» أى مع القيام أيضا . الثورىّ : هى الصـلاة بين العشاءين . وقيل : هى فى قيام الليـل . وعن رجل من بنى شيبة كان يدرس الكتب قال: إنّا نجد كلاما من كلام الرب عز وجل : أيحسب راعى إبل أو راعى غنم إذا جنه الليل انخذل (٥) كمن هو قائم وساجد آناء الليل . ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ ﴾ يعنى يقرون بالله ويصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قيل : هو عموم . وقيل : يراد به الأمر باتباع النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ والنهى عن المنكر النهى عن مخالفتـه . ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ التى يعملونهـا مبادرين غير متثاقلين

---

(١) فى الأصول : * عصيت إليهـا القلب إنى لأمرها *
والتصويب عن ديوان أبى ذؤيب . يقول : عصانى القلب وذهب إليها فأنا أتبع ما يأمرنى به .
(٢) راجع جـ٧ص٣٥٦ (٣) راجع جـ١٣ص٦٤ (٤) راجع جـ١٧ص١٢١ (٥) انخذل : انفرد .

لمعرفتهم بقدر ثوابهم . وقيل : يبادرون(١) بالعمل قبل الفوت . ﴿ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى مع الصالحين ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الجنة . ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ قرأ الأعمش وآبن وثّاب وحمزة والكسائى وحفص وخلف بالياء فيهما؛ إخبارا عن الأمة القائمة ، وهى قراءة آبن عباس وآختيار أبى عبيد . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . وهى آختيار أبى حاتم ، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعا الياء والتاء . ومعنى الآية : وما تفعلوا من خير فلن تُجحدوا ثوابه بل يُشكَر لكم وتُجازون عليه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ آسم إن، والخبر ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ . قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم وهو قوله « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » . وقال الكلبي : جعل هذا آبتداء فقال : إن الذين كفروا لن تغنى عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئا . وخص الأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم . ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ آبتداء وخبر، وكذا و﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وقد تقدم جميع هذا .

قوله تعالى : مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ «ما» تصلح أن تكون مصدرية، وتصلح أن تكون بمعنى الذى والعائد محذوف، أى مثل ما ينفقونه . ومعنى « كَمَثَلِ رِيحٍ » كمثل مَهَبّ(٢) ريح . قال آبن عباس : والصِّرّ البرد الشديد . قيل : أصله من الصرير

(١) فى ب : مبادرين . (٢) فى ب د و ه : مهلك ريح .

الذى هو الصوت ، فهـو صوت الريح الشديدة . الزجاج : هو صوت لهب النار التى كانت فى تلك الريح . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة (١) . وفى الحديث : إنه نهى عن الجراد الذى قتله الصِّر (٢) . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشىء بعد ما كانوا يرجون فائدته (٣) ونفعه. قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بذلك ﴿ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى . وقيل : ظلموا أنفسهم بأن زرعوا فى غير وقت الزراعة أو فى غير موضعها فأدّبهم الله تعالى ؛ لوضعهم الشىء فى غير موضعه ؛ حكاه المَهْدَوِىّ .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١١٨)

فيه ست مسائل :

الأولى — أكّد الله تعالى الزَّجْر عن الرُّكون إلى الكفار . وهو متصل بما سبق من قوله : « إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . والبِطَانَةُ مصدر، يُسَمَّى به الواحد والجمع . وبِطَانَةُ الرجل خاصّتُه الذين يستبطنون أمره ، وأصله من البَطْن الذى هو خلاف الظَّهْر . وبَطن فلان بفلان يبْطُن بُطونا وبِطَانَةً إذا كان خاصّا به . قال الشاعر :

أولئــك خُلْصانى (٤) نَعَمْ وبِطَانَتِى * وهم عَيْبَتِى من دون كلّ قريب

الثانيــة — نهى الله عز وجل المؤمنين بهـذه الآية أن يتّخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهْوَاء دُخَلاءَ ووُلَجاء، يفاوضونهم فى الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم . ويقال : كل من كان على خلاف مَذْهبك ودينك فلا ينبغى لك أن تحادثه ؛ قال الشاعر :

عن المَرْء لا تَسْأَلْ وَسَلْ عن قَرِينِه * فكُلُّ (٥) قَرِينٍ بالمُقارِن يَقْتَدِى

(١) راجع جـ ٣ ص ٣١٩ (٢) الصر فى هذا الحديث : البرد . (٣) فى ب و هـ و د : عائدته .
(٤) فى هـ : خلصانى ، عيبتى : خاصتى وموضع سرى . (٥) فى د : فكم من قرين ؛ وفى هـ : فإن القرين .

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " المرء على دِين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " . وروى عن ٱبن مسعود أنه قال : ٱعتبروا النـاس بإخوانهم . ثم بيّن تعالى المعنى الذى لأجله نهى عن المواصلة فقال : ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يقول فسادا . يعنى لا يتركون الجهد فى فسادكم ، يعنى أنهم وإن لم يقاتلوكم فى الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد فى المكر والخديعة، على ما يأتى بيانه . وروى عن أبى أُمَامَة (١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» قال: " هم الخوارج" . ورُوى أن أبا موسى الأشعرى ٱستكتب ذِمّيا فكتب إليه عمر يعنّفه وتلا عليه هذه الآية . وقدِم أبو موسى الأشعرى على عمر رضى الله عنهما بحساب فرفعه إلى عمر فأعجبه ؛ وجاء عمر كتابٌ فقال لأبى موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد . فقال : لِمَ ! أجُنُبٌ هو ؟ قال : إنه نصرانى ؛ فٱنتهره وقال : لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله ، ولا تُكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تَأْمَنهم وقد خوّنهم الله . وعن عمر رضى الله عنه قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرُّشا (٢) ، وٱستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى . وقيل لعمر رضى الله عنه : إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ (٣) بطانة من دون المؤمنين . فلا يجوز ٱستكتاب أهل الذّمة ، ولا غير ذلك من تصرفاتهم فى البيع والشراء والٱستنابة إليهم .

قلت : وقد ٱنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بٱتخاذ أهل الكتاب كَتَبة وأُمناء وتَسوّدُوا بذلك عند الجَهلة الأغبياء من الوُلاة والأمراء . روى البخاريّ عن أبى سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " ما بعث الله من نبيّ ولا ٱستخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحُضّه عليـه و بطانة تأمره بالشر وتحضّه عليـه فالمعصوم من عَصَمَ الله تعالى (٤)" . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم غربيا " . فسّره الحسن بن أبى الحسن فقال: أراد عليه

(١) فى ب و د و ه : روى أبو امامة .　(٢) فى ا : الربا .　(٣) فى ب و د و ه : إذا ٱتخذ الخ .
(٤) الحديث كما فى النسخة الأميرية ، وسائر الأصول : بالخير ، بدل المعروف ، وفى جـ : تحثه عليه .

السلام لا تستشيروا المشركين فى شىء من أموركم، ولا تنقشوا فى خواتيمكم محمدا . قال الحسن : وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » الآية .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِكُمْ ﴾ (١) أى من سواكم . قال الفرّاء : « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ (٢) » أى سوى ذلك . وقيل : « مِن دونكم » يعنى فى السير وحسن المذهب . ومعنى « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا » لا يقصِّرون فيما فيه الفسادُ عليكم . وهو فى موضع الصفة لـ« بِطَانَةً من دُونِكُمْ » . يقال : لا آلُو جهدا أى لا أقصِّر . وأَلَوْتُ أُلُوًّا قصرت ؛ قال امرؤ القيس :

وما المرءُ ما دامتْ حُشاشَةُ نفسِه * بمُدْرِكِ أطرافِ الخُطُوبِ ولا آلِ

والخَبَال : الخَبْل . والخَبْـل : الفساد ؛ وقد يكون ذلك فى الأفعال والأبدان والعقـول . وفى الحديث : "من أُصيب بدَمٍ أو خَبْل" أى جُرح يُفسد العضو . والخَبْل : فساد الأعضاء ، ورجلٌ خَبِلٌ ومُخْتَبَلٌ ، وخَبَله الحبُّ أى أفسده . قال أوْسٌ :

أبنِى لُبَيْنَى لستُم بيَـدٍ * إلَّا يدًا مَخْبولَةَ العَضُدِ (٣)

أى فاسدة العضد . وأنشد الفرّاء :

نَظَـرَ ابنُ سـعدٍ نظرةً وَبَّتْ بها (٤) * كانت لِصُحْبِـك والمطِىِّ خَبالَا

أى فساد . وانتصب « خَبَالًا » بالمفعول الثانى ؛ لأن الأَلْو يتعدّى إلى مفعولين ، وإن شئت على المصدر ، أى يخبلونكم خبالا : وإن شئت بنزع الخافض ، أى بالخبال ؛ كما قالوا : أوجعته ضربا : « وما » فى قوله : ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ مصدرية ، أى وَدّوا عنتكم . أى ما يشق عليكم . والعنت المشقّة ، وقد مضى فى « البقرة » (٥) معناه .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعنى ظهرت العـداوة والتكذيب لكم من أفواههم . والبغضاء : البغض ، وهو ضدّ الحُبّ . والبغضاء مصدر مؤنث . وخصّ تعالى الأفواه بالذِّكر دون الألسنة إشارةً إلى تَشدُّقهم وثَرْثَرتهم فى أقوالهم هذه ، فهم

(١) فى ب و د و هـ : يعنى . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٢ . (٣) الذى فى ديوانه :
* إلا يدا ليست لها عضد * (٤) الوب : التهيؤ للحملة فى الحرب . (٥) راجع جـ ٣ ص ٦٦

فوق المتستر الذى تبـدو البغضاء فى عينيه . ومن هـذا المعنى نهيه عليه السـلام أن يشتحى(١) الرجل فاه فى عِرض أخيـه . معناه أن يفتح ؛ يقال : شحى الحمـار فاه بالنهيق ، وشحى الفمُ نفسه . وشحى اللِّجامُ فمَ الفرس شَحْياً ، وجاءت الخيل شَوَاحِىَ : فاتحاتٍ أفواهَها . ولا يفهم من هذا الحديث دليـلُ خطاب على الجواز فيأخذ أحدٌ فى عِرض أخيـه هَمْساً ؛ فإن ذلك يحرمُ باتفاق من العلماء . وفى التنزيل « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً(٢) » الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" . فذِكر الشَّحْو إنمـا هو إشارة إلى التشدّق والانبساط ، فاعلم .

الخامســـة — وفى هذه الآية دليل على أن شهادة العدوّ على عدوّه لا تجوز ، و بذلك قال أهل المدينة وأهل الحجـاز ؛ ورُوى عن أبى حنيفة جواز ذلك . وحكى ابن بَطّال عن ابن شعبان أنه قال : أجمع العلمـاء على أنه لا تجوز شهادة العدوّ على عدوّه فى شىء وإن كان عدلا ، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ إخبار و إعلام بأنهم يُبطنون من البغضاء أكثر ممـا يُظهِرون بأفواههم . وقرأ عبد الله بن مسعود : « قد بدأ البغضاءُ » بتذكير الفعل ؛ لمـا كانت البغضاء بمعنى البغض .

قوله تعـالى : هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين ؛ دليله قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنّـا » ؛ قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هنا بمعنى المصافاة ، أى أنتم أيهـا المسلمون تُصافونهم ولا يُصافونكم لنفاقهم . وقيـل : المعنى تريدون لهم الإسـلام وهم يريدون لكم الكفر . وقيل : المراد اليهود ؛ قاله الأكثر . والكتاب اسم جنس ؛ قال ابن عباس : يعنى

(١) فى هـ ورد : يشحى . وفى اللسان : شحا يشحو فاه فتحه ، وشحا يشحاه .   (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٣٤

بالكُتُب . واليهود يؤمنون بالبعض؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » (١) . ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ يعنى أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ والحنق عليكم؛ فيقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا وكثروا . والعَضّ عبارة عن شدّة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه؛ ومنه قول أبى طالب :

* يَعُضُّونَ غَيْظًا خَلْفَنَا بِالْأَنَامِلِ *

وقال آخر :

إذا رَأَونى ــ أطال الله غيظَهُم * عَضُّوا من الغَيْظ أطْرافَ الأباهِيم

يقال : عَضّ يَعُضّ عَضًّا وعَضِيضًا . والعُضّ (بضم العين) : عَلَف دَوابّ أهل الأمصار مثل الكُسْب والنَّوَى المَرْضُوخ؛ يقال منه : أعَضّ القوم، إذا أكلت إبلهم العض . وبعير عُضَاضِىٌّ ، أى سمين كأنه منسوب إليه . والعِضّ (بالكسر) : الداهى من الرجال والبليغ المكْر (٢) . وعَضّ الأنامل من فعل المُغْضَب الذى فاته ما لا يقدر عليه ، أو نزل به ما لا يقدر على تغييره . وهذا العَضّ هو بالأسنان كعَضّ اليد (٣) على فائت قريب الفوات . وكقرع السِّن النادمة ، إلى غير ذلك من عدّ الحصى والخَطّ فى الأرض للهموم . ويكتب هذا العض بالضاد الساقطة ، وعَظّ الزمان بالظاء المشالة ؛ كما قال :

وعَظُّ زمانٍ يابن مَرْوان لم يَدَعْ * من المال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ (٤)

وواحد الأنامل أنملة (بضم الميم) ويقال بفتحها، والضمّ أشهر . وكان أبو الجَوْزَاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الأباضِيّة (٥) . قال ابن عطية : وهذه الصفة قد تترتب فى كثير من أهل البدع (٦) إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشىء : كن فيكون . قيل عنه جوابان : أحدهما ــ قال فيه الطبرى وكثير

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (٢) فى ب وهـ وجـ : المنكر . (٣) فى ب ود وهـ : كعض اليد على اليد .
(٤) البيت للفرزدق . وفى النقائض : « وعض زمان » بالضاد وهذه الكلمة فى هذا المعنى تقال بالضاد وبالظاء كما فى القاموس . والمسحت : المستأصل . والمجلف : الذى بقيت منه بقية . ويروى : المجرف . (٥) الأباضية بريئون من ذلك ، وتفسير كلام الله ينزه عن مثل هذا التقوّل . (٦) فى ب وهـ ود : فى أهل البدع من الناس .

من المفسرين : هو دعاء عليهم . أى قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا . فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مُواجهةً وغيرَ مواجهة بخلاف اللَّعْنَة .

الثانى — أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون ، فإن الموت دون ذلك . فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقى معنى التقْرِيع والإغَاظَة . ويجرى[1] هذا المعنى مع قول مسافر آبن أبى عمرو :

ويتمنّى[2] فى أُرُومتنا * ونَفْقَأُ عينَ من حسدا

وينظر إلى هـذا المعنى قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ[3] » .

قوله تعالى : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

قوله تعالى : « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ » قرأ السُّلَمىّ بالياء والباقون بالتاء . واللفظ عام فى كل ما يحسُن ويسوء . وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب وآجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلة وليس بآختلاف . والمعنى فى الآية : أن من كانت هـذه صفته من شدّة العداوة والحِقد والفرح بنزول الشدائد على[4] المؤمنين ، لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة ، لا سيما فى هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذى هو مِلاك الدنيا والآخرة ؛ ولقد أحسن القائل فى قوله :

كلّ العداوةِ قد تُرجَى إفاقتُها * إلّا عداوة مَن عاداك مِنْ حسدِ

﴿ وإنْ تَصْبِرُوا ﴾ أى على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين . ﴿ وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ[5] كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ يقال : ضاره يَضُوره ويَضِيره ضَيْرا وضَوْرا ؛ فشرط تعالى نفى ضررهم بالصبر والتقوى ، فكان ذلك تسليةً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم .

---

(١) فى د : يجوز . (٢) فى هـ : وتمنى ، وفى آبن عطية ونبى ، وفى الأغانى : وزمزم من أرومتنا .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢١ . (٤) فى د وب وهـ : بالمؤمنين . (٥) قراءة نافع .

قلت[1] — قرأ الحَرميّان وأبو عمـرو « لَا يَضِرْكُمْ » من ضار يضير كما ذكرنا؛ ومنه قوله « لَا ضَيْرَ » ، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ لأنك لمـا حذفت الضمة من الراء بقيت الراء ساكنة والياء ساكنة فحذفت الياء ، وكانت أولى بالحذف ؛ لأن قبلها ما يدل عليها . وحكى الكسائيّ أنه سمـع « ضَارَه يَضُورُه » وأجاز « لا يَضُرْكُم » وزعم أن فى قراءة أُبَيّ بن كعب « لا يَضْرُرْكُم »[2] . [وقرأ الكوفيون : « لا يضرّكم » بضم الراء وتشديدها من ضَرّ يَضُرّ][3] . ويجوز أن يكون مرفوعا على تقدير إضمار الفاء؛ والمعنى : فلا يضركم ، ومنه قول الشاعر[4] :

* مَن يفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشْكُرُها *

هذا قول الكسائى والفرّاء ، أو يكون مرفوعا على نية التقديم؛ وأنشد سيبويه :

* إنك إن يُصرَعْ أخوك تُصرَعُ[5] *

أى لا يضرّكم أن تصبروا وتتقوا . ويجوز أن يكون مجزوما، وضمت الراء لالتقاء الساكنين على إتباع الضم . وكذلك قراءة من فتح الراء على أن الفعل مجزوم ، وفتح « يَضُرَّكم » لالتقاء الساكنين لخفّة الفتح ؛ رواه أبو زيد عن المفضّل عن عاصم ، حكاه المَهْدَوِيّ . وحكى النحاس : وزعم المفضل الضبيّ عن عاصم « لا يضُرِّكم » بكسر الراء لالتقاء الساكنين .

قوله تعـالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ العامل فى « إِذْ » فعل مضمر تقديره : واذكر إذ غدوت ، يعنى خرجت بالصـباح . ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ من منزلك من عند عائشة . ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ هذه غزوة أُحُد وفيها نزلت هذه الآية كلها . وقال مجـاهد والحسن ومقاتل والكلبى : هى غزوة الخَنْـدَق . وعن الحسن أيضا : يومَ بَدْر . والجمهور على أنها غزوة أُحُد ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » وهذا إنمـا كان يوم أُحُد، وكان المشركون قصدوا المدينة فى ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم

(١) كذا فى د ، وفى ب و ا : قراآت قرأ ، وفى ز و جـ : قرأ .

(٢) فى د وهـ : يضور والتصحيح من البحر قال : بفك الإدغام وهى لغة أهل الحجاز .

(٣) الزيادة من ب و د وهـ .

(٤) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه . وتمامه : * والشر بالشر عند الله سيان *

(٥) هذا عجز بيت لجرير بن عبدالله . وصدره : * يا أقرع بن حابس يا أقرع *

فى يوم بدر؛ فنزلوا عند أُحُد على شَفِير الوادى بقناة مقابل المدينة ، يوم الأربعاء الثانى عشر من شوّال سنة ثلاث من الهجرة ، على رأس أَحَد وثلاثين شهرا من الهجرة ، فأقاموا هنالك يوم الخميس والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه أن فى سيفه ثُلْمَة ، وأن بقراله تُذبح ، وأنه أدخل يده فى دِرع حصينة ؛ فتأوّلها أن نفرا من أصحابه يُقتلون ، وأن رجلاً من أهل بيته يصاب ، وأن الدّرع الحصينة المدينة . أخرجه مسلم . فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزاة . وأصل التبوّء اتخاذ المنزل ، بوّأته منزلا إذا أسكنته إياه ؛ ومنه قوله عليه السلام : "من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار" أى ليتخذ فيها منزلا . فمعنى « تبوّئ المؤمنين » تتخذ لهم مَصاف . وذكر البيهقى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت فيما يرى النائم كأنى مردِف كبشا وكأن ضَبّة سيفى انكسرت فأوّلت أنى أقتل كبش القوم وأوّلت كسر ضبّة سيفى قتل رجل من عِترتى" فقُتل حمزة وقَتل رسول الله صلى الله عليه وسلم طلحةَ ، وكان صاحب اللّواء . وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب : وكان حامل لواء المهاجرين رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا عاصم إن شاء الله لما معى ؛ فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد ابن عثمان اللخمىّ : هل لك يا عاصم فى المبارزة؟ قال نعم ؛ فبدره ذلك الرجل فضرب بالسيف على رأس طلحة حتى وقع السيف فى لحيته فقتله ؛ فكان قتل صاحب اللّواء(١) تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم "كأنى مردف كبشا" .

قوله تعالى : إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

العامل فى «إذ — تبوّئ» أو «سميع عليم» . والطائفتان : بنو سلمة من الخزرج ، و بنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى العسكر يوم أُحُد . ومعنى ﴿ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ أن تجبُنا . وفى البخارىّ عن جابر قال : فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة و بنو سلِمة ، وما نحب أنها لم تنزل ؛ لقول الله عز وجل : «وَاللهُ وَلِيُّهُمَا» . وقيل :

(١) فى ب و هـ و حـ و ز : صاحب لواء المشركين . ما أثبتناه من د .

هم بنو الحارث وبنـو الخزرج وبنو النبيت ، والنّبيت هو عمرو بن مالك من بنى الأوس .
والفشل عبارة عن الجبن؛ وكذلك هو فى اللغـة . والهمّ من الطائفتين كان بعد الخروج لما رجع عبد الله بن أُبَىّ بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا؛ فذلك قوله تعالى : «وَاللهُ وَلِيُّهُمَا» يعنى حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهمّ . وقيل : أرادوا التقاعد عن الخروج، وكان ذلك صغيرة منهم . وقيل : كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم فأطلع الله نبيه عليه السلام عليــه فآزدادوا بصيرة؛ ولم يكن ذلك الخورُ(١) مكتسبا لهم فعصمهم الله ، وذمّ بعضهم بعضا، ونهضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطَلّ على المشركين، وكان خروجه من المدينة فى ألف ، فرجع عنه عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول بثلاثمائة رجل مغاضباً(٢)؛ إذ خولف رأيه حين أشار بالقعود والقتال فى المدينة إن نهض إليهم العـدو، وكان رأيه وافَقَ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار ، وسيأتى .
ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فآستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة . قال مالك رحمه الله : قتل من المهاجرين يوم أُحُد أربعةٌ، ومن الأنصار سبعون رضى الله عنهم .
والمقاعِد : جمع مقعد وهو مكان القعود، [وهذا](٣) بمنزلة مَوَاقف، ولكن لفظ القعود دالّ على الثبوت؛ ولا سِيما أن الرّماة كانوا قعودا . هذا معنى حديث غزاة أحد على الآختصار، وسيأتى من تفصيلها ما فيه شِفاء . وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد، ولم يكن مع المسلمين يومئذ فرس . وفيها جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه وكُسرت رَباعِيته اليمنى السفلى بحجر وهُشِمت البَيْضَةُ(٤) من على رأسه صلى الله عليه وسلم ، وجزاه عن أمّته ودِينه بأفضل ما جزى به نبيًّا من أنبيائه على صبره . وكان الذى تَوَلّى ذلك من النبي صلى الله عليــه وسلم عمرو بن قَمِيئَة الليثى ، وعُتبــة بن أبى وَقّاص . وقد قيل : إن عبد الله بن شِهاب جدّ الفقيه محمــد بن مسلم بن شهاب هو الذى شَجّ رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى جبهته . قال الواقِدى : والثابتُ(٥) عندنا أن الذى رمى فى وجه(٦) النبي صلى الله عليــه وسلم آبن قميئة ، والذى

(١) كذا فى د ز وب . (٢) كذا فى د وب ر ه وجـ . (٣) من د وب وه .
(٤) البيضة : الخوذة ، وهى زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، وفى ب ود وه : هشمت البيضة رأسه . (٥) فى ب ود وه : الثبت . (٦) فى د وه وب : وجنتى النبي .

أدمى[1] شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص . قال الواقدي بإسناده عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحدا فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل [ذلك][1] يصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا . [وإن][2] رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع! خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله [فلم نخلص إلى ذلك][2] . وأكبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في حفرة، كان أبو عامر الراهب قد حفرها مكيدة للمسلمين، فخر عليه السلام على جنبه واحتضنه طلحة حتى قام، ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدم، وتشبثت[3] حلقتان من درع المغفر في وجهه صلى الله عليه وسلم فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما بثنيتيه فسقطتا، فكان أهتم يزينه هتمه رضي الله عنه . وفي هذه الغزاة قتل حمزة رضي الله عنه، قتله وحشي، وكان وحشي مملوكا لجبير بن مطعم . وقد كان جبير قال له : إن قتلت محمدا جعلنا لك أعنة الخيل، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة كلها سود الحدق، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حر . فقال وحشي : أما محمد فعليه حافظ من الله لا يخلص إليه أحد . وأما علي ما برز إليه أحد إلا قتله . وأما حمزة فرجل شجاع، وعسى أن أصادفه فأقتله . وكانت هند كلما تهيأ وحشي أو مرت به قالت : إيها أبا دسمة اشف واستشف . فكمن له خلف صخرة، وكان حمزة حمل على القوم من المشركين؛ فلما رجع من حملته ومر بوحشي زرقه بالمزراق فأصابه فسقط ميتا[4]، رحمه الله ورضي عنه . قال ابن إسحاق : فبقرت هند عن كبد حمزة فلاكتها ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر * والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر * ولا أخي وعمه وبكري

(١) في ب و د و هـ : رمى .
(٢) زيادة عن مغازي الواقدي .
(٣) في د : تشبت ، وفي هـ : نشبت .
(٤) كذا في د ، وفي ب و هـ و حـ : فسقط منها .

شـفيتُ نفسي وقضيتُ نَذْرِى * شفيتَ وَحْشِيُّ غليلَ صـدْرِى
فشكرُ وحْشِى علىّ عمْـرِى * حتى تَرِمّ أعْظُمِى فى قَـبْرِى

فأجابتها هِنْدُ بنت أُثاثة بن عبّاد بن عبد المطلب فقالت :

خَزِيتِ فى بَدْرٍ وبعــد بدر * يا بنت وَقّاعٍ عظـيم الكُفْرِ
صـبّحكِ اللهُ غَـداةَ الفجـرِ * مِلْهَاشِميِّين الطِّــوَال الزُّهْرِ
بكل قطّاعٍ حُسَـامٍ يَفْـرِى * حمــزةُ ليثِى وعلىٌّ صَـقْرِى
إذ رَامَ شَيْبُ(١) وأبوكِ غَـدْرِى * نَخَضَّبَا(٢) منـه ضَـوَاحِى النَّحْرِ
* ونَذْرِكِ السّوءَ فشرّ نَذْرِ *

وقال عبد الله بن رواحة يبكى حمزة رضى الله عنه :

بكت عينى وحقّ لهـا بُكاها * وما يغـنى البكاء ولا العَـوِيل
على أسَــدِ الإله غداة قالوا * أحَمْـزَةُ ذاكم الرّجل القتيـــل
أصيب المسـلمون به جميعـا * هناك ، وقد أصيب به الرّسول
أبا يَعْلَى لك الأركان هُـدّت * وأنت المـاجد الـبَرّ الوَصُول
عليك سـلام ربك فى جِنـانٍ * مخـالِطها نعـيم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيـارِ صـبرا * فكل فعـالكم حسن جميـــل
رسـول الله مصطبِر كـريم * بأمر الله ينطـق إذ يقـــول
ألا من مُبْلِـغ عنى لُؤَيًّا * فبعـــد اليـومِ دَائـلَةٌ تَدُول
وقبـل اليوم ما عرفوا وذاقوا * وقائعنا بهـا يُشْـفَى الغَلِيـــل
نَسِـيتُم ضربَنـا بِقَلِيبِ(٣) بَدْرٍ * غداةَ أتاكم الموتُ العَجِيـــل
غَـداةَ ثَوَى أبو جهل صريعًـا * عليــه الطَّيْرُ حَائِمَـةً تَجُـول
وعُتْبَـةُ وابْنُــه خَرَّا جميعـا * وشَيْبَةُ عَضّه السـيفُ الصَّقِيل

(١) أرادت شيبة بن ربيعة أخا عتبة بن ربيعة أبا هند . وقد رخم هنا فى غير النداء لضرورة الشعر .
(٢) فى د : مخضبا . (٣) القليب (بفتح أوله وكسر ثانيه) : البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى ، يذكر ويؤنث .

ومــترَكْنا أميَّــةَ مُجْلَعِبَّا (١) * وفى حَيْزُومه (٢) لَدْنٌ نبيــل
وهَامَ بني ربيعــة سائلوها * ففى أســيافنا منهـا فُلُول
ألا يا هِنْدُ لا تبـدى شَمَاتا * بحمزةَ إن عِزَّكُم ذَليـل
ألا يا هِنـدُ فابكى لا تَمَـلِّى * فأنتِ الوَالِه العَبْرَى الهَبُول (٣)

ورَثَتْه أيضا أختُه صفية، وذلك مذكور فى السيرة، رضى الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهى بيان التوكل . والتوكل فى اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير (٤) . ووَاكَل فلان إذا ضَيَّع أمرَه مُتَّكلا على غيره .

واختلف العلماء فى حقيقة التوكل؛ فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال : قالت فرقة الرضا بالضمان، وقطع الطَّمَع من المخلوقين . وقال قوم : التوكّل ترك الأسباب والركون إلى مُسبِّب الأسباب؛ فإذا شغله السبب عن المسبِّب زال عنه اسم التوكل . قال سَهْلٌ : من قال إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول : «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا (٥)» فالغنيمة اكتساب . وقال تعالى : «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (٦)» فهذا عمَلٌ . وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب العبد المحترف " . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْرِضون على السرية (٧) . وقال غيره : وهذا قول عامة الفقهاء، وأن التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لا بدّ منــه من الأسباب من مَطعم ومَشرب وتحـرّز من عدوّ وإعداد الأسلحة واستعمالِ ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة . وإلى هذا ذهب محققو الصوفية، لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب؛ فإنها لاتجلب نفعا ولا تدفع ضرا، بل السبب والمسبَّب فعل الله تعالى، والكل منه وبمشيئته؛ ومتى وقع من المتوكِّل ركونٌ إلى تلك الأســباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم . ثم المتوكلون على

(١) المجلعب : المصروع إما ميتا وإما صرعا شديدا . (٢) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام . واللدن : الرمح . (٣) الهبول من النساء : الثكول . (٤) فى ب و د : غيرك وفى ه : غيره .
(٥) راجع جـ ٨ ص ٥١ (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٧) السرية : طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة؛ سموا بذلك لأنهم تكون من خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السرى : النفيس .

حالين : الأول — حال المتمكن فى التوكل فلا يلتفت إلى شىء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر . الثانى — حال غير المتمكن وهو الذى يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحيانا غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ؛ فلا يزال كذلك إلى أن يرقيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ، ويلحقه بدرجات العارفين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ كانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان ، يوم جمعة لثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وبدر ماءٌ هنالك وبه سمى الموضع . وقال الشعبى : كان ذلك الماء لرجل من جُهَينة يسمى بدرا ، وبه سمى الموضع . والأول أكثر . وقال الواقدى وغيره : بدر آسم لموضع غير منقول . وسيأتى فى قصة بدر فى « الأنفال »(١) إن شاء الله تعالى . و﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ معناها قليلون ؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا . وكان عدوهم ما بين التسعمائة إلى الألف . و « أذلة » جمع ذليل . وآسم الذل فى هذا الموضع مستعار ، ولم يكونوا فى أنفسهم إلا أعزة ، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار فى أقطار الأرض تقتضى عند التأمل ذلتهم وأنهم يُغلبون . والنصر العون ؛ فنصرهم الله يوم بدر ، وقتل فيه صناديد المشركين ، وعلى ذلك اليوم آبتنى(٢) الإسلام ، وكان أول قتال قاتله النبى صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن بُريدة قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة ، قاتل فى ثمان منهن . وفيه عن آبن إسحاق قال : لقيت

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ فما بعد . (٢) فى ب ، ود : آبنى .

زيد بن أرقم فقلت له : كم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال تسع عشرة غزوة . فقلت : فكم غزوتَ أنت معه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال فقلت : فما أول غزوة غزاها؟ قال : ذات العُسَير أو العشير . وهذا كله مخالف لما عليه أهل التواريخ والسير. قال محمد بن سعد فى كتاب الطبقات له : إن غزواتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة، وسراياه ست وخمسون، وفى رواية ست وأربعون(١)، والتى قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بَدْر وأُحُد والمُرَيْسِيع والخَنْدَق وخَيْبَر وقُرَيْظَة والفتح وحُنَيْن والطائف. قال آبن سعد : هـذا الذى آجتمع لنا عليه . وفى بعض الروايات أنه قاتل فى بنى النضير وفى وادى القرى مُنصرفه من خَيْبَر وفى الغَابَة(٢) . وإذا تقرّر هـذا فنقول : زيد وبُريدة إنما أخبر كل واحد منهما بما فى علمه أو شاهده . وقول زيد : « إن أوّل غزاة غزاها ذات العسيرة » مخالف أيضا لما قال أهل التواريخ والسير . قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة العشيرة ثلاث غزوات ، يعنى غزاها بنفسه . وقال آبن عبد البر فى كتاب الدرر فى المغازى والسير. أوّل غزاةٍ غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة وَدّان(٣) غزاها بنفسه فى صَفَر ؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لآثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل، أقام بها بقيةَ ربيع الأوّل، وباقى العام كله إلى صفر من سنة آثنتين من الهجرة : ثم خرج فى صفر المذكور وآستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ وَدّان فوادع(٤) بنى ضَمْرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حَرْبا ، وهى المسماة بغزوة الأَبْوَاء . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خرج فيها وآستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بَوَاط(٥) من ناحية رَضْوَى(٦)، ثم رجع إلى المدينة

(١) الذى فى كتاب الطبقات لآبن سعد : « وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وأربعين سرية » .

(٢) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام . (٣) ودان (بفتح الواو وشد المهملة) : قرية جامعة من أمهات القرى من عمل الفرع . وقيل : واد فى الطريق يقطعه المصعدون من حجاج المدينة . (عن شرح المواهب) .

(٤) الموادعة : المصالحة . (٥) بواط (بفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره طاء مهملة) : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة . (٦) رضوى (بفتح الراء وسكون المعجمة مقصور) : جبل بالمدينة ، وهو على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حربا، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، ثم خرج غازيا وآستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وأخذ على طريق مِلْكٍ(١) إلى العُسَيْرة .

قلت : ذكرآبن إسحاق عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعلىّ بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة من بطن يَنْبُع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا فصالح بها بنى مُدْلِج وحلفاءَهم من بنى ضَمْرة فوادعهم؛ فقال لى على بن أبى طالب : هل لك أبا اليقظان أن تأتى هؤلاء ؟ نفر من بنى مُدْلج يعملون فى عين لهم ننظر كيف يعملون . فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة ثم غشِينا النوم فعمدنا إلى صور(٢) من النخل فى دَقْعَاء من الأرض فَنِمْنا فيه؛ فوالله ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمه؛ فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدقعاء فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى: "ما بالك يا أبا تراب"؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال: "ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين" قلنا : بلى يارسول الله؛ فقال : "أُحَيْمِر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علىّ على هذه — ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه — حتى يَبُلّ منها هذه" ووضع يده على لحيته . فقال أبو عمر: فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مُدْلج ثم رجع ولم يلق حربًا . ثم كانت بعد ذلك غزوة بدرٍ الأولى بأيام قلائل ، هذا الذى لا يشك فيه أهل التواريخ والسير، فزيد بن أرقم إنما أخبر عما عنده . والله أعلم . ويقال : ذات العسير بالسين والشين، ويزاد عليها هاء فيقال: العشيرة. ثم غزوة بدر الكبرى وهى أعظم المشاهد فضلا لمن شهدها، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيه والمؤمنين فى قول جماعة العلماء ، وعليه يدل ظاهر الآية ، لا فى يوم أُحُد . ومن قال : إن ذلك كان يوم أُحُد جعل قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » إلى قوله : «تَشْكُرُونَ» آعتراضا بين الكلامين . هذا قول عامر الشعبىّ ، وخالفه الناس . وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بَدر وقاتلت؛ ومن ذلك قول أبى أُسَيد مالكِ بنِ ربيعة وكان شهيد

---

(١) ملك (بالكسر ثم السكون والكاف) : واد بمكة .

(٢) الصور : جماعة النخل الصغار؛ لا واحد له من لفظه . الدقعاء : التراب .

بدر : لو كنتُ معكم الآن ببَدْر ومعى بصرى لأريتكم الشِّعْب[(١)] الذى خرجتْ منه الملائكةُ ، لا أشك ولا أمتَرِى . رواه عقيل عن الزُّهرِىّ عن أبى حازم سلمَة بن دينار . قال آبن أبى حاتم : لا يُعرف للزّهرىّ عن أبى حازم غيرُ هذا الحديث الواحد ، وأبو أُسَيد يقال إنه آخر من مات من أهل بدر ، ذكره أبو عمر فى الآستيعاب وغيره . وفى صحيح مسلم من حديث عمر آبن الخطاب قال : لما كان يومُ بَدْر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فآستقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مدّ يديْه فجعل يَهْتِف بربّه : "اللّهم أنجِز لى ما وعدْتَنِى اللّهم آتِ ما وعدْتَنِى اللّهم إن تَهْلك هذه العِصَابةُ من أهل الإسلام لا تُعبَدُ فى الأرض" فما زال يهتِف بربه مادّا يديْه مُستقبلَ القبلة حتى سقط رداؤُه عن مَنكِبَيْه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءَه فألقاه على منكِبَيْه ، ثم آلتزمه من ورائه وقال : يا نبىّ الله ، كفاك مناشَدَتُك ربَّك ، فإنه سيُنجِزُ لك ما وَعَدك ؛ فأنزل الله عز وجل : «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ[(٢)]» فأمدّه الله تعالى بالملائكة . قال أبو زُمَيْل[(٣)] : فحدّثنى آبن عباس قال : بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدّ فى أثر رجل من المشركين أمامَه إذ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقَه وصوتَ الفارس يقول : أَقْدِمْ حَيْزُومُ[(٤)] ؛ فنظر إلى المشرك أمامه خرّ مستلقيًا ، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفُه وشُقّ وجهُه [كضربة السوط[(٥)]] فآخضرّ ذلك أجمعُ . فجاء الأنصارىّ فحدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "صدقتَ ذلك من مَدَد السّماء الثالثة" فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر الحديث . وسيأتى تمامُه فى آخر «الأنفال[(٦)]» إن شاء الله تعالى . فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور ، والحمد لله . وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبْرِيلَ : "مَنِ القائلُ يوم بدر من الملائكة أقدِم حَيْزُوم" ؟ فقال جبريل : "يا محمد ما كل أهل السماء أعرِف" . وعن علىّ رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال : بينا أنا أمتَح[(٧)] من قَلِيب بَدْر جاءت ريحٌ شديدة لم أر مثلها قطّ ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التى كانت

---

(١) الشعب (بالكسر) : الطريق فى الجبل . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ (٣) أبو زميل (بالتصغير) هو سماك بن الوليد . (تهذيب التهذيب) . (٤) حيزوم : آسم فرس من خيل الملائكة . (٥) زيادة عن صحيح مسلم ، وآخضر : آسود . (٦) جـ ٨ ص ٤٨ (٧) متح : جذب الدلو من البئر مستقيا ، والماتح : المستقى .

قبلها . قال : وأظنه ذكر : ثم جاءت ريح شديدة ، فكانت الرّيح الأولى جبريل نزل فى ألف من الملائكة مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية مِيكَائيل نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إسْرَافيل نزل فى ألف من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى الميسرة . وعن سَهل بن حُنَيف رضى الله عنه قال : لقد رأيتُنا يوم بدْر وإنّ أحدَنا يُشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يَصل إليه . وعن الرّبيع بن أنس قال : كان الناس يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة ممّن قتلوهم بضربٍ فوقَ الأعناق وعلى البنَان مثل سِمَة النـار قد أُحرق به ؛ ذكر جميعه البَيْهَقِيّ رحمه الله . وقال بعضهم : إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة ؛ لأن كلّ موضع أصابتْ ضربتهم آشتعلت النار فى ذلك الموضع ، حتى إن أبا جهل قال لآبن مسعود : أنت قتلتَني؟ ! إنمـا قتلنى الذى لم يصل سِنَانى إلى سُنْبُك فرسه(١) و إن آجتهدتَ . و إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ؛ ولأنّ الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ؛ فكل عسكر صَبَر وآحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال آبن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكةُ إلا يوم بَدْر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنمـا يكونون عددا أو مددا . وقال بعضهم : إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة أنهم كانوا يَدْعُون ويسبّحون ، ويكثّرون(٢) الذين يقاتلون يومئذ ؛ فعلى هذا لم تقاتل الملائكةُ يوم بدر(٣) وإنما حضروا للدعاء بالتّثبيت ، والأول أكثر . قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدّهم الله بألف ثم صـاروا ثلاثةَ آلاف ، ثم صاروا خمسـة آلاف ؛ فذلك قوله تعـالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِـدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَـلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٤) » وقوله : « أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » وقوله : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » فصبرَ المؤمنون يوم بَدْر وآتقوا الله فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وَعَدَهم ؛ فهذا كله يوم بدر . وقال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءٌ(٥) للمؤمنين إلى يوم القيامة . قال الشعبيّ : بلغ النبيّ

(١) فى د : قدميه . وسنبك الدابة طرف حافرها . (٢) فى د وهـ و ب : والثواب للذين يقاتلون ...
(٣) فى هـ و د : إلا يوم بدر . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ . (٥) الردء : العون والناصر .

صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كُرْز بن جابر المُحارِبيّ يريد أن يُمِدّ المشركين فشق ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ ـــ إلى قوله : مُسَوِّمِينَ ﴾ فبلغ كُرْزا الهزيمةُ فلم يُمِدّهم ورجع ، فلم يمدهم الله أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مُدّوا بألف . وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، واتقوا محارمه أن يمدّهم أيضا فى حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا محارمه إلا فى يوم الأحزاب ، فأمدّهم[(1)] حين حاصروا قُرَيْظة . وقيل : إنما كان هـذا يوم أُحُد ، وعدهم الله المـدد إن صبروا ، فما صبروا فلم يُمِدّهم بملَك واحد ، ولو أُمِدّوا لما هُزِموا ؛ قاله عكرمة والضحاك . فإن قيل : فقد ثبت عن سعد بن أبى وقّاص أنه قال : رأيت عن يمين رسـول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يومَ بَدْر[(2)] رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشدّ القتال ، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ . قيل له : لعل هذا مختص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، خصّه بملكين يقاتلان عنه ، ولا يكون هذا إمدادا للصحابة . والله أعلم .

الثانيــة ـــ نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فلْيَعلَق القلب بالله ولْيَثِق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[(3)] . لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التى قد خلت من قبل ، « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا »[(4)] ، ولا يَقْدح ذلك فى التوكُّل . وهو ردّ على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت فى حق الضـعفاء لا للأقوياء ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء ؛ وهذا واضحٌ . و « مدّ » فى الشر و « أمدّ » فى الخير . وقد تقدّم فى البقرة[(5)] . وقرأ أبو حَيْوة « مُنْزِلِينَ » بكسر الزاى مخففا ، يعنى منزلين النصرَ . وقـرأ ابن عامر مشـدّدة الزاى مفتوحة على التكثير . ثم قال : ﴿ بَلَى ﴾ وتمّ الكلام . ﴿ إِنْ تَصْبِرُوا ﴾ شرط ، أى على لقاء العدو . ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ عطف عليه ، أى معصيته . والجواب ﴿ يُمْدِدْكُمْ ﴾ . ومعنى « مِنْ فَوْرِهِمْ » من وجههم . هذا عن عكرمة وقتادة والحسن

---

(١) فى جـ و ا : فأمدهم . والمثبت هو ما فى باقى الأصـول وهو التحقيق قال الألوسى : ولم يمدوا بها بناء على تعليق الإمداد بها بمجموع الأمور الثلاثة الخ .   (٢) فى ب و هـ : يوم أحد .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٦٠   (٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧   (٥) راجع جـ ١ ص ٢٠٩

والربيع والسدى وآبن زيد . وقيل : مِن غَضَبِهم؛ عن مجاهد والضحاك . كانوا قد غضبوا يوم أُحُد ليوم بَدْر مما لَقُوا . وأصل الفَوْر القصد إلى الشيء والأخذ فيه بِجِدّ؛ وهو من قولهم : فارتِ القِدْر تَفُور فَوْرًا وفَوَرَانًا إذا غَلَت . والفَوْر الغَلَيَان . وفارَ غضبه إذا جاش . وفعله من فَوْرِه أى قبل أن يسْكُن . والفَوّارة ما يَفُور من القِدر . وفى التنزيل « وفَارَ التَّنُّورُ »(١) . قال الشاعر :

* تَفُورُ علينا قِدْرُهُم فنُدِيمُها *

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مُسَوَّمِينَ ﴾ بفتح الواو آسم مفعول ، وهى قراءة آبن عامر وحمزة والكسائى ونافع . أى معلَّمين بعلامات . و« مُسَوِّمِين » بكسر الواو آسم فاعل ، وهى قراءة أبى عمرو وآبن كثير وعاصم ؛ فيحتمل من المعنى ما تقدّم ؛ أى قد أعلموا أنفسهم بِعلامة ، وأعلموا خَيْلَهم . ورجّح الطبرىّ وغيره هذه القراءة . وقال كثير من المفسرين : مُسَوِّمِين أى مُرسِلين خيلهم فى الغارة . وذكر المهدوىّ هذا المعنى فى « مُسَوَّمِين » بفتح الواو ، أى أرسلهم الله تعالى على الكفار . وقاله آبن فُورَك أيضا . وعلى القراءة الأولى آختلفوا فى سِيما الملائكة ؛ فرُوِى عن على بن أبى طالب وآبن عباس وغيرهما أن الملائكة آعتمّت بعمائم بِيض قد أرسلوها بين أكتافهم ؛ ذكره البيهقىّ عن آبن عباس ، وحكاه المهدوىّ عن الزجاج . إلا جبريل فإنه كان بعمامة صَفْراء على مِثال الزبير بن العوام ، وقاله آبن إسحاق . وقال الربيع : كانت سِيماهم أنهم كانوا على خَيْل بُلْق .

قلت : ذكر البيهقىّ عن سهيل بن عمرو رضى الله عنه قال : لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض معلَّمين يقتلون ويأسرون . فقوله : « معلمين » دل على أن الخيل البُلْق ليست السيما . والله أعلم . وقال مجاهد : كانت خيلهم مَجْزُوزة الأذناب والأعْرَاف معلَّمة النواصى والأذناب بالصُّوف والعِهْن(٢) . وروى عن آبن عباس : تسوَّمت الملائكة يوم بدر بالصُّوف الأبيض فى نَوَاصى الخيل وأذنابها . وقال عبّاد بن عبد الله بن الزبير وهِشام بن عُروة والكلبى : نزلت الملائكة فى سِيما الزُّبير عليهم عمائم صُفْر مُرْخَاة على أكتافهم . وقال ذلك عبد الله وعروة آبنا الزبير . وقال عبد الله : كانت ملاءة صفراء آعتمّ بها الزبير رضى الله عنه .

قلت : ودلت الآية —

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣ (٢) العهن : الصوف المصبوغ ألوانا .

وهى الرابعــة — على آتخاذ [الشارة و](١) العــلامة للقبائل والكتائب يجعلها السلطان لهم؛ لتتميز كل قبيلة وكتيبة من غيرها عند الحرب، وعلى فضل الخيل البُلْق لنزول الملائكة عليها .

قلت : — ولعلها نزلت عليها موافقة لفرس المِقْداد ، فإنه كان أبلق ولم يكن لهم فرس غيره، فنزلت الملائكة على الخيــل البُلْق إكراما للمقداد ؛ كما نزل جبريل مُعْتَجِرا(٢) بعمامة صفراء على مِثال الزبير . والله أعلم . ودلت الآية أيضا —

وهى الخامسة — على لِباس الصّوف وقد لَبِسه الأنبياء والصالحون . ورَوى أبو داود وآبن ماجه واللفظ له عن أبى بُرْدة عن أبيه قال قال لى أبى : لو شهدتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليــه وسلم إذا أصابتنا السماء لحسبت أن رِيحنا ريح الضّأن . ولبس صلى الله عليه وســلم جُبّة رُوميّة من صوفٍ ضَيِّقة الكُمّين ؛ رواه الأئمة . ولبسها يُونُس عليــه السلام ؛ رواه مسلم . وسيأتى لهذا المعنى مزيد بيان فى « النحل »(٣) إن شاء الله تعالى .

السادســـة — قلت : وأما ما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت مَجْزوزة الأذناب والأَعْراف فبعيدٌ؛ فإن فى مصنف أبى داود عن عُتْبة بن عبد السُّلمى أنه سمع رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : "لا تقُصّوا نواصى الخيل ولا معارفها ولا أذنابها فإن أذنابهــا مَذَابُّهــا ومعارفها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير" . فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة . والله أعلم .

ودلّت الآية على حُسْن الأبيض والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك ، وقد قال آبن عباس : من لبس نَعلا أصْفَر قضيت حاجته . وقال عليه السلام : "آلبَسوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكفّنوا فيه موتاكم وأما العمائم فتيجان العرب ولباسها" . ورَوى رُكَانة — وكان صارع النبيّ صلى الله عليه وسلم فصرعه النبيّ صلى الله عليه وسلم — قال رُكَانة : وسمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "فرق ما بيننا و بين المشركين العمائم على القلانس" أخرجه أبو داود . قال البخارى(٤) : إسناده مجهول لا يعرف سماع بعضه من بعض .

(١) من د وفى هـ : الإشارة، والشارة : الهيئة . (٢) الأعتجار بالعمامة : هو أن يلفها على رأسه و يرد طرفها على وجه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه ، وفى ب : معتما . (٣) جـ ١٠ ص ١٥٤
(٤) كذا فى د و هـ و ب . وفى ا و حـ : النحاس .

ج

قوله تعـالى : وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ الهـاء للـدد ، وهو الملائكة أو الوعد أو الإمداد ، و يدل عليه «يُمْدِدْكُمْ» أو للتسويم أو للإنزال أو العَدَد على المعنى؛ لأن خمسـة آلاف عددٌ . ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ اللام لام كى، أى ولتطمئن قلوبكم به جعله ؛ كقوله : «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا» (١) أى وحفظا لها جعل ذلك . ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ يعنى نصر المؤمنين، ولا يدخل فى ذلك نصر الكافرين؛ لأن ماوقع لهم من غلبة إنما هو إملاءٌ محفوفٌ بخذلانٍ وسوءِ عاقبة وخسرانٍ . ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بالقتل . ونظم الآية : ولقد نصركم الله ببدر ليقطع . وقيل : المعنى وما النصر إلا من عند الله ليقطع . ويجوز أن يكون متعلقا بـ«يُمْدِدْكُمْ» ، أى يمددكم ليقطع . والمعنى : من قُتِل من المشركين يوم بَدْر؛ عن الحسن وغيره . السدى : يعنى به من قُتِل من المشركين يوم أُحُد وكانوا ثمانية عشر رجلا . ومعنى ﴿ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يحزنهم؛ والمكبوت المحزون . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبى طلحة فرأى ابنه مكبوتا فقال : " ما شأنه " ؟ . فقيل : مات بعيره . وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغـة « يكبِدهم » أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم، فأبدلت الدال تاء ، كما قلبت فى سَبَتَ رأسه وسبده أى حلقه . كبت الله العدوّ كَبْتا إذا صرفـه (٢) وأذلّه ، وكبَدَه أصابه فى كَبِدَه؛ يقال : قد أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كَبِدَه . وتقول العرب للعدوّ : أسْوَد الكَبِد؛ قال الأعشى :

فمـا أجْشَمتِ (٣) من إتْيَانِ قَوْمٍ * هُـمُ الأعْداءُ والأكْبادُ سُـودُ

كأن الأكباد لمـا احترقت بشدّة العداوة اسودت . وقرأ أبو مِجْلَز « أو يكبِدهم » بالدال . والخائِبُ : المنقطعُ الأمَل . خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب . والخيّاب : القِدْح لا يُورِى .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٥ (٢) فى ب : أى صرفه . (٣) أجشمت : كلفت على مشقة .

قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى -- ثبت فى صحيح مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كُسِرت رَباعيته يوم أُحُد ، وشُجّ فى رأسه ، فجعل يسْلِتُ الدمَ عنه ويقول : "كيف يُفلح قوم شجّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى". فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. الضحاك : همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ على المشركين فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . وقيل : آستأذن فى أن يدعو فى آستئصالهم ، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلِم وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم . وروى الترمذى عن آبن عمر قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » فهداهم الله للإسلام . وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هو معطوف على « لِيَقْطَعَ طَرَفًا » . والمعنى : ليقتل طائفة منهم، أو يخزنهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذبهم . وقد تكون « أو » هاهنا بمعنى « حتى » و « إلا أن » . قال آمرؤ القيس :

* ... أو نموتَ فنُعْذَرا *

قال علماؤنا : قوله عليه السلام : "كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم" آستبعاد لتوفيق مَن فَعل ذلك به . وقوله تعالى : «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» تقريب لما آستبعده وإطماع فى إسلامهم، ولما أُطمع فى ذلك قال صلى الله عليه وسلم : "اللّهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" كما فى صحيح مسلم عن آبن مسعود قال : كأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : "رب آغفر لقومى فإنهم

لا يعلمون". قال علماؤنا : فالحاكى فى حديث آبن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المحكى عنه؛ بدليل ماقد جاء صريحا مبيّنا أنه عليه الصلاة والسلام لما كُسرت رَباعيته وشُجّ وجهه يوم أُحُد شقّ ذلك على أصحابه شقّا شديدا وقالوا : لو دعوت عليهم ! فقال : "إنى لم أبعث لعّانا ولكنى بعثت داعيا ورحمة، اللّهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". فكأنه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قضية أُحُد، ولم يعيّن له ذلك النبيّ؛ فلما وقع له ذلك تعيّن أنه المعنىُّ بذلك بدليل ماذكرنا . ويُبيّنه أيضا ما قاله عمر له فى بعض كلامه : بأبى أنت وأمى يارسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » (١) الآية . ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فقد وُطِئ ظهرك وأُدمِى وجهك وكُسِرت رَبَاعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت : "رب آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". وقوله : "آشتد غضب الله على قوم كسروا رَباعية نبيهم" يعنى بذلك المباشرَ لذلك، وقد ذكرنا آسمه على آختلاف فى ذلك، وإنما قلنا إنه خصوص فى المباشر؛ لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أُحُدا وحسن إسلامهم .

الثانيـــة — زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقُنُوت الذى كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع فى الركعة الأخيرة من الصبح، وآحتج بحديث آبن عمر أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول فى صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال : "اللّهم ربنا ولك الحمد فى الآخرة — ثم قال — اللّهـم آلعن فلانا وفـلانا" فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ » الآية . أخرجه البخارىّ، وأخرجه مسلم أيضا من حديث أبى هريرة أتمّ منه . وليس هذا موضع نسخ وإنما نبّه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئا إلا ما أعلمه، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويعجل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شيء ولله مافى السموات ومافى الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء . فلا نسخ، والله أعلم . وبيّن بقوله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » أن الأمور (٢) بقضاء الله وقدره ردًّا على القدرية وغيرهم .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ (٢) فى نسخة : هـ وب ود، وفى غيرها : الأمر .

الثالثة — واختلف العلماء في القُنُوت في صلاة الفجر وغيرها؛ فمنع الكوفيون منه في الفجر وغيرها . وهو مذهب الليث ويحي بن يحي الليثي الأندلسي صاحب مالك، وأنكره الشعبي. وفي الموطأ عن ابن عمر: أنه كان لا يَقْنُت في شيء من الصلاة. وروى النسائي أنبأنا قتيبة عن خلف عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقْنُت، وصليت خلف أبي بكر فلم يقْنُت، وصليت خلف عمر فلم يقْنُت، وصليت خلف عثمان فلم يقْنُت وصليت خلف علي فلم يقْنُت؛ ثم قال: يا بُنَيّ إنها بدعة. وقيل: يقنت في الفجر دائمًا وفي سائر الصلوات إذا نزل بالمسلمين نازلةٌ؛ قاله الشافعي والطبري . وقيل: هو مُسْتَحَب في صلاة الفجر، وروى عن الشافعي . وقال الحسن وسُحْنون: إنه سنة . وهو مقتضى رواية علي بن زياد عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمدا . وحكى الطبري الإجماع على أن تركه غير مفسد للصلاة. وعن الحسن: في تركه سجود السَّهْو؛ وهو أحد قولي الشافعي. وذكر الدارقطني عن سعيد ابن عبد العزيز فيمن نسي القنوت في صلاة الصبح قال: يسجد سجدتي السَّهْو. واختار مالك قبل الركوع؛ وهو قول إسحاق . ورُوِي أيضا عن مالك بعد الركوع، ورُوِي عن الخلفاء الأربعة؛ وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق أيضا . ورُوِي عن جماعة من الصحابة التخيير في ذلك . وروى الدارقطني بإسناد صحيح عن أنس أنه قال: ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنت في صلاة الغداة حتى فارق الدنيا . وذكر أبو داود في المراسيل عن خالد بن أبي عمران قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مُضَر إذ جاءه جبريل فأَوْمأ إليه أن اسكت فسكت؛ فقال: "يا محمد إن الله لم يبعثك سبّابا ولا لعّانا وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذابا، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ" قال: ثم علّمه هذا القُنُوت فقال: "اللّهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونَخْنَع[1] لك ونخلع ونترك من يكفرك اللّهم إياك نَعْبُد ولك نصلّي ونَسْجُد وإليك نسْعَى ونَحْفِد[2] ونرجو رحمتك ونخاف عذابك الجِدّ إن عذابك بالكافرين مُلْحِق[3]".

(١) الخنوع: الخضوع والذل. (٢) الحفد (بفتح فسكون): الإسراع في العمل والخدمة.

(٣) الرواية بكسر الحاء، أي من نزل به عذابك ألحقه بالكفار. وقيل: هو بمعنى لاحق، لغة في لحق. ويروى بفتح الحاء على المفعول، أي إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به. (عن ابن الأثير).

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ هذا النهى عن أكل الربا اعتراض بين أثناء قصة أُحد . قال ابن عطية : ولا أحفظ فى ذلك شيئا مرويا .

قلت : قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجل زادوا فى الثمن على أن يؤخّروا؛ فأنزل الله عز وجل «يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً» . [قلت](1) وإنما خص الربا من بين سائر المعاصى؛ لأنه الذى أذن الله فيه بالحرب فى قوله : «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»(2) والحرب يؤذن بالقتل؛ فكأنه يقول : إن لم تتقوا الربا هُزِمتم وقُتلتم . فأمرهم بترك الربا؛ لأنه كان معمولا به عندهم . والله أعلم . و﴿ أَضْعَافًا ﴾ نصب على الحال و﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ نعته . وقرئ « مُضَعَّفَةً » ومعناه : الربا الذى كانت العرب تُضْعف فيه الدَّيْن، فكان الطالب يقول : أتقضى أم تُرْبى؟ كما تقدّم فى « البقرة » . و﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام كما كانوا يصنعون؛ فدلت هذه العبارة المؤكدة على شُنعة فعلهم وقُبحه؛ ولذلك ذكرت حالة التضعيف خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى أموال الربا فلا تأكلوها . ثم خوفهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ قال كثير من المفسرين : وهذا الوعيد لمن استحل الربا، ومن استحل الربا فإنه يكفُر [ويكفَّر](3) . وقيل : معناه اتقوا العمل الذى ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار؛ لأن من الذنوب مايستوجب به صاحبه نزع الإيمان ويخاف عليه؛ من ذلك عقوق الوالدين . وقد جاء فى ذلك أثر : أن رجلا كان عاقا لوالديه يقال له عَلْقَمة؛ فقيل له عند الموت : قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمه فرضيت عنه . ومن ذلك قطيعة الرحم وأكل الربا والخيانة

(1) فى هـ . (2) راجع جـ ٣ ص ٢٥٦ (3) فى د وهـ وفى ب : ويضر .

فى الأمانة . وذكر أبو بكر الورّاق عن أبى حنيفة أنه قال : أكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت . ثم قال أبو بكر : فنظرنا فى الذنوب التى تنزع الإيمان فلم نجد شيئا أسرع نزعا للإيمان من ظلم العباد . وفى هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة ردا على الجهمية؛ لأن المعدوم لا يكون مُعَدّا . ثم قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ [يعنى أطيعوا الله](١) فى الفرائض ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ فى السنن : وقيل : « أَطِيعُوا اللَّهَ » فى تحريم الربا « والرسول » فيما بلّغكم من التحريم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى كى يرحمكم الله . وقد تقدّم(٢) .

قوله تعالى : وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر « سَارِعُوا » بغير واو، وكذلك هى فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ باقى السبعة « وَسَارِعُوا » بالواو . وقال أبو على : كلا الأمرين شائع(٣) مستقيم، فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجملة على الجملة ، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانية ملتبسةٌ بالأولى مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو . والمسارعة المبادرة ، وهى مفاعلة . وفى الآية حذف، أى سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهى الطاعة . قال أنس ابن مالك ومكحول فى تفسير ﴿ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ : معناه إلى تكبيرة الإحرام . وقال على بن أبى طالب : إلى أداء الفرائض . عثمان بن عفان : إلى الإخلاص . الكلبى : إلى التوبة من الربا . وقيل : إلى الثبات فى القتال . وقيل غير هذا . والآية عامة فى الجميع ، ومعناها معنى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ »(٤) وقد تقدم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تقديره كعرض فحذف المضاف؛ كقوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ »(٥) أى إلا كخلق نفس واحدة وبعثها . قال الشاعر :

(١) فى هـ . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ (٣) فى هـ : سائغ . (٤) راجع جـ ٢ ص ١٦٥
(٥) راجع جـ ١٤ ص ٧٨

حَسِبْتَ بُغَـامَ رَاحِلَتِى عَنَـاقًا * وما هى وَيْبَ غَيرِك بالعَنَـاقِ (١)

يريد صوت عناق . نظيره فى سـورة الحديد « وَجَنَّـةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأَرْضِ » (٢) .

وآختلف العلماء فى تأويله؛ فقال آبن عباس: تُقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب و يوصل بعضها ببعض؛ فذلك عرض الجنة،ولا يعلم طولها إلا الله. وهذا قول الجمهور، وذلك لاينكر؛ فإن فى حديث أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم "ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى إلا كدراهم ألقيت فى فلاةٍ من الأرض وما الكرسى فى العرش إلا كحَلْقة (٣) ألقيت فى فلاة من الأرض". فهذه مخلوقات أعظم بكثير جدّا من السموات والأرض، وقدرة الله أعظم من ذلك كله . وقال الكلبى : الجِنَان أربعـة : جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفِردوس وجنة النعيم ، وكل جنة منها كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض . وقال إسماعيل السدى : لو كسرت السموات والأرض وصرن خردلا، فبكل خردلة جنة عرضها كعرض السماء والأرض . وفى الصحيح : "إن أدنى أهل الجنة منزلة من يتمنّى ويتمنّى حتى إذا آنقطعت به الأمانى قال الله تعالى : لك ذلك وعشرة أمثاله" رواه أبو سعيد الخدرى ، خرجه مسلم وغيره . وقال يعلى بن أبى مُرّة : لقِيتُ التَّنُوخِىّ رسول هِرَقْل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بحِمْص شيخا كبيرا قال : قدِمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل ، فناول الصحيفة رجلا عن يساره ؛ قال : فقلت من صاحبكم الذى يقـرأ ؟ قالوا : معاوية ؛ فإذا كتاب صاحبى : إنك كتبت تدعونى إلى جنـة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار".
و بمثل هـذه الحجة آستدل الفاروق على اليهود حين قالوا له : أرأيت قولكم « وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ» فأين النار؟ فقالوا له : لقد نزعت بمـا (٤) فى التوراة . ونبّه تعالى بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر

(١) بغام الناقة : صوت لا تفصح به . والعناق (بالفتح) : الأنثى من المعز . وويب ، بمعنى ويل . والبيت لذى الخرق الطهوى يخاطب ذئبا تبعه فى طريقه . (عن اللسان) .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٤
(٣) فى هـ : من حديد .
(٤) نزعت بما فى التوراة . جئت بما يشبهها .

العرض . قال الزُّهْرِيّ : إنما وصف عرضها، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله؛ وهذا كقوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ »(١) فوصف البِطَانَة بأحسن ما يعلم من الزينة، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن . وتقول العرب : بلاد عريضة ، وفلاة عريضة، أى واسعة؛ قال الشاعر :

كأنّ بلادَ الله وهْيَ عَرِيضَةٌ * على الخائف المطلوب كِفَّةُ حَابِلِ(٢)

وقال قوم : الكلام جارٍ على مَقْطَعَ العرب من الاستعارة؛ فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح فى غايةٍ قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض؛ كما تقول للرجل : هذا بحرٌ(٣)، ولشخص كبير من الحيوان : هذا جبل . ولم تقصد الآية تحديد العرض، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه . وعامّة العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة : لقوله ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهو نص حديث الإسراء وغيره فى الصحيحين وغيرهما . وقالت المعتزلة : إنهما غير مخلوقتين فى وقتنا، وإن الله تعالى إذا طوى السموات والأرض ابتدأ خلق الجنةِ والنارِ حيث شاء؛ لأنهما دار جزاء بالثواب والعقاب ، فخلقتا بعد التكليف فى وقت الجزاء ؛ لئلا تجتمع دار التكليف ودار الجزاء فى الدنيا، كما لم يجتمعا فى الآخرة . وقال ابن فورك : الجنة يزاد فيها يوم القيامة . قال ابن عطية : وفى هذا متعلَّق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال : إن الجنة لم تخلق بعد . قال ابن عطية : وقول ابن فورك « يزاد فيها » إشارة إلى موجود ، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر فى الزيادة .

قلت : صدق ابن عطية رضى الله عنه فيما قال : وإذا كانت السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسى كدراهم ألقيت فى فلاة من الأرض ، والكرسىّ بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ؛ فالجنة الآن على ما هى عليه فى الآخرة عرضها كعرض السموات والأرض؛ إذ العرش سقفها ، حسب ما ورد فى صحيح مسلم . ومعلوم أن السقف يحتوى على ما تحته ويزيد . وإذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذى يقدّره ويعلم طوله وعرضه إلا الله خالقه الذى لا نهاية لقدرته(٤)، ولا غاية لسعة مملكته ، سبحانه وتعالى .

---

(١) راجع ج ١٧ ص ١٧٩ .
(٢) الكفة (بالكسر) : ما يصاد به الظباء، يجعل كالطوق .
(٣) فى د و هـ : ولكنه يراد .
(٤) فى د و ب و هـ : لمقدوراته .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتقين الذين أعدّت لهم الجنة، وظاهر الآية أنها مدح بفعل المندوب إليه . و ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ اليسر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ العسر؛ قاله ابن عباس والكلبي ومقاتل . وقال عبيد بن عمير والضحاك : السرّاء والضرّاء الرخاء والشدّة . ويقال في حال الصحة والمرض . وقيل : في السرّاء في الحياة، وفي الضرّاء يعني يوصي بعد الموت . وقيل : في السرّاء في العرس والولائم ، وفي الضرّاء في النوائب والمآتم . وقيل : في السرّاء النفقة التي تسرّكم؛ مثل النفقة على الأولاد والقرابات ، والضرّاء على الأعداء. ويقال : في السرّاء ما يضيف به الفتى[1] ويُهدى إليه . والضرّاء ما ينفقه على أهل الضر ويتصدّق به عليهم .

قلت : — والآية تعم . ثم قال تعالى : ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وهي المسألة :

الثانيـــة — وكَظْم الغيظ ردّه في الجوف؛ يقال : كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوّه، وكظمت السِّقاء أي ملأته وسددت عليه، والكِظامة ما يسدّ به مجرى الماء؛ ومنه الكِظام للسير الذي يسدّ به فَمُ الزِّق والقِربة . وكظم البعير جِرّته[2] إذا ردّها في جوفه؛ وقد يقال لحبسه الجِرّة قبل أن يرسلها إلى فِيه : كظم؛ حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة إذا لم يجترّا ؛ ومنه قول الراعي :

فأفَضْنَ بعـد كُظومِهن بِجِـرّةٍ * من ذى الأبارِق[3] إذ رَعَيْن حَقِيلا

الحقيل : موضع . والحقيل نبت . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجهد فلا تجترّ؛ قال أعشى باهلة يصف رجلا نحّارا للإبل فهي تفزع منه :

قد تكظِم البُزْلُ[4] منه حين تُبصره * حتى تَقَطَّع في أجوافهـا الجِرَرُ

---

(١) في د، وز : الغني .

(٢) الجرة (بالكسر) : ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه .

(٣) في ب وهـ و د : ذي الأباطح .

(٤) البزل (بضم فسكون) : جمـع بازل؛ وهو البعير الذي كلت قوّته ودخل في التاسعة وفطر نابه .

ومنه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئا غما وحزنا . وفى التنزيل : « وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ »(١) . « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » . « إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » . والغيظ أصل الغضب، وكثيرا ما يتلازمان لكن فُرْقانُ ما بينهما ، أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح ، بخلاف الغضب فإنه يظهر فى الجوارح مع فعل مّا ولا بدّ؛ ولهذا جاء(٢) إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله فى المغضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب؛ وليس بجيد . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ العفو عن الناس أَجَلُّ ضُرُوب فعل الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يتّجه حقه . وكل من آستحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِي عنه . وآختلف فى معنى «عَنِ النَّاسِ»؛ فقال أبو العالية والكلبي والزجاج : «والعافين عن الناس» يريد عن المماليك . قال آبن عطية : وهذا حسن على جهة المثال؛ إذ هُم الخَدَمَة فهم يذنبون كثيرا والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذ العقوبة سهل؛ فلذلك مثل هذا المفسِّر به . ورُوِى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مَرَقَة حارّة ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يامولاى ، آستعمل قول الله تعالى : «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ» . قال لها : قد فعلت . فقالت : آعمل بما بعده «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» . فقال : قد عفوتُ عنك . فقالت الجارية : «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» . قال ميمون : قد أحسنت إليكِ ، فأنتِ حرّة لوجه الله تعالى . ورُوِى عن الأحنف بن قيس مثله . وقال زيد آبن سلم : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » عن ظلمهم وإساءتهم(٣) . وهذا عام، وهو ظاهر الآية . وقال مقاتل بن حيان فى هذه الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : "إنّ هؤلاء من أمّتى قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت". فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال : « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ »(٤) ، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم فى ذلك . ووردت فى كظم الغيظ والعفو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديثُ ؛ وذلك من

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٧ وجـ ١٠ ص ١١٦ وجـ ١٨ ص ٢٥٢ (٢) فى د : جاز .
(٣) فى هـ : عمن ظلمهم وأساء إليهم . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٣٥

أعظم العبادة وجهادِ النفس ؛ فقال صلى الله عليه وسـلم : " ليس الشـديد بالصُّرَعةِ[(١)] ولكن الشديد الذى يملك نفسه عنــد الغضب " . وقال عليه السلام " ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجرا من جرعةِ غيظٍ فى الله " . و روى أنس أن رجلا قال : يا رسـول الله ، ما أشدّ من كل شىء ؟ قال : " غضب الله " . قال فمـا ينجى من غضب الله ؟ قال : " لا تغضب " . قال العرجىّ :

وإذا غضبتَ فكن وَقُورا كاظِما * للغيظ تُبْصِر ما تقول وتســمع

فكفى به شرفا تَصــبُّر ساعةٍ * يرضى بهـا عنك الإله وتُرفـــع

وقال عروة بن الزبير فى العفو :

لن يبلغ المجدَ أقوامٌ و إن شرفوا * حتى يُذَلُّوا و إن عَزّوا لأقوامِ

ويُشْتَموا فترى الألوانَ مُشرِقَة * لا عَفْو ذُلٍّ ولكن عَفْو إكرامِ

وروى أبو داود وأبو عيسى الترمذىّ عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنىّ عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء" قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال من ذا الذى أجره على الله فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب". ذكره المـاوردى . وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدى الله عز وجل من كانت له يد عند الله فليتقدم فلا يتقدّم إلا من عفا عن ذنب" ؛ فأمر بإطلاقه .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى يُثيبهم على إحسانهم . قال سَرِىّ السَّقَطِى : الإحسان أن تحسن وقت الإمكان ، فليس كل وقت يمكنك الإحسان ؛ قال الشاعر :

(١) الصرعة (بضم الصاد وفتح الراء) : المبالغ فى الصراع الذى لا يغلب ؛ فنقله إلى الذى يغلب نفسه عندالغضب و يقهـــرها .

بادِرْ بخيرٍ إذا ما كنتَ مُقتدِرا * فليس فى كلِّ وقتٍ أنتَ مُقتدِرُ

وقال أبو العباس الجُمّانىّ فأحسن :

ليس فى كلِّ ساعةٍ وأوانِ * تتهيّأ صنائعُ الإحسانِ
وإذا أمكنَتْ فبادِرْ إليها * حذرًا من تعذُّرِ الإمكانِ

وقد مضى فى « البقرة »(١) القول فى المحسن والإحسان فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ذكر الله تعالى فى هذه الآية صِنفا، هم دون الصِّنف الأول فألحقهم به برحمته ومَنِّه؛(٢) فهؤلاء هم التوابون . قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت هذه الآية فى نَبْهان التَّمّار — وكنيته أبو مُقْبِل — أتته امرأة حسناء باع منها تمرا ، فضمّها إلى نفسه وقبّلها فندم(٣) على ذلك ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فنزلت هذه الآية . وذكر أبو داود الطيالسىّ فى مسنده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : حدّثنى أبو بكر — وصدق أبو بكر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له — ثم تلا هذه الآية — وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — الآية ، والآية الأخرى — وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ(٤)". وخرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن . وهذا عامٌّ . وقد تنزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع مَن فعل ذلك أو أكثر منه . وقد قيل : إن سبب نزولها أن ثقفيا خرج فى غزاة وخلّف صاحبا له أنصاريا على أهله ، فخانه فيها بأن

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥
(٢) فى ابن عطية : بهم .
(٣) فى ب ود وهـ : ثم .
(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٨٠

آقتحم عليها فدفعت عن نفسها فقبّل يدها ، فندم على ذلك فخرج يَسِيح (١) فى الأرض نادما تائبا ؛ فجاء الثقفىّ فأخبرته زوجته بفعل صاحبه ، فخرج فى طلبه فأتى به إلى أبى بكر وعمر رَجاءَ أن يجد عندهما فرجا فوبّخاه ؛ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعله ؛ فنزلت هذه الآية . والعموم أولى للحديث . وروى عن آبن مسعود أن الصحابة قالوا : يا رسول الله ، كانت بنو إسرائيل أكرَمَ على الله مِنّا ، حيث كان المذْنب منهم تُصْبح عقوبتُه [مكتوبةً] (٢) على باب داره ، وفى رواية : كفارةُ ذنْبِه مكتوبةً على عَتَبة داره : آجْدَعْ أنفَك ، آقْطَع أُذُنَك ، آفعل كذا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية تَوْسِعةً ورحمةً وعِوَضًا من ذلك الفعل ببنى إسرائيل . ويُروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية . والفاحشة تطلق على كل معصية ، وقد كثر آختصاصها بالزنا حتى فسر جابر بن عبد الله والسّدّى هذه الآية بالزنا . و « أَوْ » فى قوله « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » قيل هى بمعنى الواو ؛ والمراد ما دون الكبائر . ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ معناه بالخوف من عقابه والحياءِ منه . الضحاك : ذكروا العَرْضَ الأكبر على الله . وقيل تفكروا فى أنفسهم أن الله سائلهم عنه ؛ قاله الكلبيّ ومقاتل . وعن مقاتل أيضا : ذكروا الله باللسان عند الذنوب . ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى طلبوا الغفران لأجل ذنوبهم . وكل دعاء فيه هذا المعنى أو لفظه فهو آستغفار . وقد تقدّم فى صدر هذه السورة (٣) سيد الآستغفار ، وأن وقته الأسحار . فالآستغفار عظيم وثوابه جسيم ، حتى لقد رَوى الترمذيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف" . وروى مَكْحُول عن أبى هريرة قال : ما رأيت أكثر آستغفارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مكحول : ما رأيت أكثر آستغفارا من أبى هريرة . وكان مكحول كثير الآستغفار . قال علماؤنا : الآستغفار المطلوب هو الذى يَحُلّ عَقْدَ الإصرار ويثبت معناه فى الجَنَان ، لا التلفظ باللسان . فأما من قال بلسانه : أستغفر الله ، وقلبه مصِرّ على معصيته فآستغفاره ذلك يحتاج إلى آستغفار ، وصغيرته لاحقة بالكبائر . وروى عن الحسن البصرىّ أنه قال : آستغفارنا يحتاج إلى استغفار .

(١) فى ب ود وه : ثم . (٢) كذا فى آبن عطية ، وهى الرواية . (٣) راجع ص ٣٨

قلت : هذا يقوله فى زمانه ، فكيف فى زماننا هذا الذى يُرى فيه الإنسانُ مُكِبّا على الظلم ! حريصا عليه لا يُقلِع ، والسُّبحة فى يده زاعما أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك آستهزاء منه وآستخفاف . وفى التنزيل « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا » (١) . وقد تقدّم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾ أى ليس أحد يغفر المعصية ولا يزيل عقوبتها إلا الله . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ أى ولم يثبتوا و يعزموا على مافعلوا . وقال مجاهد : أى ولم يمضوا . وقال معبد بن صُبَيح : صليت خلف عثمان وعلىٌّ إلى جانبى ، فأقبل علينا فقال : صليتُ بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصلّى . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه . ومنه صَرّ الدنانيرِ أى الربط عليها ؛ قال الحطيئة يصف الخيل :

عوابس بالشُّعْثِ الكُماة إذا آبتغوا ＊ عُلالَتهـا بالمُحْصَـدَات (٢) أَصَرَّتِ

أى ثبتت على عَدْوِها . وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصى ؛ قال الشاعر :

يُصِرّ بالليـل ما تُخفِى شَوَاكِلُه (٣) ＊ يا ويحَ كلِّ مُصِرّ القلبِ خَتَّار (٤)

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميّتٌ ، والناسى نائمٌ ، والعاصى سكْران ، والمصِرّ هالك ، والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول : أتوب غدا ؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غدا وغدا لا يملِكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينوى ألّا يتوب فإذا نوى التوبة [النصوح] (٥) خرج عن الإصرار . وقول سهلٍ أحسن . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”لا توبة مع إصرار“ .

الثالثــة — قال علماؤنا : الباعث على التّوبة وحلّ الإصرار إدامةُ الفكر فى كتاب الله العزيز الغفّار ، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين ، وما وصفه من

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٦ وجـ ٣ ص ١٥٦　　(٢) العلالة (بالضم) : بقية جرى الفرس ، والمحصدات : السياط المفتولة .　　(٣) الشواكل : الطرق المنشعبة عن الطريق الأعظم .
(٤) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . وقيل : هو أسوأ الغدر وأقبحه ، و « ختار » للبالغة .
(٥) فى ب و د .

عذاب النار وتهدّد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوِى خوفه ورجاؤه فدعا الله رَغَبا و رَهَبا؛ والرَّغْبَة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب. وقد قيل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهِيٌّ ينبِّه به من أراد سعادته؛ لِقبح الذنوب وضررها إذ هي سُموم مهلكة.

قلت: وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعيده إلا بتَنْبيهه؛ فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشْحُونة بذنوبٍ اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندمُ على ما فرط، وترك مثلَ ما سبق مخافةَ عقوبة الله تعالى صَدَق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصِرًّا على المعصية وملازِما لأسباب الهلكة. قال سهل بن عبد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا (١).

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه أقوال. فقيل: أي يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقيل: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أني أعاقب على الإصرار. وقال عبد الله بن عُبيد بن عُمير: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أنهم إن تابوا تاب الله عليهم. وقيل: «يَعْلَمُونَ» أنهم إن استغفروا غفر لهم. وقيل: «يَعْلَمُونَ» بما حرمتُ عليهم؛ قاله ابن إسحاق. وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أن الإصرار ضار، وأن تركه خير من التمادي. وقال الحسن بن الفضل: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أن لهم ربا يغفر الذنب.

قلت: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: "أذنبَ عبدٌ (٢) ذنبا فقال اللّهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنبا فعلِم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أيْ ربِّ اغفر لي ذنبي — فذكر مثله مرتين، وفي آخره: اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك" أخرجه مسلم.

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيعة. تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه "لا تكلمنّ أحدا من هؤلاء الثلاثة" إلى أن نزل فيهم قوله تعالى: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا ...» راجع جـ ٨ ص ٢٨١، وسيرة ابن هشام ص ٨٩٣ طبع أوروبا. (٢) في هـ: عبدي. والثابت هو ما في مسلم.

وفيه دليلٌ على صحة التوبة بعد نَقْضها بمُعاوَدة الذّنب ؛ لأن التوبة الأولى طاعةٌ وقد انقضت وصحّتْ ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثانى إلى توبة أخرى مستأنفة ، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف (١) إلى الذنب نقض التوبة ، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف (١) إليها ملازمة الإلحَاح بباب الكريم ، وأنه لا غافر للذنوب سواه . وقوله فى آخر الحديث "اعمل ما شئت" أمرٌ معناه الإكرام فى أحد الأقوال ؛ فيكون من باب قوله : «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ» (٢) . وآخر الكلام خبرٌ (٣) عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه ، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه . ودلّت الآية والحديثُ على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ، قال صلى الله عليه وسلم : "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" أخرجاه فى الصحيحين . وقال :

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترفْ * بما جَنَى من الذنوب واقترفْ

وقال آخر :

أقرِرْ بذنبك ثم اطلُبْ تجاوُزَه * إن الجُحُودَ جُحُودَ الذّنْب ذنبان

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده لو لم تُذْنِبوا لذهب الله بكم ولجَاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيغفر لهم". وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفّار والتوّاب ، على ما بيناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

الخامسة — الذنوب التى يُتاب منها إمّا كُفرٌ أو غيره ، فتوبة الكافر إيمانُه مع ندمه على ما سلف من كفره ، وليس مجرّدُ الإيمان نفسَ توبة ، وغير الكفر إمّا حقٌّ لله تعالى ، وإمّا حقٌّ لغيره ، فحق الله تعالى يكفى فى التوبة منه التّركُ ؛ غير أن منها مالم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك بل أضاف إلى ذلك فى بعضها قضاءً كالصلاة والصوم ، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث فى الأيمان والظّهار وغير ذلك ، وأمّا حقوقُ الآدميّين فلا بدّ من إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجَدوا تُصدّق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو الله مأمولٌ ، وفضله مبذولٌ ؛ فكم ضمِن من التبِعات وبدّل من السيئات بالحسنات . وستأتى زيادة بيان لهذا المعنى (٤) .

---

(١) فى ب و د و هـ : أنضاف .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢ ، وجـ ١٧ ص ٢١
(٣) فى ا و حـ : أخبر .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٧٧

السادســـة — ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذَنْبه ويعلمه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنبا تاب منه . وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطى الأسكندرانيّ رضى الله عنه أن الإمام المحاسبيّ رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصى لا تصح ، وأن النـدم على جملتها لا يكفى ، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعـل بجارحته وكل عقد بقلبه على التعيين . ظنوا ذلك من قوله ، وليس هـذا مراده ، ولا يقتضيه كلامه ، بل حكم المكلَّف إذا عرف حكم أفعاله ، وعرف المعصية من غيرها ، صحّتْ منه التوبة من جملة ما عرف؛ فإنه إن لم يعرف كون فعله المـاضى معصية لا يمكنه أن يتوب منـه لا على الجملة ولا على التفصيل؛ ومثاله رجل كان يتعاطى بابا من أبواب الربا ولا يعـرف أنه ربا فإذا سمع كلام الله عز وجل: « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ »(1) عظم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا، فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لابَس منه شيئا كثيرا فى أوقات متقدمة ، صحّ أن يندم عليـه الآن جمـلة ، ولا يلزمه تعيينُ أوقاته ، وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنَّميمة وغيرِ ذلك من المحرّمات التى لم يعرف كونها محرّمة ، فإذا فَقُه العبد وتفقّد ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملةً ، ونَدِم على ما فرّط فيه من حق الله تعالى ، وإذا استحلّ مَن كان ظلمه فحالَلَهُ على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول ، هذا مع شُحِّ العبد وحرصه على طلب حقه ، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفوِ عن المعاصى صغارها وكبارها . قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام ، والذى يدل عليه كلامه لمن تفقّده ، وما ظنه به الظّانّ من أنه لا يصح الندم إلا على فعلٍ فعلٍ وحركةٍ حركةٍ وسكنةٍ سكنةٍ على التعيين هو من باب تكليف ما لا يُطاق ، الذى لم يقع شرعا وإن جاز عقلا ، ويلزم عنه أن يعرف كم جرعة جرعها فى شرب الخمر ، وكم حركة تحركها فى الزنا ، وكم خطوة مَشاها إلى محرّم ، وهذا ما لا يطيقه أحدٌ ، ولا تتأتّى منه توبة على التفصيل . وسيأتى لهذا الباب مزيدُ بيـان من أحكام التوبة وشروطها فى « النساء »(2) وغيرها إن شاء الله تعالى .

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٦٢ (2) راجع جـ ٥ ص ٩٠ ، وجـ ١١ ص ٢٣١ ، وجـ ١٢ ص ٢٣٨

السابعة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ حُجَّةٌ واضحة ودلالة قاطعة لما قاله سيف السنة، ولسان الأمة القاضى أبو بكر بن الطيب : أن الإنسان يؤاخذ بما وطَّن عليه بضميره[(1)]، وعزم عليه بقلبه من المعصية .

قلت : وفى التنزيل « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[(2)] » وقال : « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[(3)] » . فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتى بيانه . وفى البخارى "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار" قالوا : يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال : "إنه كان حريصا على قتل صاحبه" . فعلق الوعيد على الحرص وهو العزم وألغى إظهار السلاح ، وأنصّ من هذا ما خرّجه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى وصححه مرفوعا " إنما الدنيا لأربعة نفرٍ رجل أعطاه الله مالاً وعلما فهو يتقى فيه ربّه و يصل فيه رحمه و يعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالاً فهو [صادق النية[(4)]] يقول لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علما فهو [يخبط فى ماله بغير علم[(4)]] لا يتقى فيه ربه ولا يصل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علما فهو يقول لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء" . وهذا الذى صار إليه القاضى هو الذى عليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين ، ولا يُلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَهُمُّ الإنسانُ به وإن وَطَّن[(5)] عليه لا يؤاخذ به . ولا حجة [له[(6)]] فى قوله عليه السلام : "من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت سيئة واحدة" لأن معنى "فلم يعملها" فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا ، ومعنى "فإن عملها" أى أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا . و بالله توفيقنا .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

رتب تعالى بفضله وكرمه غفران الذنوب لمن أخلص فى توبته ولم يصرّ على ذنبه . و يمكن أن يتّصل هذا بقصّة أُحُد ، أى من فرّ ثم تاب ولم يصرّ فله مغفرة الله .

---

(١) فى ا و ح : وطن عليه ضميره ، وعلى ما أثبت يقدر المعمول .
(٢) راجع ج ١٢ ص ٣٤ (٣) راجع ج ١٨ ص ٢٤١ (٤) زيادة عن سنن الترمذى .
(٥) المعمول محذوف فى كل الأصول، وتقديره فى قول القاضى السابق . (٦) فى ز .

قوله تعالى : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

هذا تسلية من الله تعالى للؤمنين ، والسُّنَن جمع سُنَّة وهى الطريق المستقيم . وفلان على السنة أى على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء ، قال الهذلي :

فلا تجزعن من سُنَّة أنت سِرْتَها * فأوّلُ راضٍ سُنَّةً من يسيرها

والسنة : الإمام المتّبع المؤتمّ به ، يقال : سنّ فلانٌ سنة حسنة وسيئة إذا عمل عملا اقتُدى به فيه من خيرٍ أو شر ، قال لبيد :

مِن معشر سَنّت لهم آباؤهم * ولكلّ قومٍ سُنّةٌ وإمامُها

والسنة الأمّة ، والسنن الأُمَم ، عن المفضل . وأنشد :

ما عايَنَ الناسُ من فَضْلٍ كفضلِهم * ولا رأوا مِثلَهم فى سالِفِ السُّنَنِ

وقال الزجاج : والمعنى أهل سنن ، فحذف المضاف . وقال أبو زيد : أمثال . عطاء : شرائع . مجاهد : المعنى « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » يعنى بالهلاك فيمن كذّب قبلكم كعادٍ وثمود . والعاقبة : آخر الأمر ، وهذا فى يوم أُحُد . يقول فأنا أمهلهم وأُملِي لهم وأستدرجهم حتى يبلغ الكتاب أجله ، يعنى بنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين .

قوله تعالى : هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

يعنى القرآن ، عن الحسن وغيره . وقيل : هذا إشارة إلى قوله : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » . والموعظة الوعظ . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

عزّاهم وسلّاهم بما نالهم يوم أُحُد من القتل والجراح ، وحثّهم على قتال عدوّهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أى لا تضعفوا ولا تجبُنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما

أصابكم . «وَلَا تَحْزَنُوا» على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة . «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» أى لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى بصدق وعدى . وقيل : « إن » بمعنى « إذ » . قال ابن عباس : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد فبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين ، يريد أن يعلو عليهم الجبل ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللّهم لا يعلُنّ علينا اللّهم لا قوة لنا إلا بك اللّهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر» . فأنزل الله هذه الآيات . وثاب(1) نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم ؛ فذلك قوله تعالى : « وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ » يعنى الغالبين على الأعداء بعد أُحد . فلم يُخرجوا بعد ذلك عسكرا إلّا ظفروا فى كل عسكر كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى كل عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيه واحدٌ من الصحابة كان الظفر لهم ، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون فى ذلك الوقت . وفى هذه الآية بيان فضلِ هذه الأمة ؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ؛ لأنه قال لموسى : « إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى »(2) وقال لهذه الأمة : « وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ » . وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلى ، وقال للؤمنين : « وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ » .

قوله تعالى : إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ القرح الجرح . والضم والفتح فيه لغتان عن الكسائى والأخفش ؛ مثل عَقْر وعُقْر(3) . الفراء : هو بالفتح الجرح، وبالضم ألمه . والمعنى : إن يمسسكم يوم أُحد قَرح فقد مسّ القوم يوم بدر قرح مثله . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع « قرح » بفتح

(1) فى ح و ا : بات . (2) راجع ج ١١ ص ٢٢٣ (3) فى الأصول : «نفر ونفر» وهو تحريف .

القاف والراء على المصـدر . ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ قيل : هذا في الحرب ، تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينه ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويُمحّص ذنوبهم ؛ فأما إذا لم يَعصوا فإن حزب الله هم الغالبون . وقيل : « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » من فَرَح وغَم وصِحّة وسُقْم وغِنًى وفقر . والدُّولَةُ الكَرَّة ؛ قال الشاعر :

فيومٌ لنـا ويومٌ علينـا * ويومٌ نُسَـاءُ ويومٌ نُسَرّ

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ معناه ، وإنما كانت هذه المداوَلة لِيُرَى المؤمنُ من المنافق فيُمَيَّز بعضُهم من بعض ؛ كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا »(١) . وقيل : ليعلمَ صبر المؤمنين ، العلمَ الذي يقع عليه الجزاء كما علمه غَيْبا قبل أن كلّفهم . وقد تقدّم في « البقرة »(٢) هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » أي يكرمكم بالشهادة ؛ أي لِيُقتَلَ قومٌ فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل : لهذا قيل شهيد : وقيل : سمى شهيدا لأنه مشهود له بالجنة وقيل : سمى شهيدا لأن أرواحهم احتضرت(٣) دار السلام ، لأنهم أحياء عند ربهم ، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة ؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة ، وهذا هو الصحيح على ما يأتي والشهادة فضلها عظيم ، ويكفيك في فضلها قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »(٤) الآية . وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » إلى قـوله : « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(٥) . وفي صحيح البُسْتيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدُكم من القَرْحة " . وروى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال : " كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة " . وفي البخاري : « من قُتل من المسلمين

(١) راجع ص ٢٦٥ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ (٣) في ب ، د ، ﻫ : أحضرت .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٦٦ (٥) راجع جـ ١٨ ص ٨٦

يوم أُحد » منهم حمزةُ واليمان والنضر بن أنس(١) ومصعب بن عُمير، حدّثني عمرو بن عليّ أن معاذ ابن هشام قال حدّثني أبي عن قتادة قال : ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيدا أعزّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحُد سبعون ، ويوم بئر مَعُونَة سبعون، ويوم اليمَامَة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ويوم اليمَامَة على عهد أبي بكر يوم مُسَيْلِمة الكذّاب . وقال أنس : أُتِي النبي صلى الله عليه وسلم بعليّ بن أبي طالب وبه نيف وستون جِراحة من طعنةٍ وضربةٍ ورمْيةٍ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسحها وهي تَلْتئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن .

الثانيــة — في قوله تعالى : « وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ » دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنة ؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين : حمزةَ وأصحابه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراده فواقعه آدم ، وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فامتنع منه ؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق : «وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ»(٢) . وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد، ولكنه خلق الكَسَل والأسباب القاطعة عن المسير فقعدوا .

الثالثــة — رُوِي(٣) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال له : " خَيِّر أصحابك في الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفِداء على أن يقتل منهم عام المقبِل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خيّرهم فآختاروا القتل . ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين، أي وإن أنال(٤) الكفارَ من المؤمنين فهو لا يحبهم، وإن أحلّ ألماً بالمؤمنين فإنه يحب المؤمنين .

قوله تعالى : وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

---

(١) الذي في شرح القسطلاني على صحيح البخاري : « وأنس بن النضر ، وهو عم أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وابن عبد البر وغيرهما . ولأبي ذر « النضر بن أنس » وهو خطأ ، والصواب الأول » .

(٢) راجع جـ ٨ ص ١٥٦ (٣) في ب ود وهـ : روى علي . (٤) في هـ ود : أدال .

فيه ثلاثة أقوال : يُمَحِّص يختبر . الثاني — يطهِّر؛ أى من ذنوبهم فهو على حذف مضاف . المعنى : وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا ؛ قاله الفرّاء . الثالث — يمحِّص يخلِّص ؛ فهذا أغربُها . قال الخليل : يقال مَحِصَ الحبلُ يَمْحَص مَحْصًا إذا ٱنقطع وَبَرُه ؛ ومنه "اللّهم محِّص عنا ذنوبنا" أى خلصنا من عقوبتها . وقال أبو إسحاق الزجاج : قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل : التمحيص التخليص . يقال : مَحَّصَه [يمحصه][(1)] مَحْصًا إذا خلصه ؛ فالمعنى عليه ليبتلى المؤمنين ليُثيبهم ويُخلِّصهم من ذنوبهم . ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك .

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

«أم» بمعنى بل . وقيل : الميم زائدة؛ والمعنى أحسبتم يامن انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الّذين قُتِـلوا وصبروا على ألَم الجراح والقتل من غير أن تَسْلُكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا ؛ حتى ﴿ يَعْلَمِ اللّهُ الّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ أى عِلْم شهادة حتى يقع عليه الجزاء . والمعنى : ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم ؛ فلما بمعنى لم . وفرق سيبويه بين « لم » و « لمـا » ، فزعم أن « لم يَفعلْ » نفى فَعَلَ، وأن « لمّـا يفعلْ » . نفى قد فَعَلَ . ﴿ وَيَعْـلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ منصوب بإضمار أن ؛ عن الخليل . وقرأ الحسن ويحيى بن يَعمَر «يَعْلَمِ الصَّابِرِينَ» بالجزم على النسق . وقرئ بالرفع على القطع ، أى وهو يعلم . وروى هذه القراءة عبد الوارث عن أبى عمرو . وقال الزجاج : الواو هنا بمعنى حتى ، أى ولمـا يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم كما تقدّم آنفا .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْـلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَـدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ كُنتُمْ تَمَنَّـوْنَ الْمَوْتَ ﴾ أى الشهادة من قبل أن تلقوه . وقرأ الأعمش « مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلَاقُوهُ » أى من قبـل القتل . وقيل : من قبل أن تلقوا أسباب الموت ؛ وذلك أن كثـيرا ممن لم يحضروا بدرا كانوا يتمنّون يوما يكون فيـه قِتال ،

(1) فى ب ودوهـ .

فلما كان يوم أُحُد انهزموا ، وكان منهم من تجلّد حتى قُتل ، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، فإنه قال لما انكشف المسلمون : اللّهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، و باشر القتال وقال : إيْهاً إنها ريح الجنة ! إنى لأجدها ، ومضى حتى استشهد . قال أنس : فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بِضعا وثمانين جراحة . وفيه وفى أمثاله نزل « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »(١) . فالآية عِتاب فى حق من انهزم ، لاسِيّما وكان منهم حَمْلٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم على الخروج من المدينة ، وسيأتى . وتَمنِّى الموت يرجع من المسلمين إلى تَمنِّى الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم ؛ لأنه معصيةٌ وكفرٌ ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة ، فيسألون الصبر على الجهاد و إن أدّى إلى القتل .

قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال الأخفش : هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله : «فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ» مثل « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »(٢) . وقيل : معناه وأنتم بُصَراء ليس فى أعينكم عِلَلٌ ؛ [كما](٣) تقول : قد رأيت كذا وكذا وليس فى عينيك عِلّة ، أى فقد رأيته رؤية حقيقة ؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد . وقال بعضهم : « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وفى الآية إضمار ، أى فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلِمَ انهزمتم ؟ .

قوله تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ج أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ج وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ج وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أُحُد حين صاح الشيطان : قد قتل محمد . قال عطية العوفى : فقال بعض الناس : قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألا تَمْضُون على ما مضى عليه نبيكم حتى

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٥٨ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ (٣) فى ب و د و هـ .

تلحقوا به ؛ فأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ إلى قوله : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » . وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، و بطل عمل « ما » . وقرأ ابن عباس « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ » بغير ألِف ولام . فأعلم الله تعالى فى هذه الآية أن الرسل ليست بباقية فى قومها أبدا ، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ . وأكرم نبيه صلى الله عليه وسلم [وصفيه](١) بآسمين مشتقّين من اسمه : محمّد وأحْمَد ، تقول العرب : رجل مَحْمُودٌ ومُحَمَّد إذا كثُرت خصاله المحمودة ، قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْمِ الجَوَاد المحمّد(٢) *

وقد مضى هذا فى الفاتحة(٣) . وقال عباس بن مِرداس :

يا خاتِمَ النُّبآء إنك مُرْسَلٌ * بالخَيْر كلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكا
إن الإله بَنَى(٤) عليك مَحَبَّةً * فى خَلْقِهِ ومُحَمَّدًا سَمّاكا

فهذه الآية من تَتِمّة العِتاب مع المنهزمين ، أى لم يكن لهم الآنهزام وإن قتل محمدٌ ، والنبوّة لا تدرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء . والله أعلم .

الثانيـــة — هذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته ، فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم بيانه فى « البقرة(٥) » فظهرت عنده شجاعته وعلمه . قال النــاس : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم عمر ، وخرس عثمان ، واستخفى علىّ ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح(٦) ، الحديث ؛ كذا فى البخارى . وفى سنن ابن ماجه عن عائشة قالت : « لما قبض رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأبو بكر عند آمرأته ابنة خارجة بالعوالى ، فجعلوا يقولون : لم يمت النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما هو بعض ما كان يأخذه عند

(١) فى ب و هـ . (٢) هذا عجز بيت للأعشى ، وصدره : * إليك أبيت اللعن كان كلالها *
والذى فى الديوان : الماجد الفرع . كذا فى ب و د و هـ . وفرع كل شىء : أعلاه . (٣) راجع جـ ١ ص ١٣٣
(٤) فى د ، واللسان : ثنى ولم يعرف هذا فى اللغة . والأصول بنى . (٥) راجع جـ ٢ ص ١٧٦
(٦) السنح (بضم أوله وسكون النون وقد تضم) : موضع بعوالى المدينة ، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج ، بينها وبين منزل النبىّ صلى الله عليه وسلم ميل .

الوحى . فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه وقال: أنت أكرم على الله من أن يميتك ! مرتين ، قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر فى ناحية المسجد يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . فقام أبو بكر فصعد المنبر فقال : من كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ » . قال عمر : « فلكأنّى لم أقرأها إلا يومئذ » . ورجع عن مقالته التى قالها فيما ذكر الوائلى أبو نصر عبيد الله فى كتابه الإبانة : عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد قبل أبى بكر فقال : أمّا بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلتُ ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرَنا — يريد أن يقول حتّى يكون آخرنا موتا — فٱختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الوائلى أبو نصر: المقالة التى قالها ثم رجع عنها هى «أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلهم» وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشى الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر أبى بكر، وتفوهه بقول الله عز وجل: « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ »(١) وقوله : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »(٢) وما قاله ذلك اليوم — تنبّه وتثبّت وقال : كأنى لم أسمع بالآية إلا من أبى بكر . وخرج الناس يتلونها فى سكك المدينة، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم . ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف ، فى وقت دخوله المدينة فى هجرته حين اشتدّ الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء، وقيل ليلة الأربعاء.

وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع ص ٢٩٧ من هذا الجزء ، و جـ ١١ ص ٢٨٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤

ألا يا رســـول الله كنت رجاءنا * وكنت بنا برًّا ولم تك جافيا
وكنت رحيما هاديا ومُعلِّما * ليبْك عليك اليومَ من كان باكيا
لعمـــرك ما أبكي النبيَّ لفقـــده * ولكن لما أخشى من الهَرْج آتيا
كأن على قلبي لذكرِ محمـــدٍ * وما خِفت من بعـد النبي المكاوِيا
أفاطـــم صلى الله رب محمـــدٍ * على جَدَثٍ أمسى بيثْرب ثاويا
فِـــدًى لرســـول الله أُمّي وخالتي * وعمى وآبائي ونفسي وماليا
صـدَقْتَ وبلّغت الرسالة صادقا * ومتّ صَليبَ العـودِ أبْلَجَ صافِيا
فلو أن رب النـاس أبقى نبينـا * سعِدنا، ولكن أمره كان ماضيا
عليـك من الله السلام تحيـةً * وأُدْخِلت جناتٍ من العَدْن راضيا
أرى حســـنا أيتمتَــه وتركتَه * يُبَكِّي ويدعـو جده اليـوم ناعيا (١)

فإن قيل وهي :

الثالثـــة — فلِم أُخّر دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أخّروا دفن ميتهم : "عجّلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها" . فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول — ما ذكرناه من عدم آتفاقهم على موته . الثاني — لأنهم لا يعلمون حيث يدفنونه . قال قوم في البَقيع، وقال آخرون في المسجد، وقال قوم : يحبس حتى يحمـل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال العـالم الأكبر (٢) : سمعته يقول : "ما دفن نبيّ إلا حيث يموت" ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما . الثالث — أنهم آشتغلوا بالخلاف الذى وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتب الأمر وانتظم الشمل واستوثقت (٣) الحال، واستقرّت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرى عن ملأٍ منهم ورِضا، فكشف الله به الكُرْبة من أهل الرِّدّة، وقام به الدِّين، والحمد لله رب العالمين . ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنظروا في دفنه وغسّلوه وكفّنوه . والله أعلم .

---

(١) في جـ و ب و د : ناثيا . (٢) يريد به أبا بكر رضي الله عنه . (٣) في هـ : آستوسقت .

الرابعـــة — واختُلِف هل صُلّى عليـه أم لا ، فمنهم من قال : لم يصـلّ عليه أحدٌ ، وإنمـا وقف كل واحد يدعو، لأنه كان أشرف من أن يُصَلَّى عليـه . وقال ابن العربي : وهذا كلام ضعيف ؛ لأن السنة تقام بالصلاة عليه في الجنازة، كما تقام بالصلاة عليه في الدعاء، فيقول : اللّهم صل على محمد إلى يوم القيامة ، وذلك منفعة لنا . وقيل : لم يصلَّ عليه ؛ لأنه لم يكن هناك إمام . وهـذا ضعيف ؛ لأن الذي كان يقيم بهم الصـلاة الفريضة هو الذي كان يَؤُمّ بهم في الصلاة . وقيل : صلّى عليه الناس أفذاذا ؛ لأنه كان آخر العهد به ، فأرادوا أن يأخذ كل أحدٍ بركته مخصوصا دون أن يكون فيها تابعا لغيره . والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : قد خرّج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه : فلما فرغوا من جَهازه يوم الثلاثاء وُضِع على سريره في بيته ، ثم دخل النـاسُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا (١) يُصلّون عليـه ، حتى إذا فرغوا أدخلوا النسـاء ، حتى إذا فرغن أدخلوا الصبيان ، ولم يَؤُمّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسـلم أحدٌ . خرّجه عن نصر ابن علي الجَهْضَمِي أنبأنا وهب بن جرير حدّثنا أبي عن محمد بن إسحاق قال حدّثني حسين ابن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس ، الحديثَ بطوله .

الخامسة — في تغيير الحال بعدموت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلّ شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منهـا كلّ شيء ، وما نَفَضْنا عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا . أخرجه ابن ماجه ، وقال : حدّثنا محمد بن بشّار أخبرنا عبد الرحمن بن مهديّ حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كنا نتّقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن ينزل فينا القرآن ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلّمنا . وأسند عن أم سلَمة بنت أبي أمية زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم [أنها قالت] (٢) : كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المُصَلّي [يصلي] (٢) لم يَعْدُ بصرُ

---

(١) أرسالا : أفواجا وفرقا متقطعة بعضهم يتلو بعضا ؛ واحدهم رسل ، بفتح الراء والسين .

(٢) زيادة عن ابن ماجه .

أحدهم موضع قدميه، فلما تُوفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، فكان النـاس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع جبينه، فتوفى أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع القبلة، فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فتلفت الناس فى الصلاة يميناً وشمالا.

قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ «أفإين مات» شرط، «أو قتل» عطف عليه، والجواب «انْقَلَبْتُمْ». ودخل حرف الاستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبرا واحدا. والمعنى: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قُتِل؟ وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجـزاء؛ فإنه فى غير موضعه، وموضعه أن يكون قبل جواب الشرط. وقوله «انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ» تمثيل، ومعناه ارتددتم كفارا بعد إيمانكم، قاله قتادة وغيره. ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه: انقلب على عقبيه. ومنه «نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ»(١).
وقيل: المراد بالانقلاب هنـا الانهزام، فهو حقيقة لا مجـاز. وقيل: المعنى فعلتم فعل المرتدّين وإن لم تكن رِدَّة.

قوله تعـالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ بل يضر نفسه ويعرضها للعقاب بسبب المخالفة، والله تعالى لاتنفعه الطاعة ولا تضره(٢) المعصية لغناه. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، أى الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا. وجاء «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» بعد قوله: «فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا» فهو اتصال وعد بوعيد.

قوله تعـالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ هـذا حَضٌّ على الجهاد، وإعلامٌ أن الموت لابدّ منه وأن كلّ إنسانٍ مقتولٍ أو غير مقتولٍ ميّتٌ إذا بلغ أجله المكتوبَ له؛ لأن معنى «مُؤَجَّلًا» إلى أجل. ومعنى «بِإِذْنِ الله» بقضاء الله وقدره. و«كِتَابًا» نصب على المصدر، أى كتب الله كتابا مُؤجلا. وأجلُ الموت هو الوقت الذى

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦ (٢) فى هـ و د: ولا يتضرر بالمعصية.

فى معلومه سبحانه ، أن روح الحىّ تفارق جسـده ، ومتى قُتل العبد علمنا أن ذلك أجله . ولا يصحّ أن يقال : لو لم يقتل لعاش . والدليـل على قوله : « كتابا مؤجّلا » « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »(١) « إِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ » « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » . والمعتزلىّ يقـول : يتقدم الأجل ويتأخر ، وأن من قتل فإنما يهلك قبل أجله ، وكذلك كلّ ما ذبح من الحيوان كان هلاكه قبل أجله ؛ لأنه يجب على القاتل الضّمان والدية . وقد بيّن الله تعالى فى هذه الآية أنه لا تهلك نفس قبل أجلها . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأعراف»(٢) إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على كتب العلم وتدوينه . وسيأتى بيانه فى « طه » عند قوله « قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ »(٣) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ يعنى الغنيمة . نزلت فى الذين تركوا المركز طلبا للغنيمة . وقيـل : هى عامّة فى كل من أراد الدنيـا دون الآخرة ؛ والمعنى نؤته منها ما قُسم له . وفى التنزيل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »(٤) . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أى نؤته جزاء عمـله ، على ما وصف الله تعـالى من تضعيف الحسنات لمن يشاء . وقيل : المراد منها(٥) عبد الله بن جُبَير ومن لزم المركز معه حتى قتـلوا . ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أى نؤتيهـم الثواب الأبدىّ جزاءً لهم على ترك الانهـزام ، فهو تأكيد لمـا تقدّم من إيتاء مزيد الآخرة . وقيـل : « وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » من الرزق فى الدنيا لئلا يُتَوَهّم أن الشاكر يُحرم ما قُسم له مما يناله الكافر .

قوله تعـالى : وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ و جـ ١٢ ص ٣٢٧ و جـ ٩ ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ (٥) فى د و جـ : بهذا .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ(١) مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قال الزهري : صاح الشيطان يوم أُحُد : قتل محمد؛ فانهزم جماعة من المسلمين . قال كعب بن مالك : فكنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأيتُ عينيه من تحت المِغفر تزهران ، فناديت بأعلى صوتي : هذا رسول الله صلى الله عليه وسـلم، فأومأ إلى أن اسكت، فأنزل الله عز وجل : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا » الآية . و« كأين » بمعنى كَمْ . قال الخليل وسيبويه : هى أيّ دخلت عليهـا كاف التشبيه وبنيت معها فصار فى الكلام معنى كم وصورت فى المصحف نونا؛ لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغيِّر لفظها لتغير معناها ، ثم كثر استعمالها فتلعَّبت(٢) بها العرب وتصرفت فيها بالقلب والحذف ، فحصل فيها لغات أربعٌ قُرِئَ بها . وقرأ ابن كثير « وكَائِنْ » مثـل وكَاعِنْ ، على وزن فاعل، وأصله كَيْءٍ فقلبت الياء ألفا ، كما قلبت فى يَيْأَس(٣) فقيل ياءَس؛ قال الشاعر :

وكَائِنْ بالأَبَاطِحِ من صَديقٍ * يَرَانِى لَـوْ أُصِبْتُ هو المُصَـابَا

وقال آخر :

وكَائِنْ رَدَدْنا عنكم مِن مُـدَجَّجٍ * يَجِيءُ أمامَ الرَّكْب يَرْدِى(٤) مُقَنَّعَا

وقال آخر :

وكَائِنْ فى المَعَـاشِرِ(٥) من أُنَاس * أخـــوهم فَوْقَهم وهُمْ كِرَامُ

وقرأ ابن محيصن « وكَئِنْ » مهموزا مقصورا مثـل وكَعِن ، وهو من كَائِنْ حذفت ألفه . وعنه أيضا «وكَأْيِن» مثل وكَعْيِنْ وهو مقلوب كَيْءٍ المخفف . وقرأ الباقون « كَأَيِّنْ» بالتشديد مثل كَعَيِّن وهو الأصل، قال الشاعر :

كَأَيِّنْ مِن أُنَاسٍ لم يزالوا * أخـوهم فوقَهم وهُمُ كرامُ

(١) قراءة نافع . (٢) فى أ و ح : فلعبت . (٣) القلب فى ذلك على لغة من يقلب حرف العلة الساكن المفتوح ماقبله ألفا ، وهى لغة بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وقبائل من اليمن ، كما ذكره الواحدى فى وسيطه فى تفسير قوله تعالى : « إن هذان لساحران » . (٤) يردى : يمشى الرديان (بالتحريك) وهو ضرب من المشى فيه تبختر . والمقنع : الذى تقنع بالسلاح ؛ كالبيضة والمغفر . (٥) فى البحر : المعاسر .

وقال آخر :

كأيِّنْ أبدْنا من عدوٍّ بعزّنا * وكائنْ أجرْنا من ضعيفٍ وخائف

فجمع بين لغتين : كأيِّنْ وكائِنْ ، ولغة خامسة كَيْئِنْ مثل كَيْعِنْ ، وكأنه مخفّف من كَيِّئْ مقلوب كأيِّنْ . ولم يذكر الجوهري غير لغتين : كائِنْ مثل كاعِنْ ، وكأيِّنْ مثل كَعَيِّنْ ؛ تقول كأيِّنْ رجلا لقيتُ ؛ بنصب ما بعد كأيِّنْ على التمييز . وتقول أيضا : كأيِّنْ مِن رجل لقيت ؛ وإدخال مِن بعد كأيِّنْ أكثرُ من النصب بها وأجودُ . وبكأيِّنْ تبيع هذا الثوب؟ أي بكم تبيع ؛ قال ذو الرمّة :

وكائِنْ ذَعَرْنا من مَهاةٍ ورامِحٍ * بِلادُ العِدَا(1) ليستْ له بِبِلادِ

قال النحاس : ووقف أبو عمرو « وكأيْ » بغير نون ؛ لأنه تنوين . وروى ذلك سَوْرَةُ ابن المبارك عن الكسائي . ووقف الباقون بالنون اتباعا لخط المصحف . ومعنى الآية تشجيع المؤمنين ، والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خِيار أتباع الأنبياء ؛ أي كثير من الأنبياء قُتل معه رِبِّيون كثير ، أو كثير من الأنبياء قتلوا فما ارتد أممهم ؛ قولان : الأوّل للحسن وسعيد بن جبير . قال الحسن : ما قُتل نبي في حرب قط . وقال ابن جبير : ما سمعنا أن نبيا قتل في القتال . والثاني عن قتادة وعكرمة . والوقف — على هذا القول — على « قُتِل » جائز ، وهي قراءة نافع وابن جبير وأبي عمرو ويعقوب . وهي قراءة ابن عباس واختارها أبو حاتم . وفيه وجهان : أحدهما أن يكون « قُتِل » واقعا على النبيّ وحده ، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله « قُتِل » ويكون في الكلام إضمار ؛ أي ومعه ربيون كثير ؛ كما يقال : قُتِل الأمير معه جيش عظيم ؛ أي ومعه جيش . وخرجْتُ معي تجارة ؛ أي ومعي . الوجه الثاني أن يكون القتل نال النبيّ ومن معه من الرِّبِّيين ، ويكون وجه الكلام قتل بعض من كان معه ؛ تقول العرب : قتلنا بني تميم وبني سليم ، وإنما قتلوا بعضهم . ويكون قوله « فَمَا وَهَنُوا » راجعا إلى من بقي منهم . قلت : وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقتل ، وقُتِل معه جماعة من أصحابه . وقرأ الكوفيون وابن عامر « قَاتَلَ » وهي قراءة

(1) كذا في الأصول المهاة : البقرة الوحشية . والرامح : الثور الوحشي ؛ لأن قرنه بمنزلة الرمح فهو رامح : والمعنى لا يقيم مع الإنس في مكان . الذي في ديوانه : « بلاد الورى ليست له ببلاد » .

ابن مسعود ؛ واختارها أبو عبيد وقال . إن الله إذا حمد من قاتل كان من قُتِل داخلا فيه ، وإذا حمد من قُتِـل لم يدخل فيه غيرهم ؛ فقاتل أعمّ وأمدح . و « الرِّبيون » بكسر الراء قراءة الجمهور . وقراءة علىّ رضى الله عنه بضمها . وابن عباس بفتحها ؛ ثلاث لغات . والرِّبّيون الجماعات الكثيرة ؛ عن مجاهد وقتادة والضحّاك وعكرمة ، واحدهم رُبِّىّ بضم لراء وكسرها ؛ منسوب إلى الرِّبة بكسر الراء أيضا وضمها ، وهى الجماعة . وقال عبد الله بن مسعود : الرِّبّيّون الألوف الكثيرة . وقال ابن زيد : الربّيُّون الأتباع . والأوّل أعرف فى اللغة ؛ ومنه يقال للخرقة التى تجمع فيهـا القِدَاح : رِبّةٌ ورُبّة . والرِّبَاب قبائل تجمَّعت . وقال أبَان بن ثعلب : الرِّبّى عشرة آلاف . وقال الحسن : هم العلمـاء الصُّبُر . ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسّدى : الجمْعُ الكثير ؛ قال حسّان :

وإذا مَعْشَرٌ تجافَوْا عن الحـَ * ـقِّ حمَلْنـا عليهـم رُبِّيـا

وقال الزجاج : هاهنا قراءتان « رُبِّيّـون » بضم الراء « ورِبِّيّـون » بكسر الراء ؛ أما الرُّبيون (بالضم) : الجمـاعات الكثيرة . و يقال : عشرة آلاف . قلت : وقد روى عن ابن عباس « رَبِّيُّون» بفتح الراء منسوب إلى الرب . قال الخليل : الرِّبِّى الواحد من العبّاد الذين صبروا مع الأنبياء . وهم الربانيون نسبوا إلى التألّه والعبادة ومعرفة الرُّبوبية لله تعالى . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَـا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ « وَهَنُوا » أى ضعُفوا ، وقد تقدّم والوهن : انكسار الجِدّ(١) بالخوف . وقرأ الحسن وأبو السَّمّال « وَهُنُوا » بكسر الهـاء وضمها ؛ لغتان عن أبى زيد . وهَن الشىء يَهِن وَهْنا . وأوْهَنْته أنا ووهّنته ضعّفته . والواهنة : أسفل الأضلاع وقِصارُها(١) . والوَهَن من الإبل : الكثيف . والوَهْن : ساعة تمضى من الليل ، وكذلك المَوْهِن . وأوهَنـا صِرْنا(٢) فى تلك الساعة ؛ أى ما وَهَنوا لقتل نبيهم ، أو لقتل مَن قُتِل منهم ، أى ما وهن باقيهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ أى عن عدوّهم . ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُوا ﴾ أى لِمـا أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : الذّلة والخضوع ؛ وأصلها « ٱستَكَنُوا » على افتعلوا ؛ فأشبِعت فتحةُ الكاف فتولّدت منها ألفٌ . ومن جعلها من الكَوْن فهى استفعلوا ؛ والأوّل

(١) الواهنة : القصيرى وهى أسفل الأضلاع . (٢) كذا فى « اللسان » وفى « ا » و « ح » : ضربنا .

أشبه بمعنى الآية . وقرئ « فَمَا وَهْنُوا وَمَا ضَعْفُوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى الكسائى « ضَعَفُوا » بفتح العين . ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتل منهم أو قتل نبيّهم بأنهم صبروا ولم يفرّوا ووطّنوا أنفسهم على الموت ، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رُزِقوا الشهادة ، ودعوا فى الثبات حتى لا ينهزموا ، وبالنصر على أعدائهم . وخصّوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها . يقول : فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاءهم وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة فى الدنيا والمغفرة فى الآخرة إذا صاروا إليها . وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه ، الثابتين عند لقاء عدوّه بوعده الحق ، وقوله الصدق . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ يعنى الصابرين على الجهاد . وقرأ بعضهم « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ » بالرفع ؛ جعل القول اسما لكان ؛ فيكون معناه وما كان قولُهم إلّا قولَهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان . واسمها « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » يعنى الصغائر ﴿ وَإِسْرَافَنَا ﴾ يعنى الكبائر . والإسراف : الإفراط فى الشيء ومجاوزة الحدّ . وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء " اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى " وذكر الحديث . فعلى الإنسان أن يستعمل ما فى كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه ، ولا يقول أختار كذا ؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيّه وأوليائه وعلّمهم كيف يدعون .

قوله تعالى : فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ج وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى أعطاهم ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ ، يعنى النصر والظفر على عدوّهم . ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ يعنى الجنة . وقرأ الجحدرى « فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ » من الثواب . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تقدّم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

لمـا أمر الله تعـالى بالاقتداء بمن تقدّم من أنصار الأنبياء حذّر طاعة الكافرين ؛ يعنى مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه . وقيل : اليهود والنصارى . وقال علىّ رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم . ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أى إلى الكفر . ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى فترجعوا مغبونين . ثم قال : ﴿ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى مُتـولّى نصركم وحفظكم إن أطعتموه . وقُرِئَ « بَلِ اللهَ » بالنصب ، على تقـدير بل وأطيعوا الله مولاكم .

قوله تعـالى : سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

نظيره « وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ »(١) . وقرأ ابن عامر والكسائى « الرُّعُب » بضم العين؛ وهما لغتان . والرُّعْب : الخوف؛ يقال : رَعَبْتُه رُعْبا ورُعُبا، فهو مَرْعُوب . ويجوز أن يكون الرُّعْب مصـدرا ، والرُّعُب الاسم . وأصله من المَلْء ؛ يقال : سَيْل راعب يملأ الوادى . ورعبت الحوض ملأته . والمعنى : سَنَمْـلأ قلوب المشركين(٢) خوفا وفزعا . وقـرأ السَّخْتيانى « سَيُلْقِى » بالياء ، والباقون بنون العظمة . قال السُّـدّى وغيره : لمـا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحُد متوجّهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا ! قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشَّرِيد(٣) تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم؛ فلمـا عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرّعب حتى رجعوا عمـا همُّوا به . والإلقاء يسـتعمل حقيقة فى الأجسام؛ قال الله تعالى : « وأَلْقَى الأَلْوَاحَ »(٤) « فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ » « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ » . قال الشاعر :

* فألقَتْ عصاها واستقرّ بهـا النَّوَى *

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣ (٢) فى د وجـ وهـ: الكافرين . (٣) فى د : الشديد .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٨٨ و٢٥٦ وجـ ١٣ ص ٩٧

ثم قد يستعمل مجازا كما فى هذه الآية، وقوله : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي »[1] . وألقى عليك مسألة .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ تعليل ؛ أى كان سبب إلقاء الرعب فى قلوبهم إشراكهم؛ فما للمصدر . ويقال : أشرك به أى عدَل به غيرَه ليجعله شريكا .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ حجّةً وبيانا ، وعُذْرا وبرهانا؛ ومن هذا قيل للوالى سلطان ؛ لأنه حجة الله عز وجل فى الأرض . ويقال : إنه مأخوذ من السَّلِيط وهو ما يضاء به السِّراج ، وهو دُهْنُ السِّمْسِم ؛ قال امرؤ القيس :

* أَمَالَ[2] السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ *

فالسلطان يُستضاء به فى إظهار الحق وقمع الباطل . وقيل السَّلِيط الحديد . والسَّلاطَة الحدّة . والسلاطة من التسليط وهو القهر؛ والسلطان من ذلك ، فالنون زائدة . فأصل السلطان القوة، فإنه يُقهر بها كما يُقهر بالسلطان . والسلِيطَة المرأة الصَّخَّابَة . والسلِيط الرجل الفصيح اللسان . ومعنى هذا أنه لم تثبت عبادة الأوثان فى شىء من المِلَل ، ولم يَدُلّ عقلٌ على جواز ذلك . ثم أخبر تعالى عن مصيرهم ومرجعهم فقال : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ ثم ذمّه فقال : ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ والمَثْوَى : المكان الذى يقام فيه؛ يقال : ثَوَى يَثْوِى ثَوَاءً . والمأوى : كل مكان يرجع إليه شىءٌ ليلا أو نهاراً .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

قال محمد بن كعب القرظى : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أُحُد وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ! فنزلت هذه الآية . وذلك أنهم قتلوا صاحبَ لِوَاء المشركين وسبعةَ نفر منهم بعدَه على اللواء ، وكان

(١) راجع ج ١١ ص ١٩٦ (٢) فى الأصول : أهان : والذى أثبتناه هو ما فى الديوان وكتب اللغة .

الظفر ابتداءً للسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة، وترك بعضُ الرّماة أيضا مركزهم طلباً للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة . روى البخارى عن البَرَاء بن عازب قال : لما كان يوم أُحُد ولقينا المشركين أجلس رسـول الله صلى الله عليه وسلم أناسا من الرُّماة وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبير وقال لهم : " لا تبرحـوا من مكانكم [إن رأيتمونا ظهرنا عليهـم فلا تبرحوا](١) و إن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تُعينونا عليهم " قال : فلمّا التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتَدِدْن(٢) فى الجبل ، وقد رفعن عن سُـوقهن قد بدت خلاخِلُهن فجعلوا يقولون : الغنيمةَ الغنيمةَ . فقال لهم عبد الله : أمهلوا ! أما عَهِد إليكم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ألّا تبرحوا ، فانطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقُتِل من المسلمين سبعون رجلا . ثم إنّ أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو فى نَشَزٍ فقال : أفى القوم محمدٌ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تُجيبوه " حتى قالها ثلاثا . ثم قال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ ثلاثا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تُجيبوه " ثم قال : أفى القوم عمر [بن الخطاب](٣)؟ ثلاثا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تُجيبوه " ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قتلوا . فلم يملك عمر رضى الله عنه نفسه دون أن قال : كذبتَ يا عدوّ الله ! قد أبقى الله لك من يُخزيك به . فقال : أُعْلُ هُبَلُ(٤)؛ مرتين . فقال النبيّ صلى الله عليـه وسلم : " أجيبوه " فقالوا : ما نقول يا رسول الله؟ قال " قولوا اللهُ أعْلَى وأجَلّ " . قال أبو سفيان : لنـا العُزّى(٥) ولا عُزّى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجيبوه " . قالوا : ما نقول يا رسول الله؟ قال : قولوا " الله مولانا ولا مَوْلَى لكم " . قال أبوسفيان : يومٌ بيوم بَدْرٍ، والحرب سِجَال، أمَا إنكم ستجدون فى القوم مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤنى . وفى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أُحُد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم أشدّ القتال . وفى رواية عن سـعد : عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ . يعنى جبريل وميكائيل . وفى رواية أخرى : يقاتلان عن رسول الله

(١) زيادة عن صحيح البخارى . والذى فيه : « لا تبرحوا إن رأيتمونا » . (٢) أى يسرعن المشى .
(٣) فى جـ و هـ و د . (٤) أى أظهر دينك ، أو زد علوا ، أو ليرتفع أمرك و يعز دينك فقد غلبت .
(٥) العزى : اسم صنم لقريش .

صلى الله عليه وسلم أشدّ القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده . وعن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة معهم يومئذ، ولا قبله ولا بعده إلا يوم بدر . قال البيهقي : إنما أراد مجاهد أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُد عن القوم حين عصوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به . وعن عروة بن الزبير قال : وكان الله عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين : وكان قد فعل؛ فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصَافَّهم وترك الرماةُ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ألّا يبرحوا من منازلهم ، وأرادوا الدنيا ، رُفع عنهم مددُ الملائكة، وأنزل الله تعالى «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ» فصدق الله وعده وأراهم الفتح، فلما عَصَوْا أعقبهم البلاء . وعن عمير بن إسحاق قال : لمـا كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعدٌ يَرمى بين يديه، وفَتًى يُنَبِّل له، كلما ذهبت نَبْلَةٌ(١) أتاه بها . قال : ارْمِ أبا إسحاق . فلما فرغوا نظروا من الشابّ؟ فلم يروه ولم يعرفوه . وقال محمد بن كعب : ولما قُتِل صاحب لواءِ المشركين وسقط لواؤهم، رفعته عَمْرَة بنت علقمة الحارثية؛ وفي ذلك يقول حَسّان :

فلولا لِواءُ الحارثِيّة أصبحوا　＊　يباعُون في الأسواق بيعَ الجلائب

و﴿ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ معناه تقتلونهم وتستأصلونهم؛ قال الشاعر :

حَسَسْناهم بالسّيف حَسًّا فأصبحتْ　＊　بقيّتهم قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا

وقال جرير :

تَحُسُّهُمُ السّيُوفُ كما تَسامَى　＊　حَريقُ النّارِ في الأَجَمِ الحَصِيدِ

قال أبو عبيد : الحَسّ الاستئصال بالقتل؛ يقال : جراد محسوس إذا قتله البردُ . والبرد مَحَسَّةٌ للنبت . أي مُحْرِقَةٌ له ذاهبة به . وسَنَةٌ حَسُوس أي جدبة تأكل كل شيء؛ قال رؤبة :

إذا شَكَوْنا سَنَةً حَسُوسَا　＊　تأكل بعدَ الأَخْضَرِ(٢) البَبِيسَا

وأصله من الحِسّ الذي هو الإدراك بالحاسة . فمعنى حَسَّه أذهب حِسّه بالقتل . ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بعلمه، أو بقضائه وأمره . ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ أي جَبُنتم وضَعُفتم . يقال : فَشِل يفْشَل فهو

(١) في د : نقله محمد بن كعب .　(٢) في اللسان : الخضرة .

فَشِل وفَشُل . وجواب « حتى » محذوف، أى حتى إذا فشلتم امتُحِنتم . ومثل هـذا جائز كقوله : « فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ »(١) فافعـل . وقال الفرّاء: جواب «حَتَّى»، «وَتَنَازَعْتُمْ» والواو مقحمة زائدة؛ كقوله « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ »(٢) أى ناديناه . وقال آمرؤ القيس :

* فلمّا أجَزْنا ساحةَ الحيِّ وآنتحَى *

أى انتحى . وعنـد هؤلاء يجوز إقحام الواو من « وَعَصَيْتُمْ » . أى حتى إذا فشلتم وتنازعتم عصيتم . وعلى هذا فيـه تقديم وتأخير، أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم . وقال أبو على : يجوز أن يكون الجواب « صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » ، و«ثم» زائدة، والتقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم . وقد أنشد بعض النحويين فى زيادتها قول الشاعر :

أرانِى إذا ما بِتُّ بِتّ على هوًى * فثُمّ إذا أصبحتُ أصبحتُ عاديا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة؛ كما فى قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ »(٣) . وقيل : « حـتى » بمعنى « إلى » وحينئـذ لا جواب له؛ أى صـدقكم الله وعده إلى أن فشـلتم ، أى كان ذلك الوعد بشرط الثبات . ومعنى ﴿ تَنَازَعْتُمْ ﴾ اختلفتم؛ يعنى الرماة حين قال بعضهم لبعض : نلحق الغنائم . وقال بعضهم : بل نثبت فى مكاننا الذى أمرنا النبي صلى الله عليـه وسلم بالثبوت فيـه . ﴿ وَعَصَيْتُمْ ﴾ أى خالفتم أمر الرسول فى الثبوت . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ يعنى من الغلبة التى كانت للسلمين يوم أُحد أول أمرهم؛ وذلك حين صُرِع صاحب لواء المشركين على ما تقـدّم ، وذلك أنه لمـا صُرِع انتشر النبي صلى الله عليـه وسلم وأصحابه وصاروا كتائب متفرّقة فحاسُوا(٤) العدوّ ضربا حتى أجهضُوهم(٥) عن أثقالهم . وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات كل ذلك تُنْضَح بالنَّبل فترجع مغلوبة(٦) ، وحمل المسلمون فنهكُوهم قتلا . فلما أبصر الرماةُ الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهـم قالوا : والله ما نجلس

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٩ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٨١
(٤) الحوس : شدّة الاختلاط ومداركة الضرب . أى بالغوا النكاية فيهم؛ فى هـ و د : جاسوا .
(٥) أى نحوهم عنها وأزالوهم . (٦) فى د : مفلولة .

ههنا لشيء ، قد أهلك الله العدو وإخواننا في عسكر المشركين . وقال طوائف منهم : عَلامَ نقفُ وقد هزم الله العدو؟ فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ألّا يتركوها ، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول فأوجفت الخيل فيهم قتلا[1] . وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم ، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام . ثم بيّن سبب التنازع فقال : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة . قال ابن مسعود : ما شعرنا أن أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد . ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا في مركزهم، ولم يخالفوا أمر نبيهم صلى الله عليه وسلم مع أميرهم عبد الله بن جبير؛ فحمل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل عليه، وكانا يومئذ كافرين فقتلوه مع من بقي، رحمهم الله . والعتاب مع من انهزم لا مع من ثبت ، فإن من ثبت فاز بالثواب، وهذا كما أنه إذا حل بقوم عقوبة عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون؛ ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة ، بل هو سبب المثوبة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي بعد أن استوليتم عليهم ردّكم عنهم بالانهزام . ودلّ هذا على أن المعصية مخلوقة لله تعالى . وقالت المعتزلة : المعنى ثم انصرفتم؛ فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاءً لهم . قال القشيري : وهذا لا يغنيهم، لأن إخراج الرعب من قلوب الكافرين حتى يستخفّوا بالمسلمين قبيحٌ ولا يجوز عندهم، أن يقع من الله قبيحٌ، فلا يبقى لقوله : « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » معنًى . وقيل : معنى « صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أي لم يكلفكم طلبهم .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة . والخطاب قيل هو للجميع . وقيل : هو للرماة الذين خالفوا ما أُمروا به ، واختاره النحاس . وقال أكثر المفسرين : ونظير هذه الآية قوله : « ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم[2] » . ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة . وعن ابن عباس قال : ما نُصر النبيّ صلى الله

(١) الإيجاف : سرعة السير . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٧

عليه وسلم فى موطن كما نُصر يوم أُحد، قال: وأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بينى وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل، إن الله عز وجل يقول فى يوم أُحد: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ — يقول ابن عباس: والحَسّ القتـل «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْـدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» وإنمـا عنى بهذا الرماة. وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أقامهم فى موضـع ثم قال: "احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا". فلمـا غنِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرماةُ جميعا فدخلوا فى العسكر ينتهبون، وقد التقت صفوف أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم، فهم هكذا — وشبّك أصابع يديه — والتبسوا. فلما أخلّ الرماةُ تلك الخَلّة[(١)] التى كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضا والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابِه أوّلُ النهار حتى قتل من أصحاب لواءِ المشركين سـبعة أو تسعة، وجال المسلمون نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس: الغار[(٢)]، إنما كانوا تحت المِهراس[(٣)] وصاح الشيطان: قتل محمد. فلم يُشَكّ فيه أنه حق، فمـا زلنا كذلك ما نشك أنه قتِل حتى طلع علينا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بين السّعدين[(٤)]، نعرفـه بتكفّئه[(٥)] إذا مشى. قال: ففرحنا حتى كأنّا لم يصبنا ما أصابنا. قال: فرقى نحونا وهو يقول: "اشـتدّ غضب الله على قوم دمّوا وجه نبيهم[(٦)]". وقال كعب بن مالك: أنا كنت أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين؛ عرفته بعينيه من تحت المِغْفَر تزهران فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين! ابشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل. فأشار إلىّ أن اسكت.

---

(١) أخلّ بالمكان وبمركزه: غاب عنه وتركه. والخلة: الطريق. (٢) كذا فى الأصـول. والذى فى الدر المنثور، والمستدرك للحاكم: «... أغاب» بالباء بدل الراء. (٣) المهراس: ماء بجبل أحد.

(٤) السعدان: سعد بن معاذ وسـعد بن عبادة. (٥) التكفؤ: التمايل إلى قـدام كما تكفأ السفينة فى جريها. (٦) فى د و هـ و ج: وجه رسوله.

قوله تعالى : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إذ » متعلق بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ » . وقراءة العامة « تُصْعِدُونَ » بضم التاء وكسر العين . وقرأ أبو رجاء العطارِدِيّ وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين ؛ يعنى تصعدون الجبل . وقرأ ابن مُحَيْصِن وشِبْل « إذ يصعدون ولا يلوون » بالياء فيهما . وقرأ الحسن «تَلُون» بواو واحدة . وروى أبو بكر بن عيّاش عن عاصم «ولا تُلوون» بضم التاء؛ وهى لغة شاذة ذكرها النحاس . وقال أبو حاتم : أصعدت إذا مضيت حيال وجهك ، وصعِدت إذا ٱرتقيت فى جبل أو غيره . فالإصعاد : السير فى مستوٍ من الأرض وبطون الأودية والشِّعاب . والصعود : الٱرتفاع على الجبال والسطوح والسّلاليم والدَّرَج . فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى ؛ فيصح المعنى على قراءة « تُصْعِدون » و « تَصْعَدون » . قال قتادة والربيع : أصعدوا يوم أحد فى الوادى . وقراءة أُبَىّ « إذ تَصعدون فى الوادى » . قال ابن عباس : صعِدوا فى أُحُد فرارا . فكلتا القراءتين صواب ؛ كان يومئذ من المنهزمين مُصْعِد وصاعد . والله أعلم . قال القُتَبِيّ والمبرد : أصعد إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه؛ فكأن الإصعاد إبعاد فى الأرض كإبعاد الارتفاع ؛ قال الشاعر(١) :

ألا أيهذا السائلى أينَ أصْعدتْ(٢) * فإنّ لها من بطن يثْرِبَ موعِدا

وقال الفرّاء : الإصعاد الابتداء فى السفر، والانحدار الرجوع منه ؛ يقال : أصعدنا من بغداد إلى مكة و إلى خراسان وأشباه ذلك إذا خرجنا إليها وأخذنا فى السفر، وانحدرنا إذا رجعنا . وأنشد أبو عبيدة :

قد كنتِ تبكين على الإصعاد * فاليوم سُرِّحْتِ وصاح الحادِى

(١) هو أعشى قيس . (٢) الذى فى ديوان الأعشى وسيرة ابن هشام ص ٢٥٥ طبع أوربا : « أين يممت » . والبيت من قصيدة يمدح بها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا * وعادك ما عاد السليم المسهدا

وقال المفضل : صَعِد وأصْعَد وصَعَّد بمعنى واحد . ومعنى « تَلْوُونَ » تعرجون وتقيمون، أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هَرَبا ؛ فإن المُعرِّج على الشيء يلوى إليه عُنقه أو عنان دابته . ﴿ عَلَى أَحَدٍ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ قاله الكلبي . ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ أى فى آخركم ؛ يقال : جاء فلان فى آخر الناس وأُخْرَة الناس وأُخْرَى الناس وأخريات الناس . وفى البخارى « أُخْرَاكُمْ » تأنيث آخركم : حدّثنا عمرو بن خالد حدّثنا زهير حدّثنا أبو إسحاق قال سمعت البراء بن عازب قال : جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم على الرَّجَّالة يوم أُحُد عبد الله ابن جبير وأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم . ولم يبق مع النبيّ صلى الله عليه وسلم غير اثنى عشر رجلا . قال ابن عباس وغيره : كان دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أى عباد الله ارجعوا" . وكان دعاءه تغييرا للنكر ، ومحال أن يرى عليه السلام المنكر وهو الانهزام ثم لا ينهى عنه .

قلت : هـذا على أن يكون الانهـزام معصية وليس كذلك ، على ما يأتى بيـانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ الغم فى اللغة : التغطية . غممت الشيء غطيته . ويوم غَمٌّ وليلة غَمَّةٌ إذا كانا مظلمين . ومنه غمّ الهلال إذا لم ير، وغمّني الأمر يغُمُّني . قال مجاهد وقتادة وغيرهما : الغَمّ الأوّل القتل والجراح ، والغم الثانى الإرجاف بقتل النبيّ صلى الله عليه عليه وسلم ؛ إذ صاح به الشيطان . وقيل : الغم الأوّل ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثانى ما أصابهم من القتل والهزيمة . وقيل : الغَمّ الأوّل الهزيمة، والثانى إشراف أبى سفيان وخالد عليهم فى الجبـل ؛ فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك ، وظنوا أنهـم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هـذا ما نالهم ؛ فعند ذلك قال النبيّ صـلى الله عليه وسـلم : "اللّهم لا يَعْلُنّ علينا" كما تقـدّم . والباء فى « بِغَمٍّ » على هذا بمعنى على . وقيل : هى على بابها ، والمعنى أنهم غموا النبيّ صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم إياه، فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم . وقال الحسن : «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا» يوم أحد «بِغَمٍّ» يوم بدر للشركين . وسمى الغم ثوابا كما سمى جزاء الذنب ذنبا . وقيل : وقفهم الله على ذنبهم فشغلوا بذلك عما أصابهم .

قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ اللام متعلقة بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » وقيل : هى متعلقة بقوله : « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى كان هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من الهزيمة . والأول أحسن . و « ما » فى قوله « مَا أَصَابَكُمْ » فى موضع خفض . وقيل : « لا » صلة . أى لكى تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبةً لكم على مخالفتكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو مثل قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »(١) أى أن تسجد . وقوله « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ »(٢) أى ليعلم ؛ وهذا قول المفضَّل . وقيل : أراد بقوله « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى توالت عليكم الغموم ، لكيلا تشتغلوا بعد هذا بالغنائم . «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» فيه معنى التحذير والوعيد .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ الأمنَة والأمن سواءٌ . وقيل : الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه . وهى منصوبة بـ« أَنزَلَ » و « نعاسا » بدلٌ منها . وقيل : نصب على المفعول له ؛ كأنه قال : أنزل عليكم للأمنة نعاسا(٣) . وقرأ ابن مُحَيْصِن « أَمْنَةً » بسكون الميم . تفضل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم فى يوم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٩　　(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٦

(٣) فى ز و هـ و د : أنزل عليهم للأمنة نعاسا ، وفى جـ : أنزل عليكم الأمنة .

أُحُد بالنعاس حتى نام أكثرهم ؛ وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام . روى البخاريّ عن أنس أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن فى مَصافّنا يوم أحد، قال : فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه . ﴿ يَغْشَى ﴾ قرئ بالياء والتاء. الياء للنعاس، والتاء للأمنة . والطائفة تطلق على الواحد والجماعة . ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ يعنى المنافقين : مُعَتِّب بن قُشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعا فى الغنيمة وخوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسفون على الحضور ، ويقولون الأقاويل . ومعنى « قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » حملتهم على الهمّ ، والهمّ ما هممت به؛ يقال : أهمّنى الشيء أى كان من همى . وأمرٌ مُهِمٌّ : شديد . وأهمّنى الأمر أقلقنى ، وهمّنى أذابنى(1) . والواو فى قوله « وطائفةٌ » واو الحال بمعنى إذْ ، أى إذ طائفةٌ يَظُنُّونَ أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم باطل ، وأنه لا يُنصر . ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أى ظنّ أهْلِ الجَاهِلِيَّة ، فحذف . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لفظه استفهام ومعناه الجحد ، أى ما لنا شيء من الأمر ، أى من أمر الخروج ، وإنما خرجنا كرها ؛ يدلّ عليه قوله تعالى إخبارا عنهم : « لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا » . قال الزبير : أُرسِل علينا النوم ذلك اليوم، وإنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير والنعاسُ يغشانى يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا . وقيل : المعنى يقول ليس لنا من الظَّفَر الذى وَعَدَنا به محمد شيءٌ . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب « كُلُّه » بالرفع على الابتداء ، وخبره « لِلَّهِ » ، والجملة خبر « إن » . وهو كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ(2) » . والباقون بالنصب؛ كما تقول : إن الأمر أجمع لله . فهو توكيد ، وهو بمعنى أجمع فى الإحاطة والعموم ، وأجمع لا يكون إلا توكيدا . وقيل : نعت للأمر . وقال الأخفش : بدل ؛ أى النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء . وقال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » يعنى التكذيب بالقَدَر . وذلك أنهم تكلّموا فيه ، فقال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » يعنى القَدَر خيره وشره من الله . ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى من الشرك

---

(1) أى حزنه الأمر حتى أذابه .

(2) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٣

والكفر والتكذيب . ﴿ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ يظهرون لك . ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ أى ما قُتِل عشائرنا . فقيل : إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة ، ولمَا قُتِل رؤساؤنا . فردّ الله عليهم فقال : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ﴾ أى لخرج . ﴿ الَّذِينَ كُتِبَ ﴾ أى فرض . ﴿ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ . ﴿ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أى مصارعهم . وقيل : « كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » أى فرض عليهم القتال ، فعبّر عنه بالقتل ؛ لأنه قد يؤول إليه . وقرأ أبو حَيْوة « لَبُرِّزَ » بضم الباء وشدّ الراء ؛ بمعنى يُجعل يَخرج . وقيل : لو تخلفتم أيها المنافقون لبرزتم إلى موطن آخر غيره تُصرعون فيه حتى يَبتلى الله ما فى الصدور ويُظهره للؤمنين . والواو فى قوله ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ﴾ مقحمة كقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١) أى ليكون ، وحذف الفعل الذى مع لام كى . والتقدير ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أُحد ليختبر صبركم وليُمحّص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم . وقيل : معنى « لِيَبْتَلِيَ » ليعاملكم معاملة المختبر . وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غَيْباً . وقيل : هو على حذف مضاف ، والتقدير ليبتلى أولياء الله تعالى . وقد تقدّم معنى التمحيص . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى ما فيها من خير وشر . وقيل : ذات الصدور هى الصدور ؛ لأن ذات الشيء نفسه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ هذه الجملة هى خبر « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا » . والمراد من تولّى عن المشركين يوم أُحد ؛ عن عمر رضى الله عنه وغيره . السُّدّى : يعنى من هرب إلى المدينة فى وقت الهزيمة دون من صَعِد الجبل . وقيل : هى فى قوم بأعيانهم تخلّفوا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى وقت هزيمتهم ثلاثة أيام ثم انصرفوا . ومعنى « اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ » استدعى زللهم بأن ذكّرهم خطايا سلفت منهم ، فكرهوا الثبوت لئلا يُقتلوا .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣

وهو معنى « ببعض ما كسبوا » . وقيل : « ٱسْتَزَلَّهُمُ » حملهم على الزلل ، وهو استفعل من الزلة وهى الخطيئة . وقيل : زلّ وأزلّ بمعنًى واحد . ثم قيل : كرهوا القتال قبل اخلاص التوبة ، فإنما تولّوا لهذا ، وهذا على القول الأول . وعلى الثانى بمعصيتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تركهم المركز وميلهم إلى الغنيمة . وقال الحسن : « مَا كَسَبُوا » قبولهم من إبليس ما وسوس إليهم . وقال الكلبيّ : زيّن لهم الشيطان أعمالهم . وقيل : لم يكن الانهزام معصية؛ لأنهم أرادوا التحصّن بالمدينة،فيقطع العدوّ طمعه فيهم لمّا سمعوا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قُتِل. ويجوز أن يقال : لم يسمعوا دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم لِلهَوْل الذى كانوا فيه. ويجوز أن يقال : زاد عدد العدوّ على الضِّعف؛ لأنهم كانوا سبعمائة والعدوّ ثلاثة آلاف. وعند هذا يجوز الانهزام ولكن الانهزام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم خطأٌ لا يجوز ، ولعلّهم توهّموا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم انحاز إلى الجبل أيضا . وأحسنها الأول . وعلى الجملة فإن حُمِل الأمر على ذنب مُحقَّق فقد عفا الله عنه ، وإن حُمِل على انهزام مُسوّغ فالآية فيمن أبعد فى الهزيمة وزاد على القدر المسوّغ . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَندِيّ نصر بن محمد بن إبراهيم قال : حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا السراج قال حدّثنا قتيبة قال حدّثنا أبو بكر بن غَيْلان عن جرير: أن عثمان كان بينه و بين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتَسُبّنِي وقد شهدتُ بَدْرًا ولم تَشْهَد، وقد بايعتُ تحت الشجرة ولم تبايع ، وقد كنتَ تُوَلّى مع من تولّى يوم الجَمْع، يعنى يوم أُحُد . فردّ عليه عثمان فقال: أما قولك: أنا شهدتُ بدرا ولم تشهد، فإنى لم أَغِب عن شيء شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مريضةً وكنت معها أُمَرِّضها، فضرب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهما فى سهام المسلمين ، وأما بيعة الشّجرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى رَبِيئَةً على المشركين بمكة — الرَّبِيئَةُ هو الناظر — فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه على شماله فقال: " هذه لعثمان " فيمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وشماله خير لى من يمينى وشمالى . وأما يوم الجَمْع فقال الله تعالى : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » فكنتُ فيمن عفا الله عنهم . فحجّ(١) عثمانُ عبدَ الرحمن .

(١) فى ب و هـ و د : فخاصم؛ وفى جـ : فحاج .

قلت : وهذا المعنى صحيحٌ أيضا عن ابن عمر، كما في صحيح البخارى قال : حدّثنا عَبْدان أخبرنَا أبو حمزة عن عثمان بن مَوْهَب قال : جاء رجلٌ حجّ البيتَ فرأى قوما جلوسا فقال : مَن هؤلاء القعود؟ قالوا : هؤلاء قريش . قال : مَن الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال : إنى سائلك عن شىء أتحدّثنى ؟ قال : أنْشُدكَ بحُرْمة هـذا البيت ، أتعلم أن عثمانَ بنَ عفّان فرّ يوم أُحُد ؟ قال : نعم . قال : فتعلَمُه تغيّب عن بَدْرٍ فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أنه تخلّف عن بيعة الرِّضوان فلم يشهدها ؟ قال نعم . قال : فكبّر . قال ابن عمر : تعالَ لِأخبرك ولأبيّن لك عما سألتنى عنه ؛ أمّا فِراره يوم أُحُد فأشهد أن الله عفا عنه . وأما تغيُّبه عن بَدْرٍ فإنه كان تحتـه بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وكانت مريضةً ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "إن لكَ أجرَ رجل ممن شَهِد بَدْرًا وسهْمَه" . وأما تغيُّبُه عن بيعة الرِّضوان فإنه لو كان أحدٌ أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمانَ وكانت بيعةُ الرضوان بعد ما ذهب عثمانُ إلى مكة ؛ فقال (١) النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : "هذه يد عثمان" فضرب بها على يده (٢) فقال : "هذه لعثمان" . آذهب بهذا (٣) الآن معك .

قلت : ونظير هذه الآية توبةُ الله على آدمَ عليه السلام . وقوله عليه السـلام : "فحجّ آدمُ موسى" أى غلبه بالحُجّة ؛ وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخ آدمَ ولومَه فى إخراج نفسه وذرّيّته من الجنة بسبب أكله من الشجرة ؛ فقال له آدم: "أفتلومُنى على أمر قدّره الله تعالى علىّ قبل أن أخلَق بأربعين سنة تاب علىّ منه ومن تاب عليه فلا ذنب له ومن لاذنب له لايتوجّه عليه لومٌ" . وكذلك من عفا الله عنه . وإنمـا كان هذا لإخباره تعالى بذلك ، وخبرُه صِدْقٌ . وغيرهما من المذنبين التائبين يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فهم على وَجَل وخوف ألّا تُقبل توبتهم ، وإن قُبلت فالخوف أغلبُ عليهم إذ لا عِلْمَ لهم بذلك . فاعلم .

(١) قال : أشار، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده أى أخذ ، وقال برجله أى مشى ، وقال بثوبه أى رفعه ، وكل ذلك على الاتساع والمجاز (عن نهاية ابن الأثير) .

(٢) أى اليسرى . (٣) فى رواية "بها" أى بالأجوبة التى أجبتك بها حتى يزول عنك ما كنت تعتقده من عيب عثمان . (عن القسطلانى) فى ب و هـ و د : بهذه .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى المنافقين . ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ يعنى فى النفاق أو فى النسب فى السرايا التى بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بئر مَعُونة . ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ فنُهِى المسلمون أن يقولوا مثلَ قولهم . وقوله : ﴿ إِذَا ضَرَبُوا ﴾ هو لِما مضى ؛ أى إذْ ضربوا ؛ لأن فى الكلام معنى الشرط من حيث كان « الذين » مُبْهَما غير موقَّت ، فوقع « إذا » موقِعَ « إذْ » كما يقع الماضى فى الجزاء موضع المستقبل . ومعنى ﴿ ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ سافروا فيها وساروا لتجارة أو غيرها فماتوا . ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ غُزاة فقُتِلوا . والغُزَّى جمعٌ منقوص لايتغيّر لفظُها فى رفع وخفض ، واحدهم غازٍ ، كراكع ورُكَّع ، وصائم وصُوَّم ، ونائم ونُوَّم ، وشاهِد وشُهَّد ، وغائِب وغُيَّب . ويجوز فى الجمع غُزاة مثل قُضاة ، وغُزّاء بالمد مثل ضُرَّاب وصوّام . ويقال : غَزِيّ[1] جمع الغزاة . قال الشاعر[2] :

* قل للقوافِلِ والغَزِيّ إذا غَزَوْا *

ورُوِى عن الزُّهرِى أنه قرأه « غُزًى » بالتخفيف . والمُغْزِيَةُ المرأة التى غَزا زوجُها . وأَتانٌ مُغْزِيَةٌ متأخِّرةُ النِّتاج ثم تُنْتَج . وأَغزَت النّاقةُ إذا عَسُر لِقاحُها . والغَزْوُ قصدُ الشىء . والمَغْزَى المَقْصِدُ . ويُقَال فى النَّسَب إلى الغَزْو : غَزَوِيٌّ .

(١) فى اللسان مادة « غزا » أنه جمع غاز مثل حاج وحجيج وقاطن وقطين وناد وندى وناج ونجى .

(٢) هو زياد الأعجم . وقيل : هو الصلتان العبدى ، وتمامه كما فى اللسان :

* والباكرين وللمجدّ الرّائح *

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى ظنّهم وقولهم . واللّام متعلقة بقــوله « قالوا » أى ليجعل ظنهم أنهــم لو لم يخــرجوا ما قُتــلوا . « حَسْرَةً » أى ندامة « فى قُلُوبِهِمْ » . والحسرة الاهتمام على فائت لم يُقْدَر بلوغُه؛ قال الشاعر :

فوَاحسرتى لم أقض منها لُبانتى　*　ولم أتمتّعْ بالجُــوَارِو بالقُــرب

وقيــل : هى متعلقة بمحذوف . والمعنى : لا تكونوا مثلهم « ليجعل الله ذلك » القولَ « حسرةً فى قلوبهــم » لأنهم ظهر نفاقهم . وقيــل : المعنى لا تصدّقوهم ولا تلتفتوا إليهم؛ فكان ذلك حسرة فى قلوبهم . وقيــل : « لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ» يوم القيامة لِمَا هم فيه من الخزى والندامة، ولِمَا فيه المسلمون من النعيم والكرامة .

قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى يقدر على أن يُحيى من يخرج إلى القتال، ويميت من أقام فى أهله . ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ قرئ بالياء والتاء . ثم أخبر تعــالى أن القتل فى سبيل الله والموت فيه خيرٌ من جميع الدنيا .

قوله تعــالى : وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

جواب الجزاء محذوف، استغنى عنه بجواب القسم فى قوله :﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ وكان الاستغناء بجواب القَسم أولى؛ لأنّ له صَدْر الكلام، ومعناه ليغفرنّ لكم . وأهل الحجاز يقولون : مِــتُّم ، بكسر الميم مثل نِمــتم ، من مات يمــات مثل خِفت يخاف . وسُفْلَى مُضَر يقولون : مُــتم، بضم الميم مثل صمتم، من مات يموت . كقولك كان يكون، وقال يقول . هذا قول الكوفيين وهو حسن . وقــوله : ﴿ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وَعْظٌ . وعظهم الله بهذا القول، أى لا تفرّوا من القتال ومما أمركم به، بل فِرّوا من عقابه وأليم عذابه، فإن مَرَدّكم إليه لا يملك لكم أحد ضرّا ولا نفعا غيره . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩)

« ما » صلةٌ فيها معنى التأكيد ، أى فبرحمة؛ كقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ »(١) « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ »(٣) . وليست بزائدة على الإطلاق ، و إنما أطلق عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها . ابن كَيْسان : « ما » نكرة فى موضع جر بالباء ﴿ ورحمةٍ ﴾ بَدلٌ منها . ومعنى الآية : أنه عليه السلام لمـا رَفَق بمن تولى يوم أُحُد ولم يُعنّفهم بيّن الربُّ تعالى أنه إنما فعَل ذلك بتوفيق الله تعالى إيّاه . وقيل : « ما » استفهامٌ . والمعنى : فبأيّ رحمةٍ من الله لِنتَ لهُم؛ فهو تعجيب . وفيه بُعْدٌ؛ لأنه لو كان كذلك لكان « فبم » بغير ألف . ﴿ لِنتَ ﴾ من لَانَ يَلِينُ لِينًا ولَيَانًا بالفتح . والفَظُّ الغَلِيظُ الجافِى . فَظِظْتَ تَفَظُّ فَظَاظَةً وفَظَاظًا فأنت فَظٌّ . والأنثى فَظَّةٌ والجمع أفْظَاظ . وفى صفة النبىّ عليه السلام ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظ ولا صَخّاب فى الأسواق؛ وأنشدَ المُفضّل فى المذكّر :

وليس بفَظٍّ فى الأدانِى والأولى * يَؤُمُّونَ جَدْوَاهُ ولكنّه سَهْلُ
وفَظٌّ على أعدائه يَحْذَرُونَه * فَسَطْوَتُه حَتْفٌ ونائلُه جَزْلُ

وقال آخرُ فى المؤنّث :

أَمُوتُ مِن الضُّرّ فى منزلى * وغيرى يموتُ من الكِظَّهْ(٤)
ودُنْيَا تَجودُ على الجاهليـ * ـن وهْى على ذِى النُّهَى فَظَّهْ

وغِلَظُ القلب عِبارةٌ عن تَجَهُّم الوجه، وقِلّةِ الانفعالِ فى الرَّغائِب ، وقلّةِ الإشفَاقِ والرّحمة ، ومن ذلك قولُ الشّاعر :

يُبْكَى علينا ولا نَبْكِى على أَحدٍ؟ * لَنَحْنُ أغلَظُ أكبادًا من الإبِلِ

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ١١٤ (٣) راجع ١٥ ص ١٥١
(٤) الكظة : البطنة .

ومعنَى ﴿ لَانْفَضُّوا ﴾ لتفرّقوا، فضضتهم فانفضّوا، أى فرّقتهم فتفرّقوا؛ ومن ذلك قول أبى النّجم يصف إبلا :

مستعجلات القيض (١) غير جُرْد (٢) * ينفَضّ عنهن الحَصَى بالصَّمْد (٣)

وأصل الفض الكسر؛ ومنه قولهم : لا يَفْضُضِ الله فاكَ . والمعنى : يا محمدُ لولا رفقُك لَمَنَعهم الاحتِشَامُ والهيبةُ من القُرب منك بعد ما كان من تَوَلِّيهم .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قال العلماء : أمَر الله تعالى نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التى هى بتدريج بليغ؛ وذلك أنه أمره بأن يَعفُوَ عنهم ما له فى خاصّته عليهم من تَبِعة؛ فلما صاروا فى هذه الدرجة أمره أن يستغفِر فيما لله عليهم من تَبِعَة أيضا ، فإذا صاروا فى هذه الدّرجة صاروا أهْلًا للاستشارة فى الأمور . قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب : شُرْتُ الدابة وشوّرتُها إذا علمت خبرها بجرى أو غيره . ويقال للموضع الذى تركُضُ فيه : مِشْوَار . وقد يكون من قولهم : شُرْت العسلَ واشْتَرْتُه فهو مَشُور ومُشْتار إذا أخذته من موضعه، قال عَدِىّ بنُ زَيد :

فى سَمَاع يأذَنُ الشَّيخُ له * وحَديث مثل مَاذِىّ مُشَار (٤)

الثانيــة — قال ابنُ عَطية : والشُّورَى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يَستَشِيرُ أَهلَ العِلم والدِّين فعزلُهُ واجبٌ . هذا ما لا خلاف فيه . وقد مدَح الله المؤمنين بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » (٥) . قال أعْرابِىٌّ : ما غُبِنْتُ قَطُّ حتى يُغْبَنَ قومى؛ قيل :

---

(١) كذا فى الأصول بالقاف والياء المثناة ، ولعله مصحف عن « القبض » بالقاف والباء الموحدة وهو السوق السريع ، وإنما سمى السوق السريع قبضا لأن السائق للإبل يقبضها أى يجمعها إذا أراد سوقها ، فإذا انتشرت تعذر عليه سوقها ، أو القبص بمهملة : العدو الشديد . (٢) كذا فى الأصول بالمعجمة ، ولعله « حرد » بالحاء المهملة ، والحرد فى البعير أن تنقطع عصبة ذراعه فتسترخى يده فلا يزال يخفق بها أبدا . (٣) الصمد : المكان الغليظ المرتفع من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلا . (٤) يأذن : يستمع . والماذى : العسل الأبيض . والمشار : المجتنى . (٥) راجع جـ ١٦ ص ٣٦

وكيف ذلك ؟ قال لا أفعل شيئا حتى أشاورهم . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : واجب على الوُلاة مشاورةُ العلماء فيما لا يَعلمون ، وفيما أَشكل عليهم من أمور الدِّين، ووُجوه الجيش فيما يتعلّق بالحرب ، ووجوه النـاس فيما يتعلّق بالمصالح ، ووُجـوه الكُتّاب والوزراء والعمال فيما يتعلّق بمصالح البـلاد وعِمارتها . وكان يقال : ما ندم من استشار (١) . وكان يُقال : من أُعْجِبَ برأيه ضَـلّ .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ يَدُلّ على جواز الاجتهاد فى الأمور والأخذ بالظُّنون مع إمكان الوَحْى ؛ فإن الله أذن لرسوله صلى الله عليه وسـلم فى ذلك . واختلف أهل التأويل فى المعنى الذى أمر الله نبيَّه عليه السلام أن يُشاوِرَ فيه أصحابَه ؛ فقالت طائفة : ذلك فى مكائد الحُروب ، وعند لِقاء العَدُو ، وتطييبا لِنفُوسهم ، ورَفْعـا لِأقدارِهم ، وتألُّفًا على دينهم ، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحْيه . رُوى هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعيّ . قال الشافعيّ : هو كقـوله " والبِكرُ تُستأمَرُ " تطييبا لقلبها ؛ لا أنّه واجبٌ . وقال مُقاتِلُ وقَتادةُ والربيـع : كانت سَاداتُ العرب إذا لم يُشاوَرُوا فى الأمر شقّ عليهم : فأمر الله تعالى ؛ نبيّه عليه السلام أن يُشاورَهم فى الأمر : فإن ذلك أَعْطَفُ لهم عليه وأذهَبُ لأضغانهم ، وأَطيبُ لنفوسهم . فإذا شاورَهم عرَفُوا إكرامَه لهم . وقال آخرون : ذلك فيما لم يأته فيه وَحْىٌ . رُوى ذلك عن الحسن البصرى والضحاك قالا : ما أمر الله تعالى نبيه بالمُشاوَرة لحاجةٍ منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يُعلِّمَهم ما فى المُشاوَرةِ من الفضل ، ولِتَقتدىَ به أمّتُه من بعدِه . وفى قراءة ابنِ عباس : « وَشَاوِرْهُمْ فِي بعضِ الأمرِ » ولقد أحسن القائل :

شَاوِر صديقَكَ فى الخَفِىِّ المُشْكِلِ * واقبَـلْ نصيحَةَ ناصحٍ مُتفضِّـلِ
فاللهُ قـد أوصَى بذاكَ نبيَّـهُ * فى قولِه : (شاوِرْهُمْ) و (توكّلِ)

الرابعــة ــ جاء فى مصنَّف أبى داود عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : " المُستَشارُ مُؤتَمَن » . قال العلماء : وصِفةُ المُستشارِ إن كان فى الأحكامِ أن

(١) هـذا حديث رواه الطبرى فى أوسطه والقضاعى عن أنس وحسنه السيوطى وفى كشف الخفا : فى سنده ضعيف جدا .

يكون عالمـا دينّا، وقلمـا يكونُ ذلك إلّا فى عاقل . قال الحسن : ما كُمل دِينُ امرئٍ ما لم يكمل عقلُه . فاذا استُشير مَنْ هـذه صِفتُهُ واجتهد فى الصّلاح و بذَل جُهدَه فوقعت الإشارةُ خَطأً فلا غَرامةَ عليه؛ قاله الخطّابىُّ وغيرُه .

الخامسة — وصفةُ المُستشارِ فى أمورِ الدنيا أن يكون عاقلا مُجرِّبًا وادًّا فى المُستَشير . قال :

* شاورْ صديقَك فى الخفِى المُشْكِلِ *

وقد تقدّم . وقال آخر :

وإنْ بَابُ أمرٍ عليكَ الْتوَى * فَشَاوِر لبيبًا ولا تَعْصِهِ

فى أبيات (١) . والشُّورى بَرَكَةٌ . وقال عليه السلام : " ما نَدِمَ مَن اسْتَشَار ولا خَابَ مَن اسْتَخَار " . وروى سهلُ بْنُ سعد السّاعدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما شَقِىَ قطُّ عبدٌ بمشورة وما سَعِد باستغناء رأى " . وقال بعضهم : شَاوِرْ مَن جرّبَ الأمورَ؛ فإنه يُعطيك من رأيه ماوقع عليه غاليا وأنت تأخذه مجانا . وقد جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة — وهى أعظم النّوازِلِ — شورى . قال البخارىّ : وكانت الأئمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم يستَشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها . وقال سفيان الثورىّ : ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة، ومن يخشى الله تعالى . وقال الحسن : والله ما تشاوَرَ قوم بينهم إلا هداهم لِأفضل ما يحضر بهم (٢) . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم كانت لهم مشورةٌ فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه فى مشورتهم إلا خِيرَ لهم " .

---

(١) وقبل هذا البيت :

إذا كنت فى حاجة مرسلا * فأرسل حكيما ولا توصه

وبعده :

ونص الحديث إلى أهله * فإن الوثيقة فى نصه

إذا المرء أضمر خوف الإله * تبين ذلك فى شخصه

(٢) فى ب و ج : ما بحضرتهم .

السادسة — والشُّورى مبنيّة على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر فى ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ماشاء منه عزم عليه وأنفذه متوكّلا عليه، إذْ هذه غاية الاجتهاد المطلوب؛ وبهذا أمر الله تعالى نبيّه فى هذه الآية .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ قال قتادة : أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يَمْضِىَ فيه ويتوكّل على الله، لا على مشاورتهم . والعزم هو الأمر المُرَوَّى المنقّح، وليس ركوب الرأى دون رَوِيّة عزما، إلا على مقطع المُشيحين من فُتّاك العرب؛ كما قال[(١)] :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمَه * ونكّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غيرَ نفسه * ولم يَرْض إلا قائمَ السّيف صاحبا

وقال النّقاش : العزم والحزم واحد، والحاء مُبْدلة من العين . قال ابن عطية : وهذا خطأ؛ فالحزم جودة النّظر فى الأمر وتنقيحُه والحذرُ من الخطأ فيه . والعزمُ قصدُ الإمضاء؛ والله تعالى يقول : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ » . فالمشاورة وما كان فى معناها هو الحزم . والعرب تقول : قد أَحْزِم لو أَعْزِم[(٢)] . وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد : « فَإِذَا عَزَمْتُ » بضم التاء . نسب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو بهدايته وتوفيقه؛ كما قال : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »[(٣)] . ومعنى الكلام أى عزمتُ لك ووفقتك وأرشدتك « فتوكل على الله » . والباقون بفتح التاء . قال المُهَلَّب : وامتثل هذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أمر ربّه فقال : "لا ينبغى لنبيّ يلبس لأمته[(٤)] أن يضعها حتى يحكم الله" . أى ليس ينبغى له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقضٌ للتوكّل الذى شرطه الله عز وجل مع العزيمة . فلُبْسه لأْمَتَهُ صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أُحُد مَن أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بَدْرٌ : يارسول الله آخرج بنا إلى عدونا؛ دالّ على العزيمة . وكان

(١) هو سعد بن ناشب المازنى (عن الكامل للبرد وخزانة الأدب للبغدادى) . (٢) يقول : أعرف وجه الحزم؛ فإن عزمت فأمضيت الرأى فأنا حازم، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعنى حزمى . (عن الكامل للبرد) . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٨٤ (٤) اللأمة : الدرع، وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداتها . وقد يترك الهمز تخفيفا .

صلى الله عليه وسلم أشار بالقعود، وكذلك عبد الله بن أبيّ أشار بذلك وقال : أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس ، فإنْ هم أقاموا أقاموا بشرّ مجلس ، وإن جاءونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السِّكك، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام[1] ، فوالله ما حارَ بنا قطُّ عدوٌّ في هذه المدينة إلا غلبناه ، ولا خرجنا منها إلى عدوّ إلا غَلَبنا . وأبَى هذا الرأيَ من ذكرنا ، وشجّعوا الناس ودَعَوْا إلى الحرب . فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة ، ودخل إثر صلاته بيتَه ولبِس سلاحه ، فندم أولئك القوم وقالوا : أكرهْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا : يا رسول الله ، أقِم إن شئت فإنا لا نريد أن نُكرِهَك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا ينبغي لنبيّ إذا لبِس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل" .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ التوكّل: الاعتماد على الله مع إظهار العجز ، والاسم التُّكْلان . يقال منه : اتّكلت عليه في أمري ، وأصله : « أوْتَكَلْت » قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال . ويقال : وكّلته بأمري توكيلا ، والاسم الوَكالة بكسر الواو وفتحها .

واختلف العلماء في التوكل ؛ فقالت طائفة من المتصوّفة : لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبَه خوفُ غير الله من سَبُع أو غيره ، وحتى يترك السعي في طلب الرزق لضمان الله تعالى . وقال عامّة الفقهاء : ما تقدّم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] . وهو الصحيح كما بيناه . وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله « لَا تَخَافَا »[3] . وقال : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ »[3] . وأخبر عن إبراهيم بقوله : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ »[4] . فإذا كان الخليل وموسى والكليم قد خافا — وحسبك بهما — فغيرهما أولى . وسيأتي بيان هذا المعنى .

قوله تعالى : إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

(١) الآطام (جمع أطم بضمتين) : الأبنية المرتفعة كالحصون . وقيل : حصون مبنية بالحجارة .
(٢) راجع ص ١٨٩ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠١ و ٢٢١ (٤) راجع جـ ٩ ص ٦٢

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ أى عليه توكّلوا فإنه إن يُعِنكم و يمنعكم من عدوّكم لن تُغلَبوا . ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ ﴾ يترككم من معونتـه . ﴿ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى لا ينصركم أحد من بعـده ؛ أى من بعد خِذلانه إيّاكم ؛ لأنه قال : « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ » والخِذلان ترك العون . والمخذول : المتروك لا يُعْبأ به . وخَذَلت الوحشية أقامت على ولدها فى المرعى وتركت صواحباتها ؛ فهى خذول . قال طَرَفة :

خَذُولٌ تُراعِى رَبْرَبًا بِخَمِيـلةٍ * تناوَلُ أطرافَ البَرِيرِ وتَرْتَدِى[1]

وقال أيضا :

نظرتْ إليك بعـين جارية * خَذَلت صواحبها على طِفْلِ

وقيل: هذا من المقلوب؛ لأنها هى المخذولة إذا تُركت . وتخاذلت رجلاه إذا ضَعُفَتا . قال :

* وخَذُولِ الرِّجْلِ مِن غـيرِ كَسَح[2] *

ورجل خُذَلة للذى لا يزال يَخْذُل . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ۚ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ لمـا أخلّ الرُّماة يوم أُحُد بمراكزهم ــ على ما تقدّم ــ خوفًا من أن يستولى المسلمون على الغنيمة فلا يُصرف إليهم شيء، بيّن الله سبحانه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يجور فى القسمة ؛ فمـا كان من حقّكم أن تتهموه . وقال الضحاك : بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع فى بعض غزواته ثم غَنِم قبل مجيئهم؛ فقسمَ للناس ولم يقسم للطلائع؛ فأنزل الله عليه عتابا : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ » أى يقسم لبعض و يترك بعضا . ورُوى نحو هذا القول عن ابن عباس . وقال ابن عباس أيضا وعِكرمة وابن جُبير وغيرهم :

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش والظباء وغير ذلك . الخميـلة : الأرض السهلة اللينة ذات الشـجر . البرير : ثمر الأراك . (٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره :

* كل وضاح كريم جدّه *

نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقدت فى المغانم يوم بدر ؛ فقال بعض من كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم : لعلّ أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذها ، فنزلت الآية أخرجه أبو داود والتِّرمذيّ وقال : هذا حديث حسن غريب . قال ابن عطية : قيل كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنّوا أن فى ذلك حَرَجًا . وقيل : كانت من المنافقين . وقد رُوى أن المفقود كان سيفا . وهذه الأقوال تُخَرّج على قراءة «يَغُلّ» بفتح الياء وضم الغين . وروى أبو صخر عن محمد بن كعب «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» قال : تقول وما كان لنبيّ أن يكتم شيئا من كتاب الله . وقيل : اللام فيه منقولة ، أى وما كان نبيّ ليغُلّ ؛ كقوله : « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ »(١) . أى ما كان الله ليتخذ ولدا . وقرئ « يُغَلّ » بضم الياء وفتح الغين . وقال ابن السِّكّيت : [لم نسمع فى المَغْنَم إلا غَلّ غُلولا ، وقرئ و(٢)] ما كان لنبيّ أن يَغُلّ و يُغَلّ . قال : فمعنى « يَغُلّ » يَخُون ، ومعنى « يُغَـلّ » يُخَوَّن ، ويحتمل معنيين : أحدهما يُخَـان أى يؤخذ من غنيمته ، والآخر يُخَوَّن أن يُنسب إلى الغُلُول : ثم قيل : إن كل من غَلّ شيئا فى خفاء فقد غَلّ يَغُلّ غُلولا : قال ابن عرفة : سُمّيت غُلولا لأن الأيدى مَغلولةٌ منها ، أى ممنوعة . وقال أبو عبيد : الغُـلُول من المَغْنَم خاصّةً ، ولا نراه من الخيـانة ولا من الحِقد . وممـا يُبَيِّن ذلك أنه يقال من الخيانة : أَغَلّ يغـل ، ومن الحِقد : غَلّ يَغِلّ بالكسر ، ومن الغُلول : غَلّ يَغُلّ بالضم . وغَلّ البعير أيضا [يَغَلّ غلة(٣)] إذا لم يَقض رِيّه وأَغَلّ الرجل خان ، قال النَّمِر :

جزى الله عنّـا حَمْزَةَ(٤) ابنة نَوْفَلٍ * جزاءَ مُغِـلٍّ بالأمانة كاذبِ

وفى الحديث : "لا إغلالَ ولا إسْلال" أى لا خيانة ولا سرقة ، ويقال : لا رِشْوة . وقال شُرَيح : ليس على المُسْتعير غير المُغِـلّ ضَمانٌ . وقال صلى الله عليه وسـلم : "ثلاثٌ لا يُغِـلّ عليهنّ قلبُ مؤمن" من رواه بالفتح(٥) فهو من الضِّغن . وغَلّ [دخل(٣)] يتعدّى ولا يتعدّى ؛ يقال :

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٥ . (٢) زيادة عن الصحاح واللسان . (٣) زيادة عن كتب اللغة .
(٤) كذا فى الأصول واللسان ، وفى الصحاح للجوهرى «جمرة» بالجيم المعجمة والراء . (٥) أى بفتح الياء .

غَلّ فـلان المفاوز، أى دخلها وتوسّـطها . وغَلّ من المغنم غلولا ، أى خان . وغَلّ المـاءُ بين الأشجار إذا جرى فيها ؛ يَغُلّ بالضم في جميع ذلك[1] . وقيل : الغُلول في اللغـة أن يأخذ من المَغْنَم شيئا يسـتره عن أصحابه ؛ ومنه تَغَلْغل المـاء في الشجر إذا تخلّلها . والغَلَل : المـاء الجـارى في أصول الشجر؛لأنه مستتر بالأشجار؛ كما قال[2] :

لَعِب السُّـيُول به فأصبح ماؤه * غَلَلًا يُقطِّع في أصـول الخِروَع

ومنه الغِلَالة للثوب الذى يُلبس تحت الثياب . والغالّ : أرض مطمئنة ذات شجـر . ومنابت السَّلَم[3] والطَّلْح يقال لهـا : غالّ . والغالّ أيضا نَبْت ، والجمع غُلّان بالضم . وقال بعض الناس : إن معنى « يُغَلّ » يوجد غالّا ؛ كما تقول : أحمدت الرجل وجدته محمودا . فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى « يَغُل » بفتح الياء وضم الغين . ومعنى « يُغَلّ » عند جمهور أهل العلم أى ليس لأحد أن يَغُـلّه ، أى يخونه في الغنيمة . فالآية في معنى نَهْى الناس عن الغلول في الغنائم، والتّوَعُّد عليه . وكما لا يجوز أن يُخان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُخان غيرُه، ولكن خصّه بالذكر لأن الخيانة معه أشدُّ وقعًا وأعظمُ وِزْرا؛ لأن المعاصى تعظم بحضرته لتعيُّن توقيره . والوُلاة إنمـا هم على أمر النبي صلى الله عليـه وسلم فلهم حظّهـم من التّوقير . وقيل : معنى « يغل » أى ما غَلّ نبيٌّ قطُّ ، وليس الغرض النَّهى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَـا غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته ، مُعذّبا بحمله وثِقَله ، ومَرعُوبا بصوته، ومُوَبَّخا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد؛ على ما يأتى . وهـذه الفضيحة التى يُوقعها الله تعالى بالغالّ نظيرُ الفضيحة التى توقع بالغادر ، في أن يُنصب له لِواء عند آسْتِه بقدر غَدْرَته . وجعل الله تعـالى هذه المعاقبَات حسْبَما يَعْهَدُهُ البَشَر ويَفْهَمُونه ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

أَسُمَىَّ ويْحَكِ هَلْ سَمِعتِ بِغَدْرَةٍ * رُفِـعَ اللواءُ لنـا بها في المَجْمَع

---

(١) أى بضم الغين . (٢) البيت لحويدرة؛ كما في اللسان . (٣) في ب و د : الساج .

وكانت العرب ترفع للغادر لواءً، وكذلك يُطاف بالجانى مع جنايته . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغُلُول فعظّمه وعظّم أمره ثم قال : "لا أُلفِينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغاء يقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمحَمة (١) فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نَفْسٌ لها صِياح فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رِقاع تَخفِق (٢) فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت (٣) فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك " وروى أبو داود عن سَمُرة بن جُندُب (٤) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصاب غنيمة أمر بِلالًا فنادى فى الناس فيجيئون بغنائمهم فيخمّسه ويقسمه، فجاء رجل يوما بعد النداء بزِمام من الشَّعَر فقال : يارسول الله هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة . فقال : " أسمعت بلالا ينادى ثلاثا "؟ قال : نعم . قال : " فما منعك أن تجىء به "؟ فاعتذر إليه . فقال : " كلا أنت تجىء به يوم القيامة فلن أقبَلَه منك " (٥) . قال بعض العلماء : أراد يُوافى بوزر ذلك يوم القيامة، كما قال فى آية أخرى : «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ» (٦) . وقيل : الخبر محمول على شهرة الأمر؛ أى يأتى يوم القيامة قد شهّر الله أمره كما يُشهّر لو حَمَل بعيرا له رُغاء أو فرسا له حَمحَمة .

قلت : وهــذا عُدولٌ عن الحقيقــة إلى المجاز والتّشبيه ، وإذا دار الكلامُ بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل كما فى كُتُب الأصول . وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحقيقة ،

---

(١) حمحمة الفرس : صوته دون الصهيل ، والثغاء : صياح الغنم . (٢) الرقاع (بالكسر جمع رقعة بالضم) وهى التى تكتب . وأراد بها ما عليها من الحقوق المكتوبة . وخفوقها : حركتها . (٣) الصامت : الذهب والفضة ، خلاف الناطق وهو الحيوان . (٤) فى سنن أبى داود : « عن عبد الله بن عمرو » ، وكذا فى مسند الإمام أحمد بن حنبل . (٥) فى سنن أبى داود « كن أنت تجىء به » . (٦) راجع جـ ٦ ص ٤١٣

ولا عِطْرَ بعــد عَرُوس . ويُقال : إنّ مَن غَلّ شيئًا فى الدنيا يُمَثَّل له يومَ القيامة فى النار ، ثم يُقَال له : آنزِلْ إليه فَخُذْه ، فيَهبِطُ إليه، فإذا آنْتَهى إليه حَمَلَه ؛ حتى إذا انتهى إلى الباب سَقَط عنه إلى أســفل جَهنّم ، فيَرجِــعُ إليه فيأخُذُه ؛ لا يَزالُ هكذا إلَى ماشاءَ الله . و يقال « يأتِ بِما غَلّ » يعنى تَشْهدُ عليه يَومَ القِيامَة تِلْك الخيَانةُ والغُلولُ .

الثالثـــة ـــ قال العلماء: والغُلولُ كبيرةٌ من الكَبَائر، بِدليل هذه الآية وماذَكَرْناهُ من حديث أبى هُرَيرَةَ : أنّه يَحْمِلُه عَلَى عُنُقِه . وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مِدْعَمٍ[1] : "والذى نفسى بيده أن الشَّمْلة التى أخذ يوم خَيْبَرَ من المغانم لم تُصبها المَقاسم لتشتعل عليــه نارا" قال : فلمـا سمع النــاس ذلك جاء رجل بشِراك أو شِراكين إلى رســول الله صلى الله عليه وســلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" . أخرجه الموطّأ . فقوله عليه السلام : " والذى نفسى بيــده " وآمتناعُه من الصــلاة على من غَلّ دليلٌ على تعظيم الغُلول وتعظيم الذنب فيه وأنه من الكبَائر، وهو من حقوق الآدميين ولابدّ فيه من القصاص بالحسنات والسيئات، ثم صاحبه فى المشيئة . وقوله : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" مثل قوله : "أدُّوا الخِياط[2] والمِخْيَط". وهذا يدل على أن القليل والكثير لا يحلّ أخذُه فى الغَزْو قبل المَقَاسم، إلا ما أجمعوا عليه من أكل المطاعم[3] فى أرض الغَزْو ومن الآحتطاب والآصطِيَاد . وقد رُوى عن الزُّهْرِىّ أنه قال : لا يؤخذ الطعام فى أرض العدوّ إلا بإذن الإمام . وهذا لا أصل له ؛ لأن الآثار تخالفه ، على ما يأتى . قال الحسن : كان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا آفتتحوا المدينةَ أو الحِصْن أكلوا مِن السَّوِيق والدقيق والسّمن والعسل . وقال إبراهيم : كانوا يأكلون من أرض العــدوّ الطعامَ فى أرض الحرب ويعلِفون قبل أن يُخَمَّسُوا . وقال عطاء : فى الغزاة يكونون فى السَّرِيّة فيصيبون أَنْحاء[4] السمن والعسل والطعام فيأكلون، وما بَقِى ردُّوه إلى إمامهم؛ وعلى هذا جماعة العلماء .

---

(١) مدعم : عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر . (٢) الخياط هاهنا الخيط . والمخيط بالكسر : الإبرة . (٣) فى هـ و د و جـ و ب : الطعام ، وكلها : أرض العدو ، إلا ب : أرض الغزو . (٤) أنحاء : جمع نحى بالكسر وهو زق السمن . وقيل مطلقا .

الرابعة : وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الغالّ لا يُحرق متاعه؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُحْرِق متاع الرجل الذى أخذ الشَّمْلة(١)، ولا أحْرَق متاع صاحب الخَرَزات(٢) الذى ترك الصلاةَ عليه ، ولو كان حرق متاعه واجبا لفعله صلى الله عليه وسلم، ولو فعله لنُقل ذلك فى الحديث . وأما ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا وجدتم الرجل قد غَلّ فأحرقوا متاعَه وآضربوه ". فرواه أبو داود والترمذىّ من حديث صالح بن محمد بن زائدة، وهو ضعيف لا يُحتجّ به . قال التِّرمذىّ : سألت محمدا — يعنى البخارىّ — عن هذا الحديث فقال : إنما رَوى هذا صالح بن محمد وهو أبو واقد الليثى وهو منكَر الحديث . وروى أبو داود أيضا عنه قال : غزونا مع الوليد بن هِشام ومعنا سالم بن عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز، فغَلّ رجل متاعا فأمر الوليد بمتاعه فأحرق، وطِيف به ولم يُعطِه سهمه . قال أبو داود : وهذا أصح الحديثين . وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر حَرّقوا متاع الغالّ وضربوه . قال أبو داود : وزاد فيه علىّ بن بحر عن الوليد — ولم أسْمَعْهُ منه — : ومَنَعُوه سهمه . قال أبو عمر : قال بعض رواة هذا الحديث : واضربوا عنقه وأحرِقوا متاعه . وهـذا الحديث يدور على صالح ابن محمد وليس ممن يُحتجّ به . وقد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يَحِلّ دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" وهو ينْفِى القتل فى الغلول . وروى ابن جُرَيج عن أبى الزبير عن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على الخائن ولا على المُنْتَهِب ولا على المختلس قَطْعٌ " . وهذا يعارض حديثَ صالح بن محمد وهو أقوى من جهة الإسناد . والغالّ خائن فى اللغة والشريعة وإذا انتفى عنه القطع فأحرى القتل . وقال الطّحاوىّ : لو صحّ حديثُ صالح المذكور احتمل أن يكون حين كانت العقوبات فى الأموال ؛ كما قال فى مانع

(١) فى هـ و جـ و ب : لم يحرق رحل الذى أخذ الشملة .

(٢) صاحب الخرزات : رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم يسمه أبو داود فى سننه) توفى يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " صلوا على صاحبكم " فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال " إن صاحبكم غل فى سبيل الله " ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لا يساوى درهمين (عن سنن أبى داود) .

الزكاة : " إنا آخذوها وشَطْرَ مالِه ، عَزْمةً من عزماتِ الله تعالى"[(١)] . وكما قال أبو هريرة في ضالّة الإبل المَكْتُومة : فيها غرامتُها ومثلُها معها . وكما روى عبد الله بن عمرو بن العاص في الثمر المعلّق غرامةُ مِثلَيْه وجلداتُ نَكالٍ . وهذا كلّه منسوخ، والله أعلم .

الخامســـة — فإذا غلّ الرجل في المَغْنَم ووُجِد أُخذ منــه ، وأُدِّب وعُوقب بالتعزير . وعنــد مالك والشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابهم والليث : لا يُحرق متـاعه . وقال الشافعيّ والليث وداود : إن كان عالمـا بالنّهي عُوقب . وقال الأَوْزاعيّ : يحرق متاع الغـالّ كلّه إلا سلاحه وثيابه التي عليه وسَرْجه، ولا تُنزع منه دابّته، ولا يُحرق الشيء الذي غُلّ . وهذا قول أحمد و إسحاق، وقاله الحسن؛ إلا أن يكون حيوانا أو مُصْحَفا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ورُوِي أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ضربا الغالّ وأحرقا متاعه . قال ابن عبـد البر : وممن قال يُحرق رَحْل الغالّ ومتاعُه مَكْحُولٌ وسعيدُ بن عبد العزيز . وحجة من ذهب إلى هذا حديثُ صالح المذكُور . وهو عنـدنا حديث لا يجب به انتهاك حُرْمة، ولا إنفاذ حُكْم؛ لمـا يعارضه من الآثار التي هي أقوى منه . وما ذهب إليه مالك ومن تابعه في هذه المسألة أصحُّ من جهة النظر وصحيح الأثر . والله أعلم .

السادســـة — لم يختلف مذهب مالكٍ في العقوبة على البـَدَن ، فأما في المـال فقال في الذِّمّي يبيع الخمـرَ من المسلم : تُراق الخمر على المسـلم ، ويُنزع الثمن من الذِّمّي عقوبةً له ؛ لئلا يبيع الخمر من المسلمين . فعلى هذا يجوز أن يقال : تجوز العقوبة في المـال . وقد أراق عمرُ رضي الله عنه لَبَنًا شِيب بماء .

السابعـــة — أجمع العلماء على أن للغالّ أنْ يردّ جميع ما غَلّ إلى صاحب المقاسِم قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيلَ إلى ذلك، وأنه إذا فعل ذلك فهي تَوْبةٌ له ،وخروج عن ذنبه .

---

(١) في نهاية ابن الأثير : « قال الحربي غلط الراوي في لفظ الرواية ، إنما هو وشطر ماله شطرين ، أي يجعل ماله شطرين ، و يتخير عليه المصدق فيأخذ الصدقة من خير النصفين عقوبة لمنعه الزكاة فأما ما لا تلزمه فلا » . وعزمة : حق من حقوقه وواجب من واجباته .

واختلفوا فيما يفعل به إذا افترق أهل العسكر ولم يصل إليه؛ فقال جماعة من أهل العلم : يدفع إلى الإمام خُمُسه ويتصدّق بالباقي . هذا مذهب الزُّهْرِيّ ومالك والأَوْزاعِيّ واللّيث والثّوريّ؛ ورُوي عن عُبادة بن الصّامت ومعاوية والحسنِ البصريّ . وهو يُشبه مذهبَ ابن مسعود وابن عباس؛ لأنهما كانا يَرَيان أن يُتصدّق بالمال الذي لا يُعرف صاحبُه؛ وهو مذهب أحمد ابن حنبل . وقال الشافعيّ : ليس له الصدقة بمال غيره . قال أبو عمر : فهذا عندي فيما يمكن وجود صاحبه والوصولُ إليه أو إلى ورثته ، وأما إن لم يكن شيء من ذلك فإن الشافعيّ لا يكره الصدقة حينئذ إن شاء الله . وقد أجمعوا في اللُّقَطة على جواز الصدقة بها بعد التعريف لها وانقطاع صاحبها، وجعلوه إذا جاء — مخيّرًا بين الأجر والضمان ، وكذلك المغصوب . وبالله التوفيق . وفي تحريم الغُلُول دليل على اشتراك الغانمين في الغنيمة ، فلا يحل لأحد أن يستأثر بشيء منها دون الآخر؛ فمن غَصَب شيئا منها أُدِّب اتفاقا، على ما تقدّم .

الثامنة — وإن وَطِئ جارية أو سرَق نِصابا فاختلف العلماء في إقامة الحد عليه؛ فرأى جماعة أنه لا قطع عليه .

التاسعة — ومن الغُلُول هدايا العمال، وحُكْمه في الفضيحة في الآخرة حُكْم الغالّ . روى أبو داود في سُننه ومُسْلِمٌ في صحيحه عن أبي حُميد الساعِدِيّ أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من الأَزْد يقال له ابن اللُّتْبِيَّة(1) [قال ابن السرح ابن الأُتْبِيَّة(2)] على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أُهدي لي . فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم على المِنْبر فحمِد الله وأثنى عليه وقال : " ما بالُ العامل نَبعثه فيجيء فيقول هذا لكم وهذا أُهْدِيَ لي ألا جلس في بيت أمّه أو أبيه فينظر أيُهدَى إليه أم لا، لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بعيرًا فله رُغاء وإن كانت بقرة فلها خُوار أو شاةً تَيْعَر(3)" — ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَتَي(4) إبطيه ثم قال : — " اللّهم هل بَلّغتُ اللّهــم هل بلّغتُ " . وروى أبو داود عن بُرَيدة عن النبيّ

(1) ابن اللتبية (بضم فسكون) هو عبد الله بن اللتبية الصحابي ، واللتبية أمه . ويروى بفتح اللام والمثناة ،
(2) هذه الزيادة في صلب : ج و هـ و د ، وابن السرح هو أحمد بن عمرو الأموي أبو الطاهر المصري .
(3) اليعار (بضم الياء) : صوت الغنم والمعزى . يعرت بفتح العين تيعر بالكسر والفتح يعارا بالضم .
(4) العفرة (بضم فسكون) : بياض ليس بالناصع الشديد ، ولكن كلون عفر الأرض وهو وجهها .

صلى الله عليه وسلم قال : "من استعملناه على عمل فرزقناه رِزْقا فما أخَذ بعد ذلك فهو غُلول".
ورَوى أيضا عن أبي مسعود الأنصاري قال : بَعثني رســول الله صلى الله عليه وســلم ساعِيًا ثم قال : " انطلق أبا مسعود ولا أُلْفِيَنَّك يوم القيامة تأتى على ظهرك بعيرٌ من إبل الصَّدقة له رُغاءٌ قد غَلَلْتَه " . قال : إذا لا أنطلق . قال : " إذًا لا أُكرهك " . وقد قيّد هذه الأحاديث ماروٰه أبو داود أيضا عن المُسْتَوْرِد بن شداد قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان لنـا عاملا فلْيَكْتَسِب زوجةً فإن لم يكن له خادم فلْيَكْتَسِب خادِما فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنا " . قال فقال أبو بكر : أُخبرت أن النبيّ صلى الله عليه وســلم قال : " من ٱتخذ غير ذلك فهو غالٌّ سارق " . والله أعلم .[1]

العاشـــرة — ومن الغُلُول حبس الكُتُب عن أصحابها، و يدخل غيرها فى معناها . قال الزُّهريّ : إيّاك وغلولَ الكتب . فقيل له : وما غُلُول الكتب؟ قال : حبسها عن أصحابها . وقد قيــل فى تأويل قوله تعـالى : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » أن يكتم شيئا من الوَحْى رَغْبةً أو رَهْبةً أو مُداهنة . وذلك أنهم كانوا يكرهون ما فى القرآن من عَيْب دينهم وسَبّ آلهتهم ، فسألوه أن يطوِى ذلك ؛ فأنزل الله هذه الآية ؛ قاله محمد بن بشّار[2] . وما بدأنا به قول الجمهور .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ تقدّم القول فيه[3] .

قوله تعـالى : أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى :﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ ﴾ يُريد بترك الغُلُول والصّبر على الجهاد . ﴿ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ﴾ يُريد بكُفْرٍ أوغُلولٍ أو تولٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الحرب . ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ أى مَثْواهُ النّار، أى إن لم يَتُب أو يعفو الله عنهُ . ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى المرجع . وقرئ

(١) والحديث بالسند والمتن فى ابن كثير . (٢) فى د و هـ و ب : يسار . هو أبو عبدالله المروزى الخرسانى، وابن بشار هو ابن عثمان بن داود بن كيسان العبدى البصرى . (٣) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥

رِضوانُ بكسر الرّاء وضمّها كالعُدوان[والعِدوان](١) . ثم قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾ أى ليس من اتّبع رِضوان الله كَمَن باء بسَخَط منه . قيل: «هُمْ دَرَجَاتٌ» مُتفاوِتةٌ، أى هم مُختلفُوا المنازلِ عندالله؛ فلمن اتّبع رضوانه الكَرامةُ والثوابُ العظيمُ، ولمن باءَ بِسَخَط منه المَهانةُ والعذابُ الأليمُ. ومعنى «هُمْ دَرَجَاتٌ» . أى ذَوو دَرَجاتٍ . أو على دَرجات، أو فى دَرجاتٍ، أو لهم دَرجاتٌ . وأهل النار أيضا ذوو درجات؛ كما قال: "وجدته فى غَمَرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح(٢)". فالمؤمن والكافر لا يستويان فى الدّرجة ؛ ثم المؤمنون يختلفون أيضا ، فبعضهم أرفع درجة من بعض، وكذلك الكفار . والدّرجةُ الرّتبةُ، ومنه الدَّرَج؛ لأنه يُطوَى رُتْبةٌ بعد رُتْبةٍ . والأشهر فى منازل جهنم دَرَكات؛ كما قال: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(٣) فلمن لم يَغُلّ درجات فى الجنة ، ولمن غَلّ دَرَكاتٌ فى النار . قال أبو عبيدة : جهنمُ أَدْرَاكٌ ، أى منازل؛ يقال لكل منزل منها : دَرَك ودَرْك . والدَّرَكُ إلى أسفل، والدَّرجُ إلى أعلى .

قوله تعالى : لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

بيّن الله تعالى عظيمَ مِنّته عليهم ببعثه محمدا صلى الله عليه وسلم . والمعنى فى المِنّة فيه أقوال: منها أن يكون معنى ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى بشَرٌ مثلُهم . فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم عُلِم أن ذلك من عند الله . وقيل : « مِن أنفُسِهم » منهم . فشَرفُوا به صلى الله عليه وسلم، فكانت تلك المِنّة . وقيل : «مِن أنفُسِهم» ليعرفوا حاله ولا تخفى عليهم طريقته . و إذا كان محله فيهم هذا كانوا أحقّ بأن يقاتلوا عنه ولا ينهزموا دونه . وقرِئ فى الشّواذ(٤) «من أنْفَسِهم» (بفتح الفاء) يعنى من أشرفهم؛ لأنه من بنى هاشم، و بنو هاشم أفضلُ من قريش، وقريشٌ أفضل من العرب ، والعربُ أفضل من غيرهم . ثم قيل : لفظ المؤمنين عامّ ومعناه خاص

(١) فى هـ وجـ و د . (٢) الضحضاح: مارق من الماء على وجه الأرض ولا يبلغ الكعبين ، فاستعاره للنار .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ (٤) هذه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وابن عباس رضى الله عنهما .

فى العرب؛ لأنه ليس حىّ من أحياء العرب إلا وقد ولده صلى الله عليه وسلم، ولهم فيه نسب؛ إلا بنى تَغْلب فإنهم كانوا نصارى فطهّره الله من دَنَس النّصرانية . وبيان هذا التأويل قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ »[1] . وذكر أبو محمد عبد الغنى قال : حدّثنا أبو أحمد البصرىّ[2] حدّثنا أحمد بن علىّ بن سعيد القاضى أبو بكر المَرْوَزى حدّثنا يحيى بن مَعِين حدّثنا هشام بنُ يوسف عن عبد الله بن سُلَيمان النَّوْفَلِي عن الزُّهرىّ عن عُرْوَة عن عائشة رضى الله عنها : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » قالت : هذه للعرب خاصّة . وقال آخرون : أراد به المؤمنين كلّهم . ومعنى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أنّه واحدٌ منهم وبَشَرٌ مِثْلُهم، وإنما امتاز عنهم بالوحى ؛ وهو معنى قوله « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »[3] وخَصّ المؤمنين بالذّكر لأنهم المُنْتَفِعون به ، فالمنّةُ عليهم أعْظَم . وقولُه تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ « يتلو » فى موضع نَصْب نَعْتٌ لرسُول ، ومعناه يَقْرَأ . والتّلاوةُ القِراءةُ . ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ تقدّم فى «البقرة»[4] . ومعنى ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى ولقد كانوا من قبل ، أى من قبل محمد ، وقيل : « إِنْ » بمعنى ما ، واللام فى الخبر بمعنى إلّا، أى وما كانوا من قبلُ إلّا فى ضلال مبين . ومثله « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ »[5] أى وما كنتم من قبله إلا من الضالين . وهذا مذهب الكوفيين . وقد تقدّم فى « البقرة » معنى هذه الآية .

قوله تعالى : أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

الألف للاستفهام ، والواو للعطف . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى غلبة . ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ يوم بَدْر بأن قتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين . والأسير فى حكم المقتول ؛ لأن الآسر يقتل أسيره إن أراد . أى فهزمتموهم يوم بَدْر ويوم أُحُد أيضا فى الابتداء، وقتلتم فيه قريبا من

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩١ (٢) فى ب و هـ و د : المصرى . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠١
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٣٠ (٥) راجع جـ ٢ ص ٤٢٧

عشرين ، قتلتم منهم فى يومين ، ونالوا منكم فى يوم أُحد . ﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَـٰذَا ﴾ أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل، ونحن نقاتل فى سبيل الله، ونحن مسلمون، وفينا النبيّ والوحى، وهم مشركون ! . ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعنى مخالفة الرُّماة . وما من قوم أطاعوا نبيَّهم فى حرب إلّا نُصروا ؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون . وقال قتادة والرّبيع بن أنس: يعنى سؤالهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يخرج بعد ما أراد الإقامة بالمدينة. وتأوّلها فى الرؤيا التى رآها درعا حصينة (١) . علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : هو اختيارهم الفِداء يوم بَدْر على القتل . وقد قيل لهم : إن فاديتم الأسارى قُتل منكم على عِدّتهم . وروى البَيْهَقى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الأسارى يوم بدر : " إن شئتم قتلتموهم و إن شئتم فاديتموهم وآستمتعتم بالفداء واستُشهد منكم بعدّتهم " . فكان آخرَ السبعين ثابتُ بن قيس قُتل يوم اليمامة . فمعنى « مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ » على القولين الأوّلين بذنوبكم . وعلى القول الأخير باختياركم .

قوله تعالى : وَمَا أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

يعنى يوم أُحُد من القتل والجُرح والهزيمة ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بعلمه . وقيل : بقضائه وقَدَره . قال القفّال : أى فبتَخْلِيته بينكم و بينهم ، لا أنه أراد ذلك . وهذا تأويل المعتزلة . ودخلت الفاء فى « فبإذن الله » لأن « ما » بمعنى الذى . أى والذى أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ؛ فأشبه الكلام معنى الشرط ، كما قال سيبويه : الذى قام فله درهم . ﴿ وَلِيَعْلَمَ

(١) كذا فى د و ب و ج و ح و ه ؛ وفى ا : حصنا حصينا .

الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ أي ليُمَيّز . وقيل ليرى . وقيل : ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم في القتال، وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشماتة فيعلمون ذلك . والإشارة بقوله : ﴿ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ هي إلى عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه الذين ٱنصرفوا معـه عن نُصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ثلاثمائة ، فمشى في أثرهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام الأنصاري ، أبو جابر ابن عبد الله ، فقال لهم : ٱتقوا الله ولا تتركوا نبيّكم ، وقاتلوا في سبيل الله أو ٱدفعوا ، ونحو هذا من القول . فقال له ابن أبيّ : ما أرى أن يكون قِتال ، ولو علمنا أن يكون قِتال لكنّا معكم . فلما يئس منهم عبـد الله قال : ٱذهبوا أعداءَ الله فسيُغني اللهُ رسـولَه عنكم . ومضى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم واستُشهد رحمه الله تعالى .

واختلف الناس في معنى قوله : ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا﴾ فقال السُّدّي وابن جريج وغيرهما : كَثِّروا سوادنا وإن لم تقاتلوا معنا؛ فيكون ذلك دَفْعًا وقَمْعًا للعـدوّ؛ فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو . وقال أنس بن مالك : رأيت يوم القادسِيّة عبد الله بن أمّ مَكْتُوم الأعمى وعليه دِرْع يجرّ أطرافها، وبيده رايةٌ سـوداء؛ فقيل له (١) : [أليس (٢)] قد أنزل الله عذرك ؟ قال : بلى ! ولكني أكثِّر [سواد] (٢) المسلمين بنفسي . ورُوي عنه أنه قال : فكيف بسوادي في سبيل الله ! وقال أبو عون الأنصاري : معنى «أو ٱدفعوا» رابطوا . وهذا قريب من الأول . ولا محالة أن المرابط مدافع؛ لأنه لولا مكان المرابطين في الثّغور لجاءها العدو . وذهب قوم من المفسرين إلى أن قول عبـد الله بن عمرو « أو ٱدفعوا » إنمـا هو ٱسـتدعاء إلى القتال [حميـة؛ لأنه استدعاهم إلى القتال] (٣) في سبيل الله ، وهي أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك عرض عليهم الوجه الذي يَحْشِمهم ويبعث الأَنَفة . أي أو قاتلوا دِفاعًا عن الحَوْزة . ألا ترى أن قُزْمان (٤) قال : والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي . وألا ترى أن بعض الأنصار

---

(١) في ز : فقلت له . (٢) الزيادة من ابن عطية . (٣) الزيادة من ب و د و جـ .

(٤) هو قزمان بن الحارث العبسي المنافق الذي قال فيـه رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر " .

قال يوم أحد لما رأى قريشا قد أرسلت الظَّهر (١) فى زروع قَناة (٢) ، أتُرْعَى زروع بنى قَيْلة (٣) ولما نضارِب ؟ والمعنى إن لم تقاتلوا فى سبيل الله فقاتلوا دَفْعًا عن أنفسكم وحَرِيمكم .

قوله تعالى : ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أى بيّنوا حالَهم، وهتكوا أستارَهم، وكشَفُوا عن نفاقِهم لمن كان يظُنّ أنهم مسلمون؛ فصاروا أقربَ إلى الكفر فى ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق . وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى أظهَروا الإيمان، وأضمَرُوا الكفر . وذِكْرُ الأفواه تأكيدٌ؛ مثل قوله : «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» (٤) .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٦٨﴾

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ (٥) معناه لأجل إخوانهم، وهم الشهداء المقتولون من الخَزْرَج؛ وهم إخوة نسب ومجاورة، لا إخوة الدِّين . أى قالوا لهؤلاء الشهداء : لو قعدوا، أى بالمدينة ما قتلوا . وقيل : قال عبد الله بن أُبَىّ وأصحابُه لإخوانهم ، أى لأشكالهم من المنافقين : لو أطاعونا، هؤلاء الذين قُتِلوا، لما قتلوا. وقوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد فى ألّا يخرجوا إلى قريش . وقوله : ﴿وَقَعَدُوا﴾ أى قالوا هذا القول وقعدوا بأنفسهم عن الجهاد؛ فردّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أى قل لهم يا محمد : إن صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم . والدَّرء الدفعُ . بيّن بهذا أن الحَذَر لا ينفع من القَدَر، وأن المقتولَ يقتل بأجله ، وما عَلِم الله وأخبر به كائنٌ لا محالَة . وقيل : مات يومَ قيل هذا، سبعون منافقا . وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِىّ : سمعت بعض المفسّرين بسَمَرْقَنْد يقول : لما نزلت الآية « قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » مات يومئذ سبعون نفسا من المنافقين .

---

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر؛ لحملها إياها على ظهورها . (٢) قناة : واد بالمدينة، وهى أحد أوديتها الثلاثة ، عليه حرث ومال . قال المدائنى : وقناة يأتى من الطائف ويصب فى الأرحضية وقرقرة الكدر، ثم يأتى بئر معونة، ثم يمر على طرف القدوم فى أصل قبور الشهداء بأحد . (عن معجم البلدان) .

(٣) قيلة : أم الأوس والخزرج؛ وهى قيلة بنت كاهل بن عذرة ، قضاعية . ويقال : بنت جفنة ، غسانية . (عن شرح القاموس) . (٤) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ (٥) فى ب : لأهل .

قوله تعـالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — لمـا بيّن الله تعالى أن ماجرى يوم أُحد كان ٱمتحاناً يُميّز المنافق من الصادق ، بيّن أن من لم ينهزم فقُتل له الكرامةُ والحياةُ عنده . والآية فى شُهداء أُحد . وقيل : نزلت فى شهداء بئر مَعُونة . وقيــل : بل هى عامّة فى جميع الشهداء . وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لمـّا أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم فى جـوف طَير خضر تَرِد أنهـار الجنة تأكُل من ثمارها وتأوى إلى قناديلَ من ذهب معلّقةٍ فى ظِلّ العَرْش فلما وجدوا طِيب مأْكَلِهم ومَشْرَبهم ومَقِيلهم قالوا مَن يُبلِّغ إخوانَنا عنّا أنّا أحياءٌ فى الجنـة نُرْزَق لئلا يَزْهَدوا فى الجهاد ولا يَنْكُلوا عند الحرب فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم" — قال — فأنزل الله " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ... " إلى آخر الآيات . وروى بَقِيّ (١) بن مَخْلَد عن جابر قال : لقِيَنِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ياجابر مالى أراك مُنكَسِّا مُهتمًّا" ؟ قلت : يارسول الله، ٱستُشْهِد أبِى وترك عِيالاً وعليه دَيْنٌ ؛ فقال : "ألا أبشِّرك بما لقِىَ اللهُ عز وجل به أباك"؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : "إن الله أحيا أباك وكلمه كِفاحًا (٢) وما كلّم أحد قطّ إلا من وراء حجاب فقال له يا عبدى تَمَنّ أُعْطِك قال يارب فرُدّنى إلى الدنيـا فأُقتَل فيك ثانيةً فقال الربّ تبارك وتعـالى إنه قد سبق مِنى أنهم [إليها] (٣) لا يرجعون قال يارب فأبلغ مَن ورائى" فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ » الآية . أخرجه ابن ماجه فى سُـنَنه، والتِّرمذىّ فى جامعه وقال : هـذا حديث حسن غريب . وروى وَكيع عن سالم بن الأفطس عن سعيد بن جبير «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ

(١) حافظ الأندلس ابن يزيد القرطبى . (٢) كفاحا (بكسر الكاف) أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول . (٣) زيادة عن سنن الترمذى وابن ماجه .

اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ » قال : لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومُصْعَب بن عُمير ورأوا ما رُزقوا من الخير قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رَغْبَةً؛ فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا — إلى قوله : لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » . وقال أبو الضُّحى : نزلت هذه الآية في أهل أُحد خاصّةً . والحديثُ الأوّل يقتضى[(1)] صحةَ هذا القول . وقال بعضهم : نزلت في شهداء بَدْر وكانوا أربعة عشر رجلا، ثمانيةٌ من الأنصار ، وستة من المهاجرين . وقيل : نزلت في شهداء بئر مَعُونة ، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق[(2)] وغيره . وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسّروا وقالوا : نحن في النعمة والسرور ، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور . فأنزل الله تعالى هذه الآية تَنْفِيسًا عنهم وإخبارًا عن حال قتلاهم .

قلت : وبالجملة وإن كان يحتمل أن يكون النّزول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياءٌ في الجنة يُرزقون، ولا مَحالةَ أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب ، وأرواحهم حيّة كأرواح سائر المؤمنين ، وفُضّلوا بالرزق في الجنّة من وقت القَتْل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى . فالذى عليه المعظم هو ما ذكرناه، وأن حياة الشهداء محققة . ثم منهم من يقول: تُرَدّ إليهم الأرواح في قبورهم فينعمون، كما يحيا الكفار في قبورهم فيُعذبون . وقال مجاهد : يرزقون من ثَمَر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا مجاز، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقّون للتنعّم في الجنة . وهو كما يقال : ما مات فلان، أي ذكره حيّ ؛ كما قيل :

مَوْتُ التَّقِيِّ حياةٌ لا فناءَ لها * قَدْ مات قومٌ وهُمْ في الناس أحْيَاءُ

---

(1) كذا في ا و حـ . وفي د : يقتضى هذا القول ، وفي ب و جـ و هـ : يقضى بصحة الخ .

(2) راجع سيرة ابن هشام ص ٦٤٨ طبع أوربا .

فالمعنى أنهم يرزقون الثناءَ الجميــل . وقال آخرون : أرواحهم فى أجواف طَـيْر خُضْر وأنهم يُرزقون فى الجنة و يأكلون و يتنعّمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال؛ لأن ما صحّ به النقل فهو الواقع . وحديثُ ابن عباس نصٌّ يرفع الخلاف . وكذلك حديث ابن مسعود خرّجه مسلم . وقد أتينا على هذا المعنى مبيّنًا فى كتاب « التّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . والحمد لله .

وقد ذكرنا هناك كم الشهداء، وأنهم مختلفو الحال . وأما من تأوّل فى الشهداء أنهم أحياء بمعنى أنهم سيحيَوْن فبعيدٌ يرده القرآن والسنة؛ فإن قوله تعالى : « بَلْ أَحْيَاءٌ » دليل على حياتهم، وأنّهم يرزقون ولا يُرزق إلا حىّ . وقد قيـل : إنه يكتب لهم فى كل سَـنَة ثوابُ غزوة؛ و يُشركون فى ثواب كلّ جهاد كان بعدهم إلى يوم القيامة؛ لأنهم سَنّوا أمر الجهاد . نظيره قوله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا »[1] . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعـالى . وقيل : لأن أرواحَهـم تركَع وتسجُد تحت العرش إلى يوم القيامة، كأرواح الأحياء المؤمنين الذين باتُوا على وُضُوء . وقيل : لأن الشهيد لا يَبلى فى القبر ولا تأكله الأرض . وقد ذكرنا هـذا المعنى فى « التّذكرة » وأن الأرض لا تأكل الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذّنين المحتَسبين وحملة القرآن .

الثانيـــة — إذا كان الشّهيد حيًّا حُكمًا فلا يُصلّى عليه ، كالحىّ حِسًّا . وقد اختلف العلماء فى غُسل الشهداء والصّـلاة عليهم ؛ فذهب مالك والشافعىّ وأبو حنيفة والثّورىّ إلى غُسل جميع الشّهداء والصلاة عليهم ؛ إلا قتيلَ المُعترَك فى قتال العدوّ خاصة؛ لحديث جابر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أدفنوهم بدمائهم" يعنى يوم أُحُد ولم يُغسّلهم ، رواه البخارىّ . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم بقتلى أُحد أن يُنزَع عنهم الحديدُ والجلودُ وأن يُدفَنوا بدمائهم وثيابهم . و بهذا قال أحمدُ و إسحاقُ والأوزاعىّ وداود بن علىّ وجماعةُ فُقهاء الأمصار وأهل الحديث وابنُ عُليّة . وقال سعيد بن المُسيّب والحسن : يُغسّلون . قال أحدهما : إنما لم تُغسّل شهداء أُحد لكثرتهم والشُّغل عن ذلك . قال أبو عُمر : ولم يقل بقول سعيد والحسن هـذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبيد الله بن الحسن العَنْبرى ، وليس

(١) راجع جـ ٦ ص ١٤٥

ما ذكروا من الشُّغل عن غُسل شهداء أحد علّة ؛ لأن كل واحد منهم كان له وليٌّ يشتغل به ويقوم بأمره . والعلة فى ذلك — والله أعلم — ما جاء فى الحديث فى دمائهم "أنها تأتى يوم القيامة كريح المِسْك" فبانَ أن العلّة ليست الشُّغل كما قال من قال فى ذلك، وليس لهذه المسألة مدخل فى القياس والنظر، وإنما هى مسألة اتّباع للأثر الذى نقله الكافّة فى قتلى أُحُد لم يُغسّلوا . وقد احتج بعض المتأخرين ممن ذهب مذهب الحسن بقوله عليه السلام فى شهداء أُحُد : "أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة" . قال : وهذا يدل على خصوصهم وأنه لا يَشْرَكهم فى ذلك غيرهم . قال أبو عمر : وهذا يشبه الشذوذ، والقول بترك غُسلهم أولى ؛ لثبوت ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قتلى أحد وغيرهم . وروى أبو داود عن جابر قال : رُمِىَ رجل بسهم فى صدره أو فى حلقه فمات فأُدرِج فى ثيابه كما هو . قال : ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة — وأما الصلاةُ عليهم فاختلف العلماء فى ذلك أيضا ؛ فذهب مالك والليث والشافعىّ وأحمد وداود إلى أنه لا يُصلّى عليهم ؛ لحديث جابر قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول : "أيُّهما أكثر أخذًا للقرآن" ؟ فإذا أشير له إلى أحدِهما قدّمه فى اللّحد وقال : "أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة" وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُغسّلوا ولم يُصلّ عليهم . وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام : يُصلّى عليهم . ورَوَوْا آثارًا كثيرة أكثرها مراسيل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى على حمزة وعلى سائر شهداء أُحُد .

الرابعة — وأجمع العلماء على أن الشّهيد إذا حُمِل حَيًّا ولم يَمت فى المُعترَك وعاش وأكَل فإنه يُصلّى عليه ؛ كما قد صُنع بعمر رضى الله عنه .

واختلفوا فيمن قُتل مظلوما كقتيل الخوارج وقُطّاع الطريق وشبه ذلك ؛ فقال أبو حنيفة والثّورى : كل من قتل مظلوما لم يُغسّل، ولكنه يُصلّى عليه وعلى كل شهيد ؛ وهو قول سائر أهلِ العراق . ورَوَوْا من طُرق كثيرة صحاح عن زيد بن صُوحان، وكان قتل يوم الجَمَل : لا تَنزِعوا عنّى ثوبًا ولا تَغسِلوا عنى دَمًا (١) . وثبت عن عمار بن ياسر أنه قال مثل قول زيد

(١) كذا فى د و جـ و هـ و ب . وفى أ و حـ : دوى .

ابن صُوحان . وقُتل عمار بن ياسر بصفّين ولم يغسّله علىّ . وللشافعى قولان : أحدهما — يُغسّل بجميع الموتى إلا من قتله أهـل الحرب ؛ وهذا قول مالك . قال مالك : لا يُغسّل من قتله الكفار ومات فى المُعترك . وكل مقتول غير قتيل المُعترَك — قتيل الكفار — فإنه يُغسّل ويُصلّى عليه . وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنـه . والقول الآخر للشافعىّ — لا يُغسّل قتيل البُغاة . وقول مالك أصحّ ؛ فإنّ غُسل الموتى قد ثبت بالإجماع ونَقْلِ الكافّة . فَواجبٌ غُسلُ كلّ ميت إلا من أخرجه إجماعٌ أو سُنّةٌ ثابتة . وبالله التوفيق .

الخامسة — العـدو إذا صبّح قوما فى منزلهم ولم يَعلموا به فقتَل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك، أو حكم سائر الموتى ؛ وهذه المسألة نزلت عندنا بقُرطُبَة أعادها الله: أغارَ العدو — قَصَمه الله — صَبيحَةَ الثّالث من رَمضانَ المُعظّم سنةَ سَبع وعشرين وسِتّمائة والناس فى أجرانهم على غَفلة، فقتَل وأسَر، وكان من جُملة من قُتل والدى رحمه الله، فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبى حجة(١) فقال ؛ غَسّله وصلّ عليه، فإن أباك لم يُقتَل فى المُعتَرك بين الصّفين . ثم سألت شيخنا ربيعَ بن عبـد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أُبَىّ فقال : إن حكمه حكم القتلى فى المعـترك . ثم سألت قاضى الجماعة أبا الحسن علىّ بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا : غسّـله وكفّنه وصلّ عليه؛ ففعلت . ثم بعـد ذلك وقَفتُ على المسـألة فى « التّبصرة » لأبى الحسن اللّخمىّ وغيرها ، ولو كان ذلك قبـل ذلك ما غسّلته، وكنت دفنته بدمه فى ثيابه .

السادسـة — هذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل فى سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "القتل فى سبيل الله يكفّر كل شىء إلا الدّين كذلك قال لى جبريل عليه السلام آنفا" . قال علماؤنا ذكر الدّين تنبيه على ما فى معناه من الحقوق المتعلقـة بالذمم ، كالغصب وأخذ المـال بالباطل وقتل العمـد وجراحه وغير ذلك من التّبِعات ، فإن كل هـذا أولى ألّا يُغفرَ بالجهاد من الدّين فإنه أشد ، والقصاص فى هذا

(١) فى جـ : « بابن حجة » .

كله بالحسنات والسيئات حسبما وردت به السنّة الثابتة . روى عبد الله بن أُنَيْس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الله العباد — أو قال الناس، شكّ همّام[(١)]، وأومأ بيده إلى الشام — عُراة غُرْلا[(٢)] بُهْمًا . قلنا : ما بُهْم[(٣)]؟ قال : ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه مَن قَرُب ومَن بَعُد أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتّى اللطْمة . قال قلنا : كيف وإنما نأتي الله حفاة عراة غرلا . قال : بالحسنات والسيئات " . أخرجه الحارث بن أبي أُسامة[(٤)] . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أتدرون من المفلس "؟ . قالوا : المفلِس فِينا من لا دِرهم له ولا متاع . فقال : " إن المفْلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتَم هذا وقذَف هذا وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دمَ هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنِيت حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار " . وقال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لو أن رجلا قُتل في سبيل الله ثم أُحْيِيَ ثم قتل ثم أحيي ثم قُتل وعليه دَيْن ما دخل الجنة حتى يُقْضى عنه " . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نفس المؤمن معلّقة ما كان عليه دَيْن " . وقال أحمد بن زُهَير : سئل يحي بن مَعِين عن هذا الحديث فقال : هو صحيح . فإن قيل : فهذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل، ولا تكون أرواحهم في جَوف طير كما ذكرتم، ولا يكونون في قبورهم، فأيْن يكونون ؟ قلنا : قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بَارِقٌ يخرج عليهم رزقهم من الجنة بُكْرَةً وعَشِيًّا " فلعلهم هؤلاء . والله أعلم . ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية : وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم « يُرْزَقُونَ » . وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه عن

---

(١) هو همام بن يحيي، أحد رجال سند هذا الحديث . (٢) الغرل (بضم فسكون): جمع الأغرل، وهو الأقلف . (٣) في ط وهـ وب : ما بهما؟ . (٤) في جـ : أمامة . والصحيح ما أثبت كما في التهذيب

سـليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : "شهيد البحر مثل شهيدَىْ البَرّ(١) والمـائدُ(٢) فى البحر كالمُتَشَحِّط(٣) فى دَمِه فى البر وما بين المَوْجَتين كقاطع الدنيـا فى طاعة الله و إن الله عزّ وجلّ وكّل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهداء البحـر فإنه سبحانه يتولّى قَبضَ أرواحهم و يَغْفِر لشهيد البرّ الذنوبَ كلَّها إلا الدَّين و يغفر لشهيد البحر الذنوب كلها والدَّيْن" .

السابعــة — الدَّين الذى يُحْبَس به صاحبه عن الجنـة — والله أعلم — هو الذى قد ترك له وفاء ولم يُوص به . أو قدر على الأداء فلم يؤدّه، أو آدّانه فى سَرَف أو فى سفهٍ ومات ولم يوفّه . وأما من آدّان فى حق واجب لِفاقةٍ وعُسْر ومات ولم يترُك وفاء فإن الله لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله؛ لأن على السلطان فرضًا أن يؤدّىَ عنه دينه، إما من جملة الصدقات، أو من سهم الغارمين، أو من الفَىْء الراجع على المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : "من ترك دَينًا أو ضَياعا(٤) فعلى الله ورسوله ومن ترك مالا فلورثته" . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فيه حذف مضاف تقديره عند كرامة ربّهم . و «عِند» هنا تقتضى غايةَ القُرْب، فهى كـ(لدى) ولذلك لم تصغر فيقال ! عُنيد؛ قاله سيبويه . فهـذه عِنْدِيّة الكرامة لا عِنْدِية المسافة والقُـرْب . و «يرزقون» هو الرزق المعروف فى العادات . ومن قال: هى حياة الذِّكْر قال : يرزقون الثناء الجميل . والأوّل الحقيقة . وقد قيل : إن الأرواح تُدرِك فى تلك الحال التى يسرحون فيها من روائح الجنة وطِيبها ونعيمها وسرورها ما يَليق بالأرواح؛ ممـا ترتزق وتنتعش به . وأما اللذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها آستوفت من النعيم جميعَ ما أعدّ الله لها . وهذا قول حسن، و إن كان فيه نوع من المجاز، فهو الموافق لمـا آخترناه . والموفّق الإله . و﴿فَرِحِينَ﴾ نصب فى موضع الحال

(١) قال فى شرح الجامع : بلفظ التثنية . (٢) المـائد : الذى تدور رأسه من ريح البحر، وآضطراب السفينة بالأمواج . (٣) تشحّط المقتول فى دمه تخبط فيه واضطرب وتمرّغ . (٤) الضياع : (بفتح أوّله) : العيال .

من المضمر فى « يُرْزَقُونَ » . و يجوز فى الكلام « فَرِحُون » على النعت لأَحْيَـاء . وهو من الفرح بمعنى السرور . والفضْل فى هذه الآية هو النّعيمُ المذكور . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «فَارِحِين» بالألف وهما لغتان كالفَرِه والفاره، والحَذِر والحاذِر، والطَّمِع والطَّامِـع، والبَخِل والباخِل . قال النحاس : و يجوز فى غير القرآن رَفْعُه، يكون نعتا لأحياء .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِـمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ المعنى لم يلحقوا بهم فى الفضل، و إن كان لهم فضل . وأصله من البَشَرة(١)؛ لأن الإنسان إذا فَرِح ظهر أثر السّرور فى وجهه . وقال السّدّى : يؤتى الشهيد بكِتاب فيه ذِكر مَن يَقْدَمُ عليه من إخوانه، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقُدومِه فى الدنيا . وقال قَتادةُ وابن جُرَيْج والرّبيعُ وغيرُهم : استبشارهم بأنهم يقولون : إخواننا الذين تركنا خلفنا فى الدنيا يقاتلون فى سبيل الله مع نبيّهم، فيستشهدون فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيــه ؛ فيسرّون و يفرحون لهم بذلك . وقيــل : إن الإشارة بالاستبشار للذين لم يَلحقوا بهم إلى جميع المؤمنين و إن لم يُقتَلوا، ولكنهم لمـا عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دِين الإسلام هو الحق الذى يثيب الله عليه؛ فهم فَرِحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للؤمنين بأن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . ذهب إلى هذا المعنى الزجّاج وابن فُورَك .

قوله تعـالى : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْـلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

أى بجنة من الله . و يقـال : بمغفرة من الله . ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ هـذا لزيادة البيان . والفضل داخل فى النعمة ، وفيــه دليل على اتساعها، وأنها ليست كنِعَم الدنيا . وقيل : جاء الفضل بعــد النعمة على وجه التأكيد ؛ روى التِّرمذىّ عن المِقْدام بن مَعْديكَرِب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "للشَّهيد عند الله ستٌّ خِصال — كذا فى الترمذىّ وابن ماجه «ستّ» ،

(١) كذا فى ب وز و هـ و جـ . وفى ط : البشرة والبشارة .

وهى فى العدد سبع — يغفر له فى أول دُفعة (١) و يرى مقعده من الجنة ويُجار من عذاب القبر و يأمن (٢) من الفزع الأكبر و يوضع على رأسه تاجُ الوَقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها و يُزَوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العِين و يُشَفَّع فى سبعين من أقاربه" قال: هذا حديث حسن صحيح غريب . وهــذا تفسير للنّعمة والفضل . والآثار فى هــذا المعنى كثيرة . ورُوِى عن مجاهد أنه قال : السيـــوف مفاتيح الجنة . وروى عن رســول الله صلى الله عليــه وسلم أنه قال : " أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يُكرِم بها أحدا من الأنبياء ولا أنا أحدها أن جميع الأنبيــاء قبض أرواحَهم مَلَكُ الموت وهو الذى سيقبض رُوحى وأما الشهداء فالله هو الذى يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء ولا يُسلّط على أرواحهم مَلَكُ الموت ، والثانى أن جميع الأنبياء قد غُسِّلوا بعد الموت وأنا أُغَسَّل بعد الموت والشهداء لا يُغَسَّلون ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا ، والثالث أن جميع الأنبيــاء قد كُفِّنوا وأنا أُكَفَّن والشهداء لا يُكَفَّنون بل يُدفنون فى ثيابهــم ، والرابع أن الأنبياء لمــا ماتوا سُمُّــوا أمواتا و إذا مِت يقال قــد مات والشهداء لا يُسَمَّون مَوْتَى ، والخامس أن الأنبياء تُعطَى لهم الشفاعةُ يوم القيامة وشــفاعتى أيضا يوم القيامة وأما الشهداء فإنهم يشفعون فى كل يوم فيمن يشفعون " .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ قرأه الكِسائى بكسر الألف ، والباقون بالنصب ؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه يستبشرون بنعمة من الله و يستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ومن قرأ بالكسر فعلى الابتداء . ودليله قراءة ابن مسعود « وَٱللَّهُ لا يضيع أجر المؤمنين » .

قوله تعــالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

---

(١) فى حاشية السندى على سنن ابن ماجه : « قوله ست خصال المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة» . (٢) دفعة : قال الدميرى : ضبطناه فى جامع الترمذى بضم الدال ، وكذلك قال أهل اللغة : الدفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصب بمرة ؛ وكذلك الدفعة من المطر وغيره مثل الدفقة بالقاف . وأما الدفعة بالفتح فهى المرة الواحدة فلا يصلح ههنا » .

﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع رفع على الابتداء ، وخبره « مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » . ويجوز أن يكون فى موضع خفض، بدلٌ (١) من المؤمنين، أو من « الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا» . ﴿ ٱسْتَجَابُوا ﴾ بمعنى أجابوا، والسين والتاء زائدتان . ومنه قوله :

* فلم يَسْتَجِبْه عنـد ذاك مُجِيبُ (٢) *

وفى الصحيحين عن عروة بن الزبير قال قالت لى عائشة رضى الله عنها : كان أبوك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح . لفظ مسلم . وعنه عن عائشة : يا ٱبن أختى كان أبواك — تعنى الزبير وأبا بكر — من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح . وقالت: لما ٱنصرف المشركون من أُحُد وأصاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال: "من يَنتدب لهؤلاء حتى يعلموا أن بنا قوة" قال. فانتَدَب أبو بكر والزّبير فى سبعين، فخرجوا فى آثار القوم، فسمعوا بهم وٱنصرفوا بنعمة من الله وفضل . وأشارت عائشة رضى الله عنها إلى ماجرى فى غَزوة حَمْراء الأَسْد، وهى على نحو ثمانية أميال من المدينة؛ وذلك أنه لما كان فى يوم الأحد، وهو الثانى من يوم أُحُد، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بإتباع المشركين، وقال: "لا يخرج معنا إلا من شهدها بالأمس" فنهض معه مائتا رجل من المؤمنين . فى البخاريّ فقال : "من يذهب فى إثرهم" فانتدب منهم سبعون رجلا . قال : كان فيهم أبو بكر والزبير على ماتقدّم ، حتى بلغ حمراء الأسد ، مُرْهِبًا للعدوّ؛ فرُبّما كان فيهم المُثْقَل بالجراح لا يستطيع المشى ولا يجد مركُوبا، فرُبّما يحمل على الأعناق؛ وكل ذلك ٱمتثالٌ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبة فى الجهاد . وقيل : إن الآية نزلت فى رجلين من بنى عبد الأَشْهل كانا مُثْخَنَين بالجراح ، يتوكّأ أحدهما على صاحبه ، وخرجا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما وصلوا حمراءَ الأسد، لقيهم نُعيم بن مسعود فأخبرهم أن أبا سفيان ٱبن حرب ومن معه من قريش قد جَمَعُوا جُموعهم، وأجمعوا رأيهم على أن يأتوا (٣) إلى المدينة

(١) كذا فى الأصول . والذى فى النحاس والعبارة له : بدلا .

(٢) هذا عجز بيت لكعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار؛ وصدره :

* وداع دعا يامن يجيب إلى الندى *

(٣) فى ج و ه و ط : يرجعوا .

فيستأصلوا أهلها ؛ فقالوا ما أخبرنا الله عنهم : « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . و بينا قريش قد أجمعوا على ذلك إذ جاءهم مَعْبَد الخُزَاعىّ ، وكانت خُزاعةُ حُلفاءَ النبىّ صلى الله عليه وسلم وعيبة (١) نُصْحه ، وكان قد رأى حال أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وما هم عليه ؛ ولمـا رأى عزمَ قريش على الرجوع ليستأصلوا أهل المدينة احتمله خوفُ ذلك ، وخالصُ نصحه للنبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أنْ خَوّف قريشا بأن قال لهم : قد تركت محمدا وأصحابه بحمراء الأسد فى جيش عظيم ، قد آجتمع له من كان تخلّف عنه ، وهم قد تحرّقوا عليـكم ؛ فالنَّجاءَ النّجاء ! فإنى أنهـاك عن ذلك ، فوالله لقـد حملنى ما رأيتُ أن قلتُ فيه أبياتا من الشـعر . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تُهَـدُّ من الأصوات راحلتى * إذ سالت الأرضُ بالجُـرْدِ الأبابيـلِ (٢)
تَرْدِى بأُسْـدٍ كرامٍ لا تَنابلةٍ * عنـد اللقـاء ولا مِيـلٍ معـازيلِ (٣)
فَظلتُ عَدْوًا أظنّ الأرضَ مائلةً * لمـا سَمَـوْا برئيس غير مَخْـذول
فقلتُ وَيْلَ آبنِ حَرْبٍ من لقائِـكُمُ * إذا تَغَطْمَطَتِ البَـطْحاء بالخيـلِ (٤)
إنى نذير لأهـل البَسْـل ضاحيـةً * لـكلّ ذى إرْبةٍ منهـم ومعقـول
من جيش أحْمَـدَ لا وَخْشٌ قنـابِلُهُ * وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقِيـلِ (٥)

قال : فثَنَى ذلك أبا سُـفيان ومن معه ، وقذَفَ الله فى قلوبهـم الرُّعب ، ورجعوا إلى مكة خائفين مسرعين ، ورجع النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى أصحابه إلى المدينة منصورا ؛ كما قال الله تعـالى : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أى قتال ورُعْب . وآستأذن

---

(١) عيبة الرجل : موضع سره . (٢) الجرد : خيل قصيرة شعر الجلد . أبابيل : فرقا .

(٣) ردت الخيل رديا ورديانا : رجمت الأرض بحوافرها فى سـيرها وعدوها . والتنابلة : القصار ؛ واحدهم تنبـال . والأميل : الذى يميل على السرج ولا يستوى عليه . وقيل : هو الكسل الذى لا يحسن الركوب والفروسية . والمعازيل : القوم ليس معهم سلاح ؛ واحدهم معـزال . (٤) فى الروض الأنف : « تغطمطت البطحاء » لفظ مستعار عن الغطمطة ، وهو صوت غليان القدر . قوله (الخيل) وفى هـ وابن هشام ط أوربا : الجيل . والأول فيه سناد . ولعله : الخيل جمع أخيل فلا سناد .

(٥) الوخش : رذال الناس . والقنابل : الطائفة من الناس ومن الخيل ، وفى جـ و ز و السيرة ط مصر مع الروض : تنابلة . وفى ط وى و هـ : تنائلة : تنئل الرجل إذا تقذر بعد التنظف .

جابر بن عبد الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في الخروج معه فأذن له . وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تحصّل لهم بهذه القَفْلة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنها غَزْوة" . هذا تفسير الجمهور لهذه الآية . وشذّ مجاهد وعكرمة رحمهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من قوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ — إلى قوله : — عَظِيمٌ » إنما نزلت في خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بَدْرٍ الصُّغرى . وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أُحُد، إذ قال : مَوْعدنا بَدْرٌ من العام المُقبِل . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قولوا نعم" فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل بَدْرٍ، وكان بها سُوق عظيم، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه دراهم؛ وقَرُب من بَدْرٍ فجاءه نُعيم بن مسعود الأشجَعِيّ، فأخبره أن قريشا قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك، لكنهم قالوا : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » فصَمَّموا[1] حتى أتوا بدرا فلم يجدوا أحدا، ووجدوا السُّوق فاشتروا بدراهمهم أُدْمًا وتجارة، وانقلبوا ولم يَلقوا كَيْدًا، ورَبِحوا في تجارتهم؛ فذلك قوله تعالى : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » أي وفضل في تلك التجارات . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (١٧٣)

اختُلف في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ فقال مُجاهد ومُقاتِل وعِكرمة والكَلْبيّ : هو نُعيم بن مسعود الأشجعيّ. واللفظ عامّ ومعناه خاص؛ كقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ »[2] يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . السُّدّي : هو أعرابيّ جُعل له جُعْل على ذلك . وقال ابن إسحاق وجماعةٌ : يريد بالناس رَكْبَ عبدِ القيس، مَرُّوا بأبي سفيان فدسّهم إلى المسلمين ليثبّطوهم . وقيل : الناس هنا المنافقون . قال السُّدّي : لما تجهّز النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه للسير إلى بَدْرٍ الصغرى لميعاد أبي سفيان أتاهم المنافقون وقالوا : نحن أصحابكم الذين

(١) صمّم في السير وغيره : مضى . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٠

نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا ، وقد قاتلوكم فى دياركم وظفروا؛ فإن أتيتموهم فى ديارهم فلا يرجع منكم أحد . فقالوا : « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . وقال أبو مَعْشر : دخل ناس من هُذيل من أهل تِهامة المدينةَ ، فسألهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى سفيان فقالوا : « قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » جموعا كثيرة « فَاخْشَوْهُمْ » أى فخافوهم واحذروهم؛ فإنه لا طاقة لكم بهم . فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ أى فزادهم قولُ الناس إيمانا ، أى تصديقا ويقينا فى دينهم ، وإقامةً على نُصرتهم ، وقوةً وجراءة واستعدادا . فزيادة الإيمان على هذا هى فى الأعمال . وقد اختلف العلماء فى زيادة الإيمان ونقصانه على أقوال . والعقيدة فى هذا على أن نفس الإيمان الذى هو تاجٌ واحدٌ، وتصديق واحد بشىء مّا ، إنما هو معنًى فردٌ، لا يدخل معه زيادة إذا حصل ، ولا يبقى منه شىء إذا زال؛ فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان فى متعلَّقاته دون ذاته . فذهب جمع من العلماء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه، لا سيما أن كثيرا من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بضع وسبعون بابًا فأعلاها قول لا إله إلا اللهُ وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " أخرجه الترمذىّ، وزاد مسلم " والحياء شُعْبَةٌ من الإيمان " وفى حديث علىّ رضى الله عنه : إن الإيمان ليبدو لُمَظَةً بيضاء فى القلب ، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللُّمَظَة . وقوله « لمظة » قال الأصمعىّ : اللمظة مثل النُّكْتة ونحوها من البياض؛ ومنه قيل: فرس أَلْمَظ ، إذا كان بجحفلته شىء من بياض . والمحدّثون يقولون « لمظة » بالفتح . وأما كلام العرب فبالضم؛ مثل شُبهة ودهمة وخُمرة . وفيه حُجَّةٌ على من أنكر أن يكون الإيمان يزيد وينقص . ألا تراه يقول : كلما ازداد الإيمان ازدادت اللُّمْظة حتى يبيضّ القلبُ كلّه . وكذلك النفاق يبدو لُمَظَةً سوداءَ فى القلب كلما ازداد النفاق اسودّ القلب حتى يسودّ القلب كلّه . ومنهم من قال : إن الإيمان عَرَض ، وهو لا يَثْبُتُ زمانين ؛ فهو للنبىّ صلى الله عليه وسلم وللصُّلحاء متعاقب ، فيزيد باعتبار توالى أمثاله على قلب المؤمن ، وباعتبار دوام حضوره .

وينقص بتوالى الغَفَلات على قلب المؤمن . أشار إلى هذا أبو المعالى . وهذا المعنى موجود فى حديث الشفاعة، حديثِ أبى سعيد الخُدْرِىّ أخرجه مسلم . وفيـه : " فيقول المؤمنون يا ربّنا إخواننا كانوا يصومون ويُصلّون ويَحجّون فيُقال لهم أخرجوا من عرفتم فتُحَرّم صُورهُم على النار فيُخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نِصفِ ساقَيْه وإلى رُكبتيه ثم يقولون رَبّنا ما بَقِىَ فيها أحدٌ ممن أمرتنا به فيقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقالَ دِينار من خير فأخرجوه فيُخرِجون خلقًا كثيرا ثم يقولون رَبّنا لم نَذَرْ فيها أحدًا ممن أمرتنا ثم يقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال نِصفِ دِينار من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقًا كثيرا ثم يقولون رَبّنا لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ٱرجعـوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال ذَرّةٍ من خير فأخرجوه " وذكر الحديث(١) . وقد قيل : إن المراد بالإيمان فى هذا الحديث أعمالُ القلوب ؛ كالنّية والإخلاص والخوف والنصيحة وشبه ذلك . وسمّاها إيمانا لكونها فى محل الإيمان أو عنى بالإيمان، على عادة العرب فى تسمية الشىء باسم الشىء إذا جاوره، أو كان منه بسبب . دليل هذا التأويل قولُ الشافعين بعد إخراج من كان فى قلبه مثقالُ ذرّة من خير : "لم نَذَرْ فيها خيرا" مع أنه تعالى يُخرج بعد ذلك جموعا كثيرة ممن يقـول لا إله إلا الله، وهم مؤمنون قطعا ؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لمـا أخرجهم . ثم إن عُدِم الوجود الأوّل الذى يُرَكّب(٢) عليه المِثْل لم تكن زيادةٌ ولا نقصان . وقُدِّر ذلك فى الحركة . فإن الله سبحانه إذا خَلق عِلْما فَرْدًا وخلق معه مِثْلَه أو أمثالَه بمعلومات فقد زاد علمه ؛ فإن أعدم الله الأمثال فقد نقص ؛ أى زالت الزيادة . وكذلك إذا خلق حركة وخلق معها مثلها أو أمثالها . وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هو من طريق الأدلة ، فتزيد الأدلّة عند واحد فيقال فى ذلك : إنها زيادة فى الإيمان ؛ وبهذا المعنى — على أحد الأقوال — فُضّل الأنبياء على الخلق ، فإنهم عَلموه من وجوه كثيرة، أكثر من الوجوه التى علمه الخلق بها . وهذا القول خارج عن مقتضى الآية ؛ إذ لا يُتصوّر أن تكون الزيادة فيها من جهة الأدلة . وذهب قوم : إلى أن الزيادة فى الإيمـان إنما هى بنزول الفرائض والأخبار فى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم، وفى المعرفة بها بعد الجهل غابرَ الدهر .

(١) بقيته "فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا" مسلم جـ١ ص ١١٦ . (٢) فى ز : يتركب .

وهذا إنمـا هو زيادة إيمـان ؛ فالقول فيه إنّ الإيمـان يزيد قول مَجازِيّ ، ولا يُتصوّر فيه النقص على هذا الحدّ ، وإنمـا يتصوّر بالإضافة إلى من عُلِم . فاعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ أى كافينا الله . وحسب مأخوذ من الإحساب ، وهو الكفاية . قال الشاعر :

فتمـــلأ بيتنا إقْطًا(١) وسَمْنًا * وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ

روى البخاريّ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ — إلى قوله : — «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلْقِىَ فى النار . وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم . والله أعلم .

قوله تعـالى : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

قال علماؤنا : لمـا فوّضوا أمورَهم إليه ، وآعتمدوا بقلوبهم عليـه، أعطاهم من الجزاء أربعةَ معانٍ: النعمة، والفضل، وصرف السوء، وآتباع الرضا . فرضّاهم عنه، ورضِىَ عنهم .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

قال ابن عبـاس وغيره : المعنى يخوفكم أولياءه ؛ أى بأوليائه ، أو من أوليائه ؛ فحذف حرف الجر ووصل الفعل إلى الأسم فنصب . كما قال تعالى : «لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا(٢)» أى لينذركم ببأس شـديد ؛ أى يخوّف المؤمن بالكافر . وقال الحسن والسُّـدّى : المعنى يخوّف أولياءه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين . فأما أوليـاء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوّفهـم . وقد

(١) الأقط : شىء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ، ويترك حتى يمصل . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦

قيل: إن المراد هذا الذى يخوّفكم بجمع الكفار شيطانٌ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف فى ذلك كما تقدّم. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أى لا تخافوا الكافرين المذكورين فى قوله: « إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » . أو يرجع إلى الأولياء إن قلت: إن المعنى يخوف بأوليائه أى يخوّفكم أولياءه.

قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾ أى خافون فى ترك أمرى إن كنتم مصدّقين بوعدى. والخوف فى كلام العرب الذُّعْر. وخاوَفَنى فلان فخُفْتُه، أى كنتُ أشدّ خوفاً منه. والخوْفاء[1] المفَازَة لا ماء بها. و يقال: ناقةٌ خَوْفَاء وهى الجَرْباء. والخافة كالخريطة[2] من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العسَل. قال سَهلُ بنُ عبد الله: اجتمع بعض الصدّيقين إلى إبراهيم الخَليل فقالوا: ما الخوفُ؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ المأمن. قال سهل: وكان الربيع بن خيثم إذا مرّ بِكِيرٍ[3] يُغشَى عليه؛ فقيل لعلىّ ابن أبى طالب ذلك؛ فقال: إذا أصابه ذلك فأعلمونى. فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده فى قميصه فوجد حركته عالية فقال: أشهد أنّ هذا أخوف [أهل][4] زمانكم. فالخائف من الله تعالى هو أن يخَافَ أن يُعاقِبَه إمّا فى الدنيا وإمّا فى الآخرة؛ ولهذا قيل: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه، بل الخائفُ الذى يترك ما يخَافُ أن يُعذَّب عليه. ففرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال: « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » . ومدح المؤمنين بالخوف فقال: « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ » . ولأرباب الإشارات فى الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا. قال الأستاذ أبو علىّ الدّقاق: دخلت على أبى بكر بن فُورَك رحمه الله عائدا، فلما رآنى دَمعتْ عيناه، فقلت له: إنّ الله يعافيك ويَشْفيك. فقال لى: أترى أنّى أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت. وفى سُنن ابن ماجه عن أبى ذَرّ قال

---

(١) يقال مفازة خوقاء (بالقاف لا بالفاء) أى واسعة الجوف أو لا ماء بها؛ كما يقال ناقة خوقاء (بالقاف كذلك) أى جرباء. (انظر اللسان مادة خوق) وليس فيه ولا فى كتاب آخر من كتب اللغة هذان المعنيان فى مادة «خوف» بالفاء.

(٢) كذا فى الأصول. وفى اللسان: والخافة: خريطة.

(٣) الكير: كير الحداد، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات؛ وهو المعروف الآن بالمنفاخ. وأما الكور فهو المبنى من الطين.

(٤) عن جـ و د.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنى أرى ما لا تَرَوْن وأسمع ما لا تسمعون أَطَّت السماء[١] وحُقّ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلّا ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجدًا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفُرُشات ولخرجتم إلى الصُّعُدات[٢] تجأرون[٣] إلى الله والله لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَد[٤]". خرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن غريب . ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذَرٍّ قال : " لوددت أنّى كنت شجرة تُعْضَد " . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هؤلاء قوم أسلموا ثم ٱرتدّوا خوفا من المشركين ؛ فاغتمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : «وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» . وقال الكلبيّ : يعنى به المنافقين ورؤساءَ اليهود؛ كتموا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الكتاب فنزلت . ويقال : إن أهل الكتاب لمّا لم يؤمنوا شقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الناس ينظرون إليهم ويقولون إنهم أهل كتاب؛ فلو كان قولُه حقًّا لاتبعوه ، فنزلت «وَلَا يُحْزِنْكَ» . قراءة نافع بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع إلا فى — الأنبياء — «لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ»[٥] فإنه بفتح الياء وبضم الزاى . وضده أبو جعفر . وقرأ ابن مُحَيْصِن كلّها بضم الياء و[كسر][٦] الزاى . والباقون كلّها بفتح الياء وضمّ الزاى .

---

(١) الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها . أى إن كثرة ما فى السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت . وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثم أطيط ، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله عز وجل (عن ابن الأثير) . (٢) الصعدات : الطرق ، وهى جمع صعد ؛ كطرق وطرقات . وقيل : جمع صعدة ؛ كظلمة وهى فناء باب الدار ، وممر الناس بين يديه . (٣) جأر القوم جؤارا : رفعوا أصواتهم بالدعاء متضرعين . (٤) تعضد : تقطع بالمعضد ؛ والمعضد والمعضاد مثل المنجل يقطع به الشجر .

(٥) راجع جـ ١١ ص ٣٤٦ (٦) الأصول كلها : بضم الياء والزاى . والصواب ما أثبتناه . راجع ص ٣٤٦ جـ ١١

وهما لغتان : حَزَنَنى الأمر يَحْزُنُنى ، وأَحْزَنَنِى أيضا وهى [لغة](1) قليلة ؛ والأولى أفصح اللغتين ؛ قاله النحاس . وقال الشاعر فى « أحزن » :

* مَضَى صَحْبِي وأَحْزَنَنِي الدِّيارُ *

وقراءة العامة « يُسَارِعُونَ » . وقرأ طلحة « يُسْرِعون فى الكفر » . قال الضحّاك : هم كفار قريش . وقال غيره : هم المنافقون . وقيل : هو ما ذكرناه قبلُ . وقيل : هو عامّ فى جميع الكفار . ومُسارعتهم فى الكفر المظاهرةُ على محمد صلى الله عليه وسلم . قال القُشَيرى : والحُزْن على كُفرِ الكافر طاعة ؛ ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُفرِط فى الحزن على كفر قومه ، فنُهِى عن ذلك ؛ كما قال : «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ»(2) وقال : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا»(3) .

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى لا ينقصون من مُلْك الله وسلطانه شيئا ؛ يعنى لا ينقص بكفرهم . وكما رُوِى عن أبى ذَرٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما رَوى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : " يا عبادِى إنى حرّمت الظُّلمَ على نفسى وجعلته بينكم مُحَرّمًا فلا تَظالَموا . يا عبادِى كلُّكم ضالٌّ إلا من هَدَيْتُه فاستهدونى أَهْدِكم . يا عبادى كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعِمُونى أُطْعِمْكم . يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كَسَوْتُه فاستَكْسُونى أَكْسُكم . يا عبادِى إنكم تُخطِئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تَبلغوا ضَرّى فتَضُرُّونى ولن تَبْلُغُوا نفعى فَتَنْفَعُونى . يا عبادى لو أن أوّلكم وآخركم وإنْسكم وجِنّكم كانوا على أَتْقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئا . يا عبادى لو أن أوّلكم وآخركم وإنْسكم وجِنّكم كانوا على أفجَر قلبِ رجُلٍ واحدٍ ما نَقَص ذلك من مُلْكى شيئا . يا عبادى لو أن أوّلَكُم وآخرَكم وإنسكم وجِنّكم قاموا فى صَعيدٍ واحدٍ فسألُونى فأعطيتُ كُلَّ إنسان مَسْألَتَه ما نَقَص ذلك مما عندى إلا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحر . يا عبادى إنما هى أعمالُكم أُحصيها لكم ثم أُوَفّيكم إياها فمن وَجَد خيرًا فليَحْمَدِ الله ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلُومَنّ إلا نفسَه" . خرّجه مسلم فى صحيحه والترمذى وغيرهما ، وهو حديثٌ عظيم فيه طول .

(1) عن ط .	(2) راجع جـ ١٤ ص ٣٢٤	(3) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣

يكتب كله . وقيل : معنى « لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا » أى لن يضُرُّوا أولياء الله حين تركوا نصرهم إذ كان الله عز وجل ناصرهم .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى نصيبا . والحظّ النصيب والجَدّ . يقال : فلان أحظّ من فلان، وهو محظوظ . وجمع الحَظ أحاظ على غير قياس[1] . قال أبو زيد : يقال رجل حَظِيظ، أى جديدٌ إذا كان ذا حظّ من الرزق . وحَظِظْت فى الأمر أحَظّ . وربما جُمع الحظ أُحُظّا . أى لا يجعل لهم نصيبا فى الجنة . وهو نَصّ فى أن الخير والشر بإرادة الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ تقدّم فى البقرة[2] . ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ كُرّر للتأكيد . وقيل : أى من سوء تدبيره استبدال الإيمان بالكفر وبيعه به ؛ فلا يخاف جانبَه ولا تدبيره . وانتصب « شيئا » فى الموضعين لوقوعه موقع المصدر؛ كأنه قال : لن يضروا الله ضررا قليلا ولا كثيرا . ويجوز انتصابه على تقدير حذف الباء؛ كأنه قال : لن يضروا الله بشيء .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ج إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ج وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ﴾ الإملاء طول العمر ورَغَد العيش . والمعنى : لا يحسبن هؤلاء الذين يُخَوِّفون المسلمين ؛ فإن الله قادر

(١) قال الجوهرى : كأنه جمع أحظ . قال ابن برى : وقوله « أحاظ على غير قياس » وهم منه ؛ بل أحاظ جمع أحظ ؛ وأصله أحظظ فقلبت الظاء الثانية ياء فصارت أحظ ؛ ثم جمعت على أحاظ . (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢١٠

على إهلاكهم، وإنما يُطوِّل أعمارهم ليعملوا بالمعاصى، لا لأنه خير لهم . ويقال : « أنما نملي لهم » بما أصابوا من الظَّفَر يوم أُحُد لم يكن ذلك خيرا لأنفسهم ؛ وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : ما من أحد برّ ولا فاجر إلا والموتُ خير له ؛ لأنه إن كان بَرًّا فقد قال الله تعالى : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ »(١) وإن كان فاجرا فقد قال الله : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ . وقرأ ابن عامر وعاصم « لايحسبن » بالياء ونصب السين . وقرأ حمزة : بالتاء ونصب السين . والباقون : بالياء وكسر السين . فمن قرأ بالياء فالذين فاعلون . أى فلا يحسبن الكفار . و « أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ » تسدّ مسدّ المفعولين . و «ما» بمعنى الذى، والعائد محذوف، و « خير » خبر «أنّ» . ويجوز أن تقدر «ما» والفعل مصدرا ؛ والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم . ومن قرأ بالتاء فالفاعل هو المخاطب، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . و «الذين» نصب على المفعول الأوّل لتحسب . وأن وما بعدها بدل من الذين، وهى تسدّ مسدّ المفعولين، كما تسد لو لم تكن بدلا . ولا يصلح أن تكون «أنّ» وما بعدها مفعولا ثانيا لتحسب ؛ لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأوّل فى المعنى ؛ لأن حسب وأخواتها داخلة على المبتدإ والخبر ؛ فيكون التقدير : ولا تحسبن أنما نملى لهم خير . هذا قول الزجاج . وقال أبو علىّ : لو صحّ هذا لقال «خيرا» بالنصب ؛ لأن «أنّ» تصير بدلا من «الذين كفروا» ؛ فكأنه قال : لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيرا ؛ فقوله «خيرا» هو المفعول الثانى لحسب . فإذًا لا يجوز أن يقرأ «لا تحسبن» بالتاء إلا أن تكسر «إنّ» فى «أنما» وتنصب خيرا، ولم يُروَ ذلك عن حمزة، والقراءة عن حمزة بالتاء ؛ فلا تصح هذه القراءة إذًا . وقال الفرّاء والكسائىّ : قراءة حمزة جائزة على التكرير ؛ تقديره ولا تحسبن الذين كفروا، ولا تحسبن أنما نملى لهم خير ؛ فسدّت «أن» مسدّ المفعولين لتحسب الثانى، وهى وما عملت مفعول ثانٍ لتحسب الأوّل . قال القشيرىّ : وهذا قريب مما ذكره الزجاج فى دعوى البدل، والقراءة صحيحة . فإذًا غرض أبى علىّ تغليط الزجاج . قال النحاس : وزعم أبو حاتم أنّ قراءة حمزة بالتاء هنا، وقوله : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » لحن لا يجوز . وتبعه على ذلك جماعة .

(١) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء .

قلت : وهذا ليس بشيء؛ لما تقدم بيانه من الإعراب، ولصحة القراءة وثبوتها نقلا. وقرأ يحيى بن وثاب « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » بكسر إنّ فيهما جميعا. قال أبو جعفر : وقراءة يحيى حسنة. كما تقول : حسبت عمرا أبوه خالد. قال أبو حاتم : وسمعت الأخفش يذكر كسر «إن» يحتج به لأهل القدر؛ لأنه كان منهم. ويجعل على التقديم والتأخير «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا إنما نملى لهم خير لأنفسهم». قال : ورأيت فى مصحف فى المسجد الجامع قد زادوا فيه حرفا فصار « إنما نملى لهم إيمانا » فنظر إليه يعقوب القارئ فتبين اللحن فحكه. والآية نصٌّ فى بطلان مذهب القدرية؛ لأنه أخبر أنه يطيل أعمارهم ليزدادوا الكفر بعمل المعاصي، وتوالى أمثاله على القلب. كما تقدم بيانه فى ضده وهو الإيمان. وعن ابن عباس قال: ما من برّ ولا فاجر إلا والموت خير له ثم تلا «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا» وتلا « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » أخرجه رزين.

قوله تعالى : مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

قال أبو العالية : سأل المؤمنون أن يعطوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق؛ فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية. واختلفوا مَن المخاطب بالآية على أقوال. فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين : الخطاب للكفار والمنافقين. أى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال الكلبيّ : إن قريشا من أهل مكة قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : الرجلُ منا تزعم أنه فى النار، وأنه إذا ترك ديننا واتبع دينك قلتَ هو من أهل الجنة! فأخبرنا عن هذا من أين هو؟ وأخبرنا مَن يأتيك منا ؟ ومَن لم يأتك؟. فأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

المؤمنين على ما أنتم عليه» من الكفر والنفاق «حتى يميز الخبيث من الطيب» . وقيل : هو خطاب للشركين . والمراد بالمؤمنين فى قوله : « ليذر المؤمنين » من فى الأصلاب والأرحام ممن يؤمن . أى ما كان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك ، حتى يفرق بينكم و بينهم ؛ وعلى هـذا ﴿ وما كان الله ليطلعكم ﴾ كلام مستأنف . وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين . وقيل : الخطاب للؤمنين . أى وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من آختلاط المؤمن بالمنافق ، حتى يميز بينكم بالمحنة والتكليف ؛ فتعرفوا المنافق الخبيث ، والمؤمن الطيب . وقد ميز يوم أحد بين الفريقين . وهـذا قول أكثر أهل المعانى . ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ يا معشر المؤمنين . أى ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم ، ولكن يظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة ، وقد ظهر ذلك فى يوم أحد ؛ فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة ، فما كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا ، فالآن قد أطلع الله محمدا عليه السلام وصحبه على ذلك . وقيل : معنى «ليطلعكم» أى وما كان [الله](١) ليعلمكم مايكون منهم . فقوله : « وما كان الله ليطلعكم [على الغيب](١) » على هذا متصل ، وعلى القولين الأولين منقطع . وذلك أن الكفار لما قالوا : لم لم يوح إلينا ؟ قال : «وما كان الله ليطلعكم على الغيب » أى على من يستحق النبوة ، حتى يكون الوحى باختياركم . ﴿ ولكن الله يجتبى ﴾ أى يختار ﴿ من رسله ﴾ لإطلاع غيبه ﴿ من يشاء ﴾ يقال : طلعت على كذا وآطلعت [عليـه](١) ، وأطلعت عليه غيرى ؛ فهو لازم ومتعد . وقرئ « حتى يميز » بالتشديد من ميز، وكذا فى « الأنفال »(٢) وهى قراءة حمزة . والباقون « يميز » بالتخفيف من ماز يميز . يقـال : مزت الشيء بعضه من بعض أميزه ميزا ، وميزته تمييزا . قال أبو معاذ : مزت الشيء أميزه ميزا إذا فرقت بين شيئين . فإن كانت أشياء قلت : ميزتها تمييزا . ومثله إذا جعلت الواحد شيئين قلت : فرقت بينهما ، مخففا ؛ ومنه فرق الشعر . فإن جعلته أشياء قلت : فرقته تفريقا .

قلت : ومنـه آمتاز القوم ، تميز بعضهم عن بعض . و يكاد يتميز : يتقطع ؛ و بهذا فسر قوله تعالى : «تكاد تميز من الغيظ»(٣) وفى الخبر "من ماز أذى عن الطريق فهو له صدقة" .

(١) وزوهوجـ .	(٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠	(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢١٨

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ يقال : إن الكفار لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم من يؤمن منهم (١) ، فأنزل الله « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » يعنى لا تشتغلوا بما لا يَعنيكم ، وآشتغلوا بما يَعنيكم وهو الإيمان . ﴿ فَآمِنُوا ﴾ أى صدقوا ، أى عليكم التصديق لا التشوّف إلى آطلاع الغيب . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى الجنة . ويذكر أن رجلا كان عند الحجّاج بن يوسف الثقفي مُنَجِّمًا ؛ فأخذ الحجاج حَصَياتٍ بيده قد عرف عددها فقال للمُنَجِّم : كم فى يدى؟ فحسَب فأصاب المنَجِّم . فأغفله الحجّاج وأخذ حَصَياتٍ لم يعُدّهنّ فقال للنجم : كم فى يدى ؟ فحسَب فأخطأ ، ثم حسَب أيضا فأخطأ ؛ فقال : أيها الأمير ، أظنك لا تعرف عدد ما فى يدك ؟ قال لا . قال : فما الفرق بينهما ؟ فقال : إن ذاك أحْصيتَه فخرج عن حدّ الغيب ، فحَسَبْتُ فأصبتُ ، وإنّ هذا لم تَعرف عددَها فصار غَيْبًا ، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى . وسيأتى هذا البابُ فى « الأنعام » (٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ ﴾ (٣) « الذين » فى موضع رفع ، والمفعول الأوّل محذوف . قال الخليل وسيبويه والفرّاء : المعنى البخل خيرا لهم ، أى لا يحسبنّ الباخلون البخلَ خيرا لهم . وإنما حذف لدلالة يبخلون على البخل ؛ وهو كقوله : من صدق كان خيرا له . أى كان الصدق خيرا له . ومن هذا قول الشاعر :

إذا نُهِيَ السّفيه جَرَى إليه * وخالَفَ والسَّفيهُ إلى خِلافِ

فالمعنى : جَرَى إلى السَّفه ؛ فالسّفيه دلّ على السَّفه . وأما قراءة حمزة بالتاء فبعيدة جدًّا ؛ قاله النحاس . وجوازها أن يكون التقدير : لا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيرا لهم . قال

(١) فى ط و جـ و هـ : أيهم . (٢) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد . (٣) فى ط و جـ .

الزجاج : وهى مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . و « هو » فى قوله « هُوَ خَيْراً لَهُمْ » فاصلة عند البصريين ، وهى العماد عند الكوفيين . قال النحاس : ويجوز فى العربية « هو خير لهم » ابتداء وخبر .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر، أى البخل شرّ لهم . والسين فى «سَيُطَوَّقُونَ» سين الوعيد، أى سوف يُطوّقون ؛ قاله المبرّد . وهذه الآية نزلت فى البخل بالمال والإنفاق فى سبيل الله ، وأداء الزكاة المفروضة . وهذه كقوله : « وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ » الآية . ذهب إلى هـذا جماعةٌ من المتأولين ، منهم ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل وأبو مالك والسُّدّى والشَّعْبِيّ قالوا : ومعنى ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ ﴾ هو الذى ورد فى الحديث عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من آتاه الله مالا فلم يُؤدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شُجاعا(١) أقْرَع(٢) له زَبِيبتان(٣) يُطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه(٤) ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك — ثم تلا هـذه الآية — « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » الآية . أخرجه النسائى(٥) . وخرّجه ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن أحدٍ لا يُؤدّى زكاةَ ماله إلا مُثّل له يومَ القيامة شُجاع أقْرَعُ حتى يُطوّق به فى عنقه" ثم قرأ علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم مِصداقه من كتاب الله تعالى « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » الآية . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال" ما من ذى رَحِم يأتى ذَا رَحِمه فيسأله من فضل ماعنده فيبخل به عليه إلا أُخرج له يوم القيامة شُجاعٌ من النار يتلمظ(٦) حتى يُطَوِّقه " . وقال ابن عباس أيضا : إنما نزلت فى أهل الكتاب و بخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ذلك مُجاهد و جماعة من أهل العلم . ومعنى «سَيُطَوَّقُونَ» على هذا التأويل سيحملون عقاب ما بخلوا به ؛ فهو من الطاقة كما قال تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ

---

(١) الشجاع (بالضم) : الحية الذكر؛ أو الذى يقوم على ذنبه و يواثب الراجل والفارس .

(٢) الأقرع : هو الذى تمرط جلد رأسه ؛ لكثرة سمه وطول عمره .

(٣) الزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه ، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه . وقيل : هما زبدتان فى شدق الحية .

(٤) اللهزمتان : شدقاه . وقيل : هما عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الأذنين .

(٥) هذه رواية البخارى عن أبى هريرة ولفظه . أما ما خرجه النسائى فبلفظ آخر عن ابن مسعود . راجع صحيح البخارى وسنن النسائى فى باب الزكاة .

(٦) تلمظت الحية : أخرجت لسانها كتلمظ الآكل .

يُطِيقُونَهُ » وليس من التّطويق . وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : معنى « سَيُطَوَّقون » سيُجعل لهم يوم القيامة طَوْقٌ من النار . وهذا يجرى مع التأويل الأول [أى](١) قول السدى . وقيل : يُلزَمون أعمالهم كما يلزم الطّوق العنق؛ يقال : طُوِّق فلان عملَه طَوْقَ الحمامة، أى أُلزِم عمله . وقد قال تعالى : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »(٢) . ومن هذا المعنى قولُ عبد الله ابن جَحْش لأبى سفيان :

أبلـغ أبا سـفيان عن * أمْرٍ عواقبُـه ندامـه
دارَ ابن عمّـك بِعتَها * تقضى بها عنك الغرامهْ(٣)
وحَلِيفكم بالله ر بّ الناس مجتهدُ القَسامهْ
اذهب بها اذهب بها * طُوِّقتَها طوقَ الحمامهْ

وهذا يجرى مع التأويل الثانى . والبُخْل والبَخَل فى اللغة أن يَمنع الإنسانُ الحقَّ الواجبَ عليه . فأما من منَع ما لا يجب عليه فليس ببخيل؛ لأنه لا يُذَمّ بذلك . وأهل الحجاز يقولون : يَبْخُلون وقد بَخُلوا . وسائر العرب يقولون : بَخِلوا يَبْخَلون؛ حكاه النحاس . وبَخِل يَبْخَل بُخْلًا وَبَخَلًا؛ عن ابن فارس .

الثالثة — فى ثمرة البخل وفائدته . وهو ما رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : " من سَيِّدكم ؟ " قالوا الجَدّ بن قيس على بُخْلٍ فيه . فقال صلى الله عليه وسلم : " وأىُّ داء أَدْوَى(٤) من البخل " قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : " إن قوما نزلوا بساحل البحر فكَرِهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا : ليبعد الرجال منّا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف بِبُعْد النساء، وتعتذر النساء بِبُعْد الرجال؛ ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء " ذكره الماوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » . والله أعلم .

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٩ (٣) لما هاجر بنو جحش من مكة إلى المدينة تركوا دورهم مجرة مغلقة ، ليس فيها ساكن ؛ فباعها أبو سفيان من عمرو بن علقمة . فقال عبدالله لأبى سفيان هذه الأبيات بعد فتح مكة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٣٢٩ طبع أوربا). (٤) أى أى عيب أقبح منه .

الرابعة — واختلف فى البُخْل والشُّحّ؛ هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين . فقيل : البخل الامتناع من إخراج ما حصل عندك . والشُّح : الحِرصُ على تحصيل ما ليس عندك .

وقيل : إن الشُّح هو البخل مع حِرص . وهو الصحيح لما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اتقوا الظلم فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة وآتقوا الشُّحّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم وآستحلوا محارمهم" . وهذا يرد قول من قال : إن البخلَ منعُ الواجب ، والشحَّ منعُ المستحبّ . إذ لو كان الشح منع المستحب لما دخل تحت هذا الوعيد العظيم، والذم الشديد الذى فيه هلاك الدنيا والآخرة[(١)] .

ويؤيد هذا المعنى ما رواه النسائى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "لا يجتمع غُبارٌ فى سبيل الله ودخان جنهم فى مِنخَرَىْ رجلٍ مسلمٍ أبدا ولا يجتمع شحٌّ وإيمانٌ فى قلب رجل مسلم أبدا" . وهذا يدل على أن الشُّح أشدُّ فى الذم من البخل ؛ إلا أنه قد جاء ما يدل على مساواتهما وهو قوله — وقد سئل : أيكون المؤمن بخيلا؟ قال : "لا" وذكر الماوردىّ فى كتاب «أدب الدنيا والدين» أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : "من سيّدكم" قالوا : الجدّ بن قيس على بُخْل فيه ؛ الحديثَ . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوام مُلْكه . وأنه فى الأبد كهو فى الأزل غنيٌّ عن العالمين ، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم؛ فتبقى الأملاك والأموال لا مُدَّعى فيها . فجرى هذا مجرى الوراثة فى عادة الخلق، وليس هذا بميراث فى الحقيقة؛ لأن الوارث[(٢)] فى الحقيقة هو الذى يرث شيئا لم يكن مَلَكه من قبل، والله سبحانه وتعالى مالكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما ، وكانت السموات وما فيها ، والأرض وما فيها له ، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها ؛ فإذا ماتوا رُدَّت العارية إلى صاحبها الذى كانت له فى الأصل . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا[(٣)] » الآية . والمعنى فى الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن يُنفقوا ولا يَبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثا لله تعالى، ولا ينفعهم الا ما أنفقوا .

(١) فى جـ : هلاك الدنيا والأخرى والدين . (٢) فى الأصول : الميراث . والصواب ما ذكر .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٥

قوله تعالى : لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ذكر تعالى قبيحَ قولِ الكفار لاسيّما اليهود . وقال أهل التفسير : لما أنزل الله « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حسناً »(١) قال قوم من اليهود — منهم حُيَيّ بن أخطب ؛ في قول الحسن . وقال عكرمة وغيره : هو فنحاص بن عازوراء — إنّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ يقترض منا . وإنما قالوا هذا تمويهًا على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون هذا ؛ لأنهم أهل كتاب . ولكنهم كفروا بهذا القول ؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين ، وتكذيبَ النبيّ صلى الله عليه وسلم . أي إنه فقير على قول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه اقترض منا . ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ سنجازيهم عليه . وقيل : سنكتبه في صحائف أعمالهم ، أي نأمر الحَفَظة بإثبات قولهم حتى يقرءوه يوم القيامة في كتبهم التي يُؤتونها ؛ حتى يكون أوكدَ للحجة عليهم . وهذا كقوله : « وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ »(٢) . وقيل : مقصود الكتابة الحفظ ، أي سنحفظ ما قالوا لنجازيهم . «وما» في قوله «ما قالوا» في موضع نصب بـ«سنكتب» . وقرأ الأعمش وحمزة « سيُكتب » بالياء ؛ فيكون « ما » اسم ما لم يُسمّ فاعله . واعتبر حمزة ذلك بقراءة ابن مسعود : « ويقال ذوقوا عذاب الحريق » .

قوله تعالى : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي ونكتب قتلَهم الأنبياء ، أي رضاهم بالقتل . والمراد قتل أسلافهم الأنبياء ؛ لكن لما رَضُوا بذلك صحت الإضافة إليهم . وحسّن رجل عند الشعبيّ قتل عثمان رضي الله عنه فقال له الشعبيّ : شَرِكتَ في دمه . فجعل الرضا بالقتل قتلا ؛ رضي الله عنه .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٣٩

قلت : وهذه مسألة عُظمَى، حيث يكون الرضا بالمعصية معصيةً . وقد روى أبو داود عن العُرْس بن عميرة الكندى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا عمِلت الخطيئة فى الأرض كان من شهِدها فكرِهها — وقال مرة فأنكرها — كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها ". وهذا نص . قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ حَقّ ﴾ تقدم معناه فى البقرة (١) . ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى يقال لهم فى جهنم، أو عند الموت، أو عند الحساب هذا . ثم هذا القول من الله تعالى، أو من الملائكة ؛ قولان . وقراءة ابن مسعود « ويقال » . والحريق اسم للملتهبة من النار، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة . قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى ذلك العذاب بما سلف من الذنوب . وخصّ الأيْدى بالذكر ليدلّ على تولّى الفعل ومباشرته ؛ إذ قد يضاف الفعل إلى الإنسان بمعنى أنه أمر به ؛ كقوله : « يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ » (٢) وأصل « أَيْدِيكُمْ » أيديُكم فحذفت الضمة لثقلها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض بدلا من « الَّذِينَ » فى قوله عز وجل « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا » أو نعت « للعبيد » أو خبر ابتداء، أى هم الذين قالوا . وقال الكلبىّ وغيره . نزلت فى كعب بن الأشرف، ومالك بن الصَّيْف، ووهب بن يهوذا، وفنحاص بن عازورا وجماعة أتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا له : أتزعم أن الله أرسلك إلينا، وأنه أنزل علينا كتابا عهِد إلينا فيه ألّا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقُربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدّقناك . فأنزل الله هذه الآية . فقيل : كان هذا فى التوراة، ولكن كان تمام الكلام : حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قربان .

(١) راجع ج ١ ص ٤٣١ (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٤٧ .

وقيل : كان أمر القرابين ثابتا إلى أن نُسخت على لسان عيسى بن مريم . وكان النبيّ منهم يَذْبح ويدعو فتنزل نار بيضاء لها دوِيّ وحفيف لا دخان لها ، فتأكل القُرْبان . فكان هذا القول دعوى من اليهود ؛ إذ كان ثَمّ ٱستثناء فأخفوه ، أو نسخٌ ، فكانوا فى تمسّكهم بذلك مُتعنّتين ، ومعجزاتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم دليل قاطع فى إبطال دعواهم ، وكذلك معجزات عيسى ؛ ومن وجب صدقه وجب تصديقه . ثم قال تعالى : إقامة للحجة عليهم : ﴿ قُلْ ﴾ يامحمد ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ ﴾ يا معشر اليهود ﴿ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ من القربان ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعنى زكريا ويحيى وشَعْيا ، وسائر من قُتلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم . أراد بذلك أسلافهم . وهذه الآية هى التى تلاها عامر الشعبيّ رضى الله عنه ، فاحتجّ بها على الذى حسّن قتل عثمان رضى الله عنه كما بيّناه . وأن الله تعالى سمّى اليهود قَتَلة لرضاهم بفعل أسلافهم ، وإن كان بينهم نحوٌ من سبعمائة سنة . والقُرْبان ما يُتقرب به إلى الله تعالى من نُسُك(١) وصدقة وعملٍ صالح ؛ وهو فُعلان من القُرْبة . ويكون ٱسما ومصدرا ؛ فمثال الٱسم السّلطان والبُرْهان . والمصدر العُدْوان والخُسْران . وكان عيسى ٱبن عمر يقرأ « بِقُرُبانٍ » بضم الراء ٱتباعا لضمة القاف ؛ كما قيل فى جمع ظلمة : ظُلُمات ، وفى حجرة حُجُرات . ثم قال تعالى معزّيا لنبيه ومؤنسا له : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالدلالات . ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ أى الكتب المزبورة ، يعنى المكتوبة . والزُّبُر جمع زَبور وهو الكتاب . وأصله من زَبَرت أى كتبت . وكل زبور فهو كتاب ؛ قال ٱمرؤ القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصرتُه فشجانِى * كخط زبور فى عسيبِ(٢) يمانى

وأنا أعرف تَزْبِرَتِى أى كتابتى . وقيل : الزَّبُور من الزَّبْر بمعنى الزَّجْر . وزَبَرت الرجل ٱنتهرته . وزَبَرْت البئر : طويتها بالحجارة . وقرأ ٱبن عامر « بِالزُّبُرِ وبِالكتاب المُنير » بزيادة باء فى الكلمتين(٣) . وكذلك هو فى مصاحف أهل الشام . ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى الواضح المضىء ؛ من قولك : أَنَرت الشىء أُنيره ، أى أوضحته : يقال : نار الشىء وأناره ونوّره وٱستناره بمعنًى ،

(١) فى هـ و ط : نسيكة . (٢) العسيب : سعف النخل الذى جرد عنه خوصه ، وهى الجريدة .
(٣) فى ط و ب : فى الحرفين .

وكل واحد منهما لازمٌ ومتعدٍّ . وجَمع بين الزبر والكتاب — وهما بمعنًى — لاختلاف لفظهما ، وأصلها كما ذكرنا .

قوله تعالى : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

فيه سبع(1) مسائل :

الأولى — لما أخبر جلّ وتعالى عن الباخلين وكُفرهم في قولهم : « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » وأمر المؤمنين بالصبر على أذاهم في قوله « لَتُبْلَوُنَّ » الآية — بيّن أن ذلك مما ينقضي ولا يدوم؛ فإن أمد الدنيا قريب، ويوم القيامة يوم الجزاء . ﴿ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ من الذّوق، وهذا مما لا مَحِيص عنه للإنسان ، ولا مَحِيد عنه لحيوان . وقد قال أميّة بن أبي الصلت :

من لم يمت عَبْطَةً(2) يمت هَرَمًا * للموت كأسٌ والمرءُ ذائقُها

وقال آخر :

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه * فليتَ شِعْرِى بعد البابِ ما الدّار

الثانية — قراءة العامة «ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» بالإضافة . وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق « ذائقةٌ الموت » بالتنوين ونصب الموت . قالوا : لأنها لم تُذق بعدُ . وذلك أن اسم الفاعل على ضربين : أحدهما أن يكون بمعنى المُضِيّ . والثاني بمعنى الاستقبال؛ فإن أردت الأول لم يكن فيه إلا الإضافة إلى ما بعده؛ كقولك : هذا ضارب زيدٍ أمسِ، وقاتل بكرٍ أمسِ؛ لأنه يُجرى مجرى الاسم الجامد وهو العلم، نحو غلامُ زيدٍ ، وصاحبُ بكرٍ . قال الشاعر :

الحافِظُو عَوْرةِ العشيرة لا يأ * تيهمُ مِن وَرائهمْ وَكَفُ(3)

---

(1) كذا في الأصول والتقسيم ثمانية إلا ج فسبعة وعليها الاعتماد . (2) مات عبطة : أي شابا صحيحا .

(3) الوكف : العيب : والبيت لعمرو بن امرئ القيس ، ويقال لقيس بن الخطيم . (عن اللسان) .

وإن أردت الثاني جاز الجر، والنّصب والتّنوين فيما هذا سبيله هو الأصل؛لأنه يجرى مجرى الفعل المضارع . فإن كان الفعل غير متعدّ ، لم يتعدّ نحو قائمٌ زيدٌ . وإن كان متعدّيا عدّيته ونصبت به ، فتقول : زيدٌ ضاربٌ عمـروا بمعنى يضرب عمـروا . ويجوز حذف التنوين والإضافة تخفيفا ، كما قال المرّار :

سَلِّ الهمومَ بكلِّ مُعطِى رأسِه * ناجٍ مُخالِطِ صُهْبةٍ مُتَعيِّسِ (١)
مُغْتالِ أَحْبُـلِه مُبِينٍ عُنْقُـــه * فى مَنْكِبٍ زَبْنِ المَطِىِّ عَرَنْدَسِ (٢)

[فحذف التنوين تخفيفا ، والأصل : معْطٍ رأسَه بالتنوين والنصب ، ومثل هذا أيضا فى التنزيل قوله تعالى: « هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهُ » (٣) وما كان مثله] .

الثالثــة ــ ثم آعلم أن للموت أسبابا وأمارات؛ فمن علامات موت المؤمن عَرَقُ الجبين . أخرجه النّسائى من حديث بُرَيدة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤمن يموت بعَرَق الجَبين» . وقد بيّناه فى «التذكرة» فإذا احتُضِر لُقِّن الشهادة؛ لقوله عليه السلام: "لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله" لتكون آخر كلامه فيُختَم له بالشهادة؛ ولا يعاد عليه منها لئلا يضجَر . ويستحبّ قراءة « يسۤ » ذلك الوقت ؛ لقوله عليــه السلام : « آقرءوا يسۤ على موتاكم » أخرجه أبو داود . وذكر الآجُرِّى فى كتاب النصـيحة من حديث أم الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما من ميت يُقرأ عنده سورة يسۤ إلا هُوِّن عليه الموت". فإذا قُضى وتَبِع البصرُ الروح ــ كما أخبر صـلى الله عليـه وسلم فى صحيح مسـلم ــ وارتفعت العبادات : وزال التكليف ، توجّهت على الأحياء أحكام ؛ منها تغميضُه ، وإعلامُ إخوانه الصُّلحاء بموته ؛ وكَرِهه قـوم وقالوا : هو من النعى . والأول أصحّ ، وقـد بيّناه فى غير هــذا الموضع . ومنها الأخذ فى تجهيزه بالغسل والدّفن لئلا يُسرع إليه التغيّر؛ قال صلى الله عليه وسلم لقوم أخّروا دفن ميتهم : "عجّلوا بدفن جيفتكم"؛ وقال: "أسرعوا بالجنازة" الحديثَ، وسيأتى .

(١) قوله معطى رأســه ، أى ذلول . وناج : سريع . والصهبة : أن يضرب بياضه إلى الحمرة . والمتعيس والأعيس : الأبيض، وهو أفضل ألوان الإبل . والمعنى : سـل همومك اللازمة لفراق من تهوى ونأيه عنك بكل بعير ترحله للسفر . (٢) وصف بعيرا بعظم الجوف؛ فإذا شد رحله عليه اغتال أحبله (جمع حبل) واستوفاها لعظم جوفه . والاغتيال : الذهاب بالشىء . والمبين : البين الطويل . وزبن : زاحم ودفع . والعرندس : الشديد . ويروى : متين عنقه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٣) الزيادة من جـ و ط و د و هـ .

الثالثة — فأما غسله فهو سُنّة لجميع المسلمين حاشا الشّهيدَ على ماتقدم . وقيل : غسله واجب . قاله القاضي عبد الوهاب . والأوّل : مذهب الكتّاب(١)، وعلى هذين القولين العلماءُ . وسبب الخلاف قوله عليه السلام لأم عطية فى غسلها ابنته زينب ، على ما فى كتاب مسلم . وقيل : هى أم كلثوم، على ما فى كتاب أبى داود : "اْغسِلنها ثلاثا أو خمسا أو أكثرَ من ذلك إن رأيتُنّ ذلك" الحديث . وهو الأصل عند العلماء فى غسل الموتى . فقيل : المراد بهذا الأمر بيانُ حكم الغسل فيكون واجبا . وقيل : المقصود منه تعليم كيفية الغسل فلا يكون فيه ما يدل على الوجوب . قالوا و يدلّ عليه قوله : "إن رأيتُنّ ذلك" وهذا يقتضى إخراج ظاهر الأمر عن الوجوب ؛ لأنه فوّضه إلى نظرهن . قيل لهم : هذا فيه بُعدٌ ؛ لأن ردّك "إن رأيتن" إلى الأمر، ليس السابق إلى الفهم بل السابق رجوع هذا الشرط إلى أقرب مذكور، وهو "أكثر من ذلك" أو إلى التخيير فى الأعداد . وعلى الجملة فلا خلاف فى أن غسل الميت مشروع معمول به فى الشريعة لا يُترك . وصفته كصفة غسل الجنابة على ما هو معروف . ولا يجاوز السبع غسلات فى غُسل الميت بإجماع ؛ على ماحكاه أبو عمر . فإن خرج منه شىء بعد السبع غِسل الموضع وحده، وحكمه حكم الجُنب إذا أحدث بعد غسله . فإذا فرغ من غسله كفّنه فى ثيابه وهى :

الرابعة — والتكفين واجب عند عامة العلماء ، فإن كان له مال فمن رأس ماله عند عامّة العلماء ، إلا ما حكى عن طاوس أنه قال : من الثلث كان المال قليلا أو كثيرا . فإن كان الميت ممن تلزم غيره نفقته فى حياته من سيّد — إن كان عبدا — أو أب أو زوج أو آبن ؛ فعلى السيد باتفاق ، وعلى الزوج والأب والآبن باختلاف . ثم على بيت المال أو على جماعة المسلمين على الكفاية . والذى يتعيّن منه بتعيين الفرض سَتْرُ العورة ؛ فإن كان فيه فضل غير أنه لا يعم جميع الجسد غطى رأسه ووجهه ؛ إكراما لوجهه وسترا لما يظهر من تغيّر محاسنه . والأصل فى هذا قصّة مُصعب بن عُمير ، فإنه ترك يوم أحد نَمِرة(٢) كان

(١) كذا فى كل الأصول .
(٢) النمرة (بفتح فكسر) : شملة فيها خطوط بيض وسود ، أو بردة من صوف تلبسها الأعراب .

إذا غُطِّىَ رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غُطِّى رجلاه خرج رأسُهُ ؛ فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "ضَعوها مما يلى رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر (١)" أخرج الحديث مسلم . والوتر مستحبٌ عند كافة العلماء فى الكَفن ، وكلهم مجمعون على أنه ليس فيه حَدّ . والمستحبّ منه البياض ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفّنوا فيها موتاكم" أخرجه أبو داود . وكُفّن صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية من كُرْسُف (٢) . والكفن فى غير البياض جائز إلا أن يكون حريرا أو خَزًّا . فإن تشاحّ الورثة فى الكفن قُضى عليهم فى مثل لباسه فى جُمعته وأعياده ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إذا كفّن أحدُكم أخاه فَلْيُحسّن كفنه" أخرجه مسلم . إلا أن يوصى بأقلّ من ذلك . فإن أوصى بسَرَف قيــل : يبطل الزائد . وقيــل : يكون فى الثلث . والأول أصح ؛ لقوله تعــالى : (وَلَا تُسْرِفُوا (٣)) . وقال أبو بكر : إنه للمُهْلَة (٤) . فإذا فرغ من غسله وتكفينه ووُضع على سريره واحتمله الرجال على أعناقهم وهى :

الخامســة — فالحكم الإسراع فى المشى ؛ لقوله عليه السلام : "أسرعوا بالجنازة فإن تَكُ صالحةً فخيرٌ تُقدِّمونها إليه وإن تكن غير ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم" . لا كما يفعله اليوم الجهّــال فى المشى رُويدا ، والوقوف بها المرّةَ بعد المرّة ، وقراءةِ القرآن بالألحان إلى مالا يحل ولايجوز حسب مايفعله أهل الديار المصرية بموتاهم . روى النَّسائى : أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال حدّثنــا خالد قال أنبــأنا عُيينة بن عبد الرحمن قال حدّثنى أبى قال : شَهدت جنازة عبد الرحمن بن سَمُرة وخرج زياد يمشى بين يدى السرير ، فجعــل رجال من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السرير ويمشون على أعقابهم ويقولون : رُويداً رويدا ، بارك الله فيكم ! فكانوا يَدِبّون دَبيبا ، حتى إذا كنا ببعض طريق المِرْبَد (٥) لحقنا أبو بكرة رضى الله عنه على بغلة فلما

(١) الإذخر (بكسر الهمزة) : حشيشة طيبة الرائحة ، يسقف بها البيوت فوق الخشب . (٢) قوله : سحولية ، يروى بفتح السين وضمها ؛ فالفتح منسوب إلى السحول ، وهو القصار لأنه يسحلها أى يغسلها ، أو إلى سحول وهى قرية باليمن . وأما الضم فهو جمع سحل ، وهو الثوب الأبيض النقى : ولا يكون إلا من قطن . والكرسف كعصفر : القطن . (٣) راجع جـ ٧ ص ١١٠ (٤) المهلة (مثلثة الميم) : القيح والصديد الذى يذوب فيسيل من الجسد . (٥) المربد كمنبر : موضع قرب المدينة .

رأى الذين يصنعون حمل عليهم ببغلته وأهوى إليهم بالسَّوْط فقال : خلوا ! فوالذى أكرم وجه أبي القاسم صلى الله عليه وسلم لقد رأيتُنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنها لنكاد نرمُل بها رَمْلا، فانبسط القومُ . وروى أبو ماجدة عن ابن مسعود قال سألنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن المشى مع الجنازة فقال : " دون الخَبَب إن يكن خيرا يعجّل إليه وإن يكن غير ذلك فبعدًا لأهل النار " الحديث . قال أبو عمر : والذى عليه جماعة العلماء فى ذلك الإسراع فوق السجيّة قليلا ، والعجلة أحبّ إليهم من الإبطاء . ويكره الإسراع الذى يَشُقّ على ضَعَفة الناس ممن يتبعها . وقال إبراهيم النَّخَعىّ : بَطِّئوا بها قليلا ولا تَدِبُّوا دبيب اليهود والنصارى . وقد تأوّل قوم الإسراع فى حديث أبى هريرة تعجيل الدفن لا المشى، وليس بشىء لما ذكرنا . وبالله التوفيق .

السادسة — وأما الصلاة عليه فهى واجبة على الكفاية كالجهاد . هذا هو المشهور من مذاهب العلماء : مالك وغيره؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى النجاشى : " قوموا فصلّوا عليه ". وقال أصْبغ : إنها سُنّة . وروى عن مالك . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى «براءة» (١) .

السابعة — وأمّا دفنه فى التراب ودسه وستره فذلك واجب ؛ لقوله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ » (٢) . وهناك يذكر حكم بنيان القبر وما يستحب منه، وكيفية جعل الميت فيه . ويأتى فى «الكهف» حكم بناء المسجد عليه (٣) ، إن شاء الله تعالى .

فهذه جملة من أحكام الموتى وما يجب لهم على الأحياء . وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تَسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا " أخرجه مسلم . وفى سُنن النَّسائى عنها أيضا قالت : ذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم هالكٌ بسوء فقال : " لا تذكروا هَلْكاكم إلا بخير " .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٨ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٤١ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٨

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فأجرُ المؤمن ثواب ، وأجر الكافر عقاب ، ولم يعتدّ بالنعمة والبليــة فى الدنيا أجرا وجزاء ؛ لأنها عرصةَ الفناء . ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّـارِ ﴾ أى أُبعد . ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظَفِر بمـا يرجو، ونجا ممـا يخاف. وروى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبـد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من سَرّه أن يُزحزَح عن النار وأن يدخل الجنـة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويأتى إلى الناس الذى يُحب أن يُؤتى إليه". عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » " .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُـرُورِ ﴾ أى تَغرّ المؤمنَ وتخـدعُه فيَظُن طول البقاء وهى فانية . والمتاع ما يُتمتع به وينتفع؛ كالفأس والقِـدْر والقَصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه؛ قاله أكثر المفسرين . قال الحسن : كخُضرة النبات ، ولعب البنات لا حاصل له . وقال قتادة: هى متاع متروك توشـك أن تضمحل بأهلها ؛ فينبغى للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع . ولقد أحسن من قال :

هى الدار دارُ الأذى والقَـذَى * ودارُ الفنـاء ودارُ الغِـيَر(١)
فلــو نلتَهـا بحـذافيرها * لمُتَّ ولم تَقْض منهـا الوَطَـرْ
أيا مَن يؤمّل طـولَ الخـلود * وطـولُ الخلود عليـه ضَرَرْ
إذا أنت شِبْتَ وبان الشّباب * فلا خير فى العيش بعـد الكِبَرْ

والغَرور (بفتح الغين) الشيـطان ؛ يَغُر الناس بالتّمنية والمواعيـد الكاذبة . قال ابن عرفة : الغرور ما رأيتَ له ظاهرًا تحبّـه ، وفيه باطن مكروه أو مجهول . والشـيطان غَرور ؛ لأنه يحمل على محاب النفس ، ووراء ذلك ما يسوء . قال : ومن هـذا بيع الغَرر، وهـو ما كان له ظاهرٌ بيع يَغُرّ وباطنٌ مجهول .

(١) فى جـ : العبر .

قوله تعالى : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

هذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته والمعنى : لَتُختبرنّ ولَتُمتحنن فى أموالكم بالمصائب والأرزاء بالإنفاق فى سبيل الله وسائر تكاليف الشرع . والابتلاء فى الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب . وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها . ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ إن قيل : لم ثبتت الواو فى « لتبلوُن » وحذفت من « وَلَتَسْمَعُنَّ » ؛ فالجواب أن الواو فى « لتبلون » قبلها فتحة فحركت لالتقاء الساكنين ، وخُصّت بالضمة لأنها واو الجمع ، ولم يجز حذفها لأنها ليس قبلها ما يدل عليها ، وحذفت من «ولتسمعن» لأن قبلها ما يدل عليها . ولا يجوز همز الواو فى « لتبلوُن » لأن حركتها عارضة ؛ قاله النحاس وغيره . ويقال للواحد من المذكر: لَتُبْلَيَنَّ يارجل . وللإثنين : لتبليان يا رجلان . ولجماعة الرجال : لتبلوُن . ونزلت بسبب أن أبا بكر رضى الله عنه سمع يهوديا يقول : إن الله فقير ونحن أغنياء . ردّا على القرآن واستخفافا به حين أنزل الله «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا» فلطمه ؛ فشكاه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت . قيل : إن قائلها فِنحاص اليهودى ؛ عن عكرمة . الزُّهرىّ : هو كعب ابن الأشرف نزلت بسببه ؛ وكان شاعرا ، وكان يهجو النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ، ويُؤَلِّب عليه كفار قريش ، ويُشَبِّب بنساء المسلمين حتى بعث[(١) إليه] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم محمدَ بنَ مَسْلمة وأصحابَه فقتله القِتْلة المشهورة فى السِّيَر[(٢)] وصحيح الخبر. وقيل غيرهذا . وكان صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان بها اليهود والمشركون ، فكان هو وأصحابه يسمعون أذًى كثيرا . وفى الصحيحين أنه عليه السلام مرّ بآبن أُبَىّ وهو عليه السلام على حمار فدعاه إلى الله تعالى فقال ابن أُبَىّ : إن كان ماتقول حقًّا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ! ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه . وقبض على أنفه لئلا يصيبه غبار الحمار ، فقال

(١) فى جو ه و ز .　　(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ٥٤٨ طبع أوربا .

ابن رَوَاحة : نعم يا رسول الله ، فَاْغشَنا فى مجالسنا فإنا نحبّ ذلك . وآستبّ المشركون الذين كانوا حول ابن أُبَيّ والمسلمون ، وما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم يسكّنهم حتى سَكنوا . ثم دخل على سعد بن عُبادة يعوده وهو مريض ، فقال : "ألم تسمع ما قال فلان" فقال سعد : أعف عنه وآصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نَزل ، وقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة(١) على أن يتوّجوه و يعصبوه بالعصابة ؛ فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شَرِق به ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت هذه الآية . قيل : هذا كان قبل نزول القتال ، ونَدَب الله عباده إلى الصبر والتقوى وأخبر أنه من عزم الأمور . وكذا فى البخاريّ فى سياق الحديث ، أن ذلك كان قبل نزول القتال . والأظهر أنه ليس بمنسوخ ؛ فإن الجدال بالأحسن والمداراة أبدا مندوب إليها ، وكان عليه السلام مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويُدَاريهم ، و يصفح عن المنافقين ، وهذا بيّن . ومعنى ﴿ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ شدّها(٢) وصلابتها(٣) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هذا متّصل بذكر اليهود ؛ فإنهم أُمِروا بالإيمان بمحمد عليه السلام و بيانِ أمره ، فكتموا نعتَه(٤) . فالآية توبيخ لهم ، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم . قال الحسن وقتادة : هى فى كل من أوتى علم شيء من الكتاب . فمن عَلِم شيئا فليُعلّمه ، وإيّاكم وكتمانَ العلم فإنه هَلَكة . وقال محمد بن كعب : لا يحلّ لعالم أن يسكت على علمه ، ولا للجاهل أن يسكت على جهله ؛ قال الله تعالى «وَإِذْ أَخَذَ

(١) يريد المدينة .
(٢) فى جـ و هـ و ز و ى : سدّها وصلاحها . من السداد .
(٣) راجع جـ ٣ ص ١١٠
(٤) فى جـ : أمره . وفى ز : بعثه .

اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » الآية . وقال : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »(١) . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ؛ ثم تلا هذه الآية « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . وقال الحسن بن عمارة : أتيت الزُّهرى بعد ما ترك الحديث ، فألفيتُه على بابه فقلت : إن رأيتَ أن تحدثنى . فقال : أما علمتَ أنى تركتُ الحديث ؟ فقلت : إمّا أن تُحدثنى وإمّا أن أحدثك . قال حدثنى . قلت : حدثنى الحَكَم ابن عُتَيبة عن يحيى بن الجزار قال سمعت عليّ بن أبى طالب يقول : ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يُعلّموا . قال : فحدثنى أربعين حديثا .

الثانيــة — الهـاء فى قوله : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يجرِ له ذِكْرٌ . وقيل : ترجع إلى الكتاب ؛ ويدخل فيه بيان أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه فى الكتاب . وقال : ﴿ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ ولم يقل تكتمنّه لأنه فى معنى الحال ، أى لتبيننه غير كاتمين . وقرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر وأهل مكة « لَتُبَيِّنُنَّهُ » بالتاء على حكاية الخطاب . والباقون بالياء لأنهم غُيَّب(٢) . وقرأ ابن عباس(٣) « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَيُبَيِّنُنَّهُ » . فيجىء قوله ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ عائدا على الناس الذين بيّن لهم الأنبياء . وفى قراءة ابن مسعود « لَيُبَيِّنُونَه » دون النون الثقيلة . والنَّبْذ الطّرح . وقد تقدم بيانه فى « البقرة »(٤) . ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ مبالغة فى الاطراح ؛ ومنه « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » وقد تقدم فى « البقرة »(٤) بيانه أيضا . وتقدّم معنى قوله : ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فى « البقرة »(٥) فلا معنى لإعادته . ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾(٦) تقدّم أيضا . والحمد لله .

قوله تعالى : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ وجـ ١١ ص ٢٧٢ (٢) كذا فى جـ و د و هـ و ز و ب ، وفى أ و حـ : لأنه غيب . (٣) الذى فى الطبرى أنها قراءة عبد الله ؛ وسيأتى . (٤) راجع جـ ٢ ص ٤٠
(٥) راجع جـ ١ ص ٣٣٤ (٦) راجع جـ ٢ ص ٢٧

أى بمـا فعلوا من القعود فى التخلف عن الغزو وجاءوا به من العذر . ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخُدرى أن رجالا من المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلّفوا عنه وفرحوا بمَقْعدهم خِلافَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم النبىّ صلى الله عليه وسلم آعتذروا إليـه وحلفوا ، وأحبّوا أن يُحمدوا بمـا لم يفعلوا ، فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية . وفى الصحيحين أيضا أن مَرْوان (١) قال لبوّابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل آمرئ منّا فرح بمـا أوتِىَ وأحبّ أن يُحمد بمـا لم يفعل معذَّبًا لنعذّبن أجمعون . فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية ! إنما أنزلت هذه الآية فى أهل الكتاب . ثم تلا ابن عباس « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » و « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » . وقال ابن عباس : سألهم النبىّ صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بمـا أتَوا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه . وقال محمد بن كعب القُرَظى : نزلت فى علماء بنى إسرائيل الذين كتموا الحق ، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم فى باطلهم ، « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى بما أعطاهم الملوك من الدنيا ؛ فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . فأخبر أن لهم عذابا أليما بما أفسدوا من الدِّين على عباد الله . وقال الضحاك : إن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد فى كتابنا أن الله يبعث نبيًّا فى آخر الزمان يختم به النبوّة ؛ فلمـا بعثه الله سألهم المـلوك أهو هذا الذى تجدونه فى كتابكم ؟ فقال اليهود طمعا فى أموال المـلوك : هو غير هذا ، فأعطاهم الملوك الخزائن ؛ فقال الله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا » المـلوكَ من الكذب حتى يأخذوا عَرَض الدنيـا . والحديث الأوّل خلاف مقتضى الحديث الثـانى . ويحتمل أن يكون نزولها على السببين

(١) هو مروان بن الحكم بن العاصى ، وكان يومئذ أميرا على المدينة من قبل معاوية . (عن شرح القسطلانى) .

لاجتماعهما فى زمن واحد، فكانت جوابا للفريقين . والله أعلم . وقوله : واستحمدوا بذلك إليه ، أى طلبوا أن يحمدوا . وقول مَرْوان : لئن كان كلّ آمرئ منا الخ دليلٌ على أن للعموم صِيَغًا مخصوصة ، وأن « الذين » منها . وهذا مقطوع به من تفهّم ذلك من القرآن والسُّنّة . وقوله تعالى : « وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » إذا كانت الآية فى أهل الكتاب لا فى المنافقين المتخلّفين ؛ لأنهم كانوا يقولون : نحن على دين إبراهيم ولم يكونوا على دينه ، وكانوا يقولون : نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب ؛ يريدون أن يُحمَدوا بذلك . و « الذين » فاعل يحسبنّ بالياء . وهى قراءة نافع وابن عامر وابن كَثير وأبى عمرو ؛ أى لا يحسبنّ الفارحون فرحَهم مُنجيًا لهم من العذاب . وقيل : المفعول الأوّل محذوف، وهو أنفسهم . والثانى « بمفازة » . وقرأ الكوفيون « تحسبنّ » بالتاء على الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا تحسبن يا محمد الفارحين بمفازة من العذاب . وقوله « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ » بالتاء وفتح الباء، إعادةُ تأكيد، ومفعوله الأوّل الهاء والميم، والمفعول الثانى محذوف؛ أى كذلك، والفاء عاطفة أو زائدة على بدل الفعل الثانى من الأوّل . وقرأ الضحّاك وعيسى بن عمر بالتاء وضم الباء « فلا تَحسَبُنَّهم » أراد محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقرأ مجاهد وابن كَثير وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضم الباء خبرا عن الفارحين ؛ أى فلا يَحسَبُنّ أنفسهم ؛ « بِمَفَازَةٍ » المفعول الثانى . ويكون « فلا يحسبنهم » تأكيدا . وقيل : « الذين » فاعل « يحسبن » ومفعولاها محذوفان لدلالة « يحسبنهم » عليه ؛ كما قال الشاعر :

بأىّ كتاب أَمْ بأيّة آيةٍ (١) * ترى حبّهم عارًا علىّ وتحسَبُ

آستغنى بذكر مفعول الواحد عن ذكر مفعول الثانى ، و « بمفازة » الثانى، وهو بدل من الفعل الأوّل فأغنى لإبداله منه عن ذكر مفعولَيْه ، والفاء زائدة . وقيل : قد تجىء هذه الأفعال ملغاة لا فى حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر :

وما خِلْتُ أبقى بيننا من مودّة * عِراضُ المَذاكى المُسْنِفاتِ القلائصا

---

(١) فى ط وز : سنة . وهى الرواية المشهورة .

المَذَاكِى : الخيل التى قد أتى عليها بعد قروحها سنةٌ أو سنتان ؛ الواحد مُذَكٍّ، مثل المُخلِف من الإبل ؛ وفى المثــل جَرْى المُذَكِّيات غِلاب (١) ، والمستفات اسم مفعول ؛ يقال : سَنَفْت البعير أسنِفهُ سَـنْفًا إذا كففته بزمامه وأنت راكبه ، وأسنف البعيرَ لغة فى سنفه ، وأسنف البعيرَ بنفسه إذا رفع رأسه؛ يتعدّى ولا يتعدّى . وكانت العرب تركب الإبل وتجنُب الخيل؛ تقول : الحرب لا تُبقِى مودّة . وقال كعب بن أبى سُلْمَى (٢) :

أرجو وآمل أن تَدْنُو مَوَدّتُها * وما إخالُ لَدَيْنا منكِ تَنوِيلُ

وقرأ جمهور القرّاء السبعة وغيرهم «أتوا» بقصر الألف ، أى بما جاءوا به من الكذب والكتمان . وقرأ مَرْوان بن الحَكَم والأعمش وإبراهيم النَّخَعِيّ « آتوا » بالمد، بمعنى أعْطَوا : وقرأ سعيد ابن جَبير « أُوتوا » على ما لم يسم فاعله ؛ أى أعطوا . والمفازة المنجاة ، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا ؛ أى ليسوا بفائزين . وسُمِّى موضع المخاوف مفازة على جهة التفاؤل؛ قاله الأصمعى . وقيل : لأنها موضع تفويز ومَظِنَّة هلاك؛ تقول العرب : فوّز الرجل إذا مات . قال ثعلب : حكيت لابن الأعرابى قول الأصمعى فقال أخطأ ، قال لى أبو المكارم : إنما سُمِّيت مفازة ؛ لأن من قطعها فاز . وقال الأصمعيّ : سُمّى اللّدِيغ سـليمًا تفاؤلا . قال ابن الأعرابى : لأنه مُستَسلِم لمـا أصابه . وقيـل : لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب ؛ لأن الفوز التباعدُ عن المكروه . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

هـذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقـير ونحن أغنياء، وتكذيب لهم . وقيل : المعنى لا تظُنّن الفرحين ينجون من العذاب؛ فإن لله كلّ شىء، وهم فى قبضة القدير؛ فيكون معطوفا على الكلام الأوّل، أى إنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء . ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أى مُمكن ﴿ قَدِيرٌ ﴾ وقد مضى فى « البقرة » (٣) .

(١) الغلاب : المغالبة . أى أن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوّته . (٢) كذا فى الأصول . وهو اختصار من كعب بن زهير الخ . (٣) راجع ج ١ ص ٢٢٤

قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ
فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ
فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)
رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى هـذه الآية في « البقرة »[1] في غير موضع . ختم تعالى هـذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته ؛ إذ لا تصدر إلا عن حىّ قيّوم قدير قُدّوس سلام غنىّ عن العالمين؛ حتى يكون إيمانُهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليـد . ﴿ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمّل الدلائل . ورُوى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لمـا نزلت هـذه الآية على النبىّ صلى الله عليه وسلم قام يُصلّى ، فأتاه بِلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة ، فرآه يبكى فقال : يارسول الله ، أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ! فقال : " يا بلالُ ، أفلا أكون عبدا شكورا ولقـد أنزل الله علىّ الليـلة آية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَاب » — ثم قال : وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها " .

الثانيـــة — قال العلماء : يستحبّ لمن آنتبه من نومه أن يمسح على وجهه ، ويستفتح قيامه بقراءة هـذه العشر الآيات اقتداءً بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما وسيأتى؛ ثم يصلّى ما كُتب له ، فيجمع بين التفكّر والعمل ، وهو أفضـل العمل على ما يأتى بيانه في هذه الآية بعد هذا . ورُوى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة « آل عمران » كل ليلة ، خرّجه أبو نصر الوائلى السِّجِسْتانىّ الحافظ في كتاب « الإبانة » من حديث سليمان بن موسى عن مظاهر بن أسـلم المخزومىّ عن المَقْبُرىّ عن أبى هريرة . وقـد تقدّم أوّل السورة[2] عن عثمان قال : من قرأ آخر آل عمران في ليلة كُتب له قيام ليلة .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلوا آبن آدم منهـا في غالب أمره ، فكأنها تحصُر زمانه . ومن هـذا المعنى قولُ عائشة رضى الله عنهـا : كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يذكر الله على كل

(١) راجع ج ٢ ص ١٩١ . (٢) راجع ص ٢ من هذا الجزء .

أحيانه . أخرجه مسلم . فدخل فى ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك . وقد اختلف العلماء فى هذا ؛ فأجاز ذلك عبد الله بن عمرو وابن سيرين والنخعى ، وكره ذلك ابن عباس وعطاء والشعبى . والأول أصح لعموم الآية والحديث . قال النخعى : لا بأس بذكر الله فى الخلاء فإنه يصعد . المعنى : تصعد به الملائكة مكتوبا فى صحفهم ؛ فحذف المضاف . دليله قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[١] . وقال : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ »[٢] . ولأن الله عز وجل أمر عباده بالذكر على كل حال ولم يستثن فقال : « اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا »[٣] وقال : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ »[٤] وقال : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا »[٥] فعم . فذاكر الله تعالى على كل حالاته مثاب مأجور إن شاء الله تعالى . وذكر أبو نعيم قال : حدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثنى أبى قال حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه عن كعب الأحبار قال قال موسى عليه السلام : "يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك قال : ياموسى أنا جليس من ذكرنى قال : يارب فإنا نكون من الحال على حال نجلك ونعظمك أن نذكرك قال : وما هى؟ قال: الجنابة والغائط قال : ياموسى اذكرنى على كل حال". وكراهية من كره ذلك إنما لتنزيه ذكر الله تعالى فى المواضع المرغوب عن ذكره فيها ككراهية قراءة القرآن فى الحمام ، وإما إبقاء على الكرام الكاتبين على أن يحلهم موضع الأقذار والأنجاس لكتابة ما يلفظ به . والله أعلم . و﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ فى موضع الحال ؛ أى ومضطجعين ومثله قوله تعالى : « دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا »[٦] على العكس ؛ أى دعانا مضطجعا على جنبه . وذهب جماعة من المفسرين منهم الحسن وغيره إلى أن قوله « يَذْكُرُونَ اللَّهَ » إلى آخره ، إنما هو عبارة عن الصلاة ؛ أى لا يضيعونها ، ففى حال العذر يصلونها قعودا أو على جنوبهم . وهى مثل قوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ »[٧] فى قول ابن مسعود على ما يأتى بيانه . وإذا كانت الآية فى الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلى قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جنبه ؛ كما ثبت عن عمران

(١) راجع جـ ١٧ ص ٨　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٥　(٣) راجع جـ ١٤ ص ١٩٧　(٤) راجع جـ ٢ ص ١٧١　(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٥　(٦) راجع جـ ٨ ص ٣١٧　(٧) راجع جـ ٥ ص ٣٧٣

ابن حُصين قال : كان بى البَواسِير فسألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال : " صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جُنُب " رواه الأئمة . وقد كان صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا قبل موته بعام فى النافلة ؛ على مافى صحيح مسلم . وروى النَّسائىّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى متربّعا . قال أبو عبد الرحمن[(1)] : لا أعلم أحدا روى هذا الحديث غير أبى داود الحَفَرِىّ[(2)] وهو ثقة، ولا أحسَب هذا الحديث إلا خطأ . والله أعلم .

الرابعة — واختلف العلماء فى كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك أنه يتربّع فى قيامه، وقاله البُوَيْطِىّ عن الشافعىّ . فإذا أراد السجود تهيّأ للسجود على قدر ما يطيق، قال : وكذلك المتنفل . ونحوه قول الثورى، وكذلك قال الليث وأحمد وإسحاق وأبو يوسف ومحمد . وقال الشافعىّ فى رواية المُزَنىّ : يجلس فى صلاته كلها كجلوس التشهد . وروى هذا عن مالك وأصحابه ؛ والأوّل المشهور[(3)] وهو ظاهر المدوّنة . وقال أبو حنيفة وزفر : يجلس كجلوس التشهد، وكذلك يركع ويسجد .

الخامسة — قال[(4)] : فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير؛ هذا مذهب المدوّنة وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم يصلى على ظهره ، فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن ثم على جنبه الأيسر . وفى كتاب ابن المَوّاز عكسه ، يصلى على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر . وقال سحنون : يصلى على الأيمن كما يجعل فى لحده، وإلا فعلى ظهره وإلا فعلى الأيسر . وقال مالك وأبو حنيفة : إذا صلى مضطجعا تكون رجلاه مما يلى القِبلة . والشافعىّ والثورىّ : يصلى على جنبه ووجهه إلى القِبلة .

السادسة — فإن قوى لخفة المرض وهو فى الصلاة ؛ قال ابن القاسم : إنه يقوم فيما بقى من صلاته ويبنى على ما مضى ؛ وهو قول الشافعىّ وزفر والطبرىّ . وقال أبو حنيفة

(1) أبو عبد الرحمن : كنية النسائى .
(2) الحفرى (بفتح المهملة والفاء) نسبة إلى موضع بالكوفة واسمه عمر بن سعد بن عبيد .
(3) فى ى : المذهب . وذلك فى الهامش تصحيحا . (4) فى هـ .

وصاحباه يعقوب ومحمد فيمن صلى مضطجعا ركعة ثم صحّ : إنه يستقبل الصلاة من أوّلها ، ولو كان قاعدا يركع ويسجد ثم صحّ بنى في قول أبي حنيفة ولم يَبْنِ في قول محمد . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا افتتح الصلاة قائما ثم صار إلى حدّ الإيماء فليَبْنِ ؛ وروى عن أبي يوسف . وقال مالك في المريض الذي لا يستطيع الركوع ولا السجود وهو يستطيع القيام والجلوس : إنه يصلي قائما و يومئ إلى الركوع ، فإذا أراد السجود جلس وأومأ إلى السجود ؛ وهو قول أبي يوسف وقياس قول الشافعيّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يصلي قاعدا .

السابعة — وأما صلاة الراقد الصحيح فروى من حديث عِمران بن حصين زيادة ليست موجودة في غيره ، وهي «صلاة الراقد مثل نصف صلاة القاعد» . قال أبو عمر : وجمهور أهل العلم لا يُجيزُون النافلةَ مضطجعا ؛ وهو حديث لم يروه إلا حسين المعلّم وهو حسين ابن ذَكْوان عن عبد الله بن بُرَيْدة عن عِمران بن حصين ، وقد اختلف على حسين في إسناده ومتنه اختلافا يوجب التوقف عنه ، وإن صحّ فلا أدرى ما وجهه ؛ فإن كان أحد من أهل العلم قد أجاز النافلة مضطجعا لمن قدر على القعود أو على القيام فوجهه هذه الزيادة في هذا الخبر، وهي حجة لمن ذهب إلى ذلك . وإن أجمعوا على كراهة النافلة راقدا لمن قدر على القعود أو القيام ، فحديث حسين هذا إمّا غلط وإما منسوخ . وقيل : المراد بالآية الذين يستدلون بخلق السموات والأرض على أن المتغيِّر لابدّ له من مُغيِّر، وذلك المغير يجب أن يكون قادرا على الكمال ، وله أن يبعث الرسل ، فإن بعث رسولا ودل على صدقه بمعجزة واحدة لم يبق لأحد عذر ؛ فهؤلاء هم الذين يذكرون الله على كل حال . والله أعلم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قد بينا معنى « ويذكرون » وهو إما ذِكر باللسان وإمّا الصلاة فرضها ونفلها ؛ فعطف تعالى عبادة أخرى على إحداهما بعبادة أخرى[1] ، وهي التفكر في قدرة الله تعالى ومخلوقاته والعِبَر الذي بثّ[2] ؛ ليكون ذلك أزيد في بصائرهم :

وفي كلِّ شيْءٍ له آيةٌ * تدُلُّ على أنّهُ واحِدُ

(١) في ا و ج و ب و هـ و ى و ط : بعبادة أخرى وهي الفكر .
(٢) كذا في هـ و ب و د و ج و ى . وفي ا و ح : نبه ؛ وفي ز : ثبت .

وقيل : « يتفكرون » عطف على الحال . وقيل : يكون منقطعا ؛ والأول أشبه . والفكرة : تردّد القلب في الشيء؛ يقال : تفكّر، ورجل فِكّير كثير الفِكْر، ومرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكّرون في الله فقال : " تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره " وإنما التفكر والاعتبار وانبساط الذهن في المخلوقات كما قال : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » . وحكى أن سفيان الثوريّ رضي الله عنه صلى خلف المقام ركعتين ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشي عليه ، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بينما رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال أشهد أن لكِ ربا وخالقا اللهمّ اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له " وقال صلى الله عليه وسلم : " لا عبادة كتفكر " . وروى عنه عليه السلام قال : " تفكر ساعةٍ خير من عبادة سنة " . وروى ابن القاسم عن مالك قال: قيل لأم الدرداء : ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت : كان أكثر شأنه التفكر . قيل له : أفترى التفكر عملا من الأعمال ؟ قال : نعم ، هو اليقين . وقيل لابن المسيّب في الصلاة بين الظهر والعصر ، قال : ليست هذه عبادة ، إنما العبادة الورع عما حرم الله والتفكر في أمر الله . وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة؛ وقاله ابن عباس وأبو الدرداء. وقال الحسن : الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته . ومما يتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها . ويروى أن أباسليمان الدارانيّ رضي الله عنه أخذ قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف ، فرآه لما أدخل أصبعه في أذن القدح أقام لذلك متفكرا حتى طلع الفجر ، فقال له : ما هذا يا أبا سليمان ؟ قال : إني لما طرحت أصبعي في أذن القدح تفكرت في قول الله تعالى «إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ والسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ»(1) تفكرت في حالي وكيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة ، فما زلت في ذلك حتى أصبحت . قال ابن عطية : « وهذا نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها ، وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج ، وقراءة علم كتاب الله تعالى ومعاني سنة رسول الله

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٣٢

صلى الله عليه وسلم لمن يفهم ويرجى نفعه أفضل من هذا» . قال ابن العربي : اختلف الناس أى العملين أفضل : التفكر أم الصلاة؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكر أفضل؛ فإنه يثمر المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية . وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل؛ لما ورد فى الحديث من الحث عليها والدعاء إليها والترغيب فيها . وفى الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته ميمونة، وفيه : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران ، وقام إلى شَنّ[(١)] معلَّق فتوضأ وضوءا خفيفا ثم صلى ثلاث عشر ركعة؛ الحديث . فأنظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكر فى المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده؛ وهذه السنة هى التى يعتمد عليها . فأما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يوما وليلة وشهرا مفكرا لا يفتر؛ فطريقة بعيدة عن الصواب غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة على السنن . قال ابن عطية : وحدثنى أبى عن بعض علماء المشرق قال : كنت بائتا فى مسجد الأقدام[(٢)] بمصر فصليت العتمة فرأيت رجلا قد اضطجع فى كساء له مسجًّى بكسائه حتى أصبح ، وصلينا نحن تلك الليلة؛ فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس، فأستعظمت جراءته فى الصلاة بغير وضوء؛ فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه ، فلما دنوت منه سمعته ينشد شعرا :

مُسجَّى الجسمِ غائبٌ حاضر * مُنْتَبِه القلبِ صامتٌ ذاكر
منقبض فى الغُيوب منبسط * كذاك من كان عارفا ذاكر
يَبيتُ فى ليلِه أخا فِكَرٍ * فهو مَدَى الليلِ نائمٌ ساهر

قال : فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة، فانصرفتُ عنه .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا﴾ أى يقولون : ما خلقته عبثا وهزلا ، بل خلقته دليلا على قدرتك وحكمتك . والباطل : الزائل الذاهب؛ ومنه قول لَبيد :

* ألا كلّ شىء ما خَلَا اللهَ باطلُ *

(١) الشن : القربة . (٢) مسجد الأقدام : مسجد كان بجهة مصر العتيقة قريبا من سقاية ابن طولون . راجع المقريزى ج ٢ ص ٤٤٥ طبع بولاق .

أى زائل . و « بَاطِلًا » نصب لأنه نعت مصدرٍ محذوف ؛ أى خلقا باطلا . وقيل : انتصب على نزع الخافض ؛ أى ما خلقتها للباطل . وقيل : على المفعول الثانى ، و يكون خلق بمعنى جعل . ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أسند النحاس عن موسى بنِ طلحة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى « سبحان الله » فقال : "تنزيه الله عن السوء" وقد تقدّم(١) فى « البقرة » معناه مستوفى . ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أجرنا من عذابها ، وقد تقدّم(٢) .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أى أذللته وأهنته . وقال المفضل : أى أهلكته ؛ وأنشد :

أَخْزَى الإلهُ من الصّليب عبِيدَه * واللابِسِين قَلَانِس الرهبانِ

وقيل : فضحته وأبعدته ؛ يقال : أخزاه الله : أبعده ومَقَتَه . والاسم الخِزْى . قال ابن السكيت : خَزِىَ يَخْزَى خِزْيا إذا وقع فى بليّة . وقد تمسك بهذه الآية أصحاب الوعيد وقالوا : من أدخل النار ينبغى ألا يكون مؤمنا ؛ لقوله تعالى : « فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » ؛ فإن الله يقول : « يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ(٣) » . وما قالوه مردود؛ لقيام الأدلة على أن من ارتكب كبيرة لا يزول عنه اسم الإيمان ، كما تقدّم و يأتى . والمراد من قوله : «مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ» من تخلد فى النار ؛ قاله أنس بن مالك . وقال قتادة : تدخل مقلوب تخلد ، ولا نقول كما قال أهل حروراء . وقال سعيد بن المسيب : الآية خاصة فى قوم لا يخرجون من النار ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أى الكفار . وقال أهل المعانى : الخزى يحتمل أن يكون بمعنى الحَيَاء ؛ يقال : خَزِىَ يَخْزَى خَزَايَةً إذا استحيا ، فهو خَزْيان . قال ذو الرمة :

خَزَايَةً أدركته عِنْد(٤) جَوْلَتِه * من جانب الحَبْلِ مخلوطا بها الغضبُ

فخِزْىُ المؤمنين يومئذ استحياؤهم فى دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها . والخِزْى للكافرين هو إهلاكهم فيها من غير موت ؛ والمؤمنون يموتون ، فافترقوا . كذا ثبت فى صحيح السنة من حديث أبى سعيد الخدرىّ ، أخرجه مسلم . وقد تقدّم و يأتى .

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٦ (٢) راجع ج ٢ ص ٤٣٣ (٣) راجع ج ١٨ ص ١٩٧
(٤) فى الديوان : بعد .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ أى محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين . وقال قتادة ومحمد بن كعب القرظيّ : هو القرآن ، وليس كلهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . دليل هذا القول ما أخبر الله تعالى عن مؤمني الجنّ إذ قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ »(١) . وأجاب الأوّلون فقالوا : من سمع القرآن فكأنما لقِيَ النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا صحيح معنى . وأَنْ(٢) من ﴿ أَنْ آمِنُوا ﴾ في موضع نصب على حذف حرف الخفض ، أى بأن آمنوا . وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى سمعنا مناديا للإيمان ينادى ؛ عن أبى عبيدة . وقيل : اللام بمعنى إلى ، أى إلى الإيمان ؛ كقوله : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ »(٣) . وقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا »(٤) وقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا »(٥) أى إلى هذا ، ومثله كثير . وقيل : هى لام أجل ، أى لأجل الإيمان .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ تأكيد ومبالغة في الدعاء . ومعنى اللفظين واحد ؛ فإن الغفر والكفر : الستر . ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ أى أبرارا مع الأنبياء ، أى فى جملتهم . واحدهم بَرٌّ و بَارٌّ وأصله من الاتساع ؛ فكأن البرّ متسع فى طاعة الله ومتّسعة له رحمة الله .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ أى على ألسنة رسلك ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(٦) . وقرأ الأعمش والزهرىّ « رُسْلِكَ » بالتخفيف ، وهو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للؤمنين ؛ والملائكة يستغفرون لمن فى الأرض . وما ذكر من دعاء نوح للؤمنين ودعاءِ إبراهيم واستغفارِ النبيّ صلى الله عليه وسلم لأمته . ﴿ وَلَا تُخْزِنَا ﴾ أى لا تعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ، ولا تهنا ولا تبعدنا ولا تمقتنا يوم القيامة ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ . إن قيل : ما وجه قولهم « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » وقد علموا أنه لا يخلف الميعاد ؛ فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأوّل — أن الله سبحانه وعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا ممن وُعِد بذلك دون الخِزْي والعِقاب .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦ . (٢) من هو جـ و ط . (٣) راجع جـ ١٧ ص ٢٩٠
(٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٩ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ .

الثـانى — أنهم دعوا بهذا الدعاء على جهة العبادة والخضوع؛ والدعاء مُخ العبادة . وهذا كقوله : « قُل رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ »(١) وإن كان هو لا يقضى إلّا بالحق .

الثـالث — سألوا أن يُعطوا ما وعِدوا به من النصر على عدوّهم معجّلا؛ لأنها حكاية عن أصحـاب النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، فسألوه ذلك إعزازا للدّين . والله أعلم . وروى أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " من وعده الله عز وجل على عمل ثوابا فهو مُنجِزُه له رحمة ومَن وعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار" . والعرب تذم بالمخالفة فى الوعد وتمدح بذلك فى الوعيد؛ حتى قال قائلهم(٢) :

ولا يرهَبُ ٱبنُ العمّ ما عِشتُ صَوْلَتِي * ولا أختفى(٣) من خَشْـيَةِ المتَهَدِّدِ
وإنّى متى أوعَـدتُه أو وعـدته(٤) * لَمخلِفُ إيعادِى ومُنجِزُ مَوْعِـدِى

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى أجابهم . قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى ٱستجاب لهم . وقال جعفر الصادق : من حَزَبه(٥) أمرٌ فقال خمس مرات ربنـا أنجاه الله ممـا يخاف وأعطاه ما أراد . قيـل : وكيف ذلك ؟ قال : إقرءوا إن شئتم « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِـمْ — إلى قوله : إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَنِّى ﴾ أى بأنّى . وقرأ عيسى بن عمر « إنى » بكسر الهمزة، أى فقال: إنى . وروى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، ألا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ الآية . وأخرجه الترمذى . ودخلت « من » للتأكيد؛ لأنّ قبلها حرف نفى . وقال الكوفيون : هى للتفسير ولا يجوز حذفها ؛ لأنها دخلت لمعنى لا يصلح الكلام إلا به ، وإنمـا تحذف إذا كانت تأكيدا للجحد . ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ ابتداء وخبر ، أى دِينكم واحد . وقيل : بعضكم من بعض فى الثواب والأحكام والنصرة وشِبه ذلك . وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم فى الطاعة، ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة؛ نظيرها قوله

---

(١) على قراءة نافع راجع جـ ١١ ص ٣٥١ (٢) هو عامر بن الطفيل ؛ كما فى اللسان .
(٣) فى هـ و ى : أختبى . (٤) كذا فى جميع الأصول ، والذى فى اللسان : وإنى إن ، وفى التاج : وإنى وإن ، (٥) حزبه الأمر : إذا نزل به مهم أو أصابه غم .

عز وجل : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »[1] . ويقال : فلان منّى ، أى على مذهبي وخلق .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إبتداء وخبر ، أى هجروا أوطانهم وساروا إلى المدينة . ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ فى طاعة الله عز وجل . ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ أى وقاتلوا أعدائى . ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ أى فى سبيلى . وقرأ ابن كثير وابن عامر : «وقاتلوا وقُتِّلوا» على التكثير . وقرأ الأعمش « وقتِلوا وقاتلوا » لأن الواو لا تدل على أن الثانى بعد الأول . وقيل : فى الكلام إضمار قد، أى قتِلوا وقد قاتلوا ؛ ومنه قول الشاعر :

* تَصَابَى وأَمْسَى عَلَاهُ الكِبَرْ *

أى وقد علاه الكبر . وقيل : أى وقد قاتل من بَقِيَ منهم ؛ تقول العرب : قتلنا بنى تميم ، وإنما قتل بعضهم . وقال امرؤ القيس :

* فإنْ تَقْتُلُونَا نُقَتِّلْكُمْ *

وقرأ عمر بن عبد العزيز : « وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا » خفيفة بغير ألف . ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لأسترنّها عليهم فى الآخرة ، فلا أوبِّخهم بها ولا أُعاقبهم عليها . ﴿ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين ؛ لأن معنى « لأدخلنهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار » لأثيبنّهم ثوابا . الكسائى : انتصب على القطع . الفرّاء : على التفسير . ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ أى حسن الجزاء ، وهو ما يرجع على العامل من جزاء[2] عمله ؛ من ثاب يثوب .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ قيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد الأمة . وقيل : للجميع . وذلك أن المسلمين قالوا : هؤلاء الكفار لهم تجائر وأموال واضطراب فى البلاد ، وقد هلكنا نحن من الجوع ؛ فنزلت هذه الآية . أى لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم فى أسفارهم . ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى تقلبهم متاع قليل . وقرأ يعقوب « يَغُرَّنْكَ » ساكنة النون ؛ وأنشد :

لا يَغُرَّنْكَ عِشَاءٌ ساكِنٌ * قد يُوَافِي بالمَنِيَّاتِ السَّحَرْ

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٢ . (٢) فى ز و هـ و د و جـ : جزاء .

ونظير هذه الآية قوله تعالى: «فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ»(١) . والمتاع: ما يعجّل الانتفاع به؛ وسمّاه قليلا لأنه فانٍ ، وكل فانٍ وإن كان كثيرا فهو قليل . وفي صحيح الترمذي عن المستورد الفهري قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ ، فلينظر بماذا يرجع" . قيل : "يرجع" بالياء والتاء. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي بئس ما مهّدوا لأنفسهم بكفرهم ، وما مهد الله لهم من النار .

الثامنة عشرة — في هذه الآية وأمثالها كقوله : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ »(٢) الآية . « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »(٣) . « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ »(٤) . « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »(٣) دليل على أن الكفار غير منعَم عليهم في الدنيا؛ لأن حقيقة النعمة الخلوصُ من شوائب الضرر العاجلة والآجلة ، ونعم الكفار مشوبةٌ بالآلام والعقوبات ، فصار كمن قدّم بين يدي غيره حلاوة من عسل فيها السمّ، فهو وإن استلذّ آكله لا يقال: أُنعم عليه؛ لأن فيه هلاك روحه . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء ، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري . وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القاضي أبو بكر : إلى أن الله أنعم عليهم في الدنيا . قالوا : وأصل النِّعمة من النعمة بفتح النون ، وهي لين العيش ؛ ومنه قوله تعالى : « وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ »(٥) . يقال : دقيق ناعم ، إذا بولغ في طحنه وأُجيد سحقه . وهذا هو الصحيح ، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلّفين فقال : « فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ »(٣) . « وَاشْكُرُوا لِلَّهِ »(٦) والشكر لا يكون إلا على نعمة . وقال : « وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ »(٧) وهذا خطاب لقارون . وقال : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً »(٨) الآية . فنبّه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نعمة دنياوية فجحدوها . وقال : « يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا »(٨) وقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ »(٩) . وهذا عام

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ . (٢) راجع ص ٢٨٦ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٣٧ . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٣٠ .
(٥) راجع جـ ١٦ ص ١٣٨ . (٦) راجع جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٧) راجع جـ ١٣ ص ٣١٤ . (٨) راجع جـ ١٠ ص ١٩٣ . وص ١٦١ .
(٩) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ .

فى الكفار وغيرهم . فأما إذا قدّم لغيره طعاما فيه سمّ فقد رفق به فى الحال؛ إذْ لم يجرعه السمّ بحتا، بل دَسّه فى الحلاوة، فلا يستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبت هذا فالنِّعَم ضربان: نِعَمُ نفع ونِعَمُ دفْع؛ فنِعم النفع ما وصل إليهم من فنون اللذات، ونِعم الدفع ماصرف عنهم من أنواع الآفات . فعلى هذا قد أنعم على الكفار نِعم الدفع قولا واحدا؛ وهو ما زُوِىَ عنهم من الآلام والأسقام، ولا خلاف بينهم فى أنه لم يُنعم عليهم نِعمة دِينيه . والحمد لله .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ إستدراك بعد كلام تقدّم فيه معنى النفى ؛ لأن معنى ما تقدّم ليس لهم فى تقلّبهم فى البلاد كبير[1] الانتفاع، لكن المتقون لهم الانتفاع الكبير[1] والخُلْد الدائم . فموضع « لكن » رفع بالابتداء . وقرأ يزيد بن القعقاع « لكنّ » بتشديد النون .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ نُزُلًا مثل ثوابا عند البصريين ، وعند الكسائى يكون مصدرا . الفراء : هو مفسر . وقرأ الحسن والنخعى « نُزْلًا » بتخفيف الزاى استثقالا لضمتين، وثقّله الباقون . والنُّزُل : ما يُهيأ للنّزيل، والنزيل الضيف . قال الشاعر :

نَزِيلُ القَوْمِ أعظمُهم حقوقا * وحَقُّ اللهِ فى حقِّ النزيلِ

والجمع الأنزال . وحظ نزيل: مجتمِع . والنزل[2] : أيضا الرَّيْع؛ يقال؛ طعام كثير النزْل والنزَل.

الحادية والعشرون — قلت : ولعل النزل — والله أعلم — ما جاء فى صحيح مسلم من حديث[3] ثَوْبَان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة الحَبْر الذى سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدّل الأرضُ غير الأرضِ والسمواتُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هم فى الظلمة دون الجسر " قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : " فقراء المهاجرين " قال اليهودى : فما تُحفَتُهم حين يدخلون الجنة ؟ قال " زيادة كبد النون " قال : فما غذاؤهم على إثرها ؟ فقال : " ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها " قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : " من عينٍ فيها تسمى سلسبيلا " وذكر الحديث . قال أهل

(١) فى ج و ا : كثير . (٢) النزل . بضم فسكون وبالتحريك .
(٣) من ج و هـ و ى و د . وفى ب و ا : من حديث .

اللغة : والتحفة مايتحف به الإنسان من الفواكه . والطُّرَف محاسنه وملاطفه، وهذا مطابق لما ذكرناه فى النزل ، والله أعلم . وزيادة الكَبِد : قطعة منــه كالأصــبع . قال الهروىّ : « نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ » أى ثوابا . وقيل رِزقا . ﴿وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ أى مما يتقلب به الكفار فى الدنيا . والله أعلم .

الثانية والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِٱللهِ﴾ الآية . قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن : نزلت فى النجاشىّ ، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال النبىّ صلى الله عليــه وسلم لأصحابه : "قوموا فصلوا على أخيكم النجاشى" ؛ فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلى على عِلْج من عُلُوج الحبشة ؛ فأنزل الله تعــالى « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ » . قال الضحاك : ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ القرآن . ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ التوراة والإنجيل . وفى التنزيل : « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ[(١)] » . وفى صحيح مسلم : "ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين ــ فذكر ــ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدرك النبىّ صلى الله عليــه وسلم فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران" وذكر الحديث . وقد تقدم فى « البقرة[(٢)] » الصلاة عليــه وما للعلماء فى الصــلاة على الميت الغائب ، فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد وابن جُرَيج وابن زيد : نزلت فى مؤمنِى أهل الكتاب ، وهذا عام والنجاشىّ واحد منهم . واسمه أَصْحَمَة ، وهو بالعربية عطية . و ﴿خَاشِعِينَ﴾ أذِلّة ، ونصب على الحال من المضمر الذى فى « يؤمن » . وقيل : من الضمير فى « إليهم » أو فى « إليكم » . وما فى الآية بيِّنٌ ، وقد تقدّم .

الثالثة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا﴾ الآية . ختم تعالى السورة بمــا تضمنته هذه الآية العاشرة من الوصاة التى جمعت الظهور فى الدنيــا على الأعداء والفوز بنعيم الآخرة ؛ فحضّ على الصبر على الطاعات وعن الشهوات ، والصــبر الحبس ، وقــد تقدّم فى « البقرة » بيــانه[(٣)] . وأمر بالمصابرة فقيل : معناه مصابرة الأعداء ؛ قاله زيد بن أسلم .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ (٢) راجع جـ ٢ ص ٨١ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٧٤

وقال الحسن : على الصلوات الخمس . وقيل : إدامة مخالفة النفس عن شهواتها فهى تدعو وهو يَنْزِع . وقال عطاء والقرظى : صابروا الوَعْد الذى وُعِدتم . أى لا تيأسوا وانتظروا الفرج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "انتظار الفرج بالصبر عبادة" . وآختار هذا القول أبو عمر رحمه الله . والأوّل قول الجمهور ؛ ومنه قول عنترة :

فلم أرَ حَيًّا صابروا مثل صبرِنا　*　ولا كافَحوا مثلَ الذين نُكَافِحُ

فقوله « صابروا مثل صبرنا » أى صابروا العدوّ فى الحرب ولم يبدُ منهم جُبْن ولا خَوَر . والمكافحة : المواجهة والمقابلة فى الحرب ؛ ولذلك اختلفوا فى معنى قوله ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ فقال جمهور الأمة : رابطوا أعداءكم بالخيل ، أى آرتبطوها كما يرتبطها أعداءكم ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ »(١) . وفى الموطأ عن مالك عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة ابن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوّف منهم ؛ فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مُنَزَّلِ شدّةٍ يجعل الله له بعدها فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يُسرين ، وإن الله تعالى يقول فى كتابه « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى آنتظار الصلاة بعد الصلاة ، ولم يكن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غَزْوٌ يرابط فيه ؛ رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه . وآحتج أبو سلمة بقوله عليه السلام : "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط" ثلاثا ؛ رواه مالك . قال آبن عطية : والقول الصحيح هو أن الرباط [هو](٢) الملازمة فى سبيل الله . أصلها من ربط الخيل ، ثم سُمِّى كل ملازم لثغر من ثُغور الإسلام(٣) مرابطا ، فارسا كان أو راجلا . واللفظ مأخوذ من الربط . وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم "فذلكم الرباط" إنما هو تشبيهٌ بالرباط فى سبيل الله . والرباط اللغوىّ هو الأوّل ؛ وهذا(٤) كقوله : "ليس الشديد بالصُّرَعة(٥)" وقوله "ليس المسكين بهذا الطواف" إلى غير ذلك .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦　(٢) من ب و جـ و هـ و ط .　(٣) فى ب : المسلمين .
(٤) فى ب : هكذا .　(٥) الصرعة بضم ففتح المبالغ فى الصراع الذى لا يغلب .

قلت : قـوله « والرباط اللغوى هو الأول » ليس بمسلّم ، فإن الخليل بن أحمـد أحد أئمة اللغـة وثقاتها قد قال : الرِّباط ملازمة الثغور ، ومواظبة الصـلاة أيضا ، فقد حصل أن آنتظار الصلاة رِباط لغوىّ حقيقة ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . وأكثر من هذا ما قاله الشـيبانى أنه يقال : ماءٌ مترابِطٌ أى دائم لا يَنْزَحُ(١) ؛ حكاه آبن فارس ، وهو يقتضى تعـدية الرباط لغةً إلى غير ما ذكرناه . فإن المرابطة عند العرب : العقد على الشىء حتى لا يَحُل ، فيعود إلى ما كان صبَرَ عنه ، فيحبس القلب على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة . ومن أعظمها وأهمها آرتباط الخيل فى سبيل الله كما نص عليه فى التنزيل فى قوله : « وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » على ما يأتى . وآرتباط النفس على الصلوات كما قاله النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ رواه أبو هريرة وجابر وعلىّ ، ولا عِطْرَ بعد عَرُوسٍ .

الرابعة والعشرون — المرابط فى سبيل الله عند الفقهاء هو الذى يَشْخَص إلى ثَغْر من الثُّغور ليرابط فيه مدةً ما ؛ قاله محمد بن المَوّاز [ورواه](٢) . وأما سُكّان الثّغور دائما بأهليهم الذين يعمرون و يكتسبون هنالك ، فهم و إن كانوا حُماة فليسوا بمرابطين . قاله آبن عطية . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد: وللرِّباط حالتـان : حالة يكون الثَّغر مأمونا مَنيعا يجوز سكناه بالأهل والولد . و إن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال ، ولا ينقل إليه الأهلَ والولدَ لئـلا يظهر العدوّ فيَسبِي و يسترِقّ . والله أعلم .

الخامسة والعشرون — جاء فى فضل الرِّباط أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارىّ عن سهل بن سَعد السّاعِدىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رِباطُ يومٍ فى سبيل الله خيرٌ عند الله مِن الدنيا وما فيها" . وفى صحيح مُسلم عن سَلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صـيام شهر وقيامه و إن مات جَرَى عليـه عملُه الذى كان يعمله وأُجْرِى عليه رزقه وأَمِن الفُتّانَ(٣)" . وروى أبو داود فى سُننه عن فَضَالة

(١) فى الأصول : لا يبرح . والتصويب من اللسان . (٢) كذا فى ز و ب و ج و د و هـ و ى و ط وابن عطية وفى أ و حـ و د اود . (٣) الفُتّان : الشيطان . و يروى بفتح الفاء وضمها . فمن رواه بالفتح فهو واحد ، لأنه يفتن الناس عن الدين . ومن رواه بالضم فهو جمع فاتن ؛ أى يعاون أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق ويفتنونهم .

ابن عبيد أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : " كلّ ميّت يُختم على عمله إلا المرابط فإنه يَنْمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتّان القبر " . وفي هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت ؛ كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا مات الإنسان (١) انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثة إلا من صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له " وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم ؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهابِ العلم وموتِ الولد . والرباط يُضاعف أجرُه إلى يوم القيامة ؛ لأنه لامعنى للنّماء إلا المضاعفة ، وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه ، بل هي فضلٌ دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة . وهذا لأن أعمال البِرّ كلّها لا يُتمكّن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرّز منه بحراسة بَيْضَة الدِّين وإقامة شعائر الإسلام . وهذا العمل الذي يجرى عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة ؛ خرّجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من مات مرابطا في سبيل الله أجْرى عليه أجرَ عمله الصالح الذي كان يعمل وأجْرى عليه رزقه وأُمِنَ من الفُتّان وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع " . وفي هذا الحديث قيدٌ ثان وهو الموت حالة الرّباط . والله أعلم .

ورُوى عن عثمان بن عفّان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رابط ليلةً في سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامها وقيامها " . ورُوى عن أُبَيّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَرباط يوم في سبيل الله من وراء عَورة المسلمين مُحتسباً من غير شهر رمضان أعظمُ أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباطُ يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين مُحتسباً من شهر رمضان أفضلُ عند الله وأعظم أجرا —

(١) هذه رواية مسلم كما في كتاب الوصية . وكذا في ز و ط ى و جـ و هـ . وفي رواية : " ابن آدم " والحديث رواه الترمذي وأبو داود والنسائي بلفظ : " إلا من ثلاث صدقة " الحديث ، والبخاري في الأدب المفرد .

أراه قال : — من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن ردّه الله إلى أهــله سالمـا لم تكتب عليه سيئة ألف ســنة وتكتب له الحسنات ويُجــرَى له أجرُ الرباط إلى يوم القيــامة (١) " .

ودلّ هذا الحديث على أن رِباط يوم فى شهر رمضان يحصل له من الثواب الدائم و إن لم يمت مرابطا . والله أعلم . وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " حَرْس ليلة فى سبيل الله أفضلُ من صيام رجل وقيامه فى أهله ألف سنةٍ السّنة ثلاثمــائة يوم [وستّون (٢) يوما] واليوم كألف سنة " .

قلت : وجاء فى آنتظار الصلاة بعد الصلاة أنه رِباط ؛ فقــد يحصل لِمُنْتَظِرِ الصلواتِ ذلك الفضل إن شاء الله تعــالى . وقد روى أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا سليمان بن أحمد قال حدّثنــا على بن عبد العزيز قال حدّثنــا حَجّاج بن المِنْهال ح (٣) وحدّثنــا أبو بكر بن مالك قال : حدّثنــا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثنى أبى قال حدّثنى الحسن بن موسى قال حدّثنــا حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِىّ عن أبى أيوب الأزدى عن نَوْف البِكَالِىّ عن عبد الله بن عمرو أن النبىّ صــلى الله عليه وســلم صلى ذات ليــلةٍ المغرب فصــلينا معه فعقب مــن عقب ورجع من رجع ، فجاء رســول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يثوب (٤) الناس لصلاة العشاء ، فجــاء وقد حضره الناس رافعا أصبعَه وقد عقد تِسعا وعشرين يُشير بالسبّابة إلى السماء فَحَسَر ثوبه عن ركبتيه وهو يقــول : " أبشروا مَعشرَ المسلمين هذا ربّــكم قد فتح بابا من أبواب السماء يُباهِى بكم الملائكةَ يقول يا ملائكتى آنظروا إلى عبــادى هؤلاء قضَوْا فريضــةً وهم ينتظرون أخرى " . ورواه حَمّاد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن مُطَرِّف بن عبد الله : أن نَوْفا

(١) رواية ابن ماجه . (٢) فى جـ .

(٣) جرت عادة المحدّثين أنه إذا كان للحديث إســنادان أو أكثر ، كتبوا عنــد الانتقال من إسناد إلى إسناد « ح » وهى حاء مهملة مفردة . والمختار أنهــا مأخوذة من التحوّل لتحوّله من إسناد إلى إسناد ، وأنه يقول القارئ إذا انتهى إليها : « ح » ويستمر فى قراءة مابعدها . وقيل : إنهــا من حال بين الشيئين إذا حجز؛ لكونها حالت بين الإسنادين ، وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ، وليست من الرواية . وقيــل : إنها رمز إلى قــوله : الحديث . وأن أهل المغرب كلهم يقولون إذا وصلوا إليها : الحديث . ثم هذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا وهى كثيرة فى صحيح مسلم قليلة فى صحيح البخارى . (راجع مقدّمة النووىّ على صحيح مسلم) . (٤) فى جـ : يتوجه .

وعبد الله بن عمرو اجتمعا فحدّث نَوْف عن التوراة وحدّث عبد الله بن عمرو بهذا الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَٱتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى لم تؤمروا بالجهاد من غير تقوى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لتكونوا على رجاء من الفلاح . وقيل : لعل بمعنى لِكى . والفلاح البقاء، وقد مضى هذا كله فى « البقرة » مستوفى(1)، والحمد لله .

نجز تفسير سورة آل عمران من (جامع أحكام القرآن والمبيّن لما تضمن من السنة وآى الفرقان) بحمد الله وعونه .

صححه

أبو إسحاق إبراهيم اطفيش

(1) راجع جـ ١ ص ١٦١، ١٨٢، ٢٢٧

تمّ الجزء الرابع من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس، وأوله : « سورة النساء »

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء الرابع (الطبعة الثانية)
من كتاب " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي بمطبعة دار الكتب المصرية
في شوّال سنة ١٣٧٦ (مايو سنة ١٩٥٧) م

محمد حمدي علي جنيدي